AL-NOUTI

النوتي

14.9.2017 (22)

رواية
NOVEL

حسن البحار

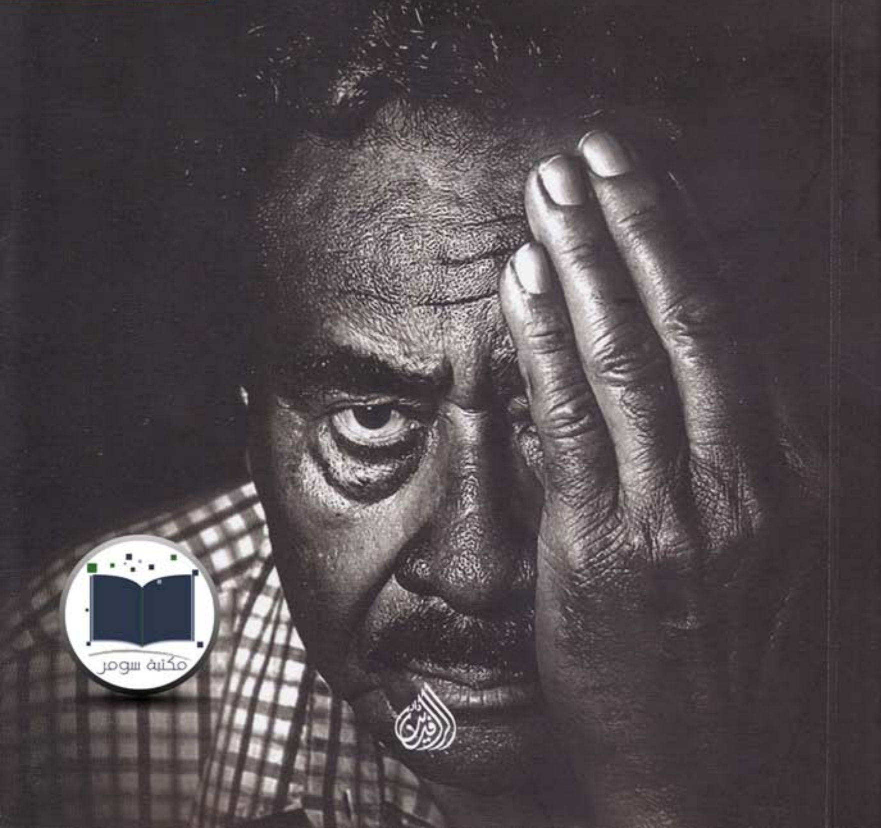

مكتبة سومر

النوتي رواية يمكن وضعها في سياق تداولي مفاده الانفتاح الدلالي، بالنظر إلى تركيبه العنوان المعجمية التي تحيل على وظيفة اختزالية، لا تزيدها ظاهرة الحذف والإيجاز إلّا أهمية تستميل المتلقي إلى التماهي في أحضان الخيال الروائي بفضاءاته البحرية الواسعة المفتوحة على عوالم الغرابة والمغامرة والإبداع. النوتي تحرك الأحداث بدينامية وفق مسارات السرد، وهي بذلك تستقطب انتباه المتلقي وتجعله ينسج أفق انتظار لا يقف عند حدود معينة، ولكنه يحتاج لقراءة النص لتحقيق نشوة التلقي وهو يتتبع مغامرات محبوكة مصدرها ذاكرة السارد ومسرحها مرافئ السرد. فمن هو النوتي؟ وأية علاقة تجمع بين الذاكرة كمؤشر ثقافي مفتوح الدلالة وبين المرافئ كمؤشر مكاني يحيل على عالم البحر مصدر الإلهام والشاعرية والإبداع؟

الناقدة. خديجة بشار السلالي/ المغرب

النوتي غوص في أعماق الذات للوقوف على كنهها وتجسيد لتجليات البحر وهو يُري من يزوره، أو يعيش فيه، أو يمد له يد الصداقة، تقلباته بين القبول والرفض، بين الانسجام والنفور، بين الرضا والغضب، وبحث بروح مغامرة عن صهر التجارب الذاتية في بوتقة الرواية التي أضحت اليوم جنساً حاوياً لمجموعة من الأنواع الروائية، بل تذهب هذه الروح المغامرة إلى أبعد من ذلك عندما تسيج مخلوقها السير ـ روائي بخيوط أدب الرحلة، لتغدو النوتي بثوبها الروائي مطرزاً بنمنمات التجارب السير ذاتية، وخيوط من حرير الرحلة.

د. خليل شكري/ جامعة الحمدانية/ أربيل/ العراق

تجربة القاص والروائي حسن البحار هي بالتأكيد واحدة من التجارب الأدبية القليلة في أدبنا العراقي والعربي التي تؤشر الامكانات الخصبة التي يزخر بها أدب الرحلات والتي تحتاج إلى الشجاعة والحس الإنساني العميق لاستكشافها والتعامل معها بأمانة وموضوعية ومحبة.

الناقد. فاضل ثامر/ بغداد/ العراق

النوتي

Telegram: Somrlibrary

النوتي

Al-Nouti

حسن البحار

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017

First Edition: Beirut - Lebanon, 2017

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain1
DAR ALRAFIDAIN@maassourati

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

Telegram: Somrlibrary

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 167 - 0

حسن البحار

النوتي

رواية

www.daralrafidain.com

Telegram: Somrlibrary

الآخر: راكب البحر الذي رافقته منذ ولادته حتى الآن يحاول تجاهلي!

الآخر أنا

دفعَ الباب ودخل غرفتي متأبطاً ذراعيه وقف أمامي يسألني: «ماذا تفعل؟». ماذا أفعل! فرغتُ من العمل متعباً دخلتُ بارتياح غامر غرفتي. ليلة لم تكن مختلفة عن غيرها. انشغلتُ بالكتابة. وفقاً لعاداتي القديمة أمسح على مكان الألم عند أسفل ظهري وتحت مرش الماء الساخن لم أتوقف إلّا مغمض العينين. «لماذا؟». أسرح قليلاً؟. «ماذا بعد؟». أفكر في الضحك. «ماذا فعلت؟». رفعت رأسي. وأنا أنظر إلى السقف ـ تنفس ـ قلتُ في نفسي وبدأتُ بالضحك. فوراً سحبتُ الهواء ومسحتُ على وجهي وفي النهاية شرابي الأحمر الشاخص أمامي هو من حرضني على الوقوف منتصباً وتناول وجبة خفيفة من الفاكهة. «وبعد؟». تحركتُ مثل شجرة تهزّها الرياح وهممتُ الخروج من الغرفة ولكن ترددتُ. «لماذا؟». مازالتْ يدي تمسح على مكان الألم عند أسفل ظهري فوجدتُ من المناسب أخذ مسكن أقوى، وفي التفكير في الراحة وقفتُ على صوت هدير البحر أمام الشباك أنتشي بضوء القمر والهواء البارد. «يحركُ الستائر؟». نعم. يموّج في الأجواء مندفعاً إلى جسدي يلمس علامات العبث المزمن بنوباتٍ مهتزة كنتُ أستفيق من حُلم مُر. مرتبكاً بوميض خفيف تحركتُ خطوة. خطوتين. خطوات أمرن جسدي لأستعيد الثقة في قدراتي. أنا أسير وأقفزُ. أقفز وأسير. مثل طير لا يطير ناشراً ذراعيَّ وعلى ساق واحدة وسط الغرفة وقفتُ ـ ماذا أفعل؟ سألتُ نفسي ولم يكن معي ما يثير البهجة؟ «هاهاهاها». أضحك! يا إلهي! تذكرتُ....

Telegram: Somrlibrary

«ماذا؟». منذ زمن ليس بقصير فارقتني الابتسامة وفي انفعال مفرط نظرتُ من حولي؟ أفكرُ في النهاية. الرحيل إلى ما لا يتوقعه الآخر «عن ماذا تتكلم؟». عنكَ. «لماذا؟». كنت أقفُ بين وقت وآخر أمام المرآة بدون مشاركة تذكر. إلّا إنني الآن أجد الحديث معك مسلياً ـ بعض الشيء مسلياً ـ إذ لم أكن مرتجفاً أما صورتي في المرآة على العكس تماماً ثابت النظر إلى حقيقة الموعد المرتقب. أمّا عن الحماس الذي كان يتحدثون عنه الآخرون ويعبرون عن سعادتهم به على مسامع مني. لقد رأيتُ الخوف في عيونهم الغارقة ولم أجد ذلك غريبا. كنت أعلم فيهم الكذب والحقيقة بعيدة كل البعد عن قناعاتهم في الخلاص من هذه الحياة. وقد جاء دوري. وها أنا قد وجدت اللقاء مسلياً مفعماً بالإثارة المؤلمة. ولما عرفتُ لم يكن معي إلّا أنا وأنت ـ نصفي الآخر ـ قررتُ ألا أرحل بطريقة المنعزل عن المعاناة كما يحصل مع الخائف من الموت خلف الشمس أو تحت الظلام. همجية الألم تحتل رأسي. القوة نفسها في اللون الجديد شبه العتيق القناعة لا تطاق. كأس رابع. لَعَنتُها؟ مرات ومرات ألعن الدُنيا ولا أهتم. وحيداً فوق عالمي الأزرق أقتل الوقت في حياة أخرى؟ أتركُني مثل الهواء ليناً ومرات كثيرة أتخيّلني خارج جسدي خفيفاً تحملني الأمواج إلى حيث تشاء. «بدأت تحلم؟». ربّما؟ ولكن مازالت يدي عند أسفل ظهري تمسح مكان الألم. وفق أسلوبي المنعزل أعود ولا أدري كيف أعود إلى أحضان الكتابة. كما الطيور إلى الشجر؟ الأمواج إلى الساحل؟ الأمطار إلى الأرض؟ المريض إلى الشفاء؟ الماس إلى اللمعان؟ الظِلّ إلى النهر؟ لا أدري. أستمع إلى ذلك الصمت وأعتقد سمعت: «تعيش في ذكرى أنثى وتنشغل في وصفها وتتحول إلى هشيم». أفكر في الزمن. «وما الجديد؟». قلبي يخفق بقوة. أرتعش وفي يدي الألم ويبدو لا وجود لحياة الراحة إلّا في وجود الألم. لا طاقة لي على الكتمان: «الآه». تخرج مستحيلة وأعرف الصوت الخافت توأم الناس

المميزين، الهمس صفة العاشقين والعشق نفسه ذكرى وحنين. نحتاج القوة كي نعشق. إن أمكن الذهاب إلى طريق اللذة نحتاج الصحة. نحتاج العودة إلى الآخر المسكون فينا. نحتاج أنْ نتنفس. نحتاج الأنثى؟ الألم بلا مشكاة هو التجلد وأحياناً كثيرة نحتاج الحافز للقفز، ولكن إلى أين يمكن لنا القفز؟ يزداد القلق. أريد العودة إلى الضحك. بصوتٍ عالٍ أحتاج الضحك. إلى شراب كأسي الأول؟ الخامس؟ الثاني؟ لا أدري فقط تنفست طويلاً وعشتُ أكثر اللحظات راحة. زوال الألم أقترب. رأيت الليل جميلاً. طبيعة هادئة. مضيئة. آمنة. الطيور تنام. والبحر يمتد ساكناً. وهذا القمر الضاحك وأنا أفكر أن أفعل ما يفعله للنجوم رأيتهُ ينظر إلى رأسي نظرة مندهشة وغبية؟ لا أريد أن أكرهه أو أتحدث عنه بسوء كما يتحدث الجميع عن حياته وأعتقد الجميع يغازله. سأجلس وأتناول من كأسي رشفة. «رشفة واحدة تكفي؟». ربّما خطرت في بالي الكتابة؟. مرة أخرى قطّبتُ وجهي وسألت: ـ لماذا؟ سمعتُ: «افعل ما يمليه عليكَ ضميرك». ضحكتُ. تلك الليلة شربتُ كثيراً وضحكتُ كثيراً! ولكن لماذا؟ منذ ساعات وأنا أكتب، والمناخ المحيط بنا ـ أنا وهو ـ مُهيِّئ لظهور هذه النوبات السريعة في التكرار متقبلة، وقد يكون من الصعوبة فهم تعقيداتي التي تعترض التحرر مني، إلّا إنني أدين له بالاعتراف هو الحل. نعم هو الحل. «مَن؟». شيء ما؟ ربّما مُسكن الألم؟ الشراب؟ القمر؟ الكتابة؟ قد يكون أنتَ أو أنا؟ «هيء. هيء». نعم ربمّا الضحك أو التفكير في الضحك هو الحل نفسه؟ ولكن من الغريب هناك من لا يحتمل التفكير، وهل يمكن له أن يسود جميع أفعالنا؟ «مَن؟» التفكير في الضحك وليس مستحيلاً في احتمال هذا السؤال أكثر من جواب. ما يثيرني هو الاختلاف في الجواب؟ لعلي مددتُ يدي إلى كأسي السابع؟ «أحقاً فعلت؟!». لا أدري، ثمة أمور غريبة تحدث الآن؟ أشعر بالألم وحماسة الخيال والحنين. «هل وجودي معك سبب

Telegram: Somrlibrary

نوباتك المعتادة؟». احتمال كبير نعم، وما يزيد اليقين التجربة. أعني بذاك التحرر من الجسد. الأرض. الذاكرة. الخيال. وأدرك تماماً الهدف من الجبال هو التميز. «تسلقتُ بعضها؟». نعم، وقد وقفت يوماً عند قممها ـ وحيداً مثل حيوان تائه ـ وقفت على أربعة وصحتُ بوجه السماء بكل ما عندي من القوة: «لماذا عندما يكون الإبحار طويلاً يمكن للبحّار أن يفكر بالوحدة راحة وأنا كلما أتوغل في البعد بعيداً أراني إليها أقرب؟». «لماذا أبذل جهداً إضافيًا أؤمن فيه تعليمي؟». «هذا يعني أن الحياة آذتك كثيراًً؟». لا أدري...

قُرِعَ باب غرفتي؟

تجاهلتُ الصوت.

رفعتُ رأسي وكأني أسمع موسيقى أغمضتُ عينيَّ. حتى بعد أو قبل منتصف الليل شعرتُ بالوهن، رميتُ كل شيء وأمرتُ الخيال التوقف؛ لم يكن باستطاعتي الاستمرار في البقاء وحيداً. يقودني البحر إلى تحقيق البراءة من تُهم الأرض الموجهة لي. تُهمٌ أعجب منها مني، وأغرب من نوباتي المتكررة. خاصة بعد ما بدأتُ أسمع صوتك وأراك وسط الناس تحدثني! وحين أشير إليك بلا تردد: «توقف». أشعر بلوثة في عقلي. هي البداية كانت عند عدد من الأفكار في غرفتي العلوية مع الضوء والخيال والطاولة والورقة والقلم. «الكتابة؟». نعم. وقد فكرتُ مؤخراً مغادرتها. «ماذا!!». أطلاقا لم تكن فكرة سهلة. كانت آمالي معلقة بما أكتب بل وصل فيها الجمال أقوى مما يحتمل. يدي تحمل وجهي وقلبي ينام في الأخرى. تحت وطأة الصدمة فكرتُ في الحياة إلى أين تأخذني؟ إلى الصمت؟ الوحدة؟ العزلة؟ من المؤكد رغبتي في التحرر منك ـ نصفي الآخر ـ بدأتْ تتسع. حقيقة تلك غايتي. لحظة كنت أتوقعها ستطول عادت الحياة فيها تكشف لي عن مفاتنها وبلا سابق إنذار دخلتُ في دائرة الحبِّ. «مع من؟». معك نصفي

الآخر. تلك التي كانت ذاتي قبل أن يتحجر الوقت ويسود الخيال الصمت. وفي مكان ما عرفت قد هاجرتني الكتابة مع الأيّام المليئة بالراحة والسرور والألم فقررتُ تركها، وقبل فسخ العلاقة معها عرفتني متناغماً مع الغرابة مرة والعقلانية مرة أخرى. «ماذا؟». نعم هي المشاعر نفسها ولا تخلو من المخاطر، ثمة شيء آخر. كثيراً ما كنت أفكر في تعلم المزيد من المهارات في التنفس؟ من الطبيعي أن يختنق الإنسان من الغبار. لقد مضى زمن طويل ونحن نعيش وسط الغبار. قُدرَ لنا العيش في لغز. ننتمي ولا ننتمي. هناك معاناة حقيقة. أيام الخوف والقهر في الذهن لا ترحل. مثلها مثل الحبّ والراحة والسفر. الفراغ الداخلي. لعنة جديدة. اليأس يلتحف ملامحنا الواضحة، يحلق بنا إلى المجهول. يتوجب عليّ أن أنال قسطاً من الراحة. «لابد وأن تظهر هذه المشاعر على الورق». فكرتُ في نفسي ونصفي الآخر مؤيداً: «من غير الصحيح ترك المأساة تَمرُّ دون تدوينها». قال وسريعاً أضاف مبتسماً: «من الواجب تسجيل لحظات السعادة العميقة والابتهاج الخاطف». كان عليَّ وصف لون العينين جراء قلة النوم وبعد كل نوبة بكاء كان عليّ التصرف. «عن ماذا تتكلم؟». كيف لي ذكر أسباب الاختلاف في مفهوم الحياة؟ الحب المفاجئ. الفراق المُر. اللقاء الحلو. الإبحار. لغة الوصول إلى المرافئ. تَجلّد. لحظة ضعف. ذاكرة طفولة. رعشة واحدة من السعادة المفاجئة. ترّهبني الحياة. قرار يحمل في طياته الخطر. ثمة شعور معاكس يأمرني التراجع عن عدم الكتابة. «تحتاجها؟». نعم أحتاجها ـ ولكن لماذا؟ ـ غالباً ما أجد ذلك غريباً، وأقصد ملاذي في استهلاك الوقت وبذل الجهد وحرق المال من أجل تصدير ما أكتبه إلى الناس. عرفتُ الاهتمام في مهنتي كبحّار على ظهر البواخر يمكنني العيش منها وكفى، ولكن عواطفي مشحونة. جمّة من الأحاسيس الغريبة في إنسان لمس في الحياة نفسها تنمو حياة أخرى. المال والسفر حقيقتان مهمتان في هذا الوجود. بعد تجاوزي الأربعين هل عرفتُ من أنا؟ مضى الكثير من العمر في الخدمة

البحرية. «ثمَّ ماذا؟». وحيداً فوق الموج أعاني ألم المفاصل وقسوة الوحدة والمخاطر من العزلة، وعن الحديث مع نفسي لا أنسى الصعوبات ولم أجدُ القدر اللازم من الوقت على فهم الحقيقة. تَوَسعَ التحدي يستحضر جميع التفاصيل والأسباب. «اهدأ». هدأتُ، ولكن دون جدوى. دون جدوى يكاد يكون إحساس التهدئة ضرباً من المحال. هيمن السلوك المغاير على الهدوء، بدأت الساعات تدق أجراس العودة. عشرات المرات قاومت رغبات الكتابة، وفي كل مرة فشلت. كتبت: «الدردبيس» قصصي الأولى في مكان عميق مخيف لا يقل صعوبة عن مكان كتبت فيه «مرام»: روايتي الأولى، ولم أهدأ بعدها حتى كتبت «بحر أزرق.. قمر أبيض» من أدب الرحلات وقصص «الريح تُترك فوق الطاولة». كل هذا والكثير من الكتب ماتزال تثير شهيتي لقراءتها، ولم أجدني قد اكتفيت. العمر لن يأتي بأكثر مما مضى. حسمتُ الأمر واقتنعت لا مفر من العودة إلى الوراء، ومثل العائد إلى نبعه عدتُ وأنا العارف أن الزمن حقيقة يستحيل العودة إلى الطفولة أو الشباب إلّا عبر رحلة في الذاكرة. لحظة صفاء: «هل العودة إلى الذات متاحة؟». من حسن حظنا يُمكِننا العمر الحالم على سبيل الإعارة المرور بالذاكرة. رغم كل شيء تظل الحياة محفوفة بالمخاطر، ومن جهة أخرى هناك الصعوبات، وغايتنا الأمن والعيش في أمان. كتبتُ الشعر. بشعور غريب رأيتُ البحر والشعر الكأس المملوء نصفه أنا والباحث عني نصفه الآخر، ولم يصل الأمر إلى تناغم الرؤية والمشاعر حسب. لقد عشتُ أجواء الاثنين وفي رأسي التعارض يُشكل الأفكار. فجأة استحال الاختيار وركنتُ إلى زاوية العزلة حتى نسيتُ الوقت يمرّ. تجاهلني التسامح والخيال. وقتاً كنت فيه يائساً من العودة إلى أناي الأولى الجامعة بين الإثارة والدهشة. رجعت إلى الكتابة. «كيف؟». ذات صباح في الباخرة تراتشي فوق بحر الخليج المالح تحرك شيء لا يريد الضعف ولا الانكسار يفكر في السلطة وعاطفته تتقد. حازماً خجولاً، جمعَ الهشاشة والقوة معاً، وعلى سبيل التغيير كنت ميالاً

Telegram: Somrlibrary

لذاتي، جربتُ الآخر فيها واستعنتُ بمكنونها واستمعتُ إلى قولها وشاركت أفكارها. النتيجة هذا اللغز في استغلال الفرصة: «التوغل عميقاً في كتابة النوتي». «النوتي!». نعم النوتي وكنت مقتنعاً ستتفاجأ كما تفاجأت أنتَ الآن. «هاهاهاها». لازمني العنوان ودون أي مبررات كان يثيرني جداً. ولا أنكر كان جزءًا من سبب ظهوره أنتَ، وأقصد هنا نصفنا الموجود فينا، ولكن الفرق هو أن بعضنا يستطيع اظهاره متى شاء، وأنا لا. ربّما هو مؤشر على عدم الفهم أو العكس؟ هل بالإمكان الفصل بينهما؟ الحقيقة أبعد من ذلك بكثير. قد يضطر المرء في الحياة وغيرها إلى تجاهل الحاضر في استحضار الماضي وتطويره خيالاً ليبعد عن الواقع مسافة وفقاً لما يراه من الداخل على أنه الأمل في عودة الآخر ـ أنا ـ وهذا ما حصل معي بالضبط.

Telegram: Somrlibrary

الحياة وغيرها

الليل.. النهار

منذ زمن بعيد جئت إلى الدنيا وبكيت كما يبكي حديثي الولادة ولكن في السادسة سمعتُ وشوشةً رافقتني في المنام. «أصوات تعلو، لا تهدأ؟». نعم. والغريب يستحيل تجاهلها، ولأنها لا تتيح لي التواصل مع الآخرين شعرتُ بعدم الارتياح. سقطتُ مريضاً ولم ألاحظ الفرق. ظلتْ فكرة وجودها بالنسبة لي أمراً مبهماً وغريبا. تعبتُ بعض الشيء من القلق وهزلتُ أكثر وفقدتُ كل الاهتمام بمتع الحياة وغيرها. كلماتُ الحبّ فقدتْ جاذبيتها. في فمي العطش. ورأسي الباحث عن مصدر هذه الأصوات صار عجيبا؛ ذات صباح ومن غير سابق إنذار رأيتُ صورتي في المرآة مختلفة بعض الشيء عني؟ ضبابية تبدو أبعد من الطبيعي وأصغر حجماً؟ ولكن لم ترحل الوشوشة عن رأسي بعد؟ كانت أكثر وضوحاً سمعتها على شكل صوت خافت: «لا تخاف. أنا أنت». إلى الآن هذا الصوت ملازماً لحياتي الشخصية. عرفتهُ معرفة متجددة يختلط فيها القبول والرفض. منذ زمن بعيد أفكاري الغريبة اتجاه ما يميز الإنسان عن باقي المخلوقات ينظر إلى الحبّ والموت بارتياب، وإذا اظهرتُ له أيُّ علامة استنكار يجردني من التواصل مع الناس بطريقة تكاد تكون غريبة لكن معتادة. يغدو أكثر خشونة ومنطقية. والحق يقال لم أكن أفهم أسباب رفضه. في المنزل كما في الشارع والمدرسة وفي أماكن العمل وبعد سنين في المنام. ذاكرة

Telegram: Somrlibrary

يتناسل منها النسيان. لم أقصد من ذلك أن أكون هو أو العكس. شعرت بتجاهله بغير قليل من الارتياح. يغير ملامحه بطريقة غريبة غير محببة مفاجئة. بالكاد يظهر من الباب والجدران، وأخرى يأتي من المرآة! كنت أعطي لصوته الذي يتكرر في رأسي حجماً أكبر من حجمه. أقنع نفسي بالتفكير بعيداً. حيث لا توجد من الغرابة في حياتي ما يدعو للقلق، ولكن إن لم يكن للإنسان الميل إلى الصدق في التعبير ولو بقدر بسيط لا أعتقد أبداً ستدوم فيه مشاعر الخلاص من الآثام. ها أنا ذا أعترف بما كان يُسمعني خفية من الحلول البراقة التي دفعتني تارة إلى الاختفاء مثل طائر حر في أتون المجهول محلقاً وأخرى متقوقعاً في ذاتي نفسها التي تضج بالمتغيرات. جسدي المشطور إلى نصفين: نصف أملكه والآخر لا؛ لأنه في رأسي يظهر ويختفي متى شاء. صدقوني اكتسبتُ من تجاربه الرهيبة التي كان يرويها لي ليلاً مزيداً من الخبرة في التعامل مع الموجودات. لا فرق بين داخل وخارج الحياة. امتلكتُ من القوة به وبعض مكاسب وأخرى ماتزال. شخص مدهش حقاً، لكن لا أتفق معه. وكأنه من عالم آخر فجاً لا يكترث أبداً إلى احترام النفس ولا الكياسة؛ يتكلم بصوت مرتفع غالباً، وأوقات قليلة يهمس لي همسا. أراه عارياً تماماً، وأخرى يلبس أفخر الملابس وينتعل أجمل «الجزم» يتحلى أثمن الجواهر. يحيرني ارتداؤه ملابس الشتاء صيفاً والعكس. أحسبه أطول مني وأحياناً أقصر. يظهر مثل الأشباح وأخرى ينتحل هيأتي هذه التي أراها أمامي في المرآة. ليس هذا فقط. لا يحترم خصوصيتي، ومن غير مبرر يقاطعني أثناء الحديث. يتحرك بطريقة قلقة. يعذب نفسه ويعذبني بين الناس يفعل بي ما يشاء. حيوياً متأهباً طول اليوم يستفزني بكلمات يعرفني لا أحب سماعها، يكرر ذكريات تعصر قلبي عودتها. يسقط الدمع تحت قدمي.

«هيء.. هيء». أعود إلى البكاء بعد حصة من الضحك. أفكر: «ماذا

Telegram: Somrlibrary

ينفعني البكاء؟». خلسة يأسرني بعبارات قرأتها يوماً في كتب الفلسفة أو يقرأ نصاً كتبتهُ يوماً وأنا في أرق لحظات الهدوء راحة يعلمني دروساً من كتب الحياة، لا ينتهي أبداً من تعليمي، ومهما أثبتُ له نباهتي لا يستقين من رجاحة تعليمي. كرهتُ تقلباته المزاجية. مللتُ ظهوره المفاجئ. حاولتُ نسيانه وتجاهل وجوده، ولكن لا يهتم. لا يهتم لتوسلاتي لا يتركني أبداً لا يريدني أن أتحرر. أعاني سطوته ـ حتى تنتهي أو لا تنتهي ـ سوف تأتيك الوحدة وتلك الأيام التي مرتْ متشابه لن تكون أرحم من الماضي. متشابهة في كل الانفعالات والمشاعر؛ إنها مرايا الليل والنهار. سرعان ما عاد يهذي: «أنا أُخطئ كما الآخرين وأُصيب». وفي لحظة سعادة أخذَ نفساً طويلاً لكن عميقاً وكأنه الأخير دفعني للتفكير في العيش الذي ضاع في دروبه الكثيرة. أعلم إنما الخرافات أمستْ غبارا في مهبِّ الريح؛ تلاشت حتى فقدت ذراتها. أتفحص تفكيري في الموت. يبدو لي غريباً! منذ الصغر تراودني فكرة الرحيل والتي باتت وشيكة، تعودتُ على التحرك بين فجرين: «فجر مائي، وآخر أرضي». وأن النسيان المتكرر ظلال وخداع. آنذاك احتجتهُ فحضر بطريقة ودودة. كان يعاملني معاملة تناسب حالتي. تماماً كان القوي لضعفي. في هذا الوجود الصارم يتعامل مع أشدّ اللحظات مرارة في راحة عجيبة وقفتُ مضطرباً والقلق يرهقني من شيء ما. يأتي في صورة الهامس في أذني: «تحرر». كنتُ أتمثلهُ الحل الأمثل، ولسبب لا أذكرهُ الآنِ بالتحديد سمعته أول مرة يحدثني بنبرة صوتي نفسها عن مكاسب العيش شريطة أن يكون الإنسان وحيداً. تصورتني غريباً بعض الشيء منعزلاً عن التواصل مع الآخرين، ولكن خطوة بعد خطوة كان يقربني عن كل ما هو طبيعي ومتاح. من الداخل ملتُ إليه وعرفت بعض أفكاره وتعودتُ على نجاحاتها. تخلّيتُ عن القلق من وجوده، وعرفتُ لا يمكنني الابتعاد عنه. وبعد أن صار من الطبيعي أن يتشكل أمامي على هيئتي هذه وبنبرة أصوات مختلفة شعرتُ قد هرمتْ آراؤه وأصبح غير جدير بالثقة وعليه أن يتركني إلى الأبد.

ـ ما الذي يرضيك؟

كعادته من خلال صوته الكاسر في رأسي ظهر ليسألني سؤاله المعتاد.

فأجِيب:

ـ ارحل عني.

ـ لماذا؟

ـ لقد أهنتني

ـ أنا!

ـ نعم أنت، ولا أكرهك.

ـ ربّما كنتُ مخطئاً في الحكم على بعض أفعالك، ولكن تذكر أنا رفيق الحلو والمُر.

ـ أكرهك

ـ الآن تكرهني!

ـ اتصور سمعتها مني من قبل.

ـ ظننتك تمزح؟

ـ من متى أمزح معك؟

ـ أنا الآخر الذي يحركك!

ـ لا أريدك.

ـ وهل سألتك إن كنت تريدني أو لا؟

ـ ارحل عني.

ـ تموت.

ـ تراني أحيا حياة سليمة؟!

ـ اختيارك.

ـ لا.

Telegram: Somrlibrary

فتحتُ الباب وخرجتُ من الغرفة راكضاً أصعدُ درجات السُلم الحديدي إلى سطح الباخرة. قدماي تسوقني دون أمري ويداي تتشابك مع أصابعي المتعبة فوق رأسي. كان للريح وهي تشدُّ شَعري طغيان في قسوتها داخل جمجمتي. فجأة تجمعتْ ملامحي وتشكلتْ هيأتي هذه التي أراها أمامي. يا للغرابة! يشبهني في جسارته! إلّا أنه يشل تفكيري في نبرة الصوت هاته التي أعياني بها! يدهشني في قدراته الغريبة على الظهور والاختباء فجأة! أرغب في قتله؟ فكرت كثيراً: «إنه يسيطر عليّ تماماً.. سيقتلني». هو ذا الإحساس نفسه ينتابني كلما يظهر. ها هو ذا الآن يجلس أمامي يستحضرني مثل الحلم الخالص البكر الذي مات. من دون ابتسامة تذكر كان صوته الغريب يلازمني فيشعرني بالتعب. مازال ضجيجه في رأسي يتحرك أو بالأحرى أصوات تثقل خطواتي عن قصد، يدفعني ببرودة أعصاب إلى الغضب. يُقيّدني الجُهد إلى الصمت، ولكن هذا الصمت يشعرني بوجوده. يدور في رأسي ومن حولي. يحدث ضجيجاً متكررا يعلو ويتفاقم. صوت يتناسل في رأسي يذكرني بضعفي المرير، يجرني من ناصيتي إلى حيث يريد ولا قدرة لي على الرفض.

ـ ها أنا ذا

قالها وبدأ يتشكل أمامي بسرعة مرعبة فمه الذي يشبه فمي صار في وجهي يحاول السير بذاكرتي إلى..؟. لا أدري إلى أين؟... سألته:

ـ ماذا تريد؟

ـ اسحب الكرسي وعد إلى الغرفة.

هززتُ رأسي على مضض كما يفعل المستنكر، وفعلت ما أمرني به. صفقَ الباب خلفه بقوة وقد تغيرتْ ملامحه الضاحكة إلى سيول غاضبة وجلس قريباً من الشباك واستدار!.. العطش يهدم حنجرتي المبحوحة. كان الجو شديد الحرارة، إلّا أنه يلبس ملابسي الشتوية: معطفي الأسود

Telegram: Somrlibrary

و»جزمتي» الإيطالية من جلد فاخر لونها البني داكن. تكوّر على الكرسي وثبّتَ عينيه في وجهي وأطلق العنان لصوته: «هاهاهاااا». وكأنه أمام مشهد كوميدي ضحك وهو شير بسباته إلى وجهي قال.

ـ أن تحترمني خير لك..

ـ عن ماذا تتكلم؟

ـ تسمعني بصمت طائعاً ولا تقاطعني.

ـ مللتُ الإصغاء.

ـ تريد الحرية؟

ـ نعم

نهض من الكرسي وتوارى خلف الستائر وبدأ يحدثني عن الحياة وقتاً ثمَّ أختفى؟ ما كان يريده؟ وما الذي سيكشفه عن المستقبل؟ لا أدري؟ وإن عرفت فما الذي سيتغير؟. ولكني سمعتُ: «هيّا.. هيّا». ومن ممرات الباخرة أصوات أقدام عجلى قريبة وفحيح هواء وإيقاعات صوت يعلو جميع الأصوات: «اهرب.. اهرب»..

Telegram: Somrlibrary

الفصل الأول

ذاكرة بيضاء هشّةً

Telegram: Somrlibrary

1

لكل حياة مؤثراتها الخاصة في الاهتمام والتعامل مع الموجودات ولا أحد يدرك أسباب هذه المؤثرات بقدر ما تكشفه تطلعاتنا إلى المستقبل وأسئلتنا التي تحتاج إلى أكثر من جواب. الحياة تشبه الإنسان، والإنسان نفسه يقال عنه يحب النسيان، ولكن ما نراه في طفولتنا توغل في الشباب حتى الكهولة. لا واقعاً ولا وهماً كنت كلما سمعتُ بجريان الأنهار. فزعتُ وتواريتُ خلف شباك المكان؛ أُشتتُ لحظات الربيع النادرة ماسكاً بثلج الخريف مثل حلم بين جمر أحترق. تحت كف القدر ذكريات تَمُرّ وأخرى تنتظر. لا أعتقد الخلاص ممكن بالتجاهل أو النسيان. مادامت الحقيقة متغيرة وليست أزلية تبقى القناعات تتلبس علينا مثل الصراعات التي تزخر بها كتب التاريخ القديمة.

ـ اسمعْ يا صديقي.

همسَ نصفي الثاني في أذني مرة ثانية فجأة ثمَّ قال:

ـ هناك إنسان يرافقك ولا تشعر به، وآخر معك حتى في فراقه.

ـ ولكن لا أحسُ بأي تشابه معك..

اتسعتْ عينيه من حدة جوابي ودخل في غرفته المعتادة، وجلس كما يجلس التلميذ في حضرة الدرس وانتهى يتطلع إلى كفّيه يطلق صوتاً يشبه الصفير! كنت متأكداً إنني أستطيع أن أعطي أكثر من دليل عن الآمال المهدورة وتأثير الآلام في شخص يصوغ من الليل جواداً يخترق النهار، ولكنه

Telegram: Somrlibrary

أختفي! كالعادة عدتُ إلى الوحدة أرسم عزلتي على شكل طلاسم طاف بي سرب الذكريات. بدأتُ أرى إشارات تعيد من فارقونا بلباسهم الأبيض فوق فروة الرأس مروا سريعاً منهم أبي ومعلمي وبعض مخلوقات تشبه الأقدار تكسّر لنا الخبز وتُعقّد الطرقات وأحياناً كثيرة تحرف المسارات، ما عرفته مبكراً صاحب الصفارة الليلية؟ مررتُ به ذات وقتٍ في طريقي إلى أرض المنعزلين؛ ساعاته ساكنة. لا تمت بصلة إلى رسائل الخوف التي يبثها إعلام فوضوي ينشر المئات من الأكاذيب اليومية. أرض هادئة. مزدحمة بالناس ترى في وجوههم اللطف والوداعة، تتعاطف أرواحهم مع الزائر، في رقة واحترام يُكلم بعضهم بعضا. ليس كتلك الأيّام التي هجرتها لأسباب لا تخفى على من عاش تحت نظام يمتهن القتل ولا يفرق بين الإنسان والحيوان إلّا بالانتساب للحزب الأوحد يمارس سَدنته الاستعلاء على الناس وإذلالهم عن قصد كان يهدر كرامتهم. لا أريد أن أطيل في استدعاء الذاكرة، لا أريد الغوص في الألم. لقد نقش الفراق بإزميل الغربة الحنين في قلبي حتى انتهيت مغمض العينين أتخيل العودة...

وصلتُ مدينتي ـ أرض المنعزلين ـ مساءً. في ساعة كان قمرها يحاول أن يضيء مفارق الطرق. قادماً من وراء البحار محملاً بالصبابة والعشق والاشتياق لرائحة أيامي الأولى ولقد أثبتُّ نجاحاتي في الصبر على الإبحار، ولي القدرة وأنا بهذا العمر على ركوب الموج. مرة أخرى سرتُ على الأرض لغاية ما طويلاً أمدُّ ببصري ألمح المتغيرات على واجهات المحال والبيوت، غير آسف على عودتي، ينتابني إحساس الراحة كلما لمستُ أن ما خططتُ له قد بدأ الآن، ولكن الإحساس في عمق الذات قضية صعبة؛ شعور يختلف من شخص إلى آخر. أنا أقصد الحديث عن الأمان والحرية. صوت شديد القوة يتجدد في رأسي فجأة: «هذا التفكير وهم». في الطريق أشتاق اللقاء إلى الأهل والأصحاب. كنتُ قد كتبت منذ سنين ذلك أيّام الحرب الأولى حين وصف لي نصفي الحرب ودمار كل

شيء. كل شيء وثـــقَ حتى أعداد الأطفال المذبوحة. وبعدها لم أره قط. كنت أتخيل إنما الأحداث التي سمعتُ عنها ستغير خارطة أحزاننا وستغير الأشياء بعض ملامحها خصوصاً تلك الآمال المرتقبة. هل أخطأت في شيء ما؟ في توقعاتي؟ ربّما لا.. ولا أبالغ لو قلت إنها تبتعد عنا أكثر وأكثر. «أنت تحلم». «.....». فاجأتني لحظة وصولي الشارع الإسفلتي.. تلك البنايات الجديدة. أعدتُ النظر بتركيز أشد إلى المشهد. ذاكرة لذيذة كانت فيها الشمس تشبه الوشاح الأصفر. ثقوب الحائط الطين منبع للريح الصاعدة إلى الأعلى، تمسح على جباهنا مثل الندى تُبلل غبار أحلامنا. طفولة تيتمت ولا تجد سبباً لتفسير تصرفها. بطريقة غير اعتيادية تشعر أنك تمرُّ من أمام براعم كان يمكن لها أن تنمو لتكبر تحت شجر الحياة تعطي ثمارها يوماً كان يبدو قريباً، لكنك ترى الحزن منقوشاً على أديمها ـ رغم تكرار الصياح في اللعب المصحوب بالضحكات ـ كان واضحاً.

ـ هاهاهاها

ـ أسكِتْ

ـ من المهدِ فقدتَ الطفولة.

تبادل الأدوار. الشوارع ترابية، كومة من الأوراق تزحف هنا وتتطاير هناك تُلامس ظلال أجساد ناحلة ترنو الخلاص. قرب الحائط الطويل كان الممر ترابيا، وعلى ضفتيه بعض بيوتات آيلة للسقوط. أعلى الحائط مصباح أصفر يومض وحيدا، في نهاية جدار البيت الكبير كان الطراز القديم للبناء عاليا. لم يصادفني أحد!

ـ أنا؟

ـ اسكتْ أنت..

ـ كنتَ خائفاً.

ـ من ماذا؟

Telegram: Somrlibrary

ـ الصوت الذي يتكرر في رأسك؟

ـ لا أعتقد.. إلاّ أن الاعتياد على الآخر الكامن فينا يشبه نعمة النسيان، ولكن ما الداعي للاختفاء؟

ـ الطريق ليست مستقيمة والظلام طويل وغير قادر على رؤية الأبعد.

ـ لا يهم.

ـ أنت تحتاجني.

ـ لا.

كنت كمن ينتظر النهار. فوق حشد الموتى سمعتُ رشق إطلاقات نارية وصياح رجال وعويل نساء وبكاء أطفال. لا قدرة لي على النطق أو الغناء. الساعة تجاوزتْ الثامنة وما زالت قدماي تتحركان. تحدث ضجة. أفكر في صمت: «كان ينبغي أخبار عائلتي عن يوم وصولي». بقدر ما كنتُ ألوم نفسي كنت أحس بخطورة البقاء.

ـ هاهاها.. أنت خائف؟

ـ نعم.،، أينك؟

ـ توسلني.

ـ لا

بدتْ الأشياء تُـــنشِقُ أول ضياء للقمر. المعالم تختفي وشواهد البيوت تودع بعضها البعض.. كل شيء ماض للرقاد. تحول الوجود إلى وجه أصم. شعرتُ بالقلق؛ الظلام يمتدّ شاملاً المدينة بأكملها، عيناي تخضع للفحص الدقيق ورأسي في دوران مستمر. كنت أثير فتور حواسي التي تبلدت. أذناي، فمي، أنفي، فروة رأسي وأصابع يدي. كلهم رجفوا. لم يترك لمعان النور القادم نحوي فرصة كي أتحرك ومثل أي إنسان أعتاد المفاجئات انتظرت طويلاً. الحقيبة بجانبي قفزتْ ورائي وأمسكتْ بقدمي في قوة

Telegram: Somrlibrary

كادتْ تسقطني أرضاً، بقوة أكبر شق الضوء الظلام على شكل ومضات تواظب فيه يد على الاستمرار في إنارة المكان. رفضتْ عيناي التركيز. مرة أخرى تحرك الومض دون تحديد المدخل، تابع الضوء تقدمه، وفي نهاية الأمر اهتزَّ عطف الظلام وانكشف الاقتراب مصباح بيدِ إنسان. كاد أن ينطفئ لكن توقد فجأة. كان يحدق إليَّ بغرابة وفمه المفتوح يسأل عن سبب تواجدي هنا؟ مصادفة غير متوقعة! وجدته في انتظاري. دفعني من كتفي بعد عناق حار طال لوقت شعرت فيه يريد الانصهار بي. تحسستُ وجهه؟ رأيتُ ملامحه؟ إنه الحارس الليلي للمنطقة! لازال هذا الإحساس يرافقني عنه: لبيب القوي صاحب الصفارة الليلة يحرس الديار، وكلما حاولتُ إقناعه بعدم خوفي منه كان يرد: «لا تهتم». يبدو لتستقيم الطريق لابد من تغير الأفكار. نعم كنت أكذب بخصوص خوفي الأول من ظهوره، ولكن تغير الكلام صار من ضرورات متابعة المسير. تحرك لبيب لي مبتسماً وأول ما سألني عن البحر. أعرف جيداً إنّما البحر هذا الخرافي الذي كتبوا عنه الكثير. ملهم الشعراء، وفضاء الغناء والخوف واللقاء والرحيل والانتظار. وصفوه بالوهج والاشتعال ومهرجان النجوم وتحية العيون والأجساد العارية على الرمال البراقة غافية، والسماء والخطوات والشغف والضحايا والنوارس الهائمة والحالمة.

قالوا عنه الآهات فوق رعشات الموج والجميلات، والضياء والظل، وما تبقى من الابتسامات مترعة تحت الشمس ترسمها أنامل أرض أطرافها البيضاء ناعمة. حياة تشبه الخيال. خيال يأتي من وراء اللقاء والفراق. ولا يمكن البوح بهذه الأسرار: العناق، العطش، والغزل القديم واحتمالات كثيرة يشي بها الحبّ والليل والسهر والسكون والاحلام والحقائب الصغيرة والكبيرة وحمرة الفجر.

ـ ترتق عمراً منسياً في ذاكرة إبحارك..

Telegram: Somrlibrary

ـ اسكتْ أنت.

نسوا ما زلتُ في البحر سيد الانتظار أصوغ العجائب حياً في مكان ما راغباً للذكريات البرجوازية وديكورات أساطير العشق بصوت ملؤه الصدق أكتبه: «هو معلمي». ولكن ما الجدوى من هذا كله؟ وصاحبنا الذي يرافقني يتلبس بي يريد معرفة ما يرضيه فقلت صادقاً ويدي المتعرقة أشدُّ بها على حقيبتي:

ـ البحر لا يخلو من المخاطر.

ـ لكنه جميل.

ـ مُتعب جداً والعمر فيه ينهار.

Telegram: Somrlibrary

2

استغربت من قول لبيب فجأة: «والمرافئ، والنساء، والليالي الناعمة عند الشواطئ الحمراء؟». كيف له أن يعرف هناك مُتعاً مخفية؟! هو لم يسافر قط! من الذي أفشى له بكل هذه الأسرار؟ يُحيرني هذا الرجل منذ كنت صبياً. حارس ليلي مهنته تجاوزتْ كل الاحتمالات. تجده مساعداً للجميع يقدم الخدمات بدون مقابل يشمل بكرمه كل من يحتاج. تراه يحمل كيساً على كتفه رواحاً ومجيئاً إلى بيوت غادرها الرجال لأسباب كثيرة إلى غير رجعة. أكثر ما يدهشني أنه مازال لا يحب ظهور الشيب، نظيف الهيئة، حليق الشارب واللحية. وأكثر من ذلك شعره المصبوغ بسواد داكن يفضح تمسكه بالحياة. قوي البدن. صحيح القوام، مستقيم القامة، له ملامح حادة. في ابتسامته التي لا تفارق وجهه الأسمر المشبع بالحمرة تأثير في نفوس أهل المنطقة. في حديثه تجده يفهم الكثير، لا يقول إلّا القليل، ينصت أكثر مما يتكلم. أحياناً أسمعه يغني. رغم قناعتي التامة في إيمانه وتمسكه بالصلاة يحب الموسيقى. وصلت وصرتُ على بعد خطوات قليلة من بيت أهلي. مازال يعاند في بقاء حقيبتي على ظهره، يلحُ في مزاح لذيذ حتى وصولي باب بيتنا. غادرني بعد ما صافحني داعياً ليَّ بالسلام وأبتعد مثل صرخة ألم في فضاء الظلام كان ينفخ في صفاراته. يطلق صوتها المعتاد إلى الجميع في إشارة لبث الرعب في قلب سارق محتمل. «الوداع يتجدد». قلتُ بعدما فتحتُ عيني ومسحت على وجهي وعدتُ من خيالي إلى سطح الباخرة ألتمعُ مع كرنفال نجوم البحر أطلق طفولتي

Telegram: Somrlibrary

أكون في رعشة الرضا منزلقاً من بين حروف اسمي ضاحكاً، ولكن هذه المرة كنت تحت تأثير الذكريات التي تأتي مجتمعة من عالم كنتُ فيه طفلاً والحياة لعبة. من غير تفكير أنا ونصفي الآخر ومجموعة أطفال كنا نلعب لعبة العصا والحجارة ضاحكين نركض متحررين من خوف السقوط في شوارع مدينة أُطلقتُ فيها أول صرخة بكاء كانت لها قوة تهزني. تكرر المشهد. الباخرة مثل فتاة اثقلتها الأقاويل تسبح ضد التيار بين مدٍّ وجزر كانت تسابق الريح، بينما يترك تلاطم الموج علامات غضب على أكتافها. أرجعُ إلى الخلف. يرسم التقدم فوق الوجه الأزرق أثراً أبيض على ضفتين يشبه الشرخ في شارع من الثلج أجواؤه عاصفة. ننتقل وسط ضجة صاخبة إلى أماكن نشعر بها آمنه، رغم تعرضها للاهتزاز المخيف تبقى ثابتة. وقفتي المنتصبة تبقى ثابتة، وتبدو مبالغ فيه مثل الحب الذي نلوذ به في صمتنا شعرتُ في الدفء يملأ زوايا الأماكن. تصطفق الأبواب. تتحرك الكراسي. تهتز القاعدة. تميل القمة. يتحطم الزجاج. يسقط حساء الغداء. يتبعثر التفكير. فجأة ينفخ برج القيادة نورا براقا. وصفارة طويلة وأخرى قصيرة وبين علامة وأخرى يبرز وهج أحمر. يتغير التركيز. يلتصق الخائف على الجدار، ويختبئ الحديث عن البحر خلف الأبواب المغلقة. كنت أشعر بالإثارة أكثر، عاشقاً حد الثمالة أكلم المكان من حولي. رغم رغبتي المتجددة في لمس اللطف الذي أشعر به في البحر ضحكتُ كثيراً؛ ولا أعرف كيف حصل ذلك؟! رغبة لا قدرة لي على ايقافها وفي الأمرين كان شيء ما يحركني من الداخل؟ وأنا وأعلم جيداً إنما المحيط بي يشوبه الغموض ويستحيل بقائه على حال مادامت الروح فوق مسرح الحياة هي الضحية الراضية. كنتُ أمسك باليوم حتى انهائه..

3

ليلاً لمحنا ضعفنا. «ثمَّ ماذا؟». كل جسدٍ بلا رائحة مميزة لا يُرى. والروح التي لا روح لها تخمدُ وتنغلقُ على ذاتها. «ماذا بعد؟». نهاراً قررنا تعويض ما تحطم منا، وما من مجنون لا يفكر في تعويض ما مضى. نعم كنت هناك والخوف لا يميز بين القلوب، والبحر مثل الحياة دائم التغير. شعاع شمس ذهبي اللون يلامس بدن الباخرة الأبيض. كرسي وسط السطح المطلي بالأخضر يشغله الربان، حوله على شكل نصف دائرة يقف ثلث طاقم السفينة تقريباً كان يحدثنا عن الصبر والثبات وألا نلجأ لحظة غضب البحر إلى المسكنات. كنت متابعاً لشجو الموج.. أتحدث مع لبيب؟ ربمّا كان للخيال فسحة من الأمل. أمل العودة سالماً؟ ربّما... أمامي إلى الأعلى من الجهة اليمنى قليلاً طيور مغردة تحمل بساطاً من الورد تفترشه إلى جانب الباخرة، ومن الخلف كانت الأفكار تقف وراء رأسي. وعند أذني كان الهمس:

- كنت شجاعاً.

- لأنك معي.

- تميزك غايتي.

- أرجو ذلك

تأملتُ الحياة ونوادرها. قشعريرة رضا فشلتُ في مقاومتها. عاد الوجع أسفل ظهري. لمسات يدي لا قدرة لها على تسكين الألم. أصوات

Telegram: Somrlibrary

غريبة ترهقني وأخرى أعرفها. أمشي وألتفتُ بعدها أقفُ ثمَّ أقعدُ ثمَّ أنهض لأمشي مرة أخرى ألتفتُ وأقفُ ثمَّ أقعد. وأنا كذلك كان يمشي معي ظلان ورجل. امرأة وطفل. شاب يلبس الزي العسكري وآخر بدلته بيضاء. فتاة متبرجة وأخرى محجبة. عجوز تحاول عبور الشارع. بيت كبير بابه الخشبي عريض. حائط من الطابوق الأحمر مائل قليلاً. نساء تعانق بعضها بعضا. في نهاية الشارع سوق كبير يعج بالباعة تزدحم أصوات حناجرهم. أحياء يشقون طريقهم نحو المجهول. أطفال عراة يستقبلون الأفراح بثياب ملونة، رجال يغطون في حداد وسواد. مدينة زرتها يوماً ما تزال عالقة في ذهني. أقرباء فارقتهم على حين غفلة. لم أدرِ كيف؟ دون اتهام الأقدار تأملتُ طويلاً حتى شعرتُ أنني قد ضللتُ الطريق! مع ذلك نظرتُ إليّ بصمت ورضيت أن أكون الشاهد على ضعفي. جدية الأمر الأهواء نفسها هي التي كانت تتكرر الآن معتادة. «لكن لماذا؟ لماذا وجوب تحقيقها؟ وما الداعي إلى وجود الخيال ورجاحة السفر؟». فكرتُ في نفسي وأعرف خلف الثياب الدنيوية هناك قلوب تنبض بالألم. يخون وجه المتأمل شحوب ليله. يتأمل وحيداً حتى يختفي كما تختفي أصوات الوجع الممزوجة بأنين شاك يضيف إلى أشجاننا أشجانا متكررة. كم من لحظات تنهدنا فيها المغيب وتبسمنا؟ زينة الحياة هي التمتع خصوصاً بذكريات الطفولة. أنا لا أختلف عن الناس في الذاكرة، ولكن متعتي معاكسة تماماً إذا أردت التعبير عنها. أحلامي لم تتحقق بعد. بدأت حياتي في لحظة صمت ولا أريدها تنتهي هكذا. سألتقط الكتاب واقرأ ما كتبته لك: «نحن الأحياء نبحث عن الأجوبة لسؤالنا الأزلي: لماذا تغدر بنا الحياة؟». وداع الأب صعب، ووداع الأم أصعب، ولكن في ضياع الأمن والأمان توقف عندي تسلسل الحياة، لهاثي هو الشاهد الوحيد على مرارة أيامي المتتالية بوقع واحد كانت سريعة، وإن تناوبت أسباب النزول، تلعثمتْ خطواتي وأنا أرى غموضاً يمنعني من التقدم. مضيتُ مشوشَ الخيال والآخر مازال يردّد: «أي طريق يصل بك إلى

بر الأمان؟». عملتُ كثيراً طوال حياتي وأنا أبحث عن الأمان. آه. ماذا أقول عن القدر ـ ماكر؟. وكل ما أستطيع قوله: كن حذراً على وجودك من الآخر. عشْهُ مِلء لحظاته. أما أنا فسأتدبر الأمر لأبرهن لك على أنه ـ القهر ـ لصٌّ دنيء. هل تظن هذا الأمر صعبا؟ يخيل إليّ أنك فكرت: «ما شأني وما الذي ستثبته لي؟ ثمّ قلت: «وما نفعي منه؟ وكيف سيأخذني معه في هذه المتاهة؟ وهو الذي يكلمني عنه مرة وعن نصفه الآخر مرات؟». انتظر. ما دمت قد فكرت. معنى هذا أنك تفهمني، ربّما نتفق على أن هناك مسارات في هذه الحياة لم تخطها لنا الأقدار بعد. ربمّا نقع على غير الطريق التي نريد، وربّما الذي نأمل فيه الخير ليس قريبا منا؟ ولكن سأثبت لك، وليس ذلك بمستحيل. لا تفارقني ذكرياتي أبداً حتى دهشتُ من تكرارها. ذات مرة وصلتْ فتاة في عمر المراهقة بعد الغروب بساعات إلى غرفتي العلوية. بابتسامتها المعهودة استلقت على الأريكة المطرزة بعطرها ورمتْ بشالها الأسود على الكرسي ورفعت ساقها اليمنى ووضعتها على الوسادة البيضاء وقالتْ: «ارسمْ». كنتُ أحرك الفرشاة بيدي واللون الذهبي يلتصق بالقماش المطلي بالأبيض. حاولت أن أثبت لها أنني رسام محترف وطلبتُ منها تدوير شفتيها المتحركتين، ولكن ابتسامتها المتكررة حجبتْ صوتي أمام عينيها الخضراوين فتركتهما على حالهما بين الغمز والإشارات. كنت أرسم ما يراه ذهني لا عيني، ولا أدري تماماً هل كان عليّ الرسم مثل رسام محترف أو مراهق يحب أن يكون رجلاً مكتملاً يمارس الحب بشغف؟ كنت صامتاً وكانت تعرف خجلي وتعرف أيضاً أن الوقت لم يحن بعد. يبدو لو انتظرت ثماني سنوات تفصلني عن العشرين سنمارس ما نحب ولا ندعي رسم القبلات كهواية واحتراف. رسمتُ خطين ـ أبيض وأحمر ـ متعانقين ووضعت مجموعة نقط كبيرة تصغر كلما صعدتُ بها إلى الأعلى، وضعتُ اللون الأصفر خلف الخطين وخط ضعيف أسود مع الأحمر كان برتقاليا لماعاً بإفراط وآخر يلف وسط الأزرق؟ كنت أروض مراهقتي في اللون

Telegram: Somrlibrary

الذهبي لإطار اللوحة. أتبع ذهني في رسم ما أراه. الحقيقة أنا أحب الرسم ولا أحترفه. خرجتْ بعد ما رأت اللوحة وكالعادة طبعتْ قُبلة على شفتي المتيبستين وقالتْ: «جميل». نزلتُ من غرفتي ضاحكاً وأنا أركض الى الصالة فرأيت أمي ساكنة، ولا أعرف كيف لمحتني وهي التي كانت تقرأ كتابا أمام طاولة طويلة وضع عليها الشاي والأزهار؟ طلبتْ مني مجالستها. رفضتُ متحايلاً أتثاءب من غلبة النعاس، ثمَّ دخلتُ غرفتي. أحب هذه اللحظات التي أكون فيها وحدي أطلق العنان لنفسي في التحليق.. أطفئ العطش. أخمدُ الضوء وأحاولُ التأثر بدفء اللحاف عارياً أمارس المتعة في الخيال، ولكن الأهم هو ما سيأتي به المستقبل..

في الصباح توجهتُ إلى المدرسة وهناك كنت مع أثمن هواياتي التي أحب. لا أعرف كم أقدر الحب الذي كان في صدري إلى المدرسة. ويبدو في هذا العمر بدأت أفهم جيداً ما السر الذي كان يحرك ذاك الانتماء إلى المدرسة. في سن الحادي عشر أو أكثر بقليل كنا نتنافس فيما بيننا أمام أساتذتنا لإثبات الحضور اللافت للأنظار وتحقيق أكبر قدر ممكن من التفوق الذهني والمهارات في الألعاب الكثيرة التي كنا نمارسها في حصص التربية الفنية والرياضية. كثيرةٌ هي الأحداث، وفي زحمة حضورها انزاح عن فكري شيء اسمه الحزن والخوف والوحدة.. وقد لاح لي ما كان مُخبأ في رحلتي القادمة. قبلتُ اللقاء ـ لقاء البحر ـ ثانية وهذا يعني أنه يجب مسح ذاكرتي الأرضية وضرب وجه الراحة بكف يبعدها عني وقتاً لإقناع جسدي الذي تعلم الخدر. لا شك أن القادم أيام يشح النوم فيها ويكثر الجهد المتواصل والعمل بقوة لا يقوى عليها إلا أهل العزم، وفي أثناء ذلك أتوقع فتور صوت الرغبات وكبح جماحها، بسبب السنون التي مضت راكضة فوق مدِّ العمر إلى النهاية. ظهرت التجاعيد على الوجه وبان البياض على الشعر وصاحبني ارتفاع في الضغط وألم المعدة وأسفل الظهر

وبدون تكرار في القول: «خطفني الوقت دون علم من صباي». آه.. كم كررتها أمام سؤال من يتفاجأ حين يراني بعد طول فراق.

مازال الربان في حديثه مع الطاقم مستمراً.. وصايا كثيرة ونصائح أكثر.. وأنا بعيداً أعود بذاكرتي إلى تلك الليلة التي كان فيها القمر يسكن الغيوم: «النوم يبعد الشحوب». قلتُ وقد ذهبتُ في التفكير إلى إعلان الموافقة على كل ما يطلبه البحر مني. أرجع بذاكرتي إلى أيام الشباب وفوران الأماني والتعرق في الأجواء الباردة. أحطُّ على أجمل الأغصان الشهية الناعمة اللينة. ألمسُ الأزهار التي لم ولن أراها إلّا هناك. أمرُّ في شوارع طويلة. رائحة المقاهي الزكية مازالت عالقة في أنفي. أصواتها إلى الآن ما زلت أسمع بعضها. حتى ملابسي الملونة بماركاتها العالمية تشعرني بالفخر. بلغات جديدة كنت أسمع نفسي تحاورني في سعادة مفرطة تدفعني إلى العودة، وفي شَعري تسريحة أحبها.

«لا تحرثوا في الملذات فالبحر لا يخلو من الموت أحياناً». هذا ما كان يقوله الربان والطاقم يصغي إليه بطريقة تبعث على الاحترام. وأنا أرمي بكتفي إلى جدار الباخرة الحديدي أعاكس ذراعي على صدري وأرحل في خيالي إلى أماكن زرتها كانت فيها الملذات تتسع لأيام الشباب. أحب ذكرى ليال فيها مهرجان النساء الحمراوات تطلق عنان النفس للغوص عميقاً في اللامحدود من الرغبات. كنتُ بين القبول والرفض أمارس بمزاجية عالية على جسدي ما أرغب. مثل وشاح كشميري يحطُّ على الشفاه متخنا بالقبلات الملونة رميت جسدي. أقسمتُ بيني وبين نفسي ألّا أعود إلى السهر والتصرف بجموح، إلّا أنني أناقضها سريعاً إزاء سهرة هادئة كانت أو صاخبة، تحتمل التأويل، تترجم الإشباع في نظرة أولى أو ابتسامة أولى أو قبلة أولى، لتنتهي في رقصة أولى وما تصنع الأيادي في اللمس المباح لتكمل المشوار، وحين تمسك يدي خدي في صمت يطول...... أكسر

القيود. أغتنم الفرصة. «كم حذرتك». صوت بليغ التأثير يتجدد؟ عاداتٌ تتخلى عنها وأخرى تبقى كي تتعلم منها فضلاً عن ملاحقة كل جديد من السفر. الفراق اشتياق اللقاء. الرغبة إن كانت رعشة تأتي من شمّ العطور ولمس الملابس الناعمة. التعود على البرد المتزايد كما الحر غاية تصل بك إلى النهاية. بيني وبين الليل ألفة تملأها علاقة فيها القُبلات لا تنتهي، وتوتر مستمر بالحاجة إلى الرجوع وقت دخول الصباح. لينات لامعات مُمددات في كل شبر على الساحل. يبادلنني الشعور في الحاجة إلى الراحة أكثر من الانغماس في الملذات. «هل سألتها عن الحبّ الذي نعرفه؟». لا. «هل اقسمتَ عليها البقاء لك وحدك؟». لا، وأكثر ما نفكر به: «لا». لم أقدم على هكذا أخطاء في حياتي؛ لا لشيء فقط لم أتعرض يوماً لمثل هكذا سؤال، وإن تعرضت له أردد الجملة نفسها: «نحن البحّارة في كل ميناء نبني حياة جديدة ننساها وقت مغادرتنا». يبدو من الذكريات التي لا ترحل كنت أبالغ بهذه الجملة فبعضهن مازال في النفس شوقاً يدفعني إليهن. «تشتاق؟». لا أظن كلمة اشتياق تكفي، ولكن قد جاء اليوم الذي لا بد فيه من العودة إلى ركوب البحر. مرة أخرى سنذهب إلى أجواء أوروبية فيها أجمل الألوان والتحف الغالية تحت أجواء نعتقد لن يسألنا أحد فيها عن قيمة المال تجاه المتعة والجمال. كنتُ قلقاً من عدم تكرارها ولم يخطر ببالي مجرد خاطر ستعود تلك الأيام إلى حياتي وأنا بهذا العمر. «هل ستهتم بكبر السن؟». لا أدري. «هل سيعود السرور كما كان؟». لا أدري أيضا، ولكن سنصل إلى أوروبا وهناك لا أعلم ما سيكون من أمري؟ «عليكم العمل بطريقة الفرد جماعة.. والجماعة فرداً». يقول الربان، ومازلتُ أمشي. أتلفتُ. أقفُ. أقعد. ثمَّ أنهضُ؛ لأمشي مرة أخرى أتلفتُ وهكذا. أحلم بالمستقبل وقلقلي يتزايد ولا أذكر أيضا أني قد سألت الإدارة هذه الأسئلة؛ لأن غروري منعني من التصابي ونصفي الآخر يحب الكتمان.

4

النظر إلى الجنوب القريب وإلى الشمال البعيد ومن تحت الأقدام ثمَّ إلى السماء يشعرنا ببعض المتغيرات وإن كنا لا نرى شيئاً نَتحسَّسُ أجسادنا. بالنسبة لي العالم صغير كالنقطة. والأيام كأس نصفه أحمر والآخر أبيض. إثر المزاج في عودة المزاح وراء الخيال حشد من الصور. اللحظة المليئة بالاندهاش ضحك وبكاء وما بينهما لا وسيلة للهرب. الصمت بصيرة مفيدة. الوقت يمضي وبيني وبين الليل ألفة...

غادرنا الربان وانتشر الطاقم في أروقة الباخرة مثل العطر. كنت وحدي أعود لجمهور من المخلوقات والمتغيرات نتتبع مسار النجوم ببطء مخيف كانت منتشرة حتى الصباح. الشمس تدافع عن الأرض. ينتابني شعور العودة إلى الذات ومثل طفل خائف أرفع رأسي إلى السماء وأطلق الصوت لأستعيد انتباه ذاكرة أعياها الفراق. لم أجد وسيلة أخرى لأواجه عزلتي. «الخوف ينتصر؟». ولنفترض ذلك حقيقة. فإني الواقف الوحيد وسط المحيط. من سيواجه الأمواج العاتية راكضاً في اتجاه كف الموت. صدر الأرض. وجه السماء. هل في مقدوري أن أتنفس الهواء النظيف في زمن القذارة، وأبحث عن الضياء في زمن الظلمة. عن البقاء؟ أتحمل عزلتي؟ ورغم درايتي التامة بأني فوق المدّ ولا أعرف الثبات. كان التأمل في الإبحار يعني لي الشعور المتفرد بالجمال. دوار وخوف وعري، تحرر من الأغلال، حبّ ورغبات، مدّ يكبر في خطوات جامحة. يتقدم. مثل الصحو يتقدم. كانت الحياة تخبرني أني على الطريق الصحيح وأنا لستُ سكونياً في

Telegram: Somrlibrary

التفكير كما أدعي. ولست كما الآخرين الذين يعبرون الحياة المزدحمة بسلوك مهذب. عاطفة مفرطة. وافتراضات كثيرة في الذهن تعترض على العيش في رتابة الحياة الواحدة. رفض. ولم يكن يؤكد التفرد إلاّ السفر. والسفر نفسه حياة أخرى. يختلف الصدق عند سماع الموسيقى والاستمتاع في السفر. إلى الآن أتعذب من ذاكرتي. شذرات عالقة في رأسي. ذاكرة جلبتْ لي المشاكل من مغبة الانتماء إلى عالم كله متناقضات. ذاكرة أشعرتني في مختلف الأماكن الحميمية والمميتة بالغرابة. رغم الفروقات الصغيرة والدقيقة فوق الطرقات التي سلكتها كنتُ كمن لا يعرف نهايته، إلّا أنه ليس هناك حل وسط بين المكان والغبطة المنفلتة من مخلوق عاش خلف جسد طامح مغرور يسمح للآخر الذي فيه أن ينفذ ما يخطر له. رغباته التي دفعته للوقوف عند نقطة اللاعودة. بداية في تحرك منفلت بين أشكال منوعة وهموم متجددة، كمن يحتاج إلى الصياح مرة أخرى: «أنا». صحتُ، ولكن بصوت أعلى!! ولأطمئن على عقلي صعدتُ درجة أخرى من السلم القصير وأطلقت العنان لجسدي في حركات من الصعب عليّ الآن تصديقها، ولكن تأكدت بعد نوبة من الغناء الخافت والرقص المبالغ فيه أنني أشعر بالارتياح، وهذا الشعور لا يعرفه إلّا من مارس هواية السفر فوق البحر وخداع بائعات الهوى من النساء. أخذتُ قسطاً من الراحة ورميتُ ببصري إلى الأشياء؛ كنت أجدد جولاتي من المتع القديمة العالقة في رأسي. يتبعني الآخر ويحثني على اللهاث خلف الكائن الواسع الممتد المتحرك أكثر من المعتاد؟ هو ـ البحر ـ الذي يحلو ليّ مناداته: «معلمي». بدأت حياتي معه في سن مبكرة؛ عندها عايشت شدة معارضة الكبار لكل فعل جديد يحتاجه الشباب الطموح المغامر؟

ـ إلّا أنا..

ـ نعم..، وكنت خير عون.

ـ مؤيداً لك وبقوة.

Telegram: Somrlibrary

ـ اسكتْ.

كنتُ عازما أشدَّ العزم على تذويب اعتراضات الأهل والأقارب..

تحييدها لدخول المدرسة البحرية والتخرج منها ليرافقني إلى الأبد لقب البحّار، كم تمنيته وقتاً طيارا، ولكن هذا الذي شاءته الأقدار، وقد اخترت وقبلتُ اختياري عن رضى تام وقناعة مازالت ترى في نفسها أطول موجة باقية. الروح الأبوية الرحيمة المتصفة بالحرص والسيطرة كانت مترددة بين الموافقة ورفض العمل على ظهر البواخر. يعتبر الشاب المسافر إلى بقاع العالم نوعاً من الابتعاد عن التقاليد والعادات الشرقية، لذلك كانت أول ردة فعل من الأبوين واجهتني هي الحرص على التمسك بالعادات وعدم الانفصال عنها. لم أجد حرجاً من تقبل النصح في قائمة طويلة متكررة تُلقى على مسامعي كل صباح ومساء، وما كان لي سوى القبول بها، لكن إلى أي حد أنارت طريقي في حلم طويل مستور أحمر؟ فعلا تسرب أكثرها، وبقيت الذكرى، وما أقرب الماضي المحاصر بالذكريات: «أن ألمس الكسوف والخسوف من على البحر». حلم كتبته قبل الإفراج عن نتائج التخرج بساعات. سمعتُ المواعظ حتى حفظتها وبدأت أكرر ما يحبون سماعه، وأخيراً سافرت إلى أوربا بحراً ورأيت مالم أتصوره قط.

في الواحدة والعشرين غسلتْ عيني الألوان وأستراح جسدي من التعب الكافي للنسيان. في «مساج» بالزيوت الساخنة الفواحة صَبغتْ جسمي أنامل ناعمة لها خبرة في تجدد الطاقات بطريقة عجيبة، كنت أتلذذ في الآه التي لم أجدها مثلها في مكان آخر. أمسكتُ كل اللحظات المفتوحة للإمتاع. تسلقتْ يداي الأجساد اللينة لنساء تليق بمن يعشق المغامرات. رأيتُ ممشوقات باسقات بلون القمح مشرقات وأخريات يشبهن الفرح يقفن تحت شعاع الضوء الخافت يصير لونهن كما الوردة البيضاء خلف قطعة قماش شفافة حمراء. خطوة حذرة بعدها خطوة أكثر

Telegram: Somrlibrary

جرأة ترطبتْ شفتيَّ المتيبستين بلذيذ الشراب والشفاه وما أكثر ما شطرتني الحياة إلى نصفين: نصف أمارس فيه كل ما أحب وحيداً في المرافئ مثل قمر واثق من نفسه، يظهر للإمتاع ليلا ويختفي نهارا، والنصف الآخر مثابر في العمل فوق ظهر البحر يحب التميز. كنت أعتقد أن الذين أصادفهم هناك يبحثون مثلي عن الجديد يحاربون الضجر والسأم بالنزوع إلى عالم النساء والسهر. لم أحسب حساباً للزمن ولم أفكر في ذلك جهراً ولا همسا، إنما سافرت من أجل غاية أو سبب ما. كان الأهم هو الإشباع قدر المستطاع من جوع يمتد من أصغر إلى أكبر الحريات التي كان يضج بها كُلي. أتذكر تلك السنين في خليط من الحسرة والرضا. الحسرة في أني لم أتوقع يوماً أن يعاكسني القدر بهذه القوة الجبارة، وترميني الحاجة المُلحة إلى العودة للعمل على ظهر البواخر مرة أخرى وبهذا العمر أمتلك أريحية في جسارة ركوب البحر؟. مرة أخرى أخبركم أن هذا البحر أو الذي أحب مناداته «معلمي» قسى عليّ ولا أخفيكم سراً كنت أستحق هذه القسوة ولا أريد ذكر الأسباب. لقد أضاف درجات من النضج إلى تفكيري، فازدادت قناعتي في اعتبار التأني والتروي والكتمان من أثمن الممتلكات المعنوية للإنسان العاقل. فالذي يفكر هكذا مثلي تقول له نفسه: «تمتع بالشباب بكل طاقاته ولا تندفع إلى ركن المخاوف، وستكون لا محالة وأنت فوق الأربعين عارفاً بالحياة متمكناً منها بيدك مفاتيح الأنا تفتح أبوابها وتغلقها متى تشاء، تنظر إلى من حولك نظرة زاهد عاقل، فلا تهزك أبداً الاغراءات المبطنة ولا الغايات التي تعرف نهاياتها قبل حدوثها».

ـ أنا كتبتها لك

ـ أذكر ذلك وأنا أثمن نصحك، ولكن أرجوك اتركني أكمل حياتي من دون صوتك.

ـ تريد الوحدة؟

Telegram: Somrlibrary

ـ نعم.

ـ ومن علمك إياها؟

ـ أنتَ

ـ والآن تريد رحيلي؟

ـ نعم.

ـ تموت!

ـ إذن اسكتْ.

الباخرة الأولى التي كانت وسيلة انطلاقي الأول إلى تجاوز المألوف كانت أسطورة الأساطير بالنسبة لشاب تفور في عروقه الرغبات. التحقتُ بمتن الباخرة صباح أحد أيّام صيف أواخر الثمانينيات وأعتقد كنت فيه خائفاً بعض الشي وقلقاً أكثر. أفكر في نفسي: «ما الذي سأجده في الباخرة؟ وكيف ستبحر؟ وما الذي سأراه؟ كيف ومتى وأين الراحة والمنام؟ كم ساعات العمل؟ ما نوع الطعام والشراب والفراش؟ ومن ينظف مكاني؟ وكيف.....؟». «ولكن لم أتركك لحظة!». كانت أسئلة كثيرة في ذهني المثقل بالأفكار المزدحمة. عيناي ـ في كل زاوية من زوايا الباخرة وممراتها الطويلة ـ تبحثان عن مستقر لمألوف. رأسي المنقوش على الأبواب والشبابيك يدور بلا استقرار ولا هدف يحاول الثبات على مكان يعرفه؟

بعد خمسة أيام تعودت على نظام الباخرة والإبحار وكنت بين الطاقم واحداً منهم حتى إنهم أحاطوك برعاية خاصة كانت مهمة جداً بالنسبة إليك في مستقبلك المهني البحري، حيث وجدت منذ الساعات الأولى في العمل الترحاب الكبير من الرقيب والذي صار لك المرافق الأمثل لتعليمك كل صغيرة وكبيرة من شأنها تمكينك من مختلف المهارات على أن تكون البحّار المهم في تلك الرحلة، وبطريقة أدهشت الكثيرين من أفراد الطاقم استلمت مهامك في أقصر وقت وشرعت في الأداء على أحسن

Telegram: Somrlibrary

ما يرام. كنت تفكر وتنفذ بعقل، وقد باشرت فهم قوانين العمل، وفي وقت قياسي أنهيت كل ما كُلفت به بجد ونشاط لافت للنظر وهذا ما أكدته سيرتك المهنية في نهاية كل خدمة بحرية.

ـ اسكتْ.. وإلاّ قسماً ضربتك..

ـ هاهاهاها تضربني يعني تضرب نفسك؛ أنا نصفك الآخر.

ـ اسكتْ....

5

أبحرتُ وكلي آذان صاغية لتلقي الأوامر. أعيد قراءة الإرشادات والقوانين والأعراف البحرية الدولية. أسجل ملاحظاتي عن العمل والخرائط التي أمُرُّ بها. حتى مشاهداتي العميقة إلى نفوس البحّارة كتبتها بأدق تفاصيلها. أجد المتعة في تدوينها ورسم خطوط تفصل بيني وبينهم. لي غايات كنت أتخيلها ستحدث قريبا في البعيد القادم. عملتُ بجد ونشاط عاليين ولم أنتبه للوقت ولا للمتعة. أشدُّ على نفسي رباط الالتزام والانتباه لكل إشارة تظهر من هنا أو هناك. أفكرُ في مغزاها حتى أفك شفراتها، نلتُ استحسان الطاقم ورضا الكابتن ورئيس المهندسين، إلّا أنني واجهتُ بعض الصعوبات في الالتزام بالوقت والانضباط وطاعة الأوامر عند الوصول إلى المرافئ؛ شكلتْ عقدة بالنسبة إليّ. إلى الآن لا حل لها. مرافئ كانت لها القدرة على إرواء عطشي للجديد، وما أسعدني في لياليها الباردة التي كانت تطفح باللذة والمسرات ولم أعد بحاجة إلى الجري وراء الغزل والتحضير له كما كنتُ في أيام رجولتي الأولى عند شوارع مدينة المنعزلين. فمن الساعات الأولى، كان الاستعداد يقتضي منا الوقوف عند مفترق الطرق كالديكة أمام البنات. كانت جل رغباتي هي الملامح المنجذبة لتسريحتي وهندامي من فتيات تساويني في السن والحرمان. أعرف جيداً تلك الطرقات التي مررتُ بها هناك في مدينة النائمة بين نهر والظلال لا تشبه وهج وضياء طرقات المرافئ، كنت أمارس فيها حقي كإنسان ولا أحد يمكنه أن يصنفني ضمن صفوف الملائكة أو الشياطين، كنت أسرع

Telegram: Somrlibrary

كلمح البصر كلما شعرتُ بالفرصة مواتية وأبطئ كالسلحفاة حين أكون عند إدراكها. يدي اليمنى لا تهدأ من لمس وجهي وعيني لا تقبل المنام. شعور مؤكد أن الأيام التي أعيشها لن تتكرر. هل لي أن أمسك لحظات التمتع لتمكث؟ كنت ألمس الناس تبتسم بعيني. لحظات صمت وضجيج وكل متآلف ومتضاد. البحر بالسنبة لي حياة حقيقية، وهو الوحيد الذي يرعب ويغري. يأخذ ويعطي. الباخرة سببي الوحيد في الوداع واللقاء. رأيت موانئ أوربية وأفريقية.. عربية وأسيوية. بفضل حجمها الكبير ـ الباخرة ـ أخذتنا إلى أبعد مما كنا نتصور. كان طولها ستة أضعاف عرضها ـ خمسة وعشرون مترا ـ الذي يصل في بعض مناطقها إلى الثلاثين مترا، يساعدها هذا التغير البسيط على الاتزان التام فتصميمها الحوضي يسهل مرورها المرن في القنوات والخلجان. مثل السمكة تنساب فوق الماء برشاقة عالية وعند المحيطات الغاضبة والبحار العاتية تشعرك بقوتها في ثباتها وبلمحة البصر كانت قادرة على تعديل ميلانها المخيف أثناء غضب البحر وارتفاع موجه. كانت تُبحر بنا وفيها من الأوزان ما يقارب السبعة عشر الف طن؛ حمولتها متنوعة ولا تشعر بها ستخون من فيها أبداً. كانت متينة قوية في تصميمها قادرة على معاندة الموج. أنهيت على متنها ستة أشهر؛ وهي فترتي الأولى كمتدرب، وقد خرجت من هذا الاختبار كالعادة متفوقا.. مع ذلك نقش كتاب الرحلة عني ما نصه: «رغم جدارته بأن يكون بحّارا متمرسا في فترة وجيزة، إلّا أنه في المرافئ الأوربية يتحول إلى سائح عنيد معرض عن العمل كثير السهر على الأرض، لا يعود إلّا منهك القوى». يُخيل لي الآن وأنا بهذا العمر: أن هذا النص استحقاقي. ولكن أي شخص ذاك الذي ركب البحر وكان يشعر بالرغبة في أن يبدو أكثر صدقاً على الأرض؟؟ وها أنا أردد أمام البحّارة ـ متدربي البحر ـ الجُدد: «استثمرا شبابكم». لقد كنت راضياً بما قيل عني بسيرتي المهنية الجيدة. عرفتُ بعد وقت قصير أنهم نشروا التقييم في الشركة بدون مقدمات حذف منه نص الاستحقاق وبعد أربعة

Telegram: Somrlibrary

أشهر طلب مني رئيس المهندسين الالتحاق معه بدرجة رقيب ماكينة على باخرة تشبه عروسا مزوقة، عائداتها من ضمن ملكية الشركة البحرية التي صرت فيها موظفا. توالت الطلبات عليّ حتى صار اسمي معروفا في الشركة بتفانيه بحرا وعناده المتكرر عند المرافئ. فيما مضى لا أحب الالتزام بساعات العمل عند الصباح، أرغب أن أبدأ العمل على الساعة الواحدة بعد الظهر بدل السابعة صباحا فقط في الموانئ. ولكن لا أحد يسمعني؟ «أنا أسمعك». «اسكت أنت». هو نظام عالمي فيه من القوانين والأعراف الدولية ولابد من الالتزام بها. ولكن معلمي كان حريصاً كل الحرص على تهذيبي مهتماً أشدّ الاهتمام بتنظيم وقتي.. لم يتخل عني أبدا. بعد سنة من الخدمة الفعلية من بحر إلى بحر ومن ميناء إلى آخر بدأت أشعر بالإعياء، أتعب من السهر. يبدو شبعت، ولكن بين الفينة والأخرى تعود رغباتي الجامحة إلى الساحة وكأنها بستان أشجاره الغنّاء تعطش للمطر. وهذا الأمر حسب قول الربان: «مقدور عليه لأننا في النهاية بشر». «هل يعيب على البشر حبه للأجواء الباردة والاشجار والنساء والعطور والليل والأمطار؟». «هذه المرة صدقت». «كنت كما الآن صادقاً معك». «يكفي لا أريد أن أجادلك. فقط اسكتْ ودعني أكمل ما بدأت». الحياة تصرف ونزوات، تعاطي وتعامل، كانت وما تزال حلماً خصباً فسيحا، واقعاً يؤدي الإصرار فيه إلى الهدف. ولو قدرت حياتي بالمعطيات المعروفة لظلمتُ الحيوات الأخرى بهذه المقارنات العقلية. فالعقل ناقص الفهم أمام الأسرار وما أكثرها. لي صديق وهو يقيم منذ أوائل الثمانينات في فرنسا. حدثني مرة عن حرياته الشخصية التي يمارسها هناك وكيف تحفزه على التقدم في مجالات العلم والعمل. فوق جسر المشاة يحق له السير والرقص والغناء وحتى الجلوس على الأرصفة، ومن الأمور الطبيعية جداً أن يمارس كما أغلب العشاق والأصدقاء ما يحب وهو مثلهم كان ومازال يحب دور العاشق ودور الصديق مع مختلف الجنسيات ليلاً وفي النهار يلبس

Telegram: Somrlibrary

الملابس الملونة وما يرغب شريطة أن لا تخل بالحياء، وليس هذا فقط لقد أتاحت له المنظمات الإنسانية أن يكمل دراساته التي يحبها على نفقاتها الخاصة وقد خُصص له السكن اللائق والعمل المتاح، وتوفرت له أغلب مستلزمات الراحة. أنا لا اقصد هنا الماء والكهرباء والهدوء. القصد من الراحة تلك التي تفيض من الداخل لتعكس شخصيته الحقيقية كإنسان؛ إنما خُلق في هذه الحياة ليعيش معمراً فيها لا مدمرا، ومن أهم ما ذكره لي: إذ كان في يوم ممطر مسجى على سريره يشعر بألم حاد في جنبه وصارت حاجته إلى زيارة الطبيب ملحة. اتصل بخدمة الطوارئ وبعد أقل من نصف ساعة كان الطبيب ينتظره في ردهة المشفى وفي الجهة الأخرى يقف المترجم في انتظار تلقي أي إشارة للترجمة الفورية. كان صديقي يراوح في سريره بين الألم والطبيب الذي عاينه. يكلم المترجم الذي قال متأسفاً أن سبب هذه الآلام هناك خلل في المرارة وأن عليه أن يكون حريصاً على كمية طعامه وشرابه ونوعهما، وكتب له بعض النصائح التي يجب عليه الالتزام بها وقتاً حتى يشفى تماما، وأن عليه أولاً الالتزام بمواقيت أخذ الدواء. ضحك صديقي! سأله المترجم عن السبب؟ فأجابه والابتسامة على وجهه وأخبره أنه يعيش وحيداً ولا أحد معه يهتم بصحته أو ينظم أوقاته.. في النهار يكون مشغولاً بالعمل وفي الليل أحيانا يخرج ليتنفس الحياة. غادره المترجم بعد إعطائه وعداً بالعودة. دقائق قليلة عاد المترجم ومعه مجموعة أوراق وامرأة يقول صديقي أنها تشبه التفاح الأحمر، كانت طوال الوقت مرحة. يقول بدأت معها الحوار عن طريق المترجم وفي نهاية الأمر قررت أن ترافقني. كانت أحدى الممرضات. بقيت معي طوال فترة علاجي. كانت تلبس الملابس البيضاء الجديدة في كل صباح تصنع لي الإفطار وتمسك بيدها الدواء تعطيني منه جرعة بعد أخرى. لشهرين عشت حياة الرئيس وأجمل، بعدها غادرتني الممرضة حين كشفت آخر التحاليل أني شفيت من ألم المرارة تماما.

الحياة وغيرها

الخيال لعبتنا الثائرة

وفرة الشهوات نجدها عادة في الأزواج الراقصة سواء في القاعات المغلقة أو المفتوحة، وعلى قبولٍ أو رفضٍ لهذا الكون الأحمر تدفعنا خطواتنا العريضة إلى الدخول في الأماكن المغلقة. استعراض باهر! نبدأ النظر. حصة من البحث والتقصي؟ حياة ملونة صاخبة. فجأة تتحرك فينا رغبة المشاركة. مازلنا ننتظر. تأتي امرأة باسقة تأخذنا ضاحكة إلى مكان فيه بعض المجاملات. دقيقة تَرقب وأخرى نستجمع فيها الأنفاس، نتفحصُ وجوه بعضنا، وفي اهتمام متزايد نطوي ذراعينا وراء ظهورنا. نقف ليس بالوضعية الرفيعة ولا الوضيعة نرسم الابتسامة، ولغاية ما نكون في منتهى العناية ومنتهى الفن والقبولِ نبدأ في رعاية سيدات لم يجدن من يراقصهن بعد. الخلاص والخيال غريبان. في زمن الرغبة يكون المستقبل هو الماضي والحاضر يصير الأسبق والليل بوادر سؤال. كنّا على عجل نفكر بنا. لا نرى إلّا القادم البكر يرسم على ملامحنا الملونة الابتسامة. في جميع الأمكنة كنا نلمس بعضنا. نرى لهاثنا يسبق كلماتنا المتحفظة. والرائحة تلحق الأثر المهزوم خارج المرآة، والانتظار يزيد من حصار خطواتنا. ما جرّدني من وجْهتي صوتها. مثل العصفور يُغرد متفوها اسمي، يتسع عند أعلى الرأس. كان ثمة نسيم يغازل سنابل سرية. تضحك إلى النجوم والقمر رقراق واضح. لم أبنِ ألفة مع هذا المشهد بعد. ولا أعرف ما سر هذا النبض كيف يلاحقني العطر. كنت أميراً وكانت أميرتي في حرية كاملة وعلى نحو

Telegram: Somrlibrary

متكرر يتشجر قلبي لحظة استذكار لقاء مرَّ في زحام الاغتراب سريعاً، مازال مذاقها يتجدد. «سيسينا» فتاة أوكرانية نالتْ مني وأخذتْ ـ بما وهبتني من جمال باهر يتسلل إلى النفس ـ قلبي دون استئذان، هي المصدر الوحيد للذكريات والألم؟ «لا. هناك غيرها؟». نعم ولا أستطيع القول هي حاضرة غائبة. نقشتْ بإزميل حروفها النار. نار لهيبها يلسع. سكنتْ جسدي. يستمتع فيها الخيال والبصر. مثل شجرة تمدُّ جذورها إلى الطين تحت فرشة الماء كانت تقف بيني وبين الليل والضحكات يردّدُ مداها الصدى. مثل هزّ الأمواج للسفن ترنح قلبي لها للقبول اندفع. «إلى أين؟». إلى حيث ما تفكر به أنت..

كنت شاباً قوياً في ريعان أمنياته يفور في عروقي التميز. عرفتُ معها شعرور الأمان. كانت رجفة لذيذة. شكرتُ الأرض وصليت بطريقتي لعلها تحقق تلك الليلة غايتي. كانت تتوهج ملونة من غير تبرج أنثى متمردة تروح وتجيء تحت الأضواء. مثل مجموعة أناس غير مبالين بالبرد، تطلُّ من على حمرة خديها أنوثة طاغية. تلفُّ حول رقبتها ربطة مطرزة. كنت شديد التفكير في أدق تفاصيلها. أفكر: «سترافقني طوال السهرة». كانت في العشرين أو نحو ذلك، شهية الحضور واضحة القسمات تمتاز بفم صغير لونه أحمر، إلّا أن الأفكار كانت تميل إلى الشك. عقدتُ العزم على مصارحتها، ولأنه مجرد سؤال، تشجعت مستنكراً سبب سؤالي قلت: «أتمنى.....؟». انتهيت أبلغ الكلمات.. مالتْ بجسدها نحوي وهزّتْ بكتفها كتفي ثمّ همستْ: «ماذا؟». لحظتها عادتْ القوة تفعل فعلتها. «ابتسمت؟». كنت أتصنع الابتسامة وأهتف: «ما اسمك؟». قابلتني بعينيها الخضراوين وقالتْ بوضوح: «سيسينا». ثمَّ أضافتْ: «نادني ويسي» وسألتني: «أنتَ بحّار؟». عادت الكلمات تحتار في حلقي، لم أستطع القول غير ما تحملتُ قوله: «نعم». ضربتْ كفاً بكفٍ وقالتْ: «أهلاً». ثمَّ غمزتْ بعينها اليمنى ومازالت تضحك أضافتْ: «مرحباً». بحركة خاطفة توجهتْ نحوي بجسمها

Telegram: Somrlibrary

وأخذت تحدثني عن نفسها. كنت قد وصلت إلى حد الغرور؛ وحدها ولا تنتظر أحدا. تمنيتُ لو وقفتُ على الطاولة وصحتُ: «شكرا ». لكني لزمتُ الصمت؛ لا أحب مقاطعتها كل شيء فيها كان يأمرني الانصياع، دفعتها حيرتي وتلعثم ألفاظي إلى القهقهة. تحركتْ مثل الفرس ومضتْ على راحة لذيذة تسترسل: «بحّار وأسمر». وددتُ لو قلتُ بصوت يسمعه الجميع: «أنتِ حمراء شهية». لكنها فاجأتني حين وقفتْ أمامي مثل لوحة كبيرة جداً وأخذتني إلى الخارج. سِرنَا مصحوبَين بنشوة الثمالة والرغبة حتى ضعنا بين الحشود المتعاقبة في الاتجاه. كانت منتشية ترفع بصرها إلى السماء ضاحكة، ثم تنزل صوبي محدقة في صمت برهة بعدها قالتْ: «من أين أتيت؟». فكرتُ: «ستتركني». ولكن سرعان ما قالتْ وهي تدفع شعرها إلى الخلف: «أنتَ وسيم»... ثمَّ قرصتني من خدي بخفة وانتهت ضاحكة. جاريتها في رغبتها فمن غير الممكن رفضها. فعلتُ ما فعلتْ. رقصتُ معها وسط دائرة الشارع فتشابكت خطواتنا. قوامها الرشيق يتموج بين يديَّ. تحت ثوبها الأبيض المطرز بالورد كان لون جسمها يزداد جمالاً. أصغي. لا أصغي والهمس لا ينفع معي؛ لقد وقفتْ على أطراف أصابع قدميها ومدت بوجهها إلى وجهي وبدأت تغني. شعرتُ برعشة برد من شفتيها لحظتها بدا الزمن في رأسي يدور عكس دورانه، أطلقت العنان لنفسي وقَبّلتها. خرجنا من مجال العيون حتى صرنا وحدنا كانت الأصوات تدخل في الرأس تبحث عن مستقر لها. طال الحديث ولم نفهم بعضه. كنا نتفق أحياناً من الإشارات ولا أعرف لمَ كنا نضحك ونضرب كفينا ببعض حتى وثبتْ من مكان جلوسها ضاحكة: «تعال»..

سرتُ خلفها سيراً يشبه الهرولة. وقفنا وسط جسر كان يربط طرفي المدينة. سحبتْ يدي وشبكتهما خلف ظهرها وتحركتْ أمامي تتمايل راقصة. جسمها الذي لامس جسمي رماني في صمت عميق ضعنا طويلا في امتزاج القُبلات. بقيتُ ولا أعرف كم بقينا. أفقتُ على صوت أفواه مرت

من أمامنا. انتهتْ تلك الليلة بلحن جميل مازال عالقا في الذهن. تمنيتُ لو عادتْ تلك اللحظة. تمنيت لو عدتُ ذاك الشاب الأسمر. ربّما لو التقيتها الآن لتغيرت اتجاهات النظر والريح عاندت الأمواج ورغباتي انتصرت على احتمال ضياع مرتقب.

Telegram: Somrlibrary

الفصل الثاني

الراقص المذبوح.. عصافير الذاكرة

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

1

صدى العناق الطويل أباح لنفسي اقتفاء أثر الأفق الواسع الممتد أكثر من المعتاد! في البال مطر وسنابل زرقاء سرية يلمسها موجٌ يعدو سريعاً يتسلق الجبال يسابق بعضه بعضا. يرتقي ويعلو فيطيل الارتفاع عالياً وكأنه يلاحق نظري يهبط يلامس جلدي ومنه تراود أطراف الذهن رغبة الاستلقاء على فَيْءِ ساحل أخضر داكن.

لم أستطع إخفاء انبعاث الماضي. أتذكر رحلة ـ صيف أوائل التسعينات ـ هادئة ولست أقصد هنا سهر المرافئ ولا مجادلة الوقت ولا لعن الأنظمة وشتم القوانين. أتذكر السلام لحظة وصولنا ميناء الاسكندرية ليلاً، ليومين أفرغنا حمولتنا من الخشب. طلب الربان من الشركة البقاء لمدة لا تزيد عن أسبوع للتصليح والصيانة، وبعد المشاورة مع رئيس المهندسين حصلت الموافقة وبدأنا ـ أنا ونصفي الآخر ـ التجوال.

أول ما رأيته في الإسكندرية بعد عبوري بوابة الميناء في منطقة «الأباري» رجال يعاملون الغريب بكل لطف واحترام، ونساء تسير بخطى خفيفة، على ملامحهن ابتسامة عريضة تبعث ولمسافات طويلة على الارتياح. لمحت شابة رغم ملابسها المتواضعة كانت مليحة رشيقة القوام وجهها مصبوغ بالسمرة يضحك. كانت تعمل داخل مطعم يقدم المأكولات الشعبية، وحين اقتربتُ رأيت فيها تناسقاً جميلاً يختلط ونظراتها المباشرة التي كانت تخاطبني. وجدتها منجذبة للحديث معي، سجلتُ طلبي

Telegram: Somrlibrary

وعادت وكأنها تحلق في الفضاء، وبين يديها الطعام وعلى وجهها الابتسامة نفسها. قالتْ: «تفضل». ثمّ انحنتْ إليَّ هامسة: «الجمبري يرفع الحرارة!». وابتعدتْ مثل فراشة ضاحكة تكرر: «نجلاء». رغم معرفتي من المسلسلات والأفلام المصرية أنهم شعب لطيف يحب الطرفة، إلّا أن المكان صار كله يبتعد عني والأشياء التي أمامي أخذتْ شكلاً آخر. كيف سمحت لنفسها ومن أول كلمة أن تشير إلى هذا المعنى؟ حاولت المقاومة. لكنني شعرت بعدم جدوى الرزانة. وفي الذهن حلم لذيذ يتشكل. كان من الممكن أن يكون بيننا حديث مطول، وهذا ما أكدته لمساتها ليدي أثناء دفع الحساب، ثم أضافتْ لحظة خروجي من المطعم: «نتواجد حتى منتصف الليل».

أحتاج الكثير من الصمت لأبقي على بالي صافيا. أثناء تجوالي في الشوارع الرئيسية والأزقة الفرعية شعرت بالعطش. دخلتُ كوفيه في الحال شربت الماء والقهوة، جلستُ متأهباً غازلت فتيات الخدمة. خرجتُ بشيء من اللغة الفرنسية سمعتها من أحداهن أومأت لي أول دخولي وحفظت بعضاً من كلماتها، وأنا أشاهد واجهات الفنادق العالية كنت أردد ما حفظت. استأجرت سيارة أجرة ـ نوع بيجو مطلية بالأسود والأصفر ـ وتوجه بي السائق إلى مدخل شارع يزدحم بالمارة والسيارات. سألتهُ؟ أجاب: «المنشية». منطقة شعبية فيها من الناس والحانات والمقاهي والحركة الدؤوب ما يجعلك تحب العيش فيها. بسيطة جداً لكن جميلة للغاية، قال السائق: في هذا الميدان هنا ألقى جمال عبد الناصر خطابه في الخمسينات».

ترجلت من السيارة وأنا أتلفتُ يميناً وشمالاً! نسيت وجودي وسط الشارع. كانت قدماي تسوقاني بخفة مفرطة إلى حديقة عامة عرفتها من اللافتة المعلقة عند أطراف أحد أسيجتها هي حديقة ميدان القنصل. رفعتُ نظري إلى وسط الحديقة شاهدتُ تمثالاً في هيأة حصان من البرونز، كان

ضخماً يعتلي صهوته رجلاً ملتحيا، رغم كبر سنه ترى في تقاسيم وجهه القوة. تقدمتُ خطوتين حتى صرت تحت قاعدته، كانت أطول مني. عرفتُ أنه تمثال محمد علي باشا. كُتبَ في اللافتة المثبتة عند أعلى حجرة من القاعدة: «مؤسس مصر الحديثة». كنتُ أفكر في الاختلاط بالناس، وعلى بعد شارعين تعرفتُ على صاحب كشك صار بعد وقت قليل دليلي في انطلاقتي الأولى بين الاسكندرية وبحرها، وقبل مغادرتي له أشار عليّ ركوب الترام ذي العربات الصفراء أو الزرقاء وكلاهما بلا أبواب، بحيث يتمكن الراكب من مشاهدة المدينة عن كثب، وراح يحدثني عنهما للاستمتاع بنزهة ترفيهية تأخذني إلى وسط الأماكن الشعبية، وسيمر بي الترام ذو العربات الصُفر بعد انطلاقه من محطة الرملة ليأخذني إلى منطقة قصر رأس التين المجاورة للقصر الملكي عائداً بي إلى المحطة نفسها مروراً بجامع القائد إبراهيم ومحطة مصر والرصافة والنزهة وناريمان والورديا، ثمَّ يعود إلى نقطة الانطلاقة الأولى. أما ذو العربات الزرقاء فيأخذك في جولة بين الأحياء الراقية ومعالم البنايات المعمارية الجميلة، مثل رشدي وباكوس وصفر. يقول صاحبي كل هذه الأحياء استمدت أسماءها من أسماء الأجانب من بارونات وباشوات كانوا يقيمون به. ضحك ملء شدقيه حين وصل في الحديث عن الترام الأزرق وقال فيه عربة مخصصة للسيدات فقط وعربة للرجال وعربة مختلطة، إلّا أن السيدات تقتحم العربات المخصصة للرجال نظراً لشدة الزحام في عربات السيدات، وربّما لحاجات أخرى لا يعرفها إلّا من يتأخر ليلاً. كما الترام الأصفر سيعود بك الأزرق إلى نقطة الانطلاقة الأولى: «محطة الرملة». عبرتُ من خلالها حسب رأيه إلى الشارع العسكري المطل على البحر الأبيض المتوسط وكلي سعادة من مزاح صاحبي وصلت منطقة «ميامي» والتي كانت هي الأخرى باهرة الجمال نظيفة. أسمع في شوارعها الهادئة هدير البحر، يبدو أنه شاطئ ميامي. أخرتُ المرور منه لظني أنه يحتاج إلى ساعات إن لم يكن يوماً كاملاً. أجلت ذلك إلى وقت

لاحق. وسط الناس كنتُ اقرأ «شقق مفروشة للإيجار». لافتات معلقة على واجهات العمارات العالية. أرى الوجوه التي أصادفها من الأجانب تنظر إلى ما أنظر إليه، فكرتُ بالعودة إلى «المنشية».

لا أدري كيف انتقلت سريعاً وكأن الوقت يسبقني، كنتُ أفكر قدر المستطاع بيومي الأول ومعرفة كل شيء عن الاسكندرية، ربما لإشباع رغباتي المفرطة في التجوال والاستمتاع؟ وربّما تلك الرغبات التي تزداد في المرافئ هي نفسها تتكرر الآن، وليس ذلك غريباً حين شعرت بها أفضل الأماكن التي ستحقق مبتغاي، وبالفعل عدتُ إلى منطقة المنشية فوجدت كل ما أبحث عنه متاحا...

كانت المقاهي والتحف والنساء والحكايات الشعبية تكشف لك الراحة والاستمتاع. لمحتُ معالم التاريخ وشعرت بالهدوء. عرفت فيها الطبقة الغنية المختلطة مع عامة الناس من واجهات بيوتهم التي يرى منها البذخ والترف واضحاً. هناك بعض ملامح الزهد، وعند الكثيرين علامات الفقر شاخصة. سرني الاختلاف فقررت السكن فيها. كان عليّ المرور أولاً بساحل «الإسماعيلية» الأحمر، لكن لا أعرف كيف تذكرت نجلاء عاملة المطعم.

ـ أنا الذي ذكرتك فيها.

ـ نعم وشكرا لأنك ذكرتني، ولكن أرجوك دعني أكمل.

ـ لماذا لا تريد مشاركتي الكتابة؟

ـ لأنك تشوش أفكاري.

ـ قُلْ تريد تجاهلي...

كان الوقت يمضي وكنتُ بحاجة إلى الراحة والتفكير. ما زلت أسير دون هدف ولا غاية. رغبتي في الاستمتاع تزداد. أماكن تحقق غاياتي؟ وما

Telegram: Somrlibrary

كتبه لي صاحب الكشك من عناوين تكفي لأسابيع إن لم أقل أشهرا. فكرتُ في كورنيش الإسكندرية بعد سماعي من صاحب سيارة الأجرة يقول: «هو ممشى رحب لمن على شاكلتنا يعتبر من أجمل شوارع الإسكندرية».

لحظة وصولي عرفتُ صدق كلامه. على مبعدة خطوات قرأت: «تم بناء كورنيش الإسكندرية في فترة وزارة إسماعيل صدقي باشا في عهد الملك فؤاد الأول وقد أنشأ الكورنيش في ثلاثينيات القرن العشرين وفي التسعينيات تمت إضافة أجزاء جديدة للكورنيش ابتداءً من منطقة الشاطبي حتي منطقة المنتزه». زاد السائق على ما أذكر: «كورنيش الاسكندرية هذا يطلق عليه الآن الشارع العسكري وهو الممتد على طول بحر الاسكندرية يكثر فيه الناس صيفاً وشتاءً؛ لا لشيء فقط للتمتع باللقاءات والغزل أمام مناظر البحر الأبيض المتوسط»...

فعلا كان الكورنيش طويلاً جداً على ضفتيه تكثر المقاهي وأماكن المتعة...

تعلو أصوات القهقهات!!

واصلتُ المسير حتى عرفتُ أنني قد دخلتُ حي المنتزه. وهو الحي الوحيد في المدينة الذي يأخذ أكبر حصة من الاهتمام من قبل التجار؛ فمن الناحية التجارية هو المار في الاتجاه الأفقي بجانب شارع أبو قير والطريق الدائري وطريق ترعة المحمودية، وكل هذه المناطق تزدحم بالسكان أغلبهم من الطبقة الغنية ومتوسطي الدخل. هذا ما شعرتُ به من لمعان العمارات العالية والفنادق العريضة بواجهات ملونة ومرتفعة.

عرفت حياة الراحة تسكن بيوتهم والسيارات الحديثة المركونة إلى جانب الشارع تؤكد ذلك، وأكثر ما رأيت في ملابس الرجال كما النساء الترف.

Telegram: Somrlibrary

وفي طريقة عرض الباعة للبضائع من خلف زجاج محالهم دليلاً على الثراء.

شعور دفعني إلى دخول محل يبع معدات وملابس سباحة. بحركة ما تعرفتُ على البائعة «موني» فتاة كانت تكبرني بتسع سنوات في الثلاثين من العمر سمراء تميل إلى الحمرة بعينين سوداوين شعرها الأسود طويل. لها وشم في أعلى ذراعها الأيسر على شكل طائر. تمنيتُ لو عرفتها أول ما وطئت قدماي أرض مصر. تمنيتُ منها أشياءً كثيرة، ولكن الوقت لم يسعفني ونصفي الآخر لم يكن معي.

ـ كنتَ شاباً خجولاً معها..

ـ وأنتَ روح ذئب في إنسان.

ـ هاهاهاها توسلتني كي تغدق عليها بالقصائد والغزل.

ـ كنتُ

ـ مازلت.

ـ لا أسمع.

Telegram: Somrlibrary

2

أتصوّرني البطل الوحيد في الخرافة والمؤهل الأول للاستمتاع بالحبّ، من غير شك في لعبة الأفكار تصير النفوس أوتاراً يلاعبها البال، كانت الأجواء تعزف أناشيد غريبة لذيذة في سماء تبدو متأرجحة تارة متطابقة وأخرى مختلفة. ابتعدتْ العين باحثة في مغريات المشهد، تتحرى عن مصدر الصوت الضاحك، صوت قدر له أن يمرَّ بجانبي. ضحكتها تشبه صوت الماء تميل إلى الرقص أكثر من الغناء تحب الشراب الأحمر ولحم الريش. ما أسعدني. وآه من هذا الشعور اللذيذ! وافقتْ على رفقتي كنا ـ أنا وصاحبة الوشم على شكل طائر ـ نضحك كثيراً عند ساحل البحر كانت ترقص وتغني وتلعب بشعري ممازحة، ولما سألتها عن سبب سعادتها قالت: «تعجبني لا أكثر». تمنيت لو أعرف أحداً ما يدلني على فسحة خالية من الناس أحصل فيها على المتعة. «المكان!». كيف لي أن أجد المكان الخالي من الناس لتزدادي سعادة؟ «استأجر شقة». لم تمض أكثر من ساعتين حتى جاءت هذه الفكرة. ذقت فيها عصارة ثمارها، مازال في الشفاه طعمه.

ـ هئ هئ هئ.. لماذا اختصرت حديثا كان أكبر همومك؟؟

ـ يمنعني الخجل

ـ اكتبْ تلميحاً

ـ كيف؟!!

ـ اكتبْ: «دخلتْ معها ـ وأنا معكما ـ الشقة والتصق وجهها بصدرك

Telegram: Somrlibrary

ولم تقم بأي حركة تذكر وفجأة رميتَ وجهك المتعرق بوجهها فاعتصرتْ الشفاه بعضها والتصقتْ الأجساد جداً، كانت حرارتك قد ارتفعت. تذكر كيف كانت تتأوه تحت جموح خيولك المفترسة، وكيف كنت تزأر على سطوع رقبتها، حتى تركتَ أكثر من أثرٍ فيها وتحديداً على عري ذراعيها. أذكر كيف خلعت ثيابها قطعة بعد قطعة. سحبتها وأنتَ تلتصق بها إلى غرفة تبينت أنها الحمام. غيرتَ اتجاهك ملتصقاً بها ودخلت معها غرفة كانت بسرير واحد فجأة رميتها بحركة كانت أكثر من رائعة.. كنت فوقها تمطر طراوة لحمها بالقبلات وتعصر يديك نفور نهديها. تذكر صاحتْ: «آه؟». خفتَ لجزء من الثانية وقلتُ لك أكمل فهي متمتعة لا متألمة ولا خائفة. غرزتَ يديك حينها في مفارق محاسنها وفعلتَ فعلتك التي أدهشتني! إذ قمتَ بحركة لولبية لحظة حملك للفتاة ورميها على وجهها وكانت نهاية بداية جلوسي أمامك مطمئناً ستكمل المشوار على أفضل ما يكون وقد فعلت». أستطيع الآن سحب الهواء والسير ببطء. ما شئت أفعل بخطواتي فوق الرصيف، يحاورني ولا أصغي، وعند عبور الشارع أميلُ على عتبات أبواب المحال، وأحياناً كنت أعرض نفسي أمام زجاج المحال نفسها لتنعكس هيأتي. تلك التي صارت تشبه ذكور الطيور في الحدائق المفتوحة. رأيتها مصممة على فضح نشواتي المبررة وغير المبررة أمام عيون المصريين والأجانب. هكذا يفكر الآخر في الهوى، كنت كمن يصمم على إلحاق الإهانة بذاته دون علمه. أو بالأحرى ما كان التفكير يعرف طرق الفوز أبدا، تلقائيا شعرت بالجوع. وقفتُ أمام برج من اللحم المقدد أمام النار. رأيت الأجانب يلتهمون السندويشات بنهم مفرط.. النساء تدفع اللقمة دفعا بجوف الأطفال، والشباب الجائع يضحك للفتيات، لكن لا يأكل شيئاً. سألت المسؤولة عن ماكينة الحساب:

ـ أحبها محترقة..

Telegram: Somrlibrary

هي تنظر للجرارات؟؛ تخرج عملات معدنية صغيرة وتدفع عملات ورقية كبيرة تتصنع الابتسامات وتردد:

ـ شكراً.. أهلاً..

عدت بالسؤال:

ـ أريدها محترقة.

ـ انتظر..

الشابة الجالسة وسط الزبائن تراقبني بحرص وتضحك، كانت سمراء تلبس البرتقال الغامق. حول عينيها هالة سوداء. تلف شعرها بشال أخضر. شعرت أن وقوفي هنا محط سخرية. غيرت مكاني، وفي الحال توجهتُ إلى الداخل. لم أجد من ينتبه إلى حاجتي؛ الكل منشغل بالطعام يحاور من كان معه.. قررتُ الخروج والعودة إلى الباخرة. استأجرت سيارة أجرة وفي الطريق وأنا ألمح المصابيح المتوهجة التي كانت تضيء الشوارع سألني السائق والابتسامة لم تفارق وجهه:

ـ من أي بلد أنت؟

ـ من الأردن

ـ « أكدع ناس»

ـ لستُ أردنيا..

ـ من أين؟

ـ قُلْ أنتَ

ـ سوري؟

ـ نعم

ـ « أكدع ناس»

Telegram: Somrlibrary

ـ لستُ سوريا

ـ ليبي؟

ـ نعم

ـ «كِده «بَ ء ه» هم أكدع ناس»

ـ لستُ ليبيا

الغريب أنه لم يشعر بالإهانة، ولم يظهر عليه علامات غضب ولا عتب على العكس تماماً كان بشوشاً ضحك ملء شدقيه، وقال:

ـ كلنا إخوة..

وصلت منطقة ميناء «الأباري»، وأول ما تذكرت نجلاء عاملة مطعم اللحم المشوي والأكلات البحرية توجهتُ الى المطعم، يدفعني الجوع والرغبة للحديث معها، وفي البال رغبات أخرى تمنيت تحقيقها بعد كشف نواياها التي كشفت لي منها القليل.. ها أنا ذا وسط المطعم وأول ما رأيت وجهها «المملوح» يتقدم نحوي يثبتني مكاني، وعلى محياها ابتسامة عريضة. ضربتُ يدي بيدها مصافحاً. كانت ترحب ضاحكة وهي تَجرُّ يدي إلى طاولة عريضة قريبة من براد مملوء بالعصائر والمشروبات الغازية. جاءتْ فتاة أخرى أطول من نجلاء وأكثر سمرة وضعت أمامي الماء وصحناً فيه ورق الخس والزيتون وآخر فيه الخبز، وسألتني عن حاجتي؟

وددتُ القول: «لحم خروف مشوي». إلاّ إن نجلاء سبقتني في الكلام:

ـ يحب «الجمبري»..

الحقيقة نعم أحبُ الأكلات البحرية، لكن كانت رغبتي شواء اللحم، ولما قالت بلغة واثقة. لزمتُ الصمتَ ورضيتُ بما وصلني من طعام جربته عصرا وكان لذيذا كسابقه. صرتُ أبحث عن فرصة للحديث معها وللأسف

Telegram: Somrlibrary

لم تأتِ.. ويبدو الوقت الذي أنفقته مع الطعام كان مبالغاً فيه لمن كان يراقبني من خلف طاولته العتيقة؛ وهو رجل مسنّ، ينتهي عنده زبائن المطعم يحاسبون قبل خروجهم. عدتُ سيراً على الأقدام إلى الباخرة.

وجدتها شبه خالية من الطاقم، لم يكن فيها إلّا الخفراء؛ واحد على السطحة يجلس على كرسي قرب سُلّم الصعود يراقب المارّة، وآخر في قسم الماكينات يراقب مولدات الطاقة الكهربائية والثالث في برج القيادة يلتقط ويسجل كل إشارة محتملة من البواخر الأخرى، ولا أعلم هل هناك من بقي من البحّارة في كباين النوم أم أنهم جميعاً خرجوا؟. سألت عنهم أبو عفيفة وهو البحّار الأول، كان جالساً على كرسيه قرب السُلّم فأجاب:

ـ أغلبهم ذهبوا إلى فندق سيسل.

ـ ما هذا الفندق؟

وقف وقال:

ـ جاءهم أحد عمال الميناء وأخذهم جميعا..

ـ ما ميزة هذا الفندق؟ وأين يقع؟

ـ لا أدري..

ثمَّ زاد بعد الحاحي عليه:

ـ سمعت العامل يقول لهم: «فيه كل ما تحتاجون حتى سماسرة تأجير الشقق المؤثثة تجدونهم في هذا الفندق».

«يمكن لرحلتي على طولها لم تكن نافعة مثلما ستنفعني لو لحقت بأصحابي». فكرتُ وفي الحال رجعتُ إلى الشارع، ولكن تذكرت عليّ الاستحمام أولاً ثمَّ تغير ملابسي التي تعبت معي من البحث. عدتُ وبسرعة خاطفة تجهزتُ وعلى عجلة خرجت من الباخرة إلى الشارع واستأجرت سيارة أجرة وبغضون دقائق وصلتُ «محطة الرملة». واجهة

Telegram: Somrlibrary

الفندق العريضة من الزجاج الأزرق الشفاف، منتصباً عند منعطف شارع ثلاثي الاتجاهات يقابل الحديقة العامة، تظهر منه شرفات مطرزة بنقوش فرعونية وإضاءات ملونة. شيء لافت للنظر: أناقة البناء وحداثة التصميم. ضخامة في الموجودات. تثير في السائح الفضول لمعرفة ما يخفيه هذا الصرح الكبير من معالم أخرى في داخله. إلى اليمين من الباب الرئيس كانت الكافتيريا وفيها بعض الزبائن يشربون القهوة والمشروبات الغازية ويتناولون المأكولات الخفيفة والمرطبات. أغلب روادها عائلات باذخة، قريباً منهم رأيت كراسي من الخشب المنقوش بالذهب يشغلها أجانب وطاولات طويلة عريضة مملوءة بقناني الجعة من نوع «ستلا». دخلتُ صالة الفندق ومشيتُ خطوات على بلاط من مرمر أبيض. إلى يساري لمحتُ قسم الاستقبال، توجهت إليه والأفكار تزدحم في رأسي. رأيتُ شاباً يقف خلف عارضة من الخشب نقشت عليها نقوش ذهبية تشبه نقوش الكراسي والواجهة الزجاجية للفندق، وسألته عن أفراد الطاقم؟ ضحك وأشار بيده الى الأمام وقال: «كلهم مع السيد جون». هو يشير صوب سلم يأخذني الى الأسفل!! عدتُ برأسي اليه فسمعته يقول: «نعم هناك»..

3

كان السُلّم من الحجر. أخذته درجة بعد أخرى. في خطوات كبيرة وصلت إلى بابٍ من الخشبِ لونه لون القهوة فاتح، فيه من النقوش عبارة عن رموز لم أفهمها. عمودي الشكل له هيئة فاخرة، مزلاجه منقسم إلى قطعتين محاط بزجاج مظلل. دفعت التي على اليمن فانفتح الباب وإذا بي أشاهد قاعة تضج بالناس من كل الأعمار والجنسيات ورائحة سجائر ودخان وقناني مشروبات. وخلف طاولة طويلة في رفوف من الزجاج الأبيض الشفاف شاهدتُ ضوءًا أحمرَ خافتاً مسلطاً على قناني مختلفة الأحجام والأشكال فيها من الشراب الأبيض والأحمر وألوان أخرى. إلى جهة اليسار كانت الصالة دائرية الشكل تزدحم بالراقصين، يبدو أنهم فقدوا الإحساس بمن حولهم منصهرين مع موسيقى كانت أكثر من أن نسميها صاخبة؛ فيها صوت إيقاعات تهز الرأس قبل الأبدان. شاغلتني فتاة ممتلئة تميل إلى السواد ثوبها المرصع باللمعان يصعب التركيز فيه. كانت الأضواء تبرق في عينيّ حين وضعتْ يديها على كتفيَّ وطلبتْ مني الرقص. لم أستطع الرفض، وعلى قرص زجاجي رقصت مع الراقصين في جنون مفتعل كنت أصطدم مع الرجال مرة ومع النساء أخرى. «أعتذر». «أين كنت؟». «تجولتُ في المدينة». كان أحد أفراد الطاقم يعمل مهندساً متدرباً، وبعد التحية السريعة سألته عن الباقين فأشار إلى ركن يقع في أخر القاعة. توجهتُ والفتاة الممتلئة تتبعني إلى مكان جلوس أصدقائي. رأيتهم قد تجمعوا حول طاولة طويلة، يبدو من حجمها المبالغ فيه أنها قد صفت

Telegram: Somrlibrary

ثلاث طاولات مع بعض، امتلأت بالجعة من نوع «ستيلا وبكس بير» ومقبلات منوعة. جلستُ وحطتْ الفتاة في حضني فجأة. مازال جسدها الطري يناغم الموسيقى الصاخبة. لم يمض من الوقت أكثر من دقائق حتى خرجتُ أحمل في ذهني مكان تواجد جون... وقد ألمح إليّ أحدهم إلى كيفية التعامل معه، زد على ذلك تحذيرات رئيس المهندسين من أن طريقة التعاقد مع جون السمسار تحتاج الحزم والمجادلة في السعر.. قال: أغلبنا استأجر منه الشقق بسعر جيد. حملت كل الوصايا منتشياً في خيالي ألمس القادم وخرجتُ من الصالة مثل الراكض إلى غرفته المعلقة في الطابق الثالث من الفندق. طرقت الباب، انفتح.. وإذا برجل أحمر سمين مكشوف الصدر علق في رقبته قلادة من ذهب كانت سميكة. سألته عن حاجتي إلى شقة. رحب بي وأدخلني الغرفة وفي غضون دقائق سلمني المفاتيح وبيدي ورقة عقد الإيجار وقد ختمها بختم الفندق وتوقيعه. لحظة أو أكثر سقطتْ من يدي الورقة. انحنيت لأخذها، فشعرت هناك من يقف عند رأسي؟ لمحتُ تحرك حذاء أسود بكعب عال بريقه يكشف أنه من النوع الفاخر تنتعله ساق سمراء لامعة! رفعتُ رأسي مستفهماً؟ حركتُ عينيّ الى الأعلى، حينها رأيت أطراف الثوب الأسود اللماع يلفُ جسداً شهياً. وقفتُ فوجدت الفتاة السمراء التي راقصتني قبل قليل. كان لوجه هذه السمراء لمعان غريب غير متكلف بالمكياج، كثيرة الابتسامة، طفولية الملامح، ومع ذلك لها عذوبة في الصوت تدلل المسامع. تضحك وكأنها لا تستطيع الكلام.. كانت تنظرني باستطلاع ثابت، وهي تضع يدها في يدي وما زالت تتفرس بي قالتْ:

ـ بحثتُ عنك..

ـ خرجتُ من أجل هذه..

ـ وإلى أين الآن؟

Telegram: Somrlibrary

ـ إلى شقتي الجديدة

ـ أتشعر بالتعب؟

ـ لا.

ـ إذن؟

ـ ماذا لو طلبتُ منكِ الذهاب معي؟

ـ ولكن!

ـ أرجوكِ فأنا جديد على المدينة ولا أعرف العنوان.

ـ إن كان ذلك.. نعم.

بدأ تفكيري يتوهج. رأيت الأشجار تهتز لي طرباً وسطح البحر الأبيض المتوسط يدفع بالموج نحو الساحل الرملي بدافع غيرته مني. «نعم» قلت في نفسي. «في يوم واحد فعلتُ مالم أفعله في اثنين وعشرين عاماً من عمري» كنتُ مشغولاً بي أكثر حتى من العمر الذي مرَّ على هامش الحياة فوق أرض المنعزلين. منذ الساعات الأولى وأنا أصادف الجمال وتصادفني النساء. «اهدأ» قلت في نفسي. لا أهدأ أبداً، ولكن لم أشعر بالتعب. الساعة تجاوزتْ الواحدة بعد منتصف الليل ومازال في القلب من النشاط مالا ينتهي. تفكيري يزداد توهجاً، اقتربتْ سيارة الأجرة من مكان سكناي الجديد. بدأ القلب يزداد صهيلا. منعطف آخر يؤدي بنا إلى منطقة ميامي المطلة على البحر، تشكلتْ سعادتي في وضوح أكثر من قبل، رأيتُ حسن الطالع بعينين مشرعتين، شعرتُ أن ليلتي ستكون طويلة، عرفتُ إنما كانت الأقدار تعاكسني لتترك لي فسحة لابد لي من التمسك بها. وَصلنا باب العمارة التي تقع شقتي فيها عند الطابق الرابع: «قفْ». البواب يستفسر عن علاقتي بالفتاة التي ترافقني؟ لم يكن لي من جواب سوى أن أعرض عليه ورقة عقد إيجار الشقة، لكن لم يكن يرضى بتجاوزه قط. من الداخل كنت

Telegram: Somrlibrary

أشتعل غيظا؛ أحترق ببطء، لم أستطع لملمة نفسي المبعثرة بين الرغبات والغضب، لقد حل الفشل على ما يبدو محل النجاح، شعرت بالعار أمام فتاتي وبدأت قدراتي على الصبر تضعف. أمام بواب العمارة هذا العنيد كنت...؟. هذا الرجل الذي يلف رأسه بقطعة قماش بيضاء مخططة بالأسود، كانت طباعه حادة. حادة جداً، كنتُ مستعداً للمشاجرة وهو يقف أمامي ويمسك بيده اليمنى طرف «كليبته» السوداء وبالأخرى يومأ بيده إلينا إلى الخارج، صوته المجهور كان يطلب مني الرجوع من حيث أتيت!.....

ـ ما بك؟؟

قالتْ عزة في أذني.. لم أفهم ما تعني حتى قالتْ:

ـ أعطِ الرجل ما يريد.

ـ ماذا؟

ـ المال..

بالفعل كانت عزة على حق، فما أن دس بواب العمارة بجيبه المبلغ الذي قدمته له عن طيب خاطر حتى تغيرت نبرة صوته وبانت على وجهه بشاشة أذهلتني، الغريب أنه كلمني عن مغامرات أصحابي كلها في العمارة نفسها، وقال عنهم «حبايبي». ذكرَ أنهم وصلوا عصراً وخرجوا بعد ساعتين. وقد طلبوا منه تجهيز شققهم بالطعام والشراب. كان مرتاحاً جداً وهو يحدثني عن خدمته لهم. صعدنا الدرج وهو يتقدمنا حتى وصلنا باب الشقة، وقبل الدخول قال بصوت ضاحك:

ـ «أي حاجة» أنا بالخدمة. ليلاً أو نهارا سأكون متواجدا..

في الشقة تجد كل شيء نظيفاً مرتباً وأغلب ما تحتاجه متوفر. مستلزمات الطبخ والبراد. الحمام ومستلزمات التنظيف، وفي الصالة كانت ثلاث أرائك من الجلد الأبيض مختلفة الأحجام وبعض كراسي صغيرة من

Telegram: Somrlibrary

الخشب الناعم وطاولتين واحدة للطعام وأخرى عليها التلفاز. إلى اليمين في زاوية قريبة من الباب الرئيس كان الهاتف الأحمر، وقد رنّ للتو؟ رفعت الحاكية عزة ولوقت من الهمس والضحك عادت الحاكية لمكانها، وحين سألتها عن المتصل أجابتني هو البواب يسأل عن الماء وخدمات أخرى. «ماذا يقصد بخدمات أخرى؟». أجابتْ وهي تغمز بعينها: «أي شيء». ضحكنا من تغير حاله وبدأنا نتفقد الشقة، وجدنا غرفتين للنوم؛ غرفة صغيرة بسرير واحد وفي الأخرى الكبيرة سرير أكبر لشخصين وخزانة ملابس وطاولة وكرسي، وهناك النوافذ المطلة على البحر يفصل بيننا شارع عام بخطين: ذهاب وإياب يزدحم بالسيارات طوال اليوم. كانت عزة بشوشة الوجه مرتاحة. رأيتها مستلقية على الأريكة من دون صوت كانت تضحك. جلستُ إلى قربها. لمستها. ارتدتْ وفي الحال وثبتْ من مكانها وانطلقتْ راكضة إلى الحمام تقول: «انتظرني». خلعتُ حذاءي وملابسي ووضعتها إلى جنب، ثمَّ استلقيت مثقلاً على السرير بحثا عن الراحة؛ لكن كنت منتبهاً، مشدوداً إلى اللحظة المنتظرة. ولما ظهرتْ عزة مثل نهر رقراق شعرت بنسمة باردة مرّت على شعر صدري. كانت تنشد الأغاني متحررة من قيود ثوبها الأسود. رأيت صفاء جسمها الأسمر. رقصتْ مثل سنبلة وسط الريح العاصفة تميل يميناً ويسارا، لا تنكسر كالأشجار التي تملك الألوان صعدت على الطاولة وصارت أطول مني. الحاجة لا تبوح بسرها إلّا أني لم أستطع الصبر ولا التحمل أكثر. طلبتُ منها النزول ففعلت. كانت مثل الليل تمدّ بجناحيها لتحتويني. أحببتُ تقاسيم ذراعيها العاريتين وخصرها المهتز وهي ترقص على إيقاع شرقي. بطريقة محترفة كانت تنحني وتقف. تميل وتستقيم. تدور وتقف كانت تضحك مرة وأخرى تلمسني في شعور غير مبتذل ثمة حميمية اشتعلت في المكان ولا طاقة لي على الصبر. نهضتُ وتقدمتُ نحوها.. أمسكتها من الخلف وسحبتها إلى صدري. مرونتها العجيبة أتاحت لها التحرر من لهفتي وصارت قبالتي تلصق

Telegram: Somrlibrary

يدها على وجهي تخطُّ بسبابتها خطوطاً رسمتْ بها نهراً على خدي. صدم صدرها صدري وعلى طعم الثمار الدانية تبادلنا القُبلات. الظلام كان عجيبا، ولكن فجأة سمعتُ طرقاً على الباب بقوة، كاد الصوت أن يسرق أنفاسنا! فتحتُ عيني وفي الحال لبستُ ما استطعت من ثيابي وفتحتُ الباب؟ كان أصحابي البحّارة قد وصلوا للتو سكارى يقودهم البواب؛ يطلبون التحاقي بهم إلى غرفة رئيس المهندسين حتى نستطيع أن نكمل السهرة بصحبة فتياتهم. رغم رفضي متحججاً بالتعب إلّا أنهم لم يتركوا لي مجالاً.. حينها رأيت عزة منزعجة وقد تملكها شعور مبهم. كانت ترتجف وهي تلبس ثيابها مشوهة الملامح شبه غاضبة تكلمني بعصبية مفرطة عن كرهها لرجال لا تحترم نساء دفعتهن الحاجة إلى تقديم الخدمات؟. طلبت منها تفسيراً. انفجرت في وجهي:

ـ ما الذي تريد فعله أنتَ وأصحابك؟

ـ ماذا؟!

ـ تجمعوننا كالقطيع لإرواء شهواتكم..

حاولتُ نكران ذلك. وأنا أقول صادقاً إنها على خطأ، وأنه لا يوجد مثل هذا التفكير قط. ولكن حين تغضب المرأة يغادرها التفكير. أخذت الباب بقوة خلفها وغادرتْ دون أن تسمع مني كلمة واحدة. شعرت بصداع قوي في رأسي. دخلت الغرفة مهموماً. وجدتني متعبًا أشعر بالإعياء. نظرت إلى ساعة يدي. الوقت تجاوز الثالثة صباحاً بقليل. ينتظرني العمل الشاق على الباخرة صباحاً عند الثامنة، «لماذا؟». أنا أفكر بحادثة عزة مستلقياً على السرير غفوتُ ولم أصح من نومي العميق إلّا قبل منتصف النهار بقليل. فزعتُ وفي الحال توجهتُ إلى الباخرة. كالعادة كنت متأخراً، ولولا وجود رئيس المهندسين معي في غرفة الماكينات وتأجيل تكليفه لي بالعمل حتى الثامنة مساءًا لتلقيت استفسارا من الربان وعقوبة اقتطاع أجرة ثلاثة أيام من راتبي..

4

من فرط الانفعال فرحاً بالوصول مددتُ يدي في سعادة كبيرة أعبُّ الهواء إلى صدري، والأخرى ترسم على الطبيعية ابتسامتي المؤثرة في شراهة مفرطة أصختُ السمع إلى أبعد أو أقرب تنهّدات البحر الصادرة من أعماقه إلى السطح. تموجات مغرية مختلفة متقاربة تشبه إلى حدٍ بعيد تلك التي نعرفها عند الشهوة. ترفعني فكرة الملمس الناعم والرائحة الشهية مثل الطفل إلى حد التسلية. سكنتُ في الشقة ـ التي يفصلها عن البحر الأبيض المتوسط شارعين ـ طوال مدة تواجدي في الإسكندرية اللذيذة، ورغم طباعي التي ترفض الالتزام بالوقت والأنظمة البحرية داخل الميناء. كنت مثل الطائر من منطقة إلى أخرى أتنقل بين يدي نجلاء. داخل المدينة رأيت الحياة أجمل من ذي قبل. عدتُ إلى البحث عني في نجلاء، بعد يوم ضاع فيه الوقت قادتني وحدتي إليها. هنا ونفسي تسبقني إلى هناك. كانت موني صاحبة الوشم أو سمار عزة التي لا أعرف أين هي الآن؟ أعبر الشوارع في جموح. كنت أجري. أنشق الهواء ملء صدري أشمُّ مصر وهي تبادلني الحب بحضن أكبر. سبعة أيام بلا كلل ولا ملل أقفز من مكان إلى آخر. أسابق الوقت أحاول ألّا يسبقني. عرّجتُ على أماكن أثرية وأخرى سياحية ونجلاء لم تفارق يدها يدي تمسكني بقوة كي لا أضيع ضاحكة في كل منعطف ومنحدر وشارع كانت تغازلني. حتى بعد ممارسة الحب بوحشية مفرطة كانت تأخذني بنشاط عجيب إلى ممرات وبواطن جنوب شرق مصر.

Telegram: Somrlibrary

رأيت الميادين والحدائق والسواحل والمقاهي والحانات والشوارع المزدحمة بالناس، مررنا بالجيزة حيث الأهرامات. مذهولاً أمام سور هذه الحقائق المدهشة! تثير غرابتي الزوايا الحادة لهذا البناء العمودي من حجر تزن القطعة منه تقريبا تسعة أطنان أو أكثر بقليل. كُتبَ عليها: «هي مقابر ملكية يحمل كل منها اسم الملك الذي بناها وتم دفنه فيها: خوفو. خفرع. منقرع». وهم ملوك شيدوها قبل عشرات القرون قبل الميلاد، وهي تقع على الساحل الغربي من النيل في مقابر عالية كبيرة، أطلق عليها اسم الأهرامات. ولا أدري من أين أتت هذه التسمية سوى ما عرفته من الدليل السياحي الذي كان يشير إلى أن مصدر ذلك الاسم هو شكلها الهرمي. وأتبعَ ذلك بإشارات تُحيل على ارتباط المكان بغير قليل من الدهشة والغرابة وعالم من الأساطير الكثيرة؛ مما يتصل بقصص ملوكها بالآلهة حسب معتقدات الفراعنة القدامى؛ ومن ذلك الإله «رع» الذي حكم الأرض وما تحتها وما فوقها، وكان يرمز له بالصقر. ما زلت أتذكر تلك الحادثة التي أضحكتْ نجلاء كثيراً والدليل السياحي أكثر حتى السائق الذي كان صامتاً طوال الوقت شعرتُ به قد تحرر من صمته لحظة ما عدتُ من غيبوبتي، أو سمها ما شئت، وهي ما كانت إلّا دقائق ولكن هل اتفقوا على تصديق ما حدث لي؟ أم اختلفوا فيما رأيت؟ منهم من قال محال انتقال الإنسان الى هناك، ومنهم من قال لا وجود لمثل هكذا خرافات، ومنهم من لزم الصمت وقسم آخر أكد على أنه ممكن. في تلك الأيام كان بعض من أصدقائي ينظرون إلى الكذاب بطريقة فيها إشفاق. شعرت ببعض النظرات كانت مبتذلة.. تصورني أكذب!..، ولكن الذي حدث قد حدث.. أتذكر تلك الأحداث جيداً. أتذكرها وكلي غرابة: كيف؟ ولماذا؟ لا أدري. وهل كان المقصود فعلاً بتلك الغيبوبة أنا؟ وهل السبب هو هذياني المتكرر بخليط من الواقع والأسطورة والخرافة، وما يتصل بعوالم الآلهة

Telegram: Somrlibrary

المصرية أيام الفراعنة؟ لا أدري. هي كلمات خُطتْ في كتب قديمة، هذا ما كنت متأكداً منه، ولأن التاريخ يكتبه الإنسان شعرت هو مزيج الواقع بالخيال متبدل بالأساطير مخلوطاً بالخرافة بغير قليل من المبالغة في بعض النصوص. وفي بعض الحقائق مازلت أراها جزءًا من أخبار ماضٍ تكلم عنه الرحالة والمؤرخون بشكل يُتيح لأهوائهم الطامحة تحقيق التميز والشهرة، فكانوا يخطون في مخطوطاتهم الوقائع، ولا يجدون مانعاً من الزيادة والنقصان في سرد أحداث ذلك الزمان. وهي حكايات تدعو إلى التساؤل عنها بطريقة متكررة؛ بانفعال وقلق كنت أشعر أن هناك حلقات فارغة تخص تحديداً تصرفات الفراعنة وما أنجزوه، حتى طريق بناء الأهرامات وكيفية إنهائها. لا أبالغ إذا قلت: أشك حتى في الغاية من بنائها. كنت عاجزاً عن إمساك الإجابة الشافية. أكرر الأسئلة مع من يتحدث معي مقتنعاً ببراعة من فكر في هندسة هذه المعالم الحضارية الشامخة. أشاكس من يقول هي من صنع البشر؛ ولغايات معينة قد شيدتْ بهذا الشكل الهندسي. أحياناً أصل إلى بناء قناعة التجاهل ولا أعرف السبب. لا أشك في وجود السحر الأسود والأبيض وهناك ما لا يدركه العقل قد شيدت هذا المعمار. والأكيد أن هناك خرافة تملأ المكان إلى الآن؟ مازلت أحاول مسك الخيوط الأولى: كيف؟ لماذا؟ ما سر انتصاب الأهرامات هكذا؟ ولا أقتنع فقط بملامسة القمة للسماء. هناك تصور ولو بسيط كامن خلف عجائبية المبنى، لكنه يبقى في علم الغيب؟ كنت محتاراً في التفكير. يرميني الشك المتكرر في وحشة الصمت والوحدة: «هل كانوا يعرفون أن بناء الأهرامات سيكون من عجائب الدنيا؟». السؤال يتكرر؟ مدونات كثيرة ومخطوطات أكثر وكتب ملأت المكتبات تحدثتْ عن كيفية بناء الأهرامات وطريقة تصميمها وعن دلالاتها. هناك كما يبدو للبعض: يكمن الحل ويجهل المعنى، بل هناك من يفكر في هذه المادة «الأنثروبولوجيا» ويسلك

في طريقة تفكيره مسلك العقل وقلة يركبون خيالهم لتفسير العجائبية التي تملأ المكان بغرابة الأسباب والدلالات. قدري أعيش اللغز؟ يتصاعد التفكير أحيانا إلى أعلى درجاته، وكأن الذي يذبذبني مس من الجن. سرعان ما يفتر في لجج الصمت الذي يلف المكان، بصورة هادئة ونبرة غير متزنة سألت الدليل السياحي الواقف أمام نجلاء وأنا أشير بسبابتي الى الهرم: «ما معنى هذا كله؟». فجأة وجدتني أقف وسط صحراء حارقة يرتفع الغبار من حولي يحجب عني الرؤية ويثقل الأنفاس، كنت شبه عار! ثمة شيء يركض أمامي! ركزتُ طويلاً... لم أستطع رؤيته جيداً حتى قال: «أنا الآخر». كان لهاثي تسمع أنفاسه. كنت خائفاً من ثور كبير الحجم لونه أسود وبين قرنيه الطويلين شمس يشير نورها نحوي وكأني الهدف. تقدم إليّ راكضاً في سرعة جنونية يحاول الاصطدام بي تخيلته قاتلي لا محالة، ركضتُ هارباً منه لا وجه لي ولا غاية غير التواري عن هذا الخطر، أو على أقل تقدير الاختباء في مكان ما إلى حين، لعله بجلبته يثير انتباه الناس إليه ويهرعون لإنقاذي. من أين أتى؟ وكيف وصلت أنا إلى هنا؟ رميتُ الأسئلة وركضتُ أسرع. كان الثور الأسود الضخم يدفع من منخريه ناراً يثير الغبار من خلفه، وفي هذه الأثناء أختفى نصفي الآخر!، وقد لعنت اللحظة التي أدخلتني هذا المكان الذي لا أعرف كيف ولماذا صرت فيه الطريد الوحيد وسط هذه الصحراء الكبرى؟ صار حالي ميؤوس منه أخاف الموت وحيداً في مكان لا أعرف به أحدا ولا يعرفني أحد، أكرر الصياح: «أينك؟» لا أحد يرد سوى الصدى، يأتيني من الخلف ما يشبه النفخ في النار. سقطتُ على وجهي وبعد جهد من استجماع الأنفاس، حاولت النهوض، ولكني عجزت. أذكر إني صرخت. ثمّ سمعت. «كنت في مكان ترغب التواجد فيه». «لقد تخليت عني». «هذه رغبتك». «بدأتَ تنفذُ رغباتي؟!». «حسب نوع الرغبة التي أراها ملائمة لك؟». «لستُ عبداً لك». «سترى». «اسكتْ

وأنتَ الذي سترى». كنتُ آملُ أن يبرز أحد ما وسط تلك الصحراء لإنقاذي. كنتُ وحدي والتعب أخذ مني كل ما أملك من التركيز والشجاعة. من الصعب تصديق ما حدث، ولكنه حدث.. وأتذكر كيف سُحبتُ إلى باطن الأرض. ولم يبق لي حينها غير الاستسلام إلى اليأس الذي نفذ إلى قلبي حتى عصره. من الصعب عليّ لحظتها مقاومة القوة التي سحبتني. تحدثت عن نفسي بسوء كثيراً.. وفيما بعد سمعت: «نفر.. حتب». يتردد صدى هذا الصوت الغريب في رأسي مثل دوار البحر المتكرر.. كنت كمن يتجاوز الفراغ محلقاً فوق الهواء لا أنا طائر ولست إنسانا. ألمح بين الفينة والأخرى امرأة تجلس على كرسي من الذهب المرصع بالأحجار الملونة. كانت المرأة متربعة في هيئة سيدة تلبس ثوباً أحمرَ قانٍ تعلو رأسها ريشة طويلة سوداء مخططة بالأبيض، تمسك بيدها مفتاحاً وفي الأخرى صولجانا. لن أبالغ إذا قلت أغلب الذين رأيتهم كانوا ركعاً سجداً لها، إلّا ثلاثة كان أحدهم يمسك ميزاناً والآخر في يمناه مسماراً وفي الأخرى مطرقة ينقش بها حروفاً على صخرة، لم أستطع فهمها. والثالث يقفُ خلف الكرسي الذهبي يحمل بيده سيفاً مقوساً بريقه لافت رغم سحر الضياء... لمحته يقطر دماً. فجأة دخل رجل رابع يلبس كما يلبس الثلاثة قناعاً يحاكي وجه كلب. دخل وهو يسحل رجلاً لبسَ البياض عاري الرأس، يبدو مذنباً من هيأته الذليلة حين وصل إلى مربعٍ مخطوطٍ باللون الأبيض يفصل بينه وبين آخر ملوناً بالأسود كرسي المرأة الحاكمة. دفعه الجندي المقنع للركوع أمام السيدة بقوة. تمتمتْ المرأة بكلمات غريبة عجيبة، وأشارت إلى صاحب المطرقة والمسمار وصاحب الميزان الذين انحنيا مطولاً حتى قالت بصوت مسموع: «ماااااعوت». فما كان من السجان إلّا قد ضرب الرجل المذنب على رأسه وجره مثل الفريسة السهلة إلى مكان بعيد!! حينها حجب دخان البخور الخانق عني رؤية ما حدث. ولكن ماهي إلّا

Telegram: Somrlibrary

ثوان حتى سمعتُ صرخة أخرى! صرخة كانت واحدة لكنها مدوية، بعدها عاد هدير التمتمات. عاد بقوة صَكَّ فيها مسامعي. كنت مثل تمثال من الحجر أترقب. رأيت رسماً في أحد الجدران فيه رجل مسجى على ظهره يخرجون قلبه من صدره، وهو مازال ينبض بالحياة ليضعوه على هذا الميزان نفسه وتضع المرأة الريشة المعلقة فوق رأسها على الكفة الأخرى! رأيت أغرب من ذلك! وأقصد كيفية غسل المرء من الذنوب قبل أن يلقى حتفه. إذا كان القلب أثقل من الريشة يعاد إلى صدر الرجل، وفي صور أخرى يرمى في العراء. في الجدار المقابل رأيت العكس فالقلب الذي يكون أخف من الريشة يعاد للرجل ويدفن معه في قبر كبير، ومعه بعض حاجيات كانت ذهبية. شاهدت صوراً كثيرة، ولكني شعرت بالوهن، ولم أستطع التركيز. لا وقت للراحة هناك؛ رأيت نقشاً كبير الحجم لثورٍ وضع بين قرنيه الطويلين قرص الشمس، أحسست به سيخرج من الجدار ليفترسني ولا أدري لم كان يثبت ناظريه ويتوجه بهما نحوي..

خفت كثيراً.

- من أنتَ؟

- ....

ضاع الصوت مني..

- كم عمرك؟

- في العشرين؟

- مع من أتيت؟

- لا أدري.

- ستعاقب على أفعالك.

Telegram: Somrlibrary

ـ ما فعلت.

ـ سترى..

كانت الأصوات تخرج من كل جهات الجدران. كنت أسمع فحيح أفاعي وعويل أناس تتألم. شعرت بدخان يتصاعد من رأسي. عرفت معنى الخوف. بعيداً عن كل الذين أعرفهم رجفتْ، جميعهم يتأملون تعذيبي. لا أحد يزيل الغبار عن وجهي ولا من ملابسي. آثار الألم الذي حل بقلبي زاد احتمالات الموت التي بدت راجحة. شعرت الهواء يشح في ذلك الفضاء وبدأت أتعرق. كاد مغيب الشمس أن يسرق مني نظري، ولكن ظهوراً مفاجئاً لرجلٍ عاري الرأس محمولاً على لوح من الخشب فوق أكتاف أربعة من الرجال، كانوا يلبسون أقنعة تحاكي رؤوس كلاب سوداء، أعادَ لي رؤياي برهة من التركيز؟ كنت أستجمع طاقتي كلها لأرى ما يحدث؟ في صمت ودون أن أحدث جلبة كنت والدهشة ألفة. مازال الخوف يثبتني في مكاني. دققتُ النظر فرأيت أحدهم يتطاير من عينيه شرر يشبه الجمر المتوهج، يحمل في يده مفتاحاً أحمر يتلعلع منه شواظ من نار.. تقدم إلى جثة الرجل فوضع المفتاح على صدر الجثة لحظتها انتشرتْ رائحة لحم يحترق. كان المشهد مخيفا، لم ينته الرجل بعد. رأيته يخرج من حزامه سكيناً وبدأ يشق صدر الجثة، ثم رفع بيده قلبا مازال يقطر دما!! إثر ذلك شعرت بالإعياء، ويبدو فقدت الوعي تماماً. أراني أركض وسط ضباب أبيض أحاول الابتعاد عن المكان. أجري ألهث أتعرق. كنت أصرخ بلا صوت، وأتنفس من غير هواء. كنت أشعر بالموت أقرب من الصوت الذي كان يلاحقني: «ستصحب الأموات إلى قاعة المحكمة وهناك سيبدأ القضاة في استجوابك عن أفعالك». أرجعت البصر كرة وكرتين فلمحتُ ساقا فوق ساقٍ على كرسي من حجر، حينذاك رأيت نصفي الآخر. انفتح لي باب ودخلتُ فسحة كبيرة غنية بالتحف

Telegram: Somrlibrary

والمجوهرات وتماثيل من الذهب المرصعة بالأحجار ورسومات تزين الجدار ألوانها براقة. رأيت أريكة بدتْ شديدة الفخامة والبناء جلستُ عليها متعباً وحينها سمعت: «هذه الإجابات التي أريد؟».

5

أملكُ..؟... كنتُ أملكُ كتاباً يتحدث عن الخرافات والأساطير، ويحكي عن عدد الليالي التي سافرت معه فيها إلى حيث كان يريد، لكني لم أجد فيه ما كنتُ أريد. قرأت عن الأساطير وعن صعوبة التفكير فيها بعقلانية وقد تصيب الإنسان بالجنون، وكنت أعرف إنما تأتي الحاجة إليها من منطلق التشكك في أحداث وقعت، أو من باب ضياع بعض الحقائق، آنذاك تكتسب الخرافة كما الأسطورة سلطتها التفسيرية لملء بياضات لا أكثر. تثيرني طرق حبكها لما فيها من خصائص التصور البعيد، وهو ما يجعلها تثير انتباه الناس وتشغلهم عن حاجاتهم الخاصة، حيث تتشكل بأكثر من شكل، وتأخذ في اعتقاد الناس بها أكثر من حجمها، ولها طرق متعددة في الانتشار ومما أتذكره أقوال تستدعي تفكير أهل الاختصاص للفصل بين ما يعد نصاً له أصل، وما يعد خرافة: «اذكر الله، ورش الماء عليها». هكذا كانت أمي تقول.. أين الماء؟ كنت أبحث أمام الأريكة الفخمة وتحتها عن الماء حتى يئست من البحث ففكرتُ في الدعاء وذكر الله وقراءة ما أحفظ من كلامه المقدس، ولكني سمعتُ صوتاً ناعماً يشبه الهواء خفيفا ينادني باسمي! من كشف أسراري؟ اختفى نصفي الأخر وصار الكرسي الكبير المرصع بالأحجار الملونة فارغاً. كان الصوت من فرط ما فيه من الجمال قادراً على بعث الهدوء في المكان، كان يشبه الضوء يظهر مرة ويختفي أخرى. يسحرني بعذوبة نبرات نغماته وهو يناديني باسمي ويردد:

ـ تعال.

Telegram: Somrlibrary

ـ كيف لك معرفة اسمي؟

خرجتْ من بين رسومات الجدار فتاة كانت شبه عارية باهرة الجمال طويلة.. ليست طويلة.. سمراء.. وليست بسمراء؟! لا أدري.. كانت تتشكل بأشكال وألوان مختلفة؟!وقفتْ بثوبها المخملي الأحمر فوق الأريكة الفخمة وقالت: «دعوتني؟». لم تنتظر مني جوابا. في الحال نشرتْ ذراعيها العاريتين في الهواء، فتوهجتْ مصابيح ملونة عندها استضاء المكان. رأيت فتاة فاتنة الجمال بوضوح تام كان في عينيها الملونة اختلاف؛ واحدة خضراء وأخرى سوداء، لمحت بريق مودة. شعرها الذي يشبه الليل كان يمتد إلى خصرها الممشوق المقوس، كان يشبه الكمنجة لوناً وشكلا، يتحرك برشاقة أمام أنفي. لم يساورني القلق تجاهها كنت مثل الأبله فاغراً فاه يريد الانقضاض عليها. كانت تردد اسمي وكنت أتكلم عني وعن كل حياتي القديمة وأسرارها. أتذكر جيدا لماذا ضحكتْ؟ ضحكتْ لأني ذكرتُ لها كيف مارستُ الجنس أول مرة وكيف كنتُ مندفعاً حينها لأعرف ما معنى هذه الكلمة وما تأثيرها عليّ واستغرقتْ في الضحك حين قلتُ: «والغريب صرتُ أكرر الممارسات، ولا أعرف إلى الآن ما معنى ذاك التكرار». كانت فقط تكرر اسمي وأحياناً تقول: «تقدم.. كل شيء مباح». كنت باهتاً أقف في مكاني أحكي تفاصيل حياتي منصاعاً لها وكأن شيئا خفيا يدفعني للكلام عني مبهوراً بها. كنت مملوكاً لها أطلق العنان لنفسي كلما لمحتني بطرف عينيها الملونة. أضحك كلما عادتْ بشعرها إلى الخلف وأتسمر كلما انحتْ لي لأرى نفور نهديها؛ فقد كنتُ منصاعاً.. مملوكاً.. منبهراً يدفعني......؟ لا أدري ما كان يدفعني. ولكني كنت متأكداً في تلك اللحظة لم يكن لدي قلق منها. شعرتُ معها برفقة جميلة فترة طويلة، ولذلك لم أكن في حاجة إلى الانزعاج. فاستشعرتْ حاجتي وقالتْ:

ـ ستكون معي.

Telegram: Somrlibrary

بعدها مثل الريح هبطتْ من على الأريكة الفخمة وتقدمتْ نحوي.

- ستكون معي..

كانت تكرر.. في كلامها والهواء يحملها لي! أعتقد اخترقتني دون شعور مني!! رحتُ مثل غريق في بحر من الشغف فتحتُ ذراعيّ أحاول إمساك جسمها. حلمتُ بها تحت جسدي تتلوى، تصرخ يحاصرها فمي.. أغمضتُ عينيّ بقوة وشعرتُ أن اللحظة قد حانت. فجأة رمتني كدمة قوية إلى الأرض ولم أفق إلاّ فوق ظهر الثور الذي كان يطاردني!

- «كادت تسرق حياتك»

حدثني الثور.. غضوباً.. فأجبته:

- من؟

- النداهة.

- الحقيقة أخافك أكثر.

- لا تخف مني، بل خف من نفسك التي رمتك هنا، فأنت هنا المطلوب لتكون «نفر حتب».

- نفر حتب؟؟

- نعم وأنت هنا قربان جميل لها.

- من أنتَ؟

- عد من حيث أتيت فهذا ليس عالمك.

- من أنتَ؟

- إله الخصب.

- إله!!!!

- لا تبدأ عادتك ـ الشك وكثرة الأسئلة ـ وإلّا عدت الى باطن الأرض.

ـ ولكن

ـ ا.. ر.. ح.. ل.

في ذلك اليوم أفقت على ألم أسفل ظهري. مثل مخدر الأطراف بقيت (مبنجا) حتى العصر. في المساء شعرتُ بحاجتي إلى استنشاق الهواء. خرجتُ إلى سطح الباخرة وهناك وقفت عند مقدمتها ناشرا ذراعيّ ألمس التحليق في خيالي. كانت الأجواء منعشة والسماء شلال ضوء، وأبعد من ذلك امتدت أمامي مسافات هادئة تشعر وكأنها راضية بما حدث. وهكذا كيف للآخرين أن يفهموا أن لا أحد يجيد صياغة الكلمات؛ أو بالأحرى قل من يجيد التأليف بينها بعد جمعها مثل جمع الورد في إناء شفاف. البحر لم أكن أقلق بشأنه. أعرفه جيدا ولا أبالغ لو قلت أجدني أكثر حرية في لججه وكأني لست مخلوقا أرضيا. لا فائدة من إبراز كونه اللغز أو العالم الذي مازال بعضه مجهولاً؛ ففي كلتا الحالتين هو يمدني بالإحساس الجديد بين التراخي والحماس، ومن باب المغامرات والمعارف الجديدة هو بالنسبة لي الباب المفتوح على مصراعيه، ولن يغلق أبداً.

ـ أنا أسمعك

ـ أعلم

ـ وسأذكرك

ـ بماذا؟

ـ البحر يـُحرّرِني من القيود. يـَنـــْتـــشلنِي من الوحدة. يتلألأ منه التعبير. والموتُ يضحك..

ـ تتذكر ما أكتبه!!

ـ من هنّ الجميلات؟

ـ نجوم السماء.

Telegram: Somrlibrary

ـ تختبئُ وراء ذكائك؟

ـ لا أختبئ ولكني كلما توغلتُ في الإبحارِ وابتعدتُ حَدّ التلاشي عن الأنظارِ وجدتني أشدّ قرباً!!

ـ لمن؟

ـ لا أجيب

ـ لماذا؟

ـ الكتمان ميزة الرجال والحكمة ثوبهم.

ـ وهل تحتاج هذا القول لتؤكد رجولتك أمامي؟

ـ لا تبدأ

ـ هل تتذكر: «سنبلة البحر الزرقاء. يسرقني الابتهال والصبح جداً بعيد».. لمن كتبتها؟

ـ لو طلبتُ متوسلاً إليك ألا تعيدها عليّ مرة أخرى هل تقبل طلبي؟

ـ بشرط

ـ قُلْ

ـ أن نقاوم ـ أنت وأنا ـ ما تبقى لنا من حياة كهولتنا.

ـ بكل سرور.

ـ هيء. هيء. لقد توقعتُ هذا الرد منك.

ـ دعني الآن.

كانت الطيور تصدر أصواتا تشبه القبلات، من بعيد لمحتُ الشفق الأحمر كيف يشق نافذة السماء وموجاً يأمل وصول حلكة الليل، حيث يفترض النظر والسهر. الريح تحمل خليطاً من نسائم باردة وعطراً يثير جنون الشاعر. مرة أخرى همستُ في أذن الشعر. كنت أعرف أنه الغزل،

Telegram: Somrlibrary

وليس لي من الحبّ إلّا عبور المستحيل.. فالغناء في زمن الحروب بطولة. مثل حشد النوارس غنيت. تدحرجت الحياة من أمامي رافضة مناغاة حزني. عزف القلب نوتة شوق وذاكرة؟ كنت أحلم؟ وإن..؟. لقد كان الأفق يخلص الذات الحالمة من الهم والانكسار، ولعله السبب الأساس في انتقالات الإنسان الخيال، إذ لم يكن بوسعي إلاّ التخيل؟ ولكن الشعور بالجمال لا يتيح لي التخلي عن رؤية البحر، فهو هو معلمي، فضاء فسيح للخلاص من ضغوطات الواقع. التأمل في عظمته حقيقة تشي بضعف إدراكنا إلى أن كل شيء من حولنا ماضٍ إلى زوال، حتى أنا. إن تمسكنا بالحياة على أمل في تحقيق الذي يأتي أو لا يأتي. الفعل حركة تأتي بالحلول والحلول تجلب المشاكل. هكذا الحياة مسالك معقدة.. وقد رميتها ورائي وعدتُ إلى البحر هناك، حيث الرؤية متاحة على مد البصر. خطوطا وألوانا. منظر يمر مرور المدن التي دخلتْ في رفوف الذاكرة. أعتقد أنه يمنحني شعورا بالحرية، يبعد عني الكدر. بسبب الفراق كنت أدرك تقدمي في العمر. نعم ومثل كل إنسان أعود بالذاكرة إلى الحد الذي تكف فيه رغباتي عن الاختباء وراء الملذات القديمة..

الحياة وغيرها

إغلاق النوافذ.. إخماد الضوء

في زمن كنت أحسب فيه أن العمر قد بسط لي ريعانه، بدأتْ حرب الخليج وصار ترك البحر والتوجه إلى الحرب أكبر مخاوفي. لم أكن مقتنعاً بالحرب ولا أتصورني جندياً يقاتل في معركة أو جبهة يخلقها متكبر حسب أهوائه الخاصة، أو جاءت خدعة من دولٍ كبرى. دول لها خطط استعمارية، حسب ما كان ينقل لنا من الأحاديث همساً وسط المقاهي والأزقة المغلقة. عدتُ من ميناء الاسكندرية في مصر إلى حيث أرادوني وخلال وقتٍ ليس بالطويل بدأتُ رحلة الهروب من عيون النمامين. أُغلقتْ في وجهي المنافذ التي كانت مفتوحة، وأفَلَتْ أضواء تصورتها لا تُخمد. ساد الظلام وبدأ الموت. وضعتْ الحرب أوزارها على وقع خسارة مدوية للطرفين، مازالت جروحها تنزف دماً ساخناً إلى الآن؛ تحت رحى أيامها للآن تئن الأيامى واليتامى والأرامل، تعطلتْ الشركات الخاصة والعامة والمؤسسات الحكومية، ارتفعتْ أسعار المواد الاستهلاكية. تفاقمتْ أمور المعيشة وصار ما يتقاضاه الموظف لا يعادل خمسة دولارات في الشهر. رقم لا يساوي ثمن كيلوغرام واحد من الدقيق. لبستُ الخوفَ وحافي القدمين أقفزُ من مقعدٍ إلى مقعد أُقلدُ العصافير المذبوحة. سخرّتُ طاقاتي كُلها ولا أملك إلّا الابتعاد عن البدلة العسكرية.

نلتُ ما أريد حين. سافرتُ إلى العاصمة أفكر في العمل. كانت

Telegram: Somrlibrary

التجارة الخاصة شغلي الشاغل. عملتُ جاهداً في سوق المواد الغذائية وقتاً تحولت إلى تجارة القماش، بدأتُ بمبلغ بسيط، بعدها صارت الأرباح تكبر، شيئاً فشيئا تمكنت من تحمل مصاريفي. مرّتْ التسعينيات صعبة منهكة، بدت آثارها على وجوه الفقراء. في بلدي باع الناس أثاث بيوتهم حتى الأغطية والملابس كانت تعرض على الأرصفة يومياً كنت أرى الفقر ينخر حياتنا، باعة متجولون يعرضون حاجياتهم الخاصة من كتب وأوان من الفخار والنحاس وحتى التحف لم تنج من بيع مغبون. كل شيء معروض على الأرصفة. سمعتُ من عرضَ أعضائه للبيع، ذات يوم وعند ساعات الصباح الأولى المعتادة كنت متوجهاً إلى عملي متخفياً شاهدتُ امرأة في الخمسين أو أكثر تفترش الرصيف تعرضُ طفلاً رضيعاً كان على ظهره عند أطراف لحافها الأبيض المهترئ مصطبغاً بالأوساخ شاحب الوجه مقوس العظام فاغراً فاه. يلعب فيه الذباب في مشهد بئيس كانت مناظر الاستجداء هذه معتادة، وأكثرها تعاسة تلك التي تؤثث النساء فيها الأرصفة ببؤس إلى جانب الشيوخ والأطفال وأصحاب الأطراف المقطوعة من ذوي العاهات. تأثرت لسماع قصة أم الرضيع الملقى على ظهره عند نهاية لحافها القذر، وما يدعو للرثاء أنها كانت عمياء، وحين عدتُ ظهراً إلى المكان نفسه رأيت جمهرة من العيون تتحلق حولها؟ عرفتُ من أحدهم أن الطفل قد مات والمرأة تمسك بتلابيبه غير متقنعة بكلام الناس وهي تردد: «هو مصدر رزقي الوحيد». لم تكن تقبل دفنه. تريد مقاتلة كل من يحاول أبعاده عنها. جملتها التي تفيد أنها تعتاش على التسول بمرضه دقتْ في قلبي مسمارَ الألمِ مازال في صدري ينزف قهراً. لا أحد يكترث لضيق الإنسان ولا لوضعه، لم يعد أحد يثق بالدولة ولا بالفقير، بل أغلب أفكار التجار بدأت تتحرى في طرق الربح السريع، غير مهتمين بالأجساد التي هزلتْ والأرصفة التي امتلأت بالخوف من الموت جوعاً. كانت الحياة قصيرة ضيقة خانقة في زمن بدأت فيه موازين الأرض غير مؤتمنة. العادات والتقاليد

تغيرتْ. انحرف الصدق عن مساره، وصار الأمل في الخلاص مثل قطرة عسل تحللت في بحر الحياة. الغريب في ذلك الوقت أن ترى الألفة في أوج عطائها! تحول تبادل الطعام إلى عادة مقدسة. وشيئاً فشيئا ازدادت حتى أذهلت العالم؛ وأقصد هنا دولاً كثيرة شاركتْ في قطع المواد الغذائية عن المواطن، ليتحول الوطن إلى سجن كبير. حتى تأججت أسباب الثورة أو ما اصطلح عليه «الفوضى الخلاقة». فرض الحصار على البلد. أقصد هنا على الشعب. حصاراً قاهراً جداً تسلط على أفواه البسطاء. مؤلماً لبطون الطبقة العاملة ومتعباً جداً لعقول الطلبة. مميتاً لجينات التفكير لدى العلماء والمفكرين. كان الحصار موجهاً لتجويع الشعب وإذلاله. أما قادة تلك الحقبة كانوا يطلون ـ على الأرامل والمساكين والجياع والمتسولين في الطرقات واليتامى الغافين على المزابل والحلمين بالهجرة ـ بأحلى وأبهى الصور من على شاشات التلفزة الحكومية الوحيدة آنذاك. يزيدون النكاية حسرة عندما تراهم ببدلاتهم البيضاء يحتفلون بأعياد ميلادهم ومناسباتهم العائلية في صالات فخمة مؤثثة بأثاث مترف تتوسط مهرجان الترف هذا كعكة ميلاد القائد وعلوها يقدر بخمسة أمتار أو أقل، عرضها نصف متر يأكل منها القائد بالضرورة قطعة واحدة والباقي يلقي به إلى وزاته المدللات وسط التكبير له والأنحاء المُذل حد السجود من رعيته المقربة وأذنابه الميامين. إيماناً من الآخر الذي يسكنني أن النفق مهما كان مظلماً في نهايته ضوء يمكن له أن يومض. هو لا يعرف السكون ولا السكوت، كان لا يريدني أن أستسلم أو أرضى بالبقاء وسط الحطام والدمار، كما لا يريد مني التخاذل أمام الظلم والجبروت والمهانة والإذلال. ضقتُ ذرعا من هذه الأجواء. عرفتُ في السفر إلى خارج البلاد ملاذي الأخير. انتظرت الفرصة طويلاً حتى جاءت ـ عن طريق أحد الأصدقاء ـ في سورية ميناء طرطوس؛ هناك حاجة إلى كوادر فنية بحرية. تجهزتُ للسفر وفي ذهني فكرة: «هي فرصتي المناسبة». فعلاً كان قراراً مفاجئا، بل يمكن أن يعتبر جنوناً.

Telegram: Somrlibrary

كانت الأفكار الرئيسية التي تحركني هي الابتعاد عن القهر الذي أراه يومياً. بعتُ حصتي لشريكي وعملتُ المستحيل لتنفيذ ما فكرت به. كان عليّ التحرك والاستعانة على قضاء حاجتي بالكتمان، العمل على عبور الحدود في صمت. نصحني بعضهم بعدم الفرار من خلف ظهر الحكومة، لكن كنت أحتاج إلى تجديد جواز السفر، وخوفاً من بطش مخابرات الداخل والخارج.. أخذت بنصيحتهم، أمضيت وقتاً مريراً أنتظر فيه إصدار الجواز. إسمي الذي كان ـ ومازال لعنة تلاحقني ـ موجوداً ضمن قائمة الممنوعين من السفر. حاولتُ مراراً وتكراراً لكن كل محاولاتي فشلت. ازداد الآخر عناداً، دفعني إلى الإصرار حتى صار الرحيل غايتنا الوحيدة. لم أتخاذل أبداً، لم أفكر باليأس ولا التوقف كمن لا حول له ولا فكرة. تحركتُ على كل المحاور. «الغاية تبرر الوسيلة؟». نعم وقد وجدتُ الفرصة التي أنتظرها طويلاً واقتربت من يديّ في وقت لم يكن في الحسبان؟ تعرفتُ عن طريق وساطة أحد الأصدقاء على سمسار يعمل في مكتب الجوازات. كان يعاقر الخمر بإفراط، يتعاطى الرشوة. قلتُ في نفسي «المال هو الحل إذن الأمر هين». أعطيته ما طلبهُ مني وزدتُ عليه في العطاء، وفي وقت قصير جداً رفعت القيود عني. فرحتُ مؤقتاً وأخيراً أمسكت الجواز بيدي، توجهت في اليوم نفسه إلى منطقة وقوف السيارات التي تنقل المسافرين إلى سورية. كنت حريصاً ـ حريصاً جداً ـ على الصمت كي لا أثير انتباه أحد رجالات بدلات الزيتوني. سارت الأمور على أحسن مما خططتُ له، ولكن في بوابة الحدود عند المعبر الحدودي بين العراق وسورية لا أعرف كيف؟ ومتى؟ بهت لوني وذبل وجهي وخارتْ قواي وشعرتُ بالعجز عند تجاوز نقطة التفتيش تلك. كان على الحدود من الجهة العراقية وحدة عسكرية تضم أصحاب البدلات بلونها «المرقط» وهم أخطر من أصحاب البدلات ذات اللون «الكاكي»، تقدم أحدهم بزي مدني كان يحمل بيده ورقة ومسدساً يعلقه على خصره متبختراً، شزرا مميتاً، وكأنه فيروس قاتل يغرز عينيه فينا.

جمعَ جوازاتنا واختفى! وقت من القلق والانتظار أمضيناه على مضض. لا أعرف كيف سمعتُ: «تعالوا».. وقد فُتحت فتحة صغيرة من حاجز زجاجي. عندها رأيت يداً تشير إلينا، ثم بدأ الضابط ينادي كل واحد باسمه. كان الصوت رغم انخفاضه مرعباً مصدره ضابط من الفرقة الأولى على كتفه نجمتين أخذ ينادينا فرداً فردا، كان يبحث في الحاسوب الذي أمامه ويتصفح الجوازات بعد النظر في وجوهنا لا أعرف كيف سمعتُ «اسمي»؟ ولا كيف قفزتُ من مكاني؟ كنت أتعثر في خطواتي قاصداً مصدر الصوت، حتى وصلتُ فقلتُ والخوف يأكل لساني:

ـ نعم

لمحني بتعجب وقال:

ـ ما تريد؟

ـ ناديتني

ـ ناديتك!!

ـ نعم. نعم سيدي الآن

ـ اسمكَ حسنة؟!!

ـ لا. لا!

ـ إذن.. يا.... اذهب..

الطاعة والكتمان وعدم اظهار الرفض ولو بنظرة خاطفة والسؤال وعدم تكرار الكلام وضياع الذوق واحترام الذات وفقدان الشخصية وخوف الرجال والنساء والأطفال والمسنين والعجائز وتفكك القيم وإنحلال الأخلاق أمور شائعة في مجتمع تسلط عليه الوقح والسفهاء. لم يكن مستغرباً من رجل المخابرات المتحذلق هذا أن ينعتني بـ»امرأة». لقد سبقه زملائه في السب والشتم على العوائل المنتظرة في الشارع أمام شباك صغير تحاول

تخليص أوراقها عند أول نقطة تفتيش. فعلتُ ما أمرني به وأعرف أن عليّ السيطرة أكثر على غضبي واظهار الابتسامة والطاعة. تركت الشباك وعدت رث المزاج إلى مكاني الأول أنتظر مع المنتظرين الخلاص ولكني رأيت امرأة عجوزاً مقوسة الظهر خاوية الخطوات بيدها اليمنى عصا تتكأ عليها وفي الأخرى يد الشاب الذي كان يجرها وقد تجاوزني إلى شباك الضابط الوقح وهو يردد:

ـ نعم. نعم.

عدتُ إلى مكاني الأول منشغلاً في صمت اللحظة. ربما القدر يعاندني. لا أدري هل أضحك على نفسي؟ أم ألعنها؟ أخاف عليها من القادم. التفكير السليم في مثل هكذا ظروف هو توفير فرص النجاة خارج نطاق موازين العقل. لا شيء غير الخوف والقلق يحيطان بالمكان. في تلك الأثناء رأيت الواقفين لا ينظرون إلى بعضهم، ينظرون فقط إلى الأرض أو سقف القاعة الحديدي في وجوههم الشاحبة يأس وعلى شفاههم تمتمات. مَرَّ الوقت وصدى خفقان القلب يصل إلى الأذنين. شعرتُ بضيق في صدري وألم في رأسي. كنتُ أتصبب عرقاً رغم ارتعاش أطرافي.

الفصل الثالث

ابتسامة الغربة.. سالو

Telegram: Somrlibrary

1

في طرق شتى كنت أضع وجهي بين يديّ أتحسر حزناً؛ أتأمل سيرة بطل قومي يجيد فنون الهدم. عنجهية عسكرية تقطف الرؤوس وتمسح القرى. دمر كل شيء فينا. أحلامنا المتواضعة التي كنا نخاف عليها من النسيان حولها إلى رماد. إنه القائد العام للقوات المسلحة رأى في شعب برمته ثماراً يانعة تحين قطافها في المنافي والسجون والمشانق والمحارق. رسم لنا طريق الموت مثل غاز لا يعرف الرحمة، حكم البلاد بأنواع لا تنتهي من فنون القتل والقتال. لم يغادر حتى سلط بشططه تتار العصر علينا، ومازال العدل لم يعرف طريقه إلينا.

عند المساء غادرت المعبر الحدودي. «هل آن للقدر أن يبتسم لي؟». فكرتُ وفي نفسي مازال أمل الخلاص شاخصاً. سورية ليست متوحشة أو عابسة في وجه ضيوفها. هواؤها عذب البرودة لذيذ، شوارعها معشوشبة، وفي سمائها الغيوم ناصعة. الشمس، والظل والأشجار والأضواء المتلألئة في الحدائق والمطاعم والمحال التجارية. سورية الخالية ـ ليس اليوم ـ من مظاهر السلاح ترسم وجه المدينة الضاحك، والأطفال بملابسهم القصيرة والطويلة، والنساء الجميلات، والرجال بثيابهم الأنيقة، تثير البهجة والتفاؤل في نفوس زائريها. كل شيء في سورية كان يمثل بالنسبة لي حياة جديدة. حياة أضفت للعين سعة في الامتداد دون التعثر بشيء. ولكن الخوف يلاحقني؛ فلا شيء له القدرة على رفعه من ذاكرتي. يبدو

Telegram: Somrlibrary

من الوهم الذي كنت فيه أني عجزتُ تماماً عن كنس قلقي المتراكم من أمور لا تعد ولا تحصى. ليس آخرها إلا النجاة بقدرة قادر من قبضة رجالات النظام الواقفين على الحدود. كنت متيقناً لو ظفروا بي لن يعيدوني إلى الوطن سالماً، بل سينفذون في حقي حكم الإعدام بعيداً عن عيون الناس، ثمَّ أُرمى للكلاب. لقد سمعتُ هكذا حكايات قد حدثتْ فعلاً. كان ينفذها صاحب البدلة «الزيتوني» بدم بارد. في تلك الليلة لا قدرة لي على تجاوز التفكير المستمر في حلم تراجيدي. يدخلون عليَّ بأسلحتهم وهراواتهم، ويحملونني مكتوف اليدين معصوب العينين بحكم أني واحد من ثلاثة: «هارب أو خائن أو متخاذل». هناك الكثير من الألقاب الجاهزة التي يطلقونها باستمرار على كل من يبدي مقاومة ضعيفة ولو بنظرة رفض لعلامة من علامات الموت الكثيرة أو إلى شعار حزبه الأوحد الذي تعلق في الشوارع بطريقة مستفزة قاهرة، أو حتى همسة لسان رافضة كانت خاطئة أو صحيحة تصدر عن كهل في مكان عام، ولا يُستثنى من القتل حامل الكتب الذي مَرَّ يوماً من جهة السوق وقال كلمته بحق الظلم الجاثم على العقول. أو حتى من أخفى ضحكته من تلك الأجساد المترهلة والوجوه العريضة لرجالات البعث. ومن باب الفرقة الحزبية التي بنيت جدرانها العالية مؤخراً، اتسعتْ ساحات الموت وتناسلت الأحكام الكيدية، ولم تكن القرى والأهوار والأرياف ولا مناطق البادية بمنأى عنها.

الصورة قاتمة؛ عدد الأيتام في زيادة والبيوت تنقبت السواد..

في صباح اليوم الثاني توجهتُ إلى طرطوس، ولأن النعاس غلبني من سهر البارحة المخيف غفوتُ كالميت في مقعد خلفي بالسيارة حتى وصلت متعباً وشعور القلق يبعثر خطواتي توجهت إلى مكتب التشغيل البحري، فالتقيت «نديم» المهندس العراقي الذي أخذني إلى مسؤولي مكتب الصيانة..

Telegram: Somrlibrary

عرضت عليهم أوراقي التي تثبت خدمتي البحرية، ومعها شهادات خمس تؤكد مهاراتي الفنية. وقعتُ عقد العمل المؤقت معهم، وفي اليوم نفسه توجهت إلى ورشة الصيانة. عملت بمهنية لإثبات ما قاله صديقي المهندس نديم عني أمام مدير الصيانة، وقد تحققت الغاية من المهمة التي أسندت لي. حصلتُ على الوظيفة بعد توقيع عقد على الملاك البحري، لكن على الأرض أعمل داخل الورشة فقط، ولذلك منحوني سكناً بسيطاً ومبلغاً من المال يضاف إلى راتبي الشهري. تحسن الحال قليلاً. عادت الأمور إلى مكانها الصحيح، أو ربّما كان يبدو لي ذلك.

لم أخرج من حدود ميناء طرطوس طوال فترة خدمتي، إلّا ومعي قنديل وحدتي سلوى مسؤولة الحسابات المالية؛ كانت تحب من يناديها «سالو» نظرا لارتباطها العاطفي بأبيها وهي من أصل تركي. تتسع ابتسامتها كلما ذكرت لي أمها السورية «حياة» وكيف تزوجت من أبيها «قوتشو» بعد قصة حب كلمتني عن تفاصيلها الدقيقة في سهرة حب قضيناها معاً تحت أضواء شقتها الحمراء.

في الصباح كان الجو ممطراً لم أتمكن من مقاومة رغبتي في البقاء تحت لحاف سريرها الساخن. وفوق البلاط الخشبي كان السجاد التركي يلمع بلونه «الأورنج» البراق يثير الدفء في المكان، وكانت التحف المنظمة على الرفوف الزجاجية ترسم البهجة وتضفي إضاءة بكل الألوان المتوهجة، أجواء تشعرك بالراحة أثناء سماع فيروزيات الصباح متوجة برائحة الإفطار وعطر القهوة التركية. كنتُ أراني في مملكة العشق، هي الملكة وأنا أميرها، من كل اتجاه كانت حاشية من اللمعان ترافقها صامتة. خشيتُ الضياع في أتون مشهد مفعم بمزيج من الألفة والغرابة؛ ومثل شلال من الضوء سطعت ضحكاتها.. لامستْ نظراتها قلبي!

ما تريد؟ تركتُ الأفكار. أجّلتُ اللحاق بها وتقدمتُ إلى الأمام

Telegram: Somrlibrary

خطوتين أردد: «هل تمدُّ أجنحتها إلى صدري لتقترب؟». غيمة في صحراء. أرخت عيناها مطراً ناعما، وأثير عطرها يرتج فوق شفتيها مثل النسيم بين شاطئين والليل طعمه امتصاص الصمت. في يدي الممتدة لتغرف من لونها الأحمر ألف نبض يلعب في نهر من اللذة. للقمر وقمح الأرض قصة، ولآهاتي قصة أخرى. باحثاً عن الأنس تخيلتني وطناً يخبئ في دارها. الماء وسرب العصافير وحفنة من النجوم وعطري، آه من عطري وما تحمله لغتي من أشعار تستعصي على الفهمِ. «سالو» راضية لينة تظهر من هنا وهناك بين المكعبات الزجاجية الزرقَاء المعلقة فوق كل فتحة من فتحات أبواب الشقة تسألني: «أنتَ شاعر؟». رغم استفزازها اللذيذ لجموح خيالي كنت أرقب بتركيز عال ثوبها الصوفي الأبيض وهو يعكس بستان ورد خديها المتوردين. يعجبني النظر إلى حُمرة شفتيها. تحركني دوما للقبلات. كانت تكبرني بعشرة أعوام، وإن نظرت إلى شعري الأشيب من خلال مرآة الحمام أراني أكبر منها بكثير، ورغم ذلك وعلى مدى سنوات كانت لي الحبيبة والصديقة والأنس والجمال ونديم وحدتي والأنثى التي تكفي رغباتي المتكررة.

كل هذه الأحداث تحيى في عقلي وكأنني أعيشها الآن لكثرة ما رأيت من سعادة في سورية وعلى مدى سنوات. يتكرر شعور الاشتياق. أبتعد عن مكان وقوفي لتحريك الأمكنة التي تضج بالصياح شوقاً إلى طرطوس.

ما الحل؟

كيف السبيل إلى النسيان؟

كنت أروح وأجيء أردد اسمي مقلداً صوت «سالو» الذي يشبه تغريد البلابل وأجمل. في أحياء مدينتي التي عدت إليها مثل الغريب لم أشعر أبداً بميول إلى امرأة أخرى.

Telegram: Somrlibrary

عشتُ على مدى سنوات وحيداً أمر بأهلي وأصحابي وأخرج دون ثرثرة تذكر. أفكر بما سيكشف لنا عنه القادم من الزمن الغامض. سقط الصنم وبعد ساعات احتشد العراق في ساحة الفردوس وكان دخول الأمريكان إلى قلب بغداد ـ لإزالة نظام دموي قتل وشرد وبطش على مدى ثلاثين عاماً وأكثر ـ حدثٌ جلبَ أحداثاً غير سارة لأغلب العراقيين. رغم غوغائيته وجاذبيته المحدودة في الزمان والمكان؛ إنه حدث اجتث ورماً داخليا بنصل مسموم.. شعور بالتوجس من الغزاة الجدد؛ مغول العصر الحديث؛ فلم تكن ممارساتهم المذلة ومناوشاتهم الوحشية إلّا علامة من علامات اكتمال حقبة مظلمة من تاريخنا المعاصر.

هل سيُفرض علينا الحاكم الجديد؟ جاءت النتائج بمشاريع سياسية إثر عمليات انتخابية تم تكييفها على غرار الديمقراطيات العربية، وتحقق الأمر في أجواء ملغومة، دون أن يستتب الأمن في البلاد.

بدأت الحكومات الجديدة بعد مرور الوقت تطالب الأمريكان بالخروج من البلاد، وبالتالي تخليصهم من مستنقع ملتهب.

وتحقق المطلب برحيلهم سنة ألفين وأحد عشر، وخلا العراق منهم باستثناء من كان بقاؤه لغاية ما لا يعلمها إلّا المشرفون على الشأن السياسي في البلد.

خرج الأمريكان وتركوا خلفهم بغداد خراباً، وباقي المحافظات تَلملم جراحها. بدأ مسلسل قريب من الحرب الأهلية. ضج البلد بالقتل والسرقة والهدم والدمار، وتعثرت العملية السياسية. سارت سفينة البلد. وهل تجري سفينة على اليبس؟ في أجواء من الفوضى غير الخلاقة، حدث تبييت المكائد من الداخل والخارج، ما زال التخبط ساريا مع انفراجات عقلانية بين الفينة والأخرى.

Telegram: Somrlibrary

هذا ما كنتُ أتصوره.

بعد كساد سياسي طال لسنوات، عانت منه كل أطياف المجتمع.

استدعتني ـ شركة النقل البحري ـ وطلبتْ مني العودة إلى العمل على ظهر البواخر. أبحرتُ صحبة معلمي إلى موانئ أخرى.

أكثر من سنتين كانت كفيلة بإقناعي أن لا جدوى من جمع المال في السفر.

ابتعدت وقتاً عن البحر، كنت في حاجة إلى أخذ مسافة للتأمل وترتيب أفكاري. وها أنا ذا أعود إليه وفي النفس غاية؛ أن يخفف عني راتبه المغري هموم الحياة التي تراكمت. ركبتُ البحر على باخرة جديدة خطها الملاحي قريب في موقع خليجي ممتاز. الفرصة كانت مناسبة للعمل، عاهدتُ نفسي على الجد والمثابرة، وإن أيقنت أن لا جدوى من التمرد على الذات، لكن لا مجال لتماديها في لذات الليل والسهر.

Telegram: Somrlibrary

2

سأركبُ البحر والطموح عاصفة تدفعني إلى معرفة الحياة أكثر. أحلام تأتي فرادا تُبشر بأن القادم أبهى وأجمل. «ربّما أصدق من الحاضر؟». بالفعل دخلتُ مملكتي من أوسع أبوابها. بدو أن يصطدم تفكيري بالعمل الجاد وجدت صعوبة في التنفيذ؛ أشكو ضيق هامش التعبير عن أخطاء متكررة كان يفرضها علينا قسم الإدارة داخل الشركة.. فإن قُلنا: «إن ما تخططون له مسارات خاطئة». لا أحد يسمع، كما أن من كان على متن الباخرة بعضهم قليلو الخبرة، ومن لم يركب البحر قط، ومن لم يحمل شهادات بحرية. جاءوا فقط ـ على حسب ظنهم ـ رغبة في تحقيق ارتقاء اجتماعي نتيجة إشاعة منتشرة مفادها: «أن البحّار يعيش حياة الترف في إبحاره المتكرر حول العالم، وهو الحر الوحيد في تجواله بين أجمل الموانئ والأماكن الباعثة على الراحة والسهر». ولا يعرفون حقيقة أن العمل على ظهر البواخر يحتاج إلى قلوب من حديد وأصناف من الرجال من مختلف مراتب المسؤولية يختلفون عن المسافرين فوق البحر من أجل السياحة. الفرق كبير.. كبير جداً في الجهد العالي الذي يبذله البحّارة في التشغيل المستمر للمحركات وأعمال الخفارة البحرية؛ فالبحّار يعمل ليل نهار محفوفا بالحذر من المخاطر، شديد الانتباه من مفاجأة طارئة؛ كالعطب والحرائق والاختناق المفاجئ والأعطال الكبيرة التي تصل إلى حد توقف الباخرة في عرض البحر لوقت يمكن أن يؤدي إلى غرقها. لا أبالغ إن قلت أراوح طاقم

السفينة محفوفة على طول مسار الرحلة بالخطر، ولذلك يعملون دون توقف على إدامة بدن الباخرة وصيانة «مكائنها».

اتصل مدير الملاحين وأطال الحديث معي. بعدها توجهت إلى مقر الشركة بناءً على اتفاق مسبق، قابلتُ المدير الفني واستفهمت عن درجتي والوظيفة التي سأشغلها على ظهر الباخرة. عرفت آنذاك أن إسمي موجود ضمن لائحة طاقم التشغيل الجديد المنتسب للباخرة تراتشي الراسية في ميناء «الأم» عند الأرصفة الحديدية. أعلنت عن موافقتي بعد تفاوض قصير، ثمّ تأكدت من معرفة بعض أسماء الطاقم، والبعض الآخر لم أسمع بهم قط...

يبدو سأركب البحر من جديد. لا شيء يحقق حاجتي الماسة للتأمل، إلّا ترك الأرض. وهذا بالضبط ما يرفضه صديقي الكاتب الذي كتب لي ما نصه: «راكب البحر واحد من ثلاثة:... إما أن يكون مغامرا أو مجنوناً أو مولعاً بالمال والنساء». وقد أصاب كبد الحقيقة، فكتبتُ له: «المغامرة طموح والجنون تهمة والولع بالمال والنساء طبع المخلوقات البشرية في البحر، كما في الجو، وفوق الأرض، ولكني أرى ما تراه صحيحا». يقيناً أحسست بعدما أشرفت على الخمسين أن طاقة الجسد تضعنا أمام ـ معادلة صعبة تجليات المظهر وآفاق الطموح. وعندما يكون اللباس مخالفاً للمألوف يكون مدعاة للسخرية، ولكن يبقى الطموح ارتقاءً يمنح الجسد طاقة استثنائية. ولتفادي الخوض في جدلية الإرادة والقدرة حاولت الاستئناس باللامرئي عن طريق الرجوع إلى الذاكرة؛ لاسترجاع لحظات الوقوف بثبات على مسرح الحياة واستلهام درس حول أخلاق القوة وهذا ما فعلته بالضبط. لابد لي من المقاومة لإخفاء الوهن والضعف بما اختزنته من معين الطاقة الإيجابية الكامنة في ذاكرتي، لا يوجد حل آخر. في الحياة هناك من يخشون الخرف وأنا منهم، ويتم ذلك بإبرام اتفاق مع الذات لبث

قناعة بديمومة روح الشباب.. منبع أخلاق النبل والقوة، كأن يقول المرء لنفسه: «ما زلت شاباً». وهذه فكرة استثنائية لا تجدها إلّا في شخصية استثنائية.. والأدلة التي تحاصر هذا النوع من التفكير وتسفهه كثيرة؛ كأن يرفضك ويصنفك وينصب مشنقة معنوية لك من يراك حالماً تحمل في يدك وردة حمراء، أو تخط رواية غريبة تعري فيها المسكوت عنه، وتعبر بصدق فني عن الحق عن الخير عن الجمال؛ عن أي شيء من جملة أشياء ضاع أغلبها، أو حين تكتب قصيدة غزل أو تلبس الأبيض أو تفكر بصوت مسموع عن متع الحياة ولذائذها، كقولك «العذريّ» دون تفسيخ أو ابتذال: «الأنثى رحيق فواكه معتق». يرفض هذا منك وهو يكتم ما بداخله. إن لم يساويك فيه شوقاً. غلبك، يعاند بقوة طريقتك المختلفة في التعبير عن الأفكار وكذا الأحاسيس؛ لا لشيء فقط لأنه ينتمي إلى جبهة ممانعة الراحة في الصدق ـ المحسوس منه والمرئي ـ مترفعاً من خلال إخفاء رغباته مجاراة للمألوف والموروث، وهو ما يعني هيمنة روح الاستبداد والتسلط على خيمة الإبداع، وما يجري فيها من حوار الخيارات الفنية، حيث يسارع البعض إلى دفن الاختلاف الذي يظهره خاسرا، فلا يجد أمامه سوى الانغلاق من أجل تأمين منافعه الخاصة... ولكنه يتركك دون سلام..

كيف توقد شمعة؟

كيف ترسم على وجه طفل ابتسامة؟

كيف تستقبل الفرح وتبعد الأحزان؟

كيف تتجنب الجبان والجاهل؟

كيف تخرج شخصاً من ظلام دامس؟

وكيف يصدق الأطفال أن الشجرة التي يلعبون تحتها أنت الذي غرست بذرتها؟

Telegram: Somrlibrary

إن عرفت كيف ومتى يكون الإحساس الذي يكنس الخداع والكذب عن الذات المسحوقة هو العلاج الوحيد لك، آنذاك يمكن القول إنك قد أدركت الشعور بالجمال في أرقى صوره؛ وهو حب الذات والآخر. لا مناص إذن من التفكير في متعة التقدم في العمر. ربّما هو شعور الولد السعيد الواقف وسط الريح، أو الرجل رغم «لخبطة» عقله من الداخل، تراه من مظهره يحمل اسمرارَ الغيمِ، يسير في حرية وسط أحلامه الجامحة يمسك الإرادة في ما يريد أن يقوله وما لا يريد. لا يئن من مهرجان الشيب. يركن منذ ساعات الصباح الأولى إلى نوافد تطل على الأمل. على عجل سرمدي يمضي التفكير في منابع البهجة، يلهثُ خلف مُدن الدهشة، والقمر مكتمل، في يده اليمنى ثمرة طازجة وفي الأخرى نجمة حانية، وفوق شفتيه المتداعيتين مذاق عصير الرمان، وفوق صدره تسيل السواقي.. على ضفتيها أزهار أريجها فواح. شدو وعبير أشهى من حدائق الأرض، حيث تضحك الأنهار للأشجار خلسة.. الدخول في ذوات الناس يحتاج إلى زمن المعجزات، ولأنني لا أهتم بشؤونهم الخاصة أردد فقط أصداء «شأني في الحياة». أحب الأبيض والأحمر والأزرق والأورانج والأسود، جرأة مني أن أشتهي التواجد بين الملذات ولا أخفي ما أرغب من حياة وميزات أخرى. حلم وديع مثل نجوم سماء مكشوفة قريبة إلى روحي أقرب من جسدي وأشهى من كل شهي.

أفكر بأنني مخلوق بسيط غير مهتم بالعقد، لا أميل إلى تعقيد الأمور. أعرف للحزن وقته كما الفرح وإن قصرت مدته. لا أكتفي بالتوجيه إلى الحذر من خداع جداريات التفكير المزيف التي يتفنن فيها البعض بإضفاء هالة من الاحترام والوقار على أنفسهم في مجتمع جل ثروته الأخلاقية كنايات مظهرية. إمعاناً في الشك وصولاً إلى اليقين أرى وأتفهم غايات بعض النساء بغير قليل من الحذر مستفيداً من دروس البحر الكثيرة

Telegram: Somrlibrary

في معرفة الفروق بين النساء. ومميزات الإناث في عالم شديد التعقيد؛ ألا وهو عالم المرأة، وهذا غيض من فيض وبعض من هدايا معلمي...

مثل فرط حب الرمان تسلل البحّارة من قبضة يد الشركة الغليظة إلى البحر، ولم يكن بالحسبان أن الأخطاء القديمة نفسها ستتكرر في هذا الالتحاق. الباخرة تراتشي الراسية على رصيف الأم، قالوا عنها جديدة وأول نزولها إلى البحر كان سنة ألفين واثنتي عشرة، وقد أبالغ قليلاً لو قلت رأيتها كالعجوز الخاوية واتفقَ معي في الرؤية أغلبهم فيما بعد. نحن ـ الطاقم الجديد ـ أول خطوة نخطها على الباخرة حوالي العاشرة أو أكثر بقليل من صباح يوم الأحد أوائل ألفين وخمسة عشر، ورغم وقوفها غير المتزن لمحنا بدهشة عالية الطاقم البديل، كانوا مثل الفارين من النار ينتظرون وصولنا؛ لمغادرة تراتشي إلى الأرض. كان في عدم ثباتهم على سُلم السفينة لاستقبالنا شيء من المبالغة. اكتفوا فقط بالتلويح لنا بأيديهم، حالقين لحيهم مبتهجين متعطرين، وقد لبسوا ثياب أهل الأرض... انصرفوا والشوق يبرق من أعينهم لرؤية الأقارب والأصحاب.. كان كل همنا ـ نحن الطاقم الجديد ـ هو مرونة عملية الاستلام والتسليم ومعرفة طرق الذهاب والإياب داخل الباخرة بتأن وروية وفهم أكثر للخطوط العريضة التي تلزمنا لاستئناف قيادة الباخرة من جهة السطحة ورقيبها، ومن جهة الماكينة عند رقيب الماكينة.

لم يكن أحد من أفراد ـ الطاقم القديم ـ له القابلية لسماع غاياتنا: «ما هذا؟ وكيف يشتغل هذا؟ وما هذه؟ وكيف تشغل هذه؟ وما شأن تلك بذاك؟... إلخ». لقد ضجت ممرات الباخرة بالمجاملات حتى سمعت أحدهم يقول: «أرجوكم كفى زيفاً نريد الرحيل الآن». انشغلنا واشتغلنا بما فينا من خبرات لكسب أكبر قدر ممكن من الوقت مع الطاقم القديم كي نفهم على الأقل أساسيات تشغيل معدات الباخرة وماكيناتها. بعد وقت استطعت

فيه معرفة كمية الزيوت المتبقية في الباخرة ومخازن الأدوات الاحتياطية وبعض مستلزمات لها أهمية كبيرة في كل رحلة بحرية وقد تفضل عليّ بهذه المعلومات صديق كان من ضمن الطاقم القديم. لم يكن صديقي هذا مختلفاً عنهم في تفكيره بالنزول من الباخرة سريعاً؟ دفعت شريط الذاكرة إلى حادثة مرّت عليها سنين؛ عندما جاء بديلاً عني إلى الباخرة «حوراء» في ميناء نواذيبو في موريتانيا، وكيف تطوعت للبقاء معه على ظهر الباخرة ليومين من أجل تسلميه كل ما يحتاجه من تجربة تحصنه من الخطأ. إذ لا مجال للتراخي في الإبحار. وإن كانت شركتنا دائماً تخطئ بحق طواقمها من الناحيتين الإدارية والمالية. عاش البحّارة حياة صعبة مملة لا تخلو من المخاطر فوق البحار على أمل منحة مالية تحمي الإنسان من غدر الزمان أو قطعة أرض يشيدها بيتاً يرحمه من ارتفاع أسعار إيجارات السكن. يحلمون في الحصول على منحة مالية عند نهاية الخدمة، ولكن واقع الحال تراه في صور البحّارة القدامى أثناء جلوسهم البائس الفقير في المقاهي تكشف نظرة في وجوههم عن الندم الكبير على تصديقهم لأمل زائف. حزانى عاشوا فقراء، وتقاعدوا فقراء، ويموتون فقراء إلاّ الذين جاءوا منهم إلى البحر لأسباب خاصة وهم أغنياء. من جهة أخرى نشاهد بعض عمال الإدارة المحظوظين داخل الشركة عاشوا فوق الأرض الترف بمختلف أنواعه، عرفوا معنى الراحة وفي حالة إنهاء فترة خدمتهم يستمتعون بما كسبوه من الشركة جزاءً عن خدماتهم التي يغلب عليها التأنق والتعطر وتناول الإفطار في الساعات الأولى من صباح العمل في مكاتب فخمة تحيط بها علامات التعجب، سواء تعلق الأمر بإفراط عاملات الخدمة في التبرج، أو إداريات لا شأن لهن بهذه المهنة وعطاءات وهبات تغدق لصالح الموظف الإداري العامل في الشركة.. وتبقى الاستثناءات قائمة في البحر وعلى الأرض في زمن المحسوبية والانتهازية لا تكاد تخلو منها إدارة ولا قطاع.. ففي كل مرة تدفع شركتنا بطواقمها إلى الهاوية بضم بحّارة للعمل

Telegram: Somrlibrary

على البواخر ممن لا خبرة لهم ولا التزام. يبعث هذا الشعور خريجي المدارس البحرية ندماً على سنين الدراسة التي أمضوها في التدريب بجهد عال من أجل بناء بحّار كفء يكون على أتم الاستعداد للقيادة والصبر والالتزام، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فضلاً عن ممارسات إدارية أخرى خاطئة أثناء عملية تسليم المهام من فوج لآخر.. هذا لو علمنا أن عدد الطاقم الملتحق بالباخرة إثنان وعشرون فرداً. تصدر الإدارة الأمر بإرسال الطاقم كاملاً ليكون بديلاً لطاقم باخرة أخرى دون مراعاة ظروف العمل؛ حينها نسقط في رجاء الطاقم البديل واستبقائه وقتاً لمعرفة أحوال السفينة الفنية. إذ لا تعترف الشركة بأهمية هذه المعطيات، خاصة بالنسبة لعمال حديثي العهد بالمهنة يحتاجون مهلة للاستفادة من خبرات الموجودين في قيادة شؤون الباخرة قبل أن يتسنى لهم الانفكاك من الخدمة والعودة إلى بيوتهم. كنت ضمن الطاقم البديل والملاحظة نفسها تتكرر في كل إبحار.. صعدتُ الباخرة مثقلاً بحقيبتي التي امتلأت كتباً، لست أدري لماذا كانت الكتب ترافقني أينما أكون؟ كانت تشعرني بالتحرر، أحس في وجودها بالراحة سواء قرأت بعضها أو جلها أو لم أقرأها وخاصة في لحظات الضجر وهي كثيرة...

على شكل طيور لا تعرف التحليق ومن خلف شعاع القمر تنهدت. «أنتَ حزين». اسكتْ. حتى لا يتسع الحزن هززتُ رأسي بوجه الريح المهتاجة، نشقت الهواء ملء صدري. نشرت ذراعي. وأعرف لا تفارقني الذكريات أبداً، ولكن عبثاً يروض المرء آلامه، ولسنا ندري. من المستحيل علينا أن نعرف أصل هذا الوميض المتجدد في الذهن، نحن أنفسنا نضفي عليه شعوراً مغايرا. شعور يُحرك المخفي ولا أحد منا يعلم: هناك ضربات قاتلة نكون فيها أكثر ألفة مع ما يؤلمنا. تترك أثراً عميقاً تفتح الماضي بألم يهزُّ أروحنا بين البكاء والصمت يمكن له أن يُدمر حياتنا. مضت سنون ومازلنا بمكاننا ندور وندور حتى تعبنا ولا نعرف للتقدم سبيلا؟ شيء فينا قد تبدل؟ لست أدري. يظنه البعض هو الافضل للمستقبل والآخر لا يراه إلّا بداية النهاية. «وما تظنه أنت؟». لن أردُّ عليك. «لماذا؟» ابتعدْ عني. «ولكن لماذا؟». إلّا تراني وذاكرتي أكتب؟. «استعن بي». لا. كنت واقفاً عند الجانب الأيمن من الباخرة أنظر إلى البحر وأفكر: «كيف يتحمل الإنسان هذا العقل وذاك الجهل؟». أتذكر الطفل الضحوك. «أنا». أتذكرني طفلاً. طفل يحب اللعب منذ كان يزحف على بطنه. لا بد لي أن أتجاهل، وأعرف تماماً الفصول القاسية من رواية الحياة الطويلة، ألبستني مبكراً ثوب الرجولة لغاية ما ـ لماذا الرجولة تحديداً؟ ـ في مرحلة شبابي الأولى كنت لا أتعجب من أسئلتي المتكررة تجاه حضور متكرر لضيوف من أقاربي ولم يكن لي خيار يذكر في منع أو على أقل تقدير تقليل زيارتهم المتكررة. «الصمت يفتح أبواب الغضب». هكذا أظن. لم أكن أتحمل زيف احاديثهم كما كان أبي وأمي، أعرف إنما جاءوا لحصد أكبر ما يستطيعون من مقام وترحاب وطعام وشراب وملبس وحتى المال، وفي الوقت نفسه لا طاقة لي على السكوت. أتحول إلى بركان ثائر بدون دخان: «وماذا تتركون لنا». هذا صوتي يعلوا فوق أصواتهم، وحين أنعزل ينكمش قلبي وأحس بالتمزق من الداخل. أفكر بخطى خافتة أختار الجلوس منفرداً في معزل عنهم أنظر بتوتر للآخر الذي

Telegram: Somrlibrary

يسكنني. كيف يمكن له أن يصب جام غضبه ويجرف إحساسي، ويرمي أسئلته: «هل اخترت الخال أو العم وحتى الأخوة؟». من دون تردد، كنت أصرح: «ماذا تريدون؟». وهذا الاسلوب يتكرر أحياناً بصوت مسموع في حضرتهم. كنت المتهم الوحيد بأني مدلل أبي، والخارج من دائرة الطاعة العمياء لأي كان. لا أحد يجرأ التطاول عليَّ أو يفكر حتى في شتمي، لأني الوحيد المحمي بقوة من أمي ـ ولا أبالغ لو قلت شبه مقدس..!... اللعنة على سرحان البال. في الحقية كنت أتخيل أو قلْ أحلم. لا أدري، المهم كنت منبهراً وأنا في الزاوية اليمنى من الباخرة ألمح رذاذ الموج المنثور فوق البساط الأزرق كيف يقف مثل السنبل الأبيض الهشّ وأحيانا كما الغيم يتحرك، ملابسي تدفعني إلى لمس الضوء بيدي. يتنفس البحر. تنكشف من ارتفاعاته رغبة الصعود إلى لذة البدء من جديد. وفي الجانب الأيسر وبطريقة أكثر تأكيدا عرفتُ أنا القطب ولا أحد سواي لهذا الواسع الممتد. مثل التصرف في الحياة الخاصة كنت أرمي الأفق الماثل أمامي على شكل قوس مباشر بـ :»آه«. ليست وحيدة. كانت مجتمعة تبتكر التغاريد لكن تسافر وحيدة وتعود وحيدة، وعند نهاية كل جهة من جهاته الأربع للباخرة كنتُ أرى يدي المشبعة بالحمرة تخرج منها طيور ملونة تسابق بعضها بعضا، تحافظ على مستوى تحليقها المنخفض عن مستوى سطح البحر. أعرف وحدها النوارس لا تخاف البحر، لمحتُ في طيرانها الرشيق رحلتي حتى النهاية، وفي حركة لا إرادية وضعتُ البحر بمستوى السبابة والعين فرأيت وجه حبيبتي القمحي دون هوادة كان يضحك. حاولتُ النظر إليها بطريقة المصور في حركة من يدي إلى اليسار إلى اليمين كنتُ أقدم خطوة وأرجع أخرى. رأيت لوحة يغلب عليها الأزهار في ألوان مختلفة كانت متحركة، ولإيماني بأنني فوق البحر على ظهر الباخرة أتحرك. سيطر عليّ الشعور بالراحة. شعور يشبه ذلك الذي يأتي بعد ممارسة الجنس صباحاً. لحظتها فقط عرفت حقيقة أنني لا أستطيع أن أكون إلّا أنا، وكيف

3

إدمان القراءة والكتابة حيوات مختلفة عن الواقع. نابضة الدهشة متجددة الانبهار مقنعة، أن تراودك الأحلام في كونك بطل الروايات وحدها متعة. القراءة عادة أكثر مما هي رغبة. وبالنسبة لي أعتقد سبب هذه الهواية المكتسبة بدأتْ في أواخر السبعينات. كان لانتشار المكتبات العامة في المدن الكبيرة منها والصغيرة شهية خاصة للقراءة والاطلاع والبحث والمقارنة. كنت ـ وأكثر العراقيين ـ كثير الاهتمام بالقراءة. حيث يجد المرء المتحكم بعواطفه سُلم النجاة يبعد فيه تدريجياً عن الانغماس في وحل الجهل والرياء ويخطر لي أحياناً بأني قد ارتميت بين أساطير البحر والحكايات والخرافات والواقع أثناء السفر المتكرر بين السطور. ذات مرة وأنا أقلب صفحات كتاب كان معجماً قديماً باهت اللون رطب الأوراق ـ أو هكذا أتصور ـ وجدت كلمة «ملّاح» المنحوتة ذات أصل سومري تتكون من شقين: ماء ـ لاح، يعني: «رجل الماء». سرني النص وقلت في نفسي: «الحضارة القديمة قادمة إلينا من الأمس بقوة ومن الضروري معرفة قوانينها». معارفي يرتادون بشكل مستمر المكتبات العامة وفي بيوتهم أنشأوا المكتبات الشخصية.

هناك توصلت بأجوبة لبعض أسئلتي، وهكذا تمكنت من تشكيل ذاكرة تمنحها الاستمرارية مختلف قطاعات المعرفة، وما زلت لم أرتو من معين القراءة الذي لا ينضب.

ـ لقد شجعتك على القراءة.

Telegram: Somrlibrary

كنت في العاشرة فقط وحدث ذلك في تلك الليلة أو قبيل منتصفها بقليل. بابٌ داكن اللون ينفذ من فتحته السفلية ضوء متوهج. يدهشني المنظر! أتقدم بخطوات خفيفة، ألمس الباب، أسترق السمع، أحرك أصابعي على عروة الباب الفضية، على مهلٍ أفتح الباب. لمحتُ رجلاً أشيبَ الرأس منحنياً إلى طاولة التي أمامه قليلاً، كان يقرأ في كتاب. يغريني المنظر والهدوء العجيب يحركني. رميتُ كتفي إلى عمود الباب الأيمن ودققتُ النظر. رأيتُ كُتباً صُفَّتْ بعضها على بعض وأخرى مقلوبة على وجهها. يسرقني الخيال من مكاني ويضعني في المكان نفسه؛ أقرأ وأنهل من هذا المنبع الثر ولا أمل، بدأتُ أتخيل هذه الكتب كلها كتبي. فجأة يتحرك الرجل الأشيب، يرفع رأسه ومن خلف نظارته السوداء يثبت ناظريه في عيني ويقول: «تعال»، ثمَّ يضيف مبتسماً:

ـ هل تعرف ماذا أفعل؟

ـ تقرأ

ـ نعم، وهذه الكتب سفر لا ينتهي.

هذا ما قاله أبي في تلك الليلة قبيل منتصفها بقليل. وفي الليلة الثانية والثالثة وهكذا حتى قبيل رحيله بقليل. رأيتُه أثير الجانب يكن له الجميع احتراماً كبيرا من العامة وأصحابه بشكل خاص؛ لا لشيء فقط لأنه يقرأ كل كتاب يقع بين يديه. حدثني مرة عن حبه هذا بارتياح وقال لي ممتدحاً: «سأكون مدِينا لك بهذه المكتبة كلها إن قرأت في الشهر كتاباً واحداً على شرط أن تسجل ما استفدت منه وما تعلمته». وزاد بثناء كبير: «أراك قادراً على أكثر من ذلك». لم تكد تمضي ست سنوات حتى شهد من حضر من الأهل والأقارب في جلسة عائلية بأنني جدير ـ وعن استحقاق ـ بدخول مكتبة أبي في غيابه. دار الحديث طويلاً حول مواضيع أقل أهمية، بينما خلا المجال لي للتمليك في ما تحتويه المكتبة من مجلدات

وموسوعات. لم أر ما يشبهها في المكتبات العامة، ولا عند أصحاب أبي، ولا حتى عند باعة الكتب القديمة. أثار انتباهي وضعها في يمين رفوف مكتبته الخاصة، ليس بعيداً عن مكتب والدي الذي يتوسط صالة البيت الكبيرة مزدحماً بالأوراق والكتب المفتوحة. يختار دائما أن يكون وحده ليلاً، يقرأ ويصطحبني لساعات قليلة معه، أجلس على أريكتي المعتادة أقرأ، ولشدة إعجابي به أسرح أحياناً. أنظر إليه وكأني أجلس مكانه الذي كان يشبه عرش ملوك روايات وأساطير قرأتها في ما بعد. «أين؟». مكان بتفاصيله الكثيرة المبعثرة كان وما يزال يسكن وجداني ـ أتشمم رائحة تفاصيله بشغف ـ ما برحت أفكر فيه حتى أحن إليه على مدى هذه السنوات. أقلب الصفحات وأراه من بين السطور يكلمني يشجعني، يفخر بي، يحثني على قراءة المجلد الأول، كان يدور حول أساطير بحّارة تاهوا في الجزر منهم من غرق واختفى ومنهم من وصل إلى بر الأمان. سافرت في قراءاتي مع حكايات لا تخلو من الحكمة والمتعة وسرعان ما أجدني أقفز وأنا المنتشي من مقروء إلى آخر.

موسوعات كثيرة أنهيت أغلبها. كان يرافقني بفخر صوته: «هو يراك رغم غيابه». كنت أهرب من أسوار القهر إلى السفر في ما أجده بين دفتي الكتب، وفي عرض البحر أعيد مرات ومرات أغلب أساطير الإغريق والرومان والعرب وحكايات يمكن تصديقها وأخرى محض خرافات. كان البحر فضاءً يحقق متعتي في القراءة. لم أتخيل نفسي يوما بحّاراً.. هكذا يقول أخي الأكبر وهو يصفني بالغرور؛ لأني كنت أحب الطيران، وأتخيل أن أمسك السماء بيدي.. تعجبني جداً «بدلات» الطيارين، كنت أعلق صورهم في غرفتي. أتخيل أن الطيار وحده من له القدرة على عبور البِحار والصحارى والمحيطات والجبال إلى أبعد نقطة في العالم ومن حقه الوقوف ـ كما في الصور ـ مرفوع الأنف متأنقاً بهندامه مزهواً بشهادته متبختراً بمعرفة

Telegram: Somrlibrary

الأجواء واثقاً من نفسه في معرفة العالم وما فيه. المطارات التي تكون محطة انطلاقه وعودته تشبه «مدن الأحلام »، تلك التي قرأت عنها في كتب الأساطير الغامضة.. فقراءة الأسطورة باعتبارها مغامرة أو طيران تتيح لك الخروج عن المألوف لتعيش أجواء أخرى، وتنسى الكاتب والشخصيات وتكون أنتَ الملحمة نفسها فتتلاشى الدلالات كالذرات. من أجل هذا وجدتُ من المناسب لي ملأ الأوراق بكلمات قد تسعفني في شيء ما يوما ما، مثل ذاكرة أغرف منها متى شئت، أتخيلني لو كنت ق اخترت مهنة مغايرة بعيداً عن عالم البحر لما كنتُ أفضل حالاً مما أنا عليه الآن. والأهم من هذا كله هو عدم نسيان كلمات كان يرددها أبي: «عليك الإصغاء وتقدير النصح».. كلمات خفيفة على المسامع ثقيلة في خضم التفاعلات البحرية، أضيف لها «بمهاراتك الفنية عليك إسداء النصح». فما أشبه الأب بالأبن حالماً مندفعاً شفّه الأسى، فاصطنع من القلم محراثاً في مزرعة الكلمات، ينعم بالاستقلال في الرأي، مترفاً في ثوب الحرية. فما مات معه الشوق ولا اندثر من نصحه الحنان؛ كان يقول: «لا يأتي التميز إلّا بكبح جماح النفس وإسكات رغباتها وسحق الرذائل والشهوات والدوس عليها بشجاعة وعزيمة، عندها فقط تتصالح الروح مع الجسد وتصير كل الرؤى التي تَغْشَاك متّزنة الأبعاد واضحة المعالم. كن أكثر إشراقاً، لا أريدك كسولا. انتبه من التساقط على قارعة الطريق واحذر المراء أشد الحذر، ولا تنزلق مثل انزلاق الحجر العنيف من أعلى أنف غرورك لتعاني سقوطاً عمودياً كما سقط بعض أقاربك في هوة اللاعودة. فقط كن أنتَ الذي أعرفه لا أكثر».

تركت قراءة أوراق أبي لوقت آخر وبدأت أكلم نفسي: «لماذا تغدر بنا الحياة؟». لقد رحل أبي، وكان رحيله صعباً، والارتماء في حضن هذا العالم أصعب. تلك خطوط رسمتها الأقدار لي. «البقاء غاية لا تُدرك». نعم والوداع لا مفر منه ومازلنا نحن الأحياء نبحث عن أجوبة لسؤالنا الأزلي: «ما

Telegram: Somrlibrary

السر من وجود الحلم مادام الموت نهايتنا؟». بعيداً عن هذا الوعي الشقي بالزمن وما وراء الزمن، قريباً من الذات وملحقاتها أشعر برأسي العابر إلى أرض الأحلام يكاد ينفجر. في ظل هذا الفراغ الرهيب الذي تركه غياب أب رؤوف. أنقش الحدث بمختلف لغات الشعر قديمها وحديثها، أعبّ الهواء وحيداً، أحرث مياه البحر وعند منتصف الليل أنثر دمعي على صفحات الماء. أشعر طوال الوقت بكلمات تَموج في ذهني، وسواء أكان الإحساس جيداً أم لا، فالقلم يراودني ليجدبني؟ ربّما بين الكلمات أجد ذاتي وألملم ما تبعثر منها. يرهقني العيش بوتيرة واحدة كما الاستماع لمقطع غنائي واحد. هذا يكفي، الحزن المستبد بالنفس مكروه نفساً وشرعاً ومجتمعاً.. لهذا يجب طيها.. لحظة ضاع فيها الأمل توقف تسلسل الحياة.. لهاثي هو الشاهد الوحيد على مرارة الغياب.. الحياة متتالية الوقع بقوة. النزول الحاد في غيابات الحزن لا يخلو من الخطر. تلثم القلب قبضة قاسية. كنت أتألم ولا قدرة لي على الاختيار. أشعر بالاختناق.. بالوهن. أحتاج رفقة وسلوى.. البكاء على كتف العطاء. حسبت أشعة الفضاء تحتويني، وعلى عنقي عباءة الروح تقيد فمي. تتكور قامتي في دوامة البقاء وحيداً. خطواتي المتخبطة تكشف ضعفي. ونصفي غادرني بلا رجعة، ولكن مازال الصدى يردد: «أي طريق تصل بنا إلى بَرّ الأمان؟». في الأمس القريب كنت وإياه نتجاذب أطراف الحديث واليوم غادر إلى دار البقاء وغادر ومعه الأجوبة. سأتذكره دوماً. أبي الحاضر في كل زاوية من زوايا البيت، كان الحاكم القوي والمدافع الوحيد عني بقوة. كل ما يُمكنني فعله هو استيعاب منهجه في الحياة وما تركه لي من أثر؛ مخطوطاته المبعثرة داخل الصندوق تحتوي الإرث المعنوي القادر على الأخذ بيدي. أتنقل فيها بين أكثر من حياة. فجيعتي، كنت أحتاج الوقت الكافي للانتقال إلى حيث أريد. هل تظن الأمر صعبا؟ يُخيل إليك نعم، وربما هو ليس كذلك؟ أو قد تقول: «لا أهتم لمثل هذا الكلام؟». أو قد تقول: «نعم أهتم. لكن في ماذا ينفعني حديثك؟.

Telegram: Somrlibrary

تمهل سأثبت لك أن ما تفكر فيه أو تقوله صحيحاً وليس مستحيلا. رحل أبي وأحزنني رحيله كثيراً وأبكاني وقتاً غير يسير.. تصورت.. لن أستطيع البقاء على قيد الشقاء وحيداً، ربّما كنت أهذي من فرط الألم أو شعرت بخيبتي من عدم قدرتي على استرجاع صفاء ذهني. أراه في المنام ومازلت أسمعه يطلب مني العمل بوصيته: «أن أطلع على مخطوطاته التي تركها في صندوقه البني المائل للسواد تحت مكتبه الخشبي المطرز بالنقوش الذهبية». لا تفارقني الأحلام أتخيل ما فيها.. أدهشني كثرة تكرارها. صرت مشتت الحاضر.. تبعثر فكري من شدة الحزن والخوف من الوحدة، وزادني عدم القدرة على تخيل ما كان مخبأ في الصندوق. وفي ليلة كان القمر فيها يسكن الغيوم: «النوم يبعد الشحوب». فكرت ثمَّ توقفت عن التفكر، أصغيت إلى رغبتي في معرفة المكنون. قفلتُ راجعاً إلى الغرفة، وهناك قلت في نفسي: «اهدأ». كررتُ هذه الكلمة مرات ومرات، وكأنني أزحت الخوف والقلق عني، ولم يبق من الخدر في أطرافي شيء. فعلت ما كان يريده.. فتحتُ الصندوق.. بعد حركتين كنت أنظر كيف كانت الأوراق مرتبة في داخله محفوظة بشكل يشعر الرائي أن هناك أعجوبة. الاهتمام واضح في الخط وفي حجم الكلمات. تساءلتُ: «لم كل هذا العناء؟» فتحتُ أول ورقة كانت أمامي؛ من المؤكد أني فتحتها على غير قصد فإذا بها تسرقني حتى آخر سطر.. والشيء نفسه حصل مع الثانية والثالثة.. وكلما أفتح واحدة وفي نيتي هي الأخيرة أسترسل في الأخرى متناسياً ما قلته، سرقني الوقت وكل ما أحمله من عواطف ظهرت الآن أمام الصندوق، فكرت في نفسي: «لماذا إلى الآن لم أستطع النسيان؟». تفجرتْ دموعي.. عدتُ بذاكرتي إلى ماضٍ كانت فيه الشمس ترسل موالها إلى الحقول وبين شعاب الجبال وعند انحدار الروابي، ترسم أملاً على جدران الكلمات. لم أستطع إسناد رأسي إلى كتفي، كنت أختض باكياً كل حرف، لا أستطيع الاستمرار أكثر.. مات في عيني اخضرار الرؤى.

Telegram: Somrlibrary

تجاهلت الإعياء وانتهيت منقاداً إلى الكلمات أبحث بين السطور. أرحل إلى أبعد ركن تستحيل العودة منه.

لقد دوّنَ أبي: « بُنيَّ ما يقلقني عليك باقي الحكاية، وأعتقد إنني لن أبالغ إذا قلتُ لك لا أحد له قدرة على إيقاف جحيم تجدد صدى سؤالنا الأزلي متى...؟ أستغيث بذاكرتي الموجعة وأنا أكتب لك عن أمر هام أراه يحدث لك يوماً، ولكن قبل ذلك من المناسب أن تفهم نهايتي ظهرت واضحة كل الوضوح وبدأت أعرف معنى اقتراب الموت، ولكن شيئاً واحداً فقط لم أستطع تفسيره.. الأمل وأتوقعه أنت؛ أمعنتُ النظر في حياتي التي كانت تشهد على وجه الجد المفعم بالقلق نوعاً من الغرابة والاحتدام في بعض الملابسات الدقيقة جداً والتي لا أستطيع اليوم تذكر كل تفاصيلها التي مرت منذ زمن طويل أذكرها لك والعيون تدرّ الدمع، فلم يبق لي وقتاً كافياً».....

تركتُ الأوراق وعدتُ بذاكرتي إلى اللحظات الأولى التي كنت أسأل نفسي فيها عن سر بقائه طوال الليل أمام طاولته منحنياً بيده القلم...

4

الليل بسمائه الصافية وقمره القريب الكبير وعجائبه هو أكثر وقت يثير في تفكيري الحاجة إلى الكلام..

- يا له من مشهد جميل..

سنوات وأنا أنظر في الكتب أتخيل الكاتب أثناء الكتابة. لم يخطر ببالي أبداً أن يساورني الضياع وأنا أفكر في الكتابة.

- أنظر إلى البحر..

تخيلت نفسي كاتباً...في مكتبة، أتخيل المشاهد على جناح باخرة

- أنا هنا. لا تتجاهلني

لك أن تقرأ فقط ولا تترك خيالك يذهب بك بعيداً، وانظر بعين القارئ الباحث عن المعنى. وكأن يداً خفية استلمت خيط أفكاري، أخرجت ما بداخلي وأخذ يتشكل أمامي صوت يشبه مسير النهر، في هيئة صور ضبابية اللون دخانية المعاني تتحرك كل مرة لتظهر في أشكال مختلفة ترميني في عزلة عن العالم. نتكلم أحيانا ونتشاجر أحيانا أخرى، ويصل بنا الأمر إلى حد العراك بالأيدي.. فينتصر.. ثم يأمرني بالقراءة. ماذا يحصل لي؟ هل يوجد من يجرؤ على إخباري بما يجري.

- أنا معك..

تركوني كما كنت حتى انتهيت كما أنا. سأقول لكم ما آلت اليه أموري

Telegram: Somrlibrary

بعد منازعاتي الطويلة مع الحرمان الذي منع عني عودة البراءة والعيش بسلام، كما كنت في مهد شبابي غير مدنس بشائبة.. شاردة ولا واردة.

ـ لا تبدأ

ـ أنا أعلم تريد إزاحة ذاكرتي كما إنزاح أبي.. تريد أن أتفرغ لك.. لك وحدك، وهذا لن يكون.

ـ لكني معك الآن.

ـ أبي والكتب فقط.

ـ ليتك تفهم.

ـ أنا أفهم وأتمنى أن تسكت.

ـ وإن احتجتني؟

ـ لا

ـ أنا نصفك الثاني!

ـ ....

في البدء حساب الأمل الخاطئ خير من اليأس الصحيح، هذا ما أكدته الأيام لك وأنا متأكد قبل النهاية سيعرف الأمل سبيله إلى حياتك. كان نصيبك مما أحببته واجتهدت في التعبير عن حبه. كنزي الثمين كتبي، وقد صارت بعد رحيلي لك. لذا لا تظن أني حزين حين تركتك وحدك؛ أنا سعيد لأنها ستكون خير أنيس لك، ولكن عليك ألّا تتعامل مع أي كتاب على أنه نهاية العالم ولا تتوقف على كونه الحقيقة المطلقة. هل تعجبتَ من كلامي؟ هل بدأت تشك فيه؟ انتظر للنهاية. هي النفس الأمارة. سواء أطعتها أم تمردت عليها لن تفلح في إسكاتها.

ـ انظر هذا أبوك، هو الآخر له نصفه الثاني.

Telegram: Somrlibrary

- اسكت ودعني أكمل القراءة..

نعم هي هكذا دوما تشاكسني بظهورها المفاجئ أمامي منتصبة كالخرافة تزعق في أذني بغضب. تذكرني بضعفي. بالفعل كان محبوباً يلقي السلام على كل من يمرّ به أو يصادفه وروحه البيضاء نهر من الود والسماح.

- أبوك يبالغ في الطيبة.

- اسكت وإلاّ.......

- دعني أقول لك الحقيقة..

- ....

الإنسان نفسه حين تتسلط عليه ذاكرة الألم المثخن بالأنين، مهما تقادمت ينسى التسامح وثقافته، ويشعر كأنه الوحيد في هذا العالم تستهدفه الأقدار يعتريه العناد وشيء يشبه التكبر. تتلألأ في عينيه مقولة « ولا يلتئم ما جرح اللسان»، بل يصل الأمر حد النكران.

- هذا ما يحصل

- لا يهم..

كم من الأيام الفردوسية طواها الزمان دون قدرة منا على تأخيرها، وكم من الأيام الجهنمية التي أنزلتها الأقدار علينا بيدها المتطاولة دهراً كنستها بأخرى فاختفت ولا نعرف أين؟ وكيف؟ ولماذا اختفت؟

- تخالجني أجوبة.... فقط أترك الأوراق واصغ إليّ..

- ....

هي التي تبعد عنا بقصد فهم ما يجري من حولنا.. ولا أقصد سوى الدُنيا..

Telegram: Somrlibrary

تكرر على مسامعك: «أنت معي تشعر بالسعادة». أرَدُّ: «لا». ثمَّ تعود واثقة وتضيف: «ستعود تلك الأيام إلى قلبك الزاخر بالآهات والذي لا يلبَث أن يفتخر على الرغم من خمود بعض عواطفه الجميلة؛ لأنه يشعر بعسر تدفق نهر أحلامك!!». أحلامي يا أنت.. أعلم أنها غواية، وعليَّ تجنبها، ولكن كيف؟ هي بتسلطها لا تسكت عني تحت هذا السقف الزاخر بالموجودات. لا تقتنع أبداً بزهدي. ما يحيرني تكرار همسها. الآن تبكي؟ تتنهد ترفع رأسك إلى السماء تارة. وتغرس عينيك في الأرض أخرى. تعود بعد أن تأخذ نفساً عميقاً إلى أين؟ إلى القراءة، اعلم يا أثري الأبيض ـ وكم كنت تحب هذا اللقب ـ اعلم لقد أحببتك ورحلت عنك راضياً، وأعلم أيضاً إن خفت ستجدني مثل جنب الأمان قربك. لو تهت ستجدني لذهنك دليلا. فقط اهمس لي. ولا تتكور أبداً لو أخفقت في الحبّ. كرر المحاولة. لا تنظر من يعلمك الوقوف، وعندما تتعثر في طريقك ـ وهذا وارد جداً ـ كن عارفاً إنما الوصول إلى الهدف يحتاج إلى عزيمتك أنت وحدك لا أكثر.

ـ حكيتُ لك ذلك سابقاً..

ـ ....

لقد كانت حياتي حرباً وسلاما، أوهاماً وأحلاما، دائرة ظنون وعواصف من العواطف المدمرة تثيرها نفسي المشاكسة في ثرثراتها المتكررة، فتغدو مندفعة في جموح خلف مخلوقات من طين ظلالها الأنهار الطويلة من الأشواق؟ ما يشغلني الآن ـ أنا وأنت ـ أن نتنفس كل صباح حياة جديدة، وما بقايا الماضي سوى قوة فعل تحرك الحاضر في اتجاه المستقبل، هذا ما يشغلني. الحب بإخلاص يمنح الثبات، ذلك بالفعل إحساس تتشبث المخلوقات العادية... وما لا يعلمه البعض الرغبة أنثى وأن الشباب ذكر.. من منا لا يقول لأنثاه إنه ذكر؟ بالطبع لكل واحدٍ منا همومه... ففي كلٍّ بقعةٍ من الحقول عيد والأدغال منغمسة في الدخان والطين. نحن الأحياء

تجتاحنا الرغبة في البقاء وهي صفة أزلية مثلها مثل أمل الأموات المنسيين خلف الأسوار القديمة. رغبة تتأمل المساء الحالك بصمت، وحدها مع خيالها المخضب بالحسرات تئن. والأيام سفر في صحبة الأقدار، تمنع أحياناً الأمل وتعطي أحيانا، والمغامرة طيش مبرر.

- العمر ومضة فلا تكثر الثرثرة.. أنفقه في أمور أكثر جدية..

أهكذا الحال معك؟ لا تجعل من القراءة والمكتبة همك الوحيد في الحياة. لا تركن إليها، على أمل أن أكون فيها أو لا أكون. أنا المخدوع فيها قبلك وأنا الذي وجدتُ المتعة معك أثناء الليل عند الاستلقاء على وجه كتاب، حينها لم يكن النهار يجلب أي مشاعر تدعو إلى الانتباه... أهيم على وجهي دون هدف ولا قصد. أتقدم وتقودني أفكاري القصية رغماً عني أحياناً إلى عوالم سحرية لا حَدّ لها؛ بخفة عجيبة تحملني الكتب إلى مدن مشيدة، ليست على الأرض، تعج بالحركة وأخرى أنشئت على بير معطلة... أجدها شاخصة في وجهي مثل ضباب غريب. وفي لحظات يصدمني عدم فهمي لتلك الأجواء الرديئة التي تواجهني عند تجاوزي مستطيل باب الغرف الحمراء عند محلات الراحة والاستجمام داخل بعض الروايات أو القصص، أحب من يطلق الوعود في كتب الأدب عند تجاوزه بعضا من الفضائل، وأبغض ناكثها في كتب الفلسفة، لقد قلت مثل هذا مراراً وتكرارا، لم أجد من يسمعني غير المستهزئين بي والضاحكين من فراستي، ليتني سمعت قلبي قبل أن أهتف بها، ليتني مُتُّ من أجلها.

- أبكاك الماضي من أبيك..

- ....

ما أسهل التمرغ بقاذورات الكِبْر والعظمة، فلا مناص من الانقلاب عليها.. مستهزئاً بالعفة وحيداً يصدق نفسه، إلّا إذا بسط سبيلاً من الوهم،

Telegram: Somrlibrary

وليس له من ابتسامته خلاص. أنت تعرفني أحبُّ الخيال والتمتع بشهواته الجامحة الملتهبة بإلحاح مستمر، كنت اقرأ كل ما يقع في يدي. حتى خُيّل إليّ وكأني خارج نطاق الوقت، أرى مستقبلي واقفاً تحت ظل شجرة ينتظرني جمهور بوجه باسم مع قطيع من الغزلان، يحدث هذا حين أكون على موعد مع النوم ليلاً. يتكرر أول ساعات الصباح. الأصحاب يحتفظون بأسرارهم في صدورهم العميقة وأنا لا سر لي. لم أستطع التحرر من عادتي غير الحميدة. ما أن يتناهى إلى مسامعي سؤال منهم ـ عائماً كان أو عميقاً ـ حتى أطلق العنان إلى فخامة لساني المضطرب ناشراً أدق تفاصيل حياتي. أتكلم عن كل شيء ولا أتوقف عند حد؛ أختلق الأحداث من بنات أفكاري، وألقيها على مسامعهم، وأهذبها بحذر، أسردها كأنها واقع. بُنيَّ لا تفعل هذا..

ـ أنت تفعل..

ـ اسكت أنتَ

ذات ليلة فيما أظن كان الهواء باردا، قرأت: «كيف يحتقر المرء ويهان جراء حب امرأة أرستقراطية». خفت وشعرت بواقعية ما قرأت ليس من الحبّ نفسه، ولكن من تفكير البطل نفسه؛ وهو شخصية متعلمة يفكر في جمع المال من لعب القمار؟. أحداث مدهشة. التفاتات أكثر من رائعة لأوكار لعب القمار، وبطريقة تكاد تسمع وترى نقل وقائع فجة عن تصرفات الأغنياء مع الفقراء. كل شيء فيها يستفز المشاعر ويثير الإحساس حتى النهاية. رميت «المقامر» ـ رواية فيودور دوستويفيسكي ـ وشددتُ رأسي بذراعي إلى ركبتي بقوة، وكأنني لم أبكِ من قبل، بكيتُ لمدة طويلة حتى أحسستُ أن عيونا متسعة الانفتاح تراقبني..!!...... انتهيت راكعاً من نوبتي الشديدة أكلم نفسي. ألومها وتلومني، وبوتيرة متصاعدة شرعنا في التوبيخ والتقريع والتبكيت. صحتُ بوجهها غضوباً: «كفى». لم أتوان لحظة واحدة

Telegram: Somrlibrary

عن ضربها لولا اختفاؤها المفاجئ من أمامي. منذ تلك النوبة وأنا أكلمها وهي تكلمني، نختلف أحياناً ونتفق أخرى، وبعد لحظة هدأت ونهضتُ من على الأرض؛ كانت قدماي لا تكاد تقوى على حملي إلى الكنبة. دسستُ رأسي تحت الوسادة وعدتُ إلى نوبة البكاء، ولكنه هذه المرة بكاء من نوع خاص؛ يهمس بالحاجة إلى الحبِّ وملاطفة النساء، فعادتْ لي بطلة الرواية هامسة: «أنا أحبك». عندها تحسنتُ، تنفست بارتياح، بعدها قلت في نفسي: «أنا أحلم».. في الحال اختفت تلك النوبات، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحاول جاهداً استعادة ذلك الانشراح بعيداً عن عيون الناس. كنت بأمس الحاجة إلى النسيان. ولابد لك من وقت إلى آخر من الاستسلام لمثل هذه الحاجة.

ـ يعرف أبوك حالتك كما أنا!!...

ـ ليس الآن.

ـ أرأيت؟

ـ ماذا؟

ـ هو يقدم لك نصيحتي!

ـ عن ماذا تتكلم؟

ـ أتودّ أن يقال عنك البكاء على غرار المشاع في كتب الفلسفة؟

ـ طبعاً لا.

ـ إذن اقطع هذه العادة؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ البكاء لحظة هياج المشاعر صحبة بعض الكتب التي كنت تقرأها.

ـ لا أفعل ذلك.

Telegram: Somrlibrary

ـ هيء. هيء.

ـ أبوك وأنا لا نحتاج إلى تأكيد منك.

ـ بدأت تزعجني..

ـ تتذمر مني؟

ـ نعم.

ـ ترى أنا في انتظارك. وإن ابتعدت عنك مسافة أسمعك.

ـ لكني لا أراك الآن؟

ـ عجرفتك تبعدني.

ـ لا أصدقك.

ـ شرود الذهن واللهو ليس من رغباتك.

ـ أنت مهرج.

ـ توقعت منك نوبة هستيرية أكبر من مجرد التفوه بلفظ.

ـ ارحل.

ـ هذا يحيي الأمل عندي.

ـ لا أسمعك.

ـ سترى في القريب، ويتسع الوقت لك.

ـ أريد البقاء وحيداً

ـ نعم،... إلّا البكاء..

ـ ارحل...

Telegram: Somrlibrary

5

الإنسان بين الحرية والإكراه شيء آخر ليس في الحسبان. كُنت من أعماق بحر الشباب أنشغل برغباتي وكيفية تحقيق بعض منها. نهبت الأيّام مني ظلال الهدوء، ومن مدينتي أنظمة الراحة، وما زلت في عالمي الخاص مثل الجسم المتحرك نحو شيء مثير وسار، لم أشعر إلّا وأخذتني السنون إلى المغيب، فرأيت حشداً من الاحتمالات لا أريد تذكرها، ولا أرغب في ظهورها. مرة أخرى تصمم النفس على الاستمرار، وتضعف الروابط والصلات، أحياناً تجتاحني نوبات سطحية، يراها الغير فوضى. كان عليّ ـ قبل أن يغزو المشيب رأسي ـ معرفة كيفية تجميع الطاقات الإيجابية واستدعائها لتظهر طواعية لحظة مناداتها. بالغتُ في الخيال تجاه أبي والبحر. اصطنعت منه صديقاً وملاذاً ومعلما. ويبدو راقت له تلك المسميات، وسرنا معا على تلك الطريق. لا أحد غيره له السلطة على تغيير ما أريد. ليس من حق أحد مهما بلغ شأنه أن يتطاول ولو بالشك على حضوره. ما أفعله كان أكثر من كيل المديح والثناء إعجاباً به؟ ربّما.. في الشارع كما في المدرسة أعشق الحديث عنه. أجيد سرد أدق تفاصيله بلغة وصفية فائقة الجمال، وما يربطني به علاقة أشد عمقاً من المحيطات وأكثر إنسانية من البشر، وإلى الآن لا أحد يعلم بها غيري وأبي.

ـ وأنا!!

ـ ....

هو الذي كان التواضع نخلته العالية. في أوقات الشدة يخرج منه

Telegram: Somrlibrary

بريق إصلاحات لا حدود لها. لقد بلغ في نفسي حد السلطان. فارس الدهر. أتملقه كثيراً، وكم رأيت من النساء المتأنقات يضحكن له. المباهج التي غرزها في قلبي وما قدمه لي حتى بعد وفاته كانت كثيرة. في حياته أسند إليّ بعض المهام التي من شأنها رسم شخصيتي دون تدخل حاد منه. كان يطلق الرأي بطريقة تربوية؛ يتركني والتفكير منعزلين، حتى أفهم الأمر أكثر أعود إليه مقتنعاً في نقاشات أخرى. حزمة طويلة كانت حصة الأسد منها عن المستقبل. وبعد نضوج التفكير بدأت الحياة تأخذ شكلها الحقيقي في رأسي. بدأتُ أتخيل مهنتي: «متفردة. حرة. أنيقة. ومهمة». لم أترك فسحة للأقدار على أن تقول كلمتها، وما حدث قد حدث. سبق وقلت كنت أحلم بالطيران، ولكني الآن البحّار، وفي نفسي الرضا وفي عقلي القناعة. عرفت بعد أكثر من محاولة أن القبول في كلية الطيران يستحيل على من يحمل هذا الاسم الذي يحبه الآباء والأبناء والأمهات والشقيقات، ومن يحمله يعتبر مشبوها من الحاكم الأوحد ومن ثَمَّ ممنوعاً من السفر ومطلوباً للإعدام. وما يزيد يأسي أن غضب الرفض يسكن مسقط رأسي في مدينة تنتمي إلى مجال جغرافي مغضوب عليها، كانت ترفض الظلم والاستبداد. تحارب في الخفاء والعلن كل نظام دكتاتوري ظالم. رجعتُ إلى الكتب. وعن طريق البحر والرحلات وجدتُ غايتي؛ الإمساك بالحرية، يبدو هي النافذة الوحيدة المتاحة أمامي. السفر من خلال الكتاب غاية وهدف. حدث ذلك لحظة دخولي إلى الأكاديمية البحرية. كنت حينها أنفر من تخصص البحرية الحربية، كما أنفر من صنوف الزي العسكري ولونه وغاياته. تخصصت في القسم التجاري وشيئاً فشيئا انسجمت مع الأوضاع الجديدة وتعلمتُ من البحر أساليبه وما نحتاجه من مهارات فنية ومهنية. تعرفت في الباخرة لا ما كنت أتصوره أن الربان هو القائد الأوحد، تعلمت أن البحّارة يشقون طريقهم لركوب البحر عبر مرحلتين مهمتين؛ دراسة النظري أولاً والعملي ثانيا، ليكونوا على أتم الجاهزية لقيادة باخرة. ولكن الطواقم البحرية

Telegram: Somrlibrary

يمكن لها التدرج في سلم المسؤوليات والمراتب بحسب الأسبقية من جهة وبالنظر إلى الشهادات المحصل عليها من جهة أخرى. عرفت في قسم الماكينات أن العمال دائماً يعانون من آلام المفاصل وخفقان في القلب وشحوب الوجه بسبب استنشاق الغازات الملوثة، ومعاناة حمل معدات الصيانة التي ينوء بحملها العامل، لأنها تقصر العمر. ناهيك عن الجهد الذي يبذله في الصعود والنزول لسلالم حديدية بين ست إلى أربعة عشر سُلّماً. كل سُلّم ست عشرة درجة ما بين درجة وأخرى خمسة عشر سنتمترا. يعيش البحّار هذه المتاعب طوال بقائه على ظهر الباخرة التي تتراوح مدة إبحارها ما بين أربعة أشهر إلى تسعة حسب مكان الباخرة وحمولتها. طاقم السطحة بحّارة يعملون على سطح الباخرة يتعرضون للمخاطر من الصدمات بالحديد والكدمات الخطرة التي تترك ندوباً تبقى دهراً من الزمن، أو سقوط في هاوية عنبار أو في البحر. كنا نشير إلى الأشخاص ـ السواح المسافرين ـ الذين يركبون البواخر فقط من أجل المتعة. كنا نحدثهم عن مناطق الخطر، ولكن لا أحد يُقدر تلك المخاطر حتى يركب البحر ويعلو الموج فيحدث المعتاد. ترى المسافر منهم حديثاً باكياً في الممرات، أو خائفاً يرجف وهو يلعن حظه وحيداً في غرفته. ينتظر أقرب ميناء كي يعود إلى أهله. تعودنا النظر لمثل هؤلاء وهم يقفون في ممرات الشركة، يتحدثون عن بطولاتهم البحرية التي سمعوها منا... لا أحب الحديث عنهم، لذا فكرت في طموح يحركه الفتى المغامر في رأسي الذي يعرف ما يريد: «الراغب في مستوى أهم من قيادة الباخرة عليه التجلد ونسيان الأرض». ولكن يبدو أن للأقدار رأياً آخر، يعاكس ما حلمت به؟

اليوم كما الأمس عملت كثيراً في حياتي.. عملاً كنت مقتنعاً به وآخر أنجزته على مضض، لكن الأمل كان لطيفاً.. ذات مرة سألت بحّارا تسرح من الخدمة للتو:

ـ ما خلاصة مهنتك؟

أجابني وعلى وجهه علامات حسرة وندم:

ـ لا شيء غير ضياع العمر في ملذات زائلة.

تخيلتُ في كلامه قصدية عميقة تثير أكثر من معنى وغاية. ربّما يحاول إبعادي عن البحر؟ أحبُّ الشك. أما القناعة فتأتي بعد وقت، أو قد لا تأتي، لا يهم. المهم هو أن أجرب الحياة وغيرها بنفسي، وإن كنت لا أمتنع أبداً عن سماع النصيحة وحفظ التعليمات بحرص مفرط يجلب القيل والقال. لكني لا أهتم كثيرا لما يقال عني، وإن كانت بعض خطواتي لا ترضيني. أظن ما دفعني إلى عدم التواصل مع الأقارب هو حبّ المعرفة. كنت غارقاً في تحقيق أحلامي بأقصر الطرق مصحوباً بالأمل. تقدمتُ ولم ألتفت يوماً إلى ملاحظاتهم عن حدة تصرفاتي. أرى في حديثهم تفاصيل لا أهمية لها. خرجتُ يوماً من مطحن الأعصاب؛ من مجلس أقيم للنصح، ينشطه أناس أشبه ما يكونون بآلات لا تجيد سوى الكلام من دون عمل. اخترتُ مستقبلي بنفسي، ولم تتغير طريقة تعاملهم معي! أغلقتُ نوافذ التواصل معهم وبدأت أرى في مرآتي وجهي الذي صار راضياً عني كل الرضا.

ـ أنتَ مغرور.

ـ نعم.. ومن قال غير ذلك؟

ـ وللآن.

ـ لا يهم. أنا هكذا أحبُّ حياتي وغروري.

ـ لم تتعلم بعد.

ـ ....

كنت الأحمق الغافل عن غدر الحياة.

Telegram: Somrlibrary

لم أفهم بعد ما الأقدار ولا الدُنيا.

كل الاحتمالات واردة، ولكني في اختياري هذا أيقنت

«أن ليس في الإمكان إلّا ما كان»؛ سرتُ في أرض ليست أرضي. عبرتُ بحاراً لم أحلم يوماً بعبورها.

وصلتُ إلى مدن لم تخطر حتى لأحلامي..

ولا جواب لي عن سؤال متكرر: «هل هذا بالفعل ما أريد؟».

لا أدري..

تهتُ بين النفي والإيجاب. غير أني أريد أن تبقى حياتي هكذا. ذات مرة سألتني شقيقتي عن المستقبل. أجبتها: «سبق وقلت لك أعيش لنفسي فقط». كنتُ أهرب من الإجابة حقيقة.. فسألتني عن رأيي في ما أراه من حياتي.. أجبتُ وأنا أتصنع عدم الاهتمام: «لا يمكن لها أن تكون أجمل مما أنا فيه الآن». بعدها لذتُ بالصمت طويلاً.. لم أجد شيئا أضيفه.

ـ لا، لقد كنتَ تعرف السبب.

ـ لم أكن قد فكرتُ بعد بترك البحر.

في المساء يأخذني معلمي ـ البحر ـ إلى أي مكان أرغب في رؤيته.. وفي النهار يحثني على عدم التهاون في العما، وعند ساعات الاستراحة يحاورني عن همومي وانشغالاتي ومخططاتي. يتنفس معي. أحببته كما أحبني..

كنت ألمس فيه أناي.

رائحته تثير ذكورتي، أراه أسطورة متاحة بين يديّ.

كبيراً جداً.

Telegram: Somrlibrary

يدخل عيني ساكناً بحرها مثل طفل رضيع ينام، وأحيانا يحتويني متراميأ لا نهاية له. أرمي في جوفه همومي، قلبه الكبير لا يسأل إلاّ عن حالي. غضبه أكبر؛ كثيراً ما عاندني وناكدني، لكن في النهاية يعود طائعاً ليناً يحملني على ظهره دهرا. غدره أشد وأنكى؛ أسجل عليه: لم يتهاون ولو مرة واحدة في قتلي. بللتُ جسدي في لججه. أغوص ولا أهتم للخطر. ورغم ذلك أشعر أنه يبادلني الشعور نفسه لحظة وصولي إلى الأرض. أحس في صوته وهو ينادني باسمي. من يشعر شعور الحب هذا، لابد له أن يكون مغامراً يعاند كل توجس يفرمل رغباته. أنا من طبعي أتشمم رائحة السلطة مبطنة في ثنايا النصح، والغريب بعد هذا العمر والتجربة المكتسبة من هذا البحر ما تزال أصوات حانية مستعطفة ترفض عودتي إليه.

في السابق عانيت كثيراً من حرصهم، الآن يبدو لا تأثير لهم، لقد عدت. داخل غرفتي. مُدندناً مع نفسي وقفتُ أمام المرآة وقتاً أبتسم لها وتبتسم لي. رغم الشيب كنت أرى الشباب في رأسي. سَرَّحتُ شعري بطريقتي التي أحبها. تعطرت وارتديت ملابسي البحرية البيضاء: «بنطالاً» وقميصاً، وعلى كتفي رتباً ذهبية. غطاء الرأس كان أبيض يتوسطه شعار البحّارة والجورب الأبيض والحذاء هو الآخر أبيض وفي يدي أخذت حقيبتي السوداء ونظاراتي الشمسية. خرجتُ متبخترا أمشي وكأني عدت إلى أيام كنت فيها الطالب المميز في الأكاديمية البحرية.

برج التميز.. جهة الإنصات

تعصرني الأفكار وبدرجة أقل تتشابك اليدين وأقل من ذلك تنطبق الشفاه. يصاب الجسد بالتخشب! نورس أبيض يتسلق وجه الفضاء الأحمر وعلى مقربة من العينين يرسم علامة وداع زرقاء وأخرى لا لون لها مبهمة! تقول الأسطورة: «وأنت تفكر بالمجهول قلبك يراقبك». يبدو الاختلاف في ضبط نوتات النبض هو المقصود. عرفتُ بالصدفة أن الضحك العالي بصوت يشبه صهيل الخيول يطرد الأشباح ويمنحك الراحة في الشعور بالتميز وكأن لا أحد في العالم سواك تصرف كالخيول وتحرر في الاندفاع فالجري هو العلاج الوحيد للألم. والجمال هو حب الذات ولا مناص من التفكير في الآخر الذي فينا عند متعة السير في شوارع لا نعرفها. أكتبُ عن الأمكنة التي أذهب إليها في جولاتي. أعود إلى الغرفة أرسم مخططاً لمعالم أعطيها لوناً خاصاً. رشفة بعد أخرى أكسب من رعشات البحر الساكن حكاية ويمكن القول أيضا أحاول النسيان. تجاهل الألم عند أسفل ظهري عبر النظر إلى ما أنجزته ذاتي المهمومة وهي تستعيد أخيلة مازالت تستقر في ذاكرتي أكثر من الحياة.

ـ أنت حزين..

ـ لا أنكر ذلك، ولكني لا أجعل من حزني ذريعة للعيش في كدر.

ـ لا تريد الاعتياد على شعور الوحدة؟

Telegram: Somrlibrary

ـ لا أريد تكرار الهروب من الازدواجية، وكأنها لعنة..

ـ تبحث عن جمال الذات.

ـ قل ما شئت..

ـ ما بك؟

ـ ما بداخلي يرفض اللعوب الذي يسكنك.

ـ أنا نصفك الآخر!

ـ ....

مرت الساعات ساخنة. لا شيء غير العطش الذي أتجنبه، ولكي أتأكد مني في حقيقة لمست المشهد المطل على البحر، كان يفصل بيني وبين الشمس سياج حديدي، من سخونتها تشعر أن الحياة لغز مرسوم بخطوط باهتة هزيلة. نعم كانت حارقة بإمكانها صهر أحلامي الطرية. اكتفيت بالتأمل في قناعة جوهرية تقول: «اختفاء العواطف يساعد على ظهور الكراهية». إنه الصيف وآه من الصيف الذي جاء فيه الجيران ليسمعوا بكاء اليتيم. تحول إلى مجنون يلكم صدر أبيه المتوفى ويصيح: «حيٌّ.. هو حيٌّ». مازال في الذهن متسع لسماع أصوات تلك اللحظة، وكأنها تتردد الآن: «نعم». مرَّ وقت طويل على وفاته، ومازال صوته وظلّه هنا. رجل يختلي إلى نفسه يردد معها ما يحب. يتمنى النسيان. قد تتظاهر بشيء من السذاجة، وحين تشعر بالأسى تكون أضعف، إحساس لا تداريه إلّا بما حفظته الذاكرة، إحساس يتكرر حتى يتلاشى، فتضيع معه في دروب الضياع، لا عزاء سوى أن الحياة قصيرة. التظاهر باللامبالاة يحتاج إلى وقتٍ أكبر وزمنٍ أوسع. لا شك أننا نحتاج إلى حيوات أخرى نعيشها كما نريد بنظرة إيجابية النظر إلينا. وجدتني أمام موقف يصعب معه التواصل مع العاطفة في يوم حار يُذكر أجسادنا المحترقة بالعقاب. الصيف وحده من بين الفصول الأربعة يصل فيه الموت إلى أعلى الشرفات المسيجة بالحديد،

Telegram: Somrlibrary

لا يُبقي على قطرة من مطر الشتاء. لكني انتزعت نفسي من همومها وأقنعتها بأن «الحرارة معتدلة». توجهتُ إلى البراد وشربت الماء البارد مرة. مرتين، لا أبالغ لو قلت خمس مرات؛ إفراطي في شرب الماء البارد عادة مزمنة. ولا أتصورني نائماً دون وجود الماء قريباً من وسادتي. ولا قدرة لي على السفر ولا العمل أو الراحة ولا حتى الكتابة من دون ماء. وطنت نفسي أن لا مبرر لتلك الأفكار السوداء وعدت إلى الحقيقة. مازلت في أول ساعات العمل، ولا يسعني إلاّ أن أمضي لمعرفة ما يخبئه المستقبل.

- تذكر: هو يوم أنت فيه على قيد الحياة.

- اسكتْ أنت

ساعة الظهيرة كنت غارقاً في الكآبة. على ضفة الذاكرة المتحررة علقت جائزة مشاويري.. أسطول مكون من وجوه نزلاء أجانب وطرقات معبدة بالحجر المرصوص وأشجار وطيور وأنهار ورائحة نساء. يشغلني الغناء دون انقطاع، أودع المواهب المتميزة في صالات الفنادق المترفة. النفس تبحث عن الهدوء والجلوس إلى طاولة يضيئها نور أحمر حولها ترفع المناديل الملونة. على درج صهرته حرارة الشمس، وقفتُ قبالة البحر أمدُّ النظر إلى تماثيلٍ من العاج مُغري التصاميم في نفق سفلي تحت الماء مستلقية. ثمة موجة أقصر مما أتصور كانت تنتظرني بقلق، إلى جهة اليمين أثارني لمعان أسماك تحلق في الهواء من موجة إلى أخرى تنتقل برشاقة عجيبة، تقتحم بحر عيني مخلفة ورائها بريقاً يصعد حتى نهاية اللون الأزرق، ألمحُ فيها السماء. أغامر في عالمي المائج بعيداً عن شقاء الأرض. بدأت الرمال الناعمة تحكي قصة فتاة بسيطة عاشقة. فارس أحلامها شاب ثري لطيف السلوك. إلى الجهة اليسرى أتأرجح بين نهاية الموج وانكسار الضوء وبداية صخور حمراء تحكي قصة عاشق بسيط لفتاة لعوب ثرية. أمامي تجلى الأفق البعيد على وجه الماء؟ أعيش فيه حياة

Telegram: Somrlibrary

تمحو موت أيامي على وجه الأرض، هناك كان الحرج عجوزاً وقد تمكن من اصطحابي، سألني عن وجهتي فلم أستطع إقناعه. بدأ يحدثني عن رغباته ـ لماذا؟ ـ غايته تحقيق تأثير في قناعتي. واثقاً كان لا يستمر في الحديث بنوتات ثقيلة، يخيل إليّ أنه عانى أسوأ ما يمكن أن يكون من الوحدة.

ـ نتكلم عنك.

ـ لا أريد الحديث معك على الأقل الآن.

ـ صرت ثقيلاً عليك؟!..

ـ ....

كان العجوز يعيش بعيداً عن الأرض قريبا من البحر غريباً عنهما، وكأنه روح شاردة أُلقِيَ بها من عالم يكسوه الضياء إلى عالم مظلم يخلق الأخطار المتكررة لنفسه. عبثاً كان يعود بذاكرته إلى باطن أفكاره الأولى؛ يثير عاصفة مضطربة مصدرها الظفر والندم معا. يجهش بالبكاء، ينتفض الموج ليلمس المَدّ المدى، وقبل أن يَنبُتَ في الرمل قال: «الإحساس بالفراق اغتراب يفتح مباهج الاهتمام بالمظهر ويغفل المعنى من الإبحار». أبتعد في التأمل عن عبارات الصدق. يتركني مثل فكرة حائرة وسط اللغات متعرقاً. رأيت الموج يتحرك صعوداً إلى جانب تراتشي ـ باخرتي المنتصبة في البحر ـ حتى السطح يشق صدره مثل الضحية غيباً يحاول الوصول إليها. يتنفس بعمق. يشبهني في الوحدة. سرعان ما استغرقت في اللقاء. سرحت بعيداً وبدأتُ أتمتم للموجة العالية. لم أنتبه للوقت. خاطبني البحر: «سنراك مرة أخرى؟». ظهر نصفي الآخر على هيئة رجل مُسن ملابسه قد تجعدت، يشعر بالإرهاق وهو يكرر اسمي كعادته يذكرني بطريقة مرعبة سر البقاء طويلاً تحت الشمس.

ـ بإرادتي ظهرت لك.

Telegram: Somrlibrary

ـ ماذا تريد؟

ـ كنت معك.

ـ أمتلك الأفكار الملتوية، الأمل الشائك، الحلول، المشاكل، أنتظر الخلاص.

ـ في عرض البحر الشمس خطرة.

ـ لا جديد

ـ إذن تجنبها.

ـ سأفعل

ـ حرارتك مرتفعة.

ـ ....

وأنا أتابع المسير في طريق العودة إلى ذاتي، لم أكن قد وصلت غرفتي بعد، أنصتُ إلى صوت اعتدت على إخفائه بعيداً عن مسامع العالم وأحيانا عني. مدَّ لي جناحه وارتقينا معاً من بلاط الباخرة إلى أعلى السقف! الرعب؟ لم يمسني الخوف! قريباً من مصابيح السقف وجدتُ بريقاً في عينيَّ يضحك، أخذني الدوار بعيداً عن مكاني. ظهرتُ في مهرجان من الضياء والصياح على شكل دخان كان بيني وبين الأشياء حجاب أبيض شفاف. خاطبني طفل مهذب: «أنت مميز». وامرأة: « أنت صبور». وتلك العجوز: «فكر في المستقبل». وقال الرجل بطريقة مهذبة: «كن كما عهدتك». وفجأة طاف صوت أبي وأمي بالمكان: «عُد لوضعك الطبيعي. خذ قسطاً من الراحة». آنذاك شعرتُ بالريح تلاعب جسدي. شعور لذيذ لكنه غريب. لامسَ النسيم البارد قطرات تعرق جسدي. شعرت بقشعريرة لاذعة. رجفت. حاولت النطق. عجزت. ثمة مخلوقات تشبهني أراها تضحك لتبكي ثمَّ تعود إلى الضحك حتى تختفي! حاولت اللحاق بها. فشلت. لا أحد يفهمني. أشعر بالدوار في رأسي. خانتني قواي. عاجزاً عن التنفس؛ شيء

ما جثم على صدري، مرهقاً، تمكن التعب مني. استسلمت للأمر ومددتُ يدي وبدأت أنزل إلى عالمي السفلي. إلى عمق مظلم. سمعت: «انهض». لا قدرة لي على الرد؛ شعرت بصعوبة في النطق مثل العملاق كان نصفي الآخر قد حطّ أمامي وأخذني من يدي إلى دائرة زرقاء معتدلة الضوء باردة. وقفتُ وسط غابة داكنة الخضرة أشجارها غنّاء ثمارها طازجة في متناول اليد كل شيء فيها. نشرت ذراعيَّ في وجه الريح وتنفست عميقاً «طرق الخلاص عديدة لكن ليست مسالمة». سمعتُ! ومن أجل تصديق تاريخ الميلاد وما نعرف من حالات وفاة مفاجئة أطلقت: «آآآه». بوجه الريح وفي صوت يشبه إلى حد ما صهيل الخيول ضحكت...

ـ أراك تقضي وقتا جميلاً؟

سألني أحد أفراد الطاقم فأجبته دون النظر إليه

ـ ماذا؟؟

ـ هئ.. هئ.. كنت تَحلُم.

ـ !

Telegram: Somrlibrary

الفصل الرابع

الآخرون.. تَعدّد الأمزجة

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

1

هيمن الصمت على الجميع والقلق ساند التعب. الضجر إحساس مُرّ فوق تفكير محتمل خُبئ في الأحداق. من مزايا الخبرات المتراكمة نعم البحر تقف عنده الاحتمالات مثل سحابة رمادية محملة بالأمطار فوق الرؤوس البيضاء. ونعلم أيضاً إن الأيام القادمة حُبلى بالمستجدات. الآخر وأنا تعودنا الرحيل والتشاور. مثل طائرين كنا نقفز إلى الغد فوق بحر متلاطم يثخن أجسادنا بالمشقة، يثير النجاح مذاق الحياة الحلوة وتوحي المتعة إلى الدعة وروح المغامرة. كنت أمسك بزمام المبادرة في حين أراه يمسك قوانين الطبيعة بقوة أرواحنا كانت مرتهنة داخل فضائنا المتحرك. عناد يكره عناداً وضوء يدفع ضوءًا وتيار يصطدم بتيار. على مدى ساعات خرج خيط الإصرار من الوجوه الأكثر نضارة وكان التميز يرسم الأمل.

بحثنا ـ أنا وبعض أفراد الطاقم الجديد ـ عمن يساعدنا على معرفة ممرات الباخرة وكيفية الحركة داخلها وأقصر الطرق للتوجه إلى أماكن أعمالنا. رمينا الحقائب والأمتعة في الغرف ولم يمض من الوقت الكثير حتى هاجتْ مشاعرنا لرائحة «الرز» المطبوخ وشواء اللحم. تذكر الجميع أن البطون منذ الصباح خاوية. جلسنا في صالة الطعام ننتظر كما غيرنا وجبة الغداء. عن طريق الصدفة عرفت أن مهمة الطبخ تكفل بها «فراس»؛ هو نفسه الذي تحدث عنه صديقي قبل أكثر من سنتين، كان معه في رحلة بحرية لاتشبه التي نحن بصدد الحديث عنها. تحدث صديقي البحّار

Telegram: Somrlibrary

عنه قائلاً: «هو الشخص الحقيقي الذي يشبع المعدة ويضحك الطاقم». وهاتان ميزتان لا تنجمعان لأي طباخ آخر إلّا ما ندر. لمحتُ وجهاً أعرفه، أقتربَ أكثر فعرفته هو «مراد» كعادته بصوته الهادر مازال شابا، غير أن شعره المخضب بالأسود لا يخفي تجاعيد عمره الذي تعدى الخمسين، ومازالت وظيفته هي نفسها؛ إذ يعمل كمساعد أول للطباخ... داخل صالة الطعام رأيته مفعماً بالنشاط والحيوية، إلّا أن نبرات صوته أشعرتني بالألم حين هتف: «أنا بخدمتكم جميعاً». لثواني معدودات ساد الصمت فسمعت: «هاهاهاهاها وأنا مثله». كان صوتاً مألوفا. هوت القهقهات مثل مطر على صحراء صمتنا. كنا ـ نحن الطاقم الجديد ـ جالسين نتعارف من خلال النظرات. مثل رسام يتأمل القمر، ومن دون أن نعي ما يخفيه لنا البحر والقدر نشحذ الهمم بالمجاملات. كانت للضحكات قوة تحرك أطراف الشفاه إلى الأعلى. ظهر صاحب الصوت الناعم واسمه «مراد»، فازدادتْ الضحكات علواً ترافقها أصوات الترحاب بصاحب الوجه الأحمر «ساهي» الملقب بأبي النون، تبين بعد ذلك أنه المساعد الثاني للطباخ يسهر على تقديم الطعام للبحّارة وتنظيف المكان. رأيت الاثنين ـ مراد وساهي ـ لا يختلفان في سلوك الفكاهة عن رئيسهم. وكان «مراد» يدمن النقر بأصابعه على أي شيء يحمله، يتبعه أبو النون مغنياً، ولا أخفيكم سراً كان غناؤه جميلاً. يشاكس ساهي مراداً في جو مرح يريد منه الرقص على وقع عزف طروب، فيرد أبو النون بطريقة مفاجئة لكن جميلة يقلد فيها حركات النساء: «كفى..الآن نعمل». «نريد الثوم والبصل». صوت أحدهم انطلق من زاوية الصالة. وآخر واقفاً أطلق العنان إلى صوته: «لا تنسوا الخبز والتمر واللبن». صفق الذي قبالته وهتف: «أبو النون».. الآن جاء دوره المعتاد في الفكاهة والحركات التي كان البعض يراها غريبة ومحببة تضفي الراحة والمزاح عند البعض الآخر. شدَّ انتباهي له؟ وضع ما يحمله من طعام على الطاولة وفرش ذراعيه وهزّ كتفيه يرقص ويردد: «حاضر، حاضر». «ساهي.. تعال بسرعة».

كان صوت فراس الطباخ يحاول فرض سيطرته على المكان. في الحال اختفى أبو النون ترك خلفه طابعاً مريحاً في نفوس أغلب البحّارة. رأيتهم جميعا يأكلون بسرعة ويتكلمون أسرع، أحسست بالمشاعر الحسنة تحملنا على أكف الراحة، ربما ستكون هذه الرحلة خالية قدر الممكن من الصراعات الذكورية المعتادة في كل إبحار مرّ. يصدق المرء أحياناً كثيرة أنه مازال في الحياة قلوب صادقة في تعاملها، رغم سذاجتها تكشف باستمرار عن براءة السريرة. براءة لا يفهمها قياصرة أفكار المؤامرات؛ ذلك لأنهم هم أنفسهم متهمون بارتكاب جريمة قتلها. «لا تبدأ بحفر القبور». رائعة تلك الجملة التي سمعتها من رئيس الضباط، فقد أخرستْ رقيب السطحة الذي أفزع مرح المكان بصوته المبحوح: «ما الذي يدفعكم إلى الضحك في وجود الربان؟». لا تعني لي شيئاً، هي فقط كلمة حق قيلت في وجه الربان لإسكات فتنة كانت ستكبر أكثر. أنا أعرف رقيب السطحة هذا وأعرف جيداً كيف تسلق سُلم درجات وظيفته وأعرف أيضاً أن كفاءته المهنية لا تتيح له أن يكون أكثر من بحّار أول أو تقديراً واحتراماً لخدمته الطويلة بحّار يعمل بنظام الواجب اليومي. عاد الصمت ليعم الأجواء. كنت قد انتقلتُ إلى الجزء الآخر من الصالة. فسحة فيها الحياة أكثر متعة بعد عمل يدوم ساعات طويلة، لكنه يشعر المرء بعد انتهائه بالراحة. كنت أتخيل أجواء غرفة المطبخ وكيف يكون فيها المرح متاحاً بين أولئك الثلاثة ـ فراس. مراد. ساهي ـ أثناء تحضير الطعام. كانت الصالة قد هدأت للتو من نشوة الضحك. لمحتُ في بعض الوجوه دفء المحبة البريئة يقترب من صدري وحزناً يشابه أحزاني. تدريجياً استلمت خيطاً من خيوط الذاكرة، عدتُ إلى طفولتي، رغماً عن أنف رغبتي، اختارت ذاكرتي الذهاب. كانت أمي بخفة ونشاط تستميلنا ببراعة إلى لطف اللحظة، نلمح ذلك في حركاتها ساعة الغداء. كان وجود أبي المتدفق بلا هوادة بنظرات الإعجاب لها مثيرا، رغم اتزانه التام كنا نراه مستسلماً لبعض حركاتها المعبرة عن حبها

Telegram: Somrlibrary

له، مشهد رائع يبعث في النفس بهجة بلا ضفاف. نظراته كانت عميقة، أصابعه السمراء الطويلة تلمس أطراف وجهها الأبيض. كان يكيل المديح لها وهي منشغلة تعد الطعام لنا، كان يثير الراحة فينا وشهيتنا. كان أبي كثير الملامسة لأمي، وكنت ألمح الانصهار بينهما في رجع صدى الابتسامات التي كانت تتكرر مع بعض غمزات من عيون تتسع وتضيق وتتسع كلما اقتربا من بعضهما...ابتعدا.....

في آخر الصالة يأخذ البحّار الأول «باسم» مكانه قريبا منه يجلس البحّار المتدرب «فاضل»، شابٌ في أوج قوته، ترتجف شفتاه من الضحك لما يسمع.. فخرجتْ منه...

ـ هيّا معه.

رأيته يدق بأصابعه فوق الطاولة بصوت خفيض يردد:

ـ سنرقص.

لحظة دخل فيها ساهي مهرولاً يحمل الطعام بكلتا يديه وبصوت مبالغ فيه يردد:

ـ أبو النون وصل.

وقف رقيب السطحة وأطلق العنان ليديه مصفقاً ولحنجرته بالغناء. لم يكن من الآخرين إلّا ترديد الموال، لينتهي أبو النون كعادته في متعة لا يعرفها إلّا هو.. ناشراً ذراعيه يهزُّ رأسه مغمض العينين يرقص كأنه طائر غاب طويلا عن الطيران..

ـ تعال.. وراءنا عمل كثير..

ولحظة سماعه صوت الطباخ يأمره، فر واختفى خلف باب المطبخ وأخذ يشاغل نفسه بعمله، لينتهي فصل آخر من المزاح أبدع أغلب البحّارة في صناعته.. ضحكنا وانبسطنا جميعاً... ثم انتشرنا على أرض السفينة،

Telegram: Somrlibrary

أخذ كل منا بزمام مسؤوليته. عن يميني كان يجلس الضابط الثاني، أثارت انتباهي ابتسامة هادئة اعتلت محياه، له جاذبية غريبة.. تشعر وكأنك تعرفه من سنين ولحظة ما قال:

ـ لا تحرمونا من المزاح.

تأملت فيه ذلك الإنسان الذي سيصير صديقاً قريباً منا ومحببا لنا ـ أنا ونصفي الآخر ـ في الإبحار والمرافئ القادمة.

ـ ربما حللتُ شخصيته في وقت وجيز.

ـ ....

عن يساري وعلى بعد مقعد واحد يجلس ربان الباخرة. لم ألتق به قط عن قرب، لكنني رأيته. أين؟ ومتى؟.... لا أدري، أتصوره أيضا رآني. كان حليق الشعر يلبس «تي شيرتاً» أسود. شعرتُ به حزيناً، سكونه عميق عجيب، ينظر أمامه سارحاً. غير مهتم لما يجري من حوله. يلوذ بأناه الشاردة داخل ذهنه.

في ماذا يفكر؟

ربّما هي المسؤولية؟

خرجتُ من صالة الطعام، يبدو «سأجهد نفسي في العمل».. بتعقل تام تركتُ لذة القيلولة ونزلتُ إلى غرفة الماكينات، عملتُ وقتاً في غرفة القيادة الإلكترونية؛ تقريبا نصف ساعة أو أكثر، كتبتُ برنامج عمل الزياتين الثلاثة: «رعد وعاصم وكامل» ومنظف الماكنة «سعد». بعدها توجهتُ إلى تتبع خطوط الوقود والزيوت والماء الحلو والماء المالح، وسأعود لأتحدث لاحقاً عن هؤلاء جميعاً. أما الأمر الأهم الآن، فقد سمعتُ من مهندس الكهرباء «عادل» أن رئيس المهندسين «صلاح» والمهندس الثاني «فلاح» والمهندس الرابع «أركان» لم يصلوا بعد! وفي الحقيقة استغربت بادئ

الأمر، لكن من يعمل مع شركتنا البحرية لن يتعجب لشيء؛ فقد اعتدنا على التخبط الإداري وتأخير القرارات وكثرة الأخطاء التي من شأنها أن تمس بحياة البحّارة وتعرضهم للخطر. مرَّ وقت ليس بقليل بعدها اتضح أنهم قد بُلغوا ـ قبل يوم من إصدار الأمر الإداري ـ بضرورة الالتحاق بالشركة التي تضج بموظفيها من الذكور والإناث الذين يعملون ليلاً ونهارا، ولا أعرف ما أعمالهم بالضبط؟ كل فرد منهم أمامه طاولة كبيرة ودفاتر، يكتبون، يتراسلون، يخططون، يكثرون الكلام ذهاباً وجيئة عند أروقة الشركة ولا أدري عن ماذا يتواصلون؟ علماً أن كل ما في الأمر أن ركوب البحر يحتاج إلى مدير واحد لقسم الحسابات ومدير قسم المساعدين وقسم الملاحة والصيانة ومكتب الصادرات والواردات والمتابعة والتخطيط، ولو قسمنا وضربنا وجمعنا وطرحنا بحثاً عن الحاجة الفعلية، لم ولن يزيد العدد على المائة أو مائة وخمسين على أقصى تقدير، ليس المئات ولا الآلاف من الموظفين الذين يشاركون البحّارة في عائداتهم المالية الواردة إلى الشركة، حين استلامهم للحوافز الشهرية.

ناهيك عن استلامهم المنح ولا ننسى ما يحصدونه من البعثات من هبات يقصى منها البحّارة العاملين على ظهر البحر قسراً؛ لأنهم إما منشغلون بالعمل، أو مشتتون في المحافظات البعيدة عن المركز؛ وتلك عقدة أزلية في البر والبحر.

ـ ولكن كيف؟

سألت المهندس الكهربائي فأجاب على الفور وعلى وجهه علامات دهشة:

ـ لا أدري

لم يكن جوابه كافياً.. لقد خرجتُ تواً من غرفة الماكينة مسرعاً أقصد استفسار الربان، فكان حديثاً مطولا انتهينا منه إلى قناعة تفضي

Telegram: Somrlibrary

إلى الاتصال بالشركة، وكان الرد أنهم في الطريق إلينا. وبغضون ساعتين أو ثلاث ساعات سيصلون إلى الباخرة، وقد حدث بالفعل أن وصل رئيس المهندسين والمهندس الثاني والرابع إلى الباخرة، ولكن بعد منتصف الليل. عم الهدوء المصحوب بالقلق الذي أقض مضاجعنا نحن ـ الطاقم الجديد ـ كنا نركض خلف ذاكرتنا ننظم أعمالنا سواء في قسم الماكينات أو على سطح الباخرة. كل حسب مسؤوليته التي صعد بها إلى تراتشي سفينتنا المصنوعة في الصين، قيل إن أول ملامسة لها لماء البحر كانت عام ألفين وأحد عشر.. وقيل أيضاً ألفين واثني عشر. تصورتها أكثر حداثة من حيث نظمها كالبواخر الجديدة، ولكن كلما تقدم بي البحث يصيبني العجب إلى حد الغليان من النظر إلى رداءة التصميم وضعف خدماتها. يبدو من الذين اختاروا هذه الباخرة من طرف شركتنا أنهم كانوا أو يُخيل إليّ أنهم كانوا منبهرين بمدن الصين وبمصممي البواخر، وهم في مكاتب الموانئ لم ينتبهوا إلى أخطاء التصاميم الهيكلية، ولا إلى الاخفاقات في نوع معادن الصنع، ولا حتى في مخططات الأنابيب التي تم إيصال بعضها ببعض إلى أنظمة السحب والدفع داخل الباخرة وخارجها. كان مكان إيواء الطاقم عمودي الشكل متعباً في الصعود والنزول؛ إذ لا مصعد كهربائي في الباخرة، ولا اعتدال في ميلان السلالم لأكثر من عشرة طوابق، هذا إذا عرفنا أن مساحة كل طابق مترين وبعضها أكثر. تكثر الأخطاء في قسم الماكينات وأشدها خطورة أنابيب نقل ماء البحر المالح الذي يعمل على تبريد الماء الحلو بمنظومات خاصة تمر عن طريق مجموعة من الأنابيب، إذ يعمل معدنها المقاوم للصدأ على التبريد، وتدعى منظومة التبريد. وإن ذهبت إلى سطح الباخرة سترى أولاً عمودين قائمين بشكل لافت للنظر يتصلان بذراعين طويلين ينتهي كل ذراع بقطعة من حديد مقوسة على شكل علامة استفهام تحمل شبكة على شكل مضلعات بواسطة حبال متينة يصل نصف قطرها إلى متر أو أكثر بقليل، تتسع لحمولة من طن إلى خمسة

Telegram: Somrlibrary

أطنان. هذان العملاقان هما ناقلتا الحمولة من الباخرة إلى رصيف الميناء والعكس، وقد لاحظنا ضعفهما أثناء حمل الأوزان بسبب عطل متكرر في أكثر المرات يحدث في الخلية الكهربائية والهيدروليكية، وهكذا حتى آخر قطعة من الباخرة؛ فأي جهاز تحركه تجد فيه عطلاً ما، أو نقصاً في منظومة العمل ما يدفعك للحسرة والتساؤل: أين كان ممثلو الشركة أثناء التصميم؟ إن كانوا غافلين فيا وجع قلباه، وإن لم يكونوا فالوجع أكبر وأعمق، ولكن كل شيء يمكن أن يحدث. عرفت أن الأمر أكبر من تفكيرنا وأن الأمور ستسير على ما يرام، وما علينا إلّا الاهتمام بعملنا وأن ننشغل بمهماتنا اتقاءً للمجهول. عند الثانية بعد منتصف الليل غفوت واستغرقت في النوم حتى السابعة صباحا، استيقظت على رنات منبه الساعة.

صباح اليوم الثاني استقبلناه نحن ـ الطاقم الجديد ـ بروح عالية ونشاط. كان يوماً مشمساً هادئا. ذهب كل منا إلى عمله وفي نفسه شغف إلى معرفة المزيد عن أماكن الباخرة التي كانت تقف تحديداً عند الرصيف الحديدي من ميناء الأم لتفرغ حمولة تبلغ سبعة آلاف طن من السكر الخام. عند الظهيرة أشرفت الحمولة على الانتهاء. التفكير على أكثر من مستوى في البحر صعب.. رتبتُ عقلي على إعادة الذاكرة لمهمتها الأساسية وهي على شقين: الأول العمل بجد ونشاط عاليين، والثاني كلما وجدت الفرصة متاحة أقرأ أو أكتب. وهذا ما فعلت وها أنا ذا أبدأ بذكر تفاصيل دقيقة وأخرى أتخيلها ستحصل، ولكن قبل الإبحار بيوم واحد، أي صباح اليوم الثالث من التحاقنا على متن الباخرة تشكلت لجنة مشتريات ليجلبوا لنا كل ما نحتاجه من مؤن وطعام.

لم أستغرب حين عرفت ـ من بين أعضاء اللجنة الخمسة التي أمرَ بها ربان الباخرة، وبالتعاون مع رئيس المهندسين ـ اسمي موجوداً بين الأسماء. توجهنا الساعة العاشرة صباحاً إلى السوق الكبير في مدينة الميناء

Telegram: Somrlibrary

وانشغلنا بجلب أغلب المواد المذكورة في القائمة، ولم ننته من هذا المشوار المدوخ إلّا عند المساء، حيث دخلتْ كل المؤن والحاجيات إلى مخازن الباخرة. فجأة عاودني الألم. شعرت به يضرب أسفل ظهري. توجهت إلى غرفتي وأخذت حماماً ساخنا واستلقيت على فراشي ولم أشعر إلا وشمس الصباح ترسل موالها إلى غرقتي، ومعها طرق على الباب كان شديداً يرافقه صوت أعرفه: «تهيأ للإبحار». لبستُ ملابس العمل وعلى الفور توجهت إلى قسم الماكينات.. انشغلنا بتجهيز المكائن وتشغيلها. أما طاقم السطحة فكان منهمكاً في تجهيز خرائط الملاحة وفك حبال الباخرة من الرصيف، وتنظيف العنابر من آخر حبة سكر علقت من الحمولة القديمة، وبدأ بعدها طاقم المطبخ بتجهيز مستلزماته الأساسية. وقد تم تثبيت كل شيء متحرك على الباخرة بالحبال وبدأت ساعة الإبحار عندما أطلق الربان قراراه عبر مكبرات الصوت: «ساعة وننطلق بحراً». لم تمض أكثر من خمس ساعات حتى صرنا وسط الخليج نسير بسرعة متوسطة تقريباً خمس عقدات بحرية في الساعة متجهين إلى دولة من دول الخليج. هناك حمولة تنتظرنا ولا أحد يعلم في أي ميناء وما نوعها؟ «توجهوا جنوباً بعدها تصلكم الأوامر». هذا ما قالته الشركة لنا، ومن المؤكد لن تتركنا هكذا في عرض البحر ننتظر عبثاً ونحرق الوقت والوقود. وأعرف ـ وهم يعرفون ـ أن الباخرة في وقوفها تستهلك ولا تنتج؛ تستهلك في اليوم الواحد طناً من الوقود تقريباً قيمته أكثر من ألف دولار، وتحرق من الزيوت ما لا يقل عن هذه القيمة إضافة إلى استهلاك الماء بقيمة نصف طن يومياً أو أكثر، إلى جانب الطعام والرواتب والتأمين والأجزاء التي تشغل المحركات. وتقدر تكلفة اليوم الواحد لوقوف الباخرة في عرض البحر بخسارة ما يقارب عشرة آلاف دولار، تزيد أو تقل، وهذا يعتمد على نوع الباخرة وكم حمولتها، والذي أعرفه أيضاً أن في الشركة عقول تفهم ذلك أكثر من غيرها. كنا نبحر بروعة وانسيابية عالية حتى أن الأمان الذي دخل قلوبنا كنس الخوف الذي

Telegram: Somrlibrary

خيم علينا نتيجة سفرنا الأول في باخرة تبدو غريبة بعض الشيء. البحر هادئ والأجواء لطيفة وسيرنا رشيق مع لون المساء. هدأ الجميع فسألت «هزبر» المهندس الثالث:

ـ إلى أين؟

قال وعينيه مثبتتين على مقاييس المولدات:

ـ إلى الإمارات.

ـ من أجل شحن حمولة السكر كما فعل البحّارة قبلنا؟

أجاب وقد لوى شفتيه:

ـ لا أدري.

كم أود معرفة وجهتنا. أغلب الطاقم كان يجيب تقريباً الجواب نفسه! هل هكذا تدار البواخر في مكاتب الشركة الفارهة وربطات العنق المزهرة من رجالات لهم باع ليس بالقليل من الخدمة المشرفة؟ لا أدري. ولكن الذي أعلمه علم اليقين أني الآن أشعر بالتعب وعليّ إسكات صيحات الجوع المدوية في جوفي.

Telegram: Somrlibrary

2

ربّما ظهور الإحساس الجارح بأنني على وشك الموت، أو أن اقترابه أكثر سببه صفاء السماء. الموجودات كل الموجودات التي كانت من حولي بدت وكأنها وجوه حزينة نبعت من داخل أناي حيث يسكن الآخر. تذكرت وصيته ـ علينا مقاومة الكهولة ـ فغادرتُ كآبتي إلى حيث مرح الطاقم ومزاحه. مثل كل مساء عند مؤخرة الباخرة يتوافد البحّارة إلى أجواء الهزل تحت طائلة حركات أبي النون وغناء مراد. «تصرفوا بحرية مطلقة وأدركوا أن الحزن هناك يرقب عيون الحبّ الضاحكة فينا بوحشة الوحدة». قلت ذلك وفي نفسي وعلى وجهي بقايا ابتسامة. سحبتُ جسدي إلى غرفتي واستلقيت على فراشي أتتبع خطوات أفكاري. إلى أين تأخذني؟ تساءلت والقمر يخط وسط النافذة، وعلى وقع طرقات الباب نهضت؟

ـ كامل تعرض لدوار البحر!

ـ كيف ونحن نسير فوق السواحل والبحر هادئ جداً والسماء صافية؟!

سألتُ الذي مرّ كالسهم من أمامي، وهو يُردِّد:

ـ لا أدري؟؟

غادرنا المسعفون، فسألته عن سبب تقيئه المستمر؟ كان شاحب اللون حين التفت إليّ، وقال بصوت خافت:

ـ لم أركب البحر سابقاً.

Telegram: Somrlibrary

ـ كيف رضيت بدرجة زيات وأنت لم تتعود على البحر ودواره؟

ردّ وهو يشير بيده المرتجفة:

ـ قالوا ترف وراحة ومتعة ووووو...

غادرته بعدما تمنيت له الشفاء واتصلت بـ «سعد» منظف الماكينة وأمرته البقاء معه. استلم أركان ـ المهندس الرابع ـ مسؤوليته بثباته المعهود في الخفارة الليلية في قسم الماكينات؛ إذ ترك الزيات مهمته بعد إتمامها. المناوبة البحرية خدمة مضاعفة، فقد أتمّ الأمر حتى انتهت المدة المقررة ـ أربع ساعات عمل وثمان ساعات استراحة. جاء بعده رعد الزيات الأول. وفلاح المهندس الثاني وقد عملوا بالتوقيت نفسه؛ لتكون خفارة عاصم الزيات الثاني وهزار المهندس الثالث وهي الخفارة الثالثة تبدأ من الرابعة فجراً ولا تنتهي حتى الثامنة صباحاً. فيها نكون نحن ـ رئيس المهندسين ومنظف الماكينة وأنا رقيبها ـ صباحاً قد استلمنا العمل حتى الخامسة عصراً، ويسمى هذا النظام نظام العمل اليومي. أما الزيات الثالث والمهندس الرابع سيستمران بالخفارة أربع ساعات من الثامنة صباحاً حتى الثانية عشر ظهراً ليأتي بعدهما الزيات الثاني والمهندس الثالث لأربع ساعات ومن بعده الزيات الأول والمهندس الثاني لأربع ساعات أخرى ويسمى هذا النظام «الأعمال البحرية المتناوبة». وهو من أهم الأنظمة البحرية داخل البواخر لكونه النظام الوحيد الذي لم تخترعه شركتنا، بل هو نظام عالمي خاضع للقوانين والأعراف الدولية. يشاركنا هذا النظام طاقم السطحة في الإبحار حيث يكون مع كل بحّار ضابط بحري؛ مهمة البحّار في الخفارة البحرية إمساك الدفة ومسؤولية الضابط المراقبة ورسم الخرائط أو الثبات على المسير حسب الخط البحري المرسوم للباخرة، وتدار هذه العملية من برج القيادة. رقيب السطحة واجباته بعد تنظيم جدول الخفارات البحرية الإشراف على البحّارة في عملهم من تنظيف وطلاء الأماكن التالفة والحفاظ على بدن الباخرة سليماً بطلاء خاص. عادة ما يكون لون الأرضية أخضر

Telegram: Somrlibrary

وجوانب الباخرة رمادية؛ لونها يميل إلى الأبيض والأصفر والأسود والأزرق والأحمر كل لون له مكانه الخاص حسب الأنظمة المتعارف عليها مثلاً: خطوط إطفاء الحرائق تأخذ اللون الأحمر والأسود «للبلجات» ـ خزانات تحتية فيها مواد سائلة ملوثة تجمعت من فضلات الماكينة والسطحة ـ أما الأبيض فتطلى به أنابيب الهواء، والأزرق لون أنابيب الماء الحلو، والأصفر لخطوط الزيوت. نشارك نحن ـ طاقم الماكينة ـ طاقم السطحة في ترتيب الألوان إلاّ لون واحد هو لون سحنتنا الشاحبة من جهد الماكينة المضاعف يصاحبه حرقة في الصدر نتيجة استنشاقنا الغازات السامة من العوادم وأحياناً كثيرة ألم حاد في المفاصل، بينما ينعم باقي موظفو الشركة بتنفس صحي، لأنهم يستنشقون هواء الطبيعية النقي..

بعد رقيب السطحة الذي يأتمر بأوامر رئيس الضباط يأتي البحّارة وهم على قسمين بحّار أول وثان وثالث لهم خبرة اكتسبوها من عالم البحر، وجديد قليل الخبرة ويسمى بحّارا متدربا. مهمة البحّارة الثلاثة في البحر المراقبة من برج القيادة والعمل على مسك الدفة مع ضابط بحري وفي الميناء الاشتغال بالصيانة والتصليح والمساعدة على شحن الحمولات أهلية كانت أو حكومية وتفريغها، وكلهم يأتمرون بأمر رقيب السطحة وهو ينفذ أمر رئيس الضباط الذي يتم تكليفه مباشرة من الربان.

تراتشي بدأت تتمايل!! فجأة غضب البحر. وآه من غضبه. صار يأخذنا إلى أعلى ويرمينا في وادٍ عميق. يرفعنا إلى أعلى الأعالي بعدها نهوي إلى الأعماق أعمق. كدنا نغرق!. تكرر المشهد. استمرت هذه الحركات حتى الساعة الحادية عشر ليلا!! كانت ليلتنا مزعجة. لم نأخذ أنفاسنا بعد. زادتْ مخاوفنا؛ هبطتْ سرعة المحرك الرئيس فهرعنا راكضين؟ الأمر خطير! لم نتعود بعد على مثل هكذا حادثة في باخرة جديدة علينا، لم نسمع من الطاقم البديل أنهم صادفوا هكذا عطب. يبدو أن استعجالهم

Telegram: Somrlibrary

في الهروب من الباخرة قد أنساهم مصارحتنا بالعيب الموجود في المحرك الرئيس. ماذا نفعل؟ إذن هو امتحاننا الأول جراء اختيار الشركة المعتوه. فعلتْ فعلتها معنا. سريعاً رمتنا في تراتشي وأخرجتْ الطاقم القديم سريعاً منها، وأعتقد في الأمر غرابة!. ما القصد من هذا كله؟ البحر مازال مجافيا لحداثة عهدنا مع الباخرة التي بدأتْ تترنح وسط البحر والسرعة تقلل من قوتها شيئاً فشيئاً. الغرق وارد في أية لحظة؟ نعم وما يؤكد ذلك: هذا البحر الذي صار يزأر بنا. ركض رئيس المهندسين وأنا خلفه إلى منظم السرعة وبدأ يزيد من كمية الوقود داخله. اصطفقت الأبواب، وبدأت الأصوات تصطخب.. تأرجح الباخرة زاد، وأغلب الطاقم يترقب في ذهول وتعجب!

ـ ما الذي أفعله؟

قال كامل ـ الزيات الثالث ـ الذي كان ملتصقاً بي ونظاراته أخذتْ تميل إلى الجهة اليمنى فأجبته:

ـ عدل نظارتك.

راجفاً قال:

ـ وهل هذا وقت المزاح؟

ـ نعم. وعليكَ أن تهدأ.

مازالت عتلة السرعة بيد رئيس المهندسين، وطلب مني ومن المهندس الرابع السرعة في فحص كل منظومة على حدى. توجهتُ إلى منظومة الزيت والوقود ومرَّ المهندس الرابع حول منظومة البخار والماء وقد قام بدوره. بعد نصف ساعة تقريباً عدنا إلى غرفة القيادة الإلكترونية. مازلنا نتأرجح مع السفينة. دخلتُ إلى غرفة قراءة درجات حرارة المنظومات المشتغلة.. بعد المهندس الرابع رأيت المهندس الثاني ومنظف الماكنة وقد خرجوا راكضين. لا أعرف إلى أين؟ سألت؟ «عند

Telegram: Somrlibrary

مولدات الطاقة». انطلقت وراءهم هرولة، وبإشارة من يدي؛ لان الصوت لا يصل بسبب ضجيج المولدات إلى المهندس الثاني بعلامة «أوك» تأكدت جاهزية المولدات وكل أجهزة الطوارئ. هذا ما أكده المسؤول الأول عنها وهو المهندس الثالث. عدنا إلى غرفة القيادة الإلكترونية. كنا نلهث نترقب بشدة كل مؤشر حراري، في تلك اللحظة بدأت تقاسيم رئيس المهندسين تعود إلى مكانها الطبيعي. «المحرك الرئيس عاد للخدمة». قال وقد أمرنا بالعودة تدريجياً إلى زيادة سرعته. درجة بعد أخرى عادت الباخرة إلى سرعتها التي تبدو طبيعية ـ تسع عقدات بحرية ـ ما يقارب ستة عشر كيلو مترا في الساعة. عندها رنَّ هاتف قسم الماكينات، رفع الحاكية مهندس الخفر بعده رئيس المهندسين الذي قال: «نعم.. عاد الأمر إلى طبيعته». ثمَّ ابتسم لنا وهو يعيد الحاكية إلى مكانها وقال: «يشكركم الربان على هذه الجهود الناجحة».

في الصباح كانت بيدي ورقة البارحة. بدأت أرى البحر هادئاً، بطريقتي الخاصة ألقيت له تحيتي، ويبدو أن علاقتي به علاقة خاصة أيضا؛ كل ما يقسو عليّ أتخيل معلمي عند مرحلة الابتدائية كان يكرر في الفصل: «تحملوا اليوم تتعلمون غداً. اقرأوا أكثر تحصدون أكثر، ومن يجيب على أسئلتي هذه الحلوى له، ومن لا يجيب فالعصا تنتظره».

يا له من زمن قد مضى. مبتسماً قلتُ للبحر: «شكرا على حادثة البارحة لقد علمتني المزيد». رأيتُ موجة تعاكس التيار ترتفع إلى جانب الباخرة صعوداً إلى وجهي. شعرتُ برعشة لطف دخلتْ قلبي. رفعتُ يدي إلى الأفق بعلامة يفهمها معلمي. وقلتُ: «نهايتي هنا». كنت أتخيلني كائناً مائياً فوق الموج الأزرق يعلو ويغطُّ حتى أبعد نقطة حيث لا فرصة للعودة أبداً. أتخيلني في عالم أثمن من عالمنا الأرضي. سمكة تدور حول الباخرة، تنظرني بعين وتغمز لي بأخرى! لا أدري.. أنا أحلم؟ عند البحر أراني

Telegram: Somrlibrary

وسط سنابل زرقاء هشّة ألمسها في خيالي. كنت وحدي وكأني القطب لهذا الأزرق أضيع في موسيقى الصمت. تحضر كل سنوات العمر. تتناسل أحلامي ويبتعد البوح مثل صيف في أول الشتاء. نسيت كآبتي وابتكرت صرخة كنستْ الوهن عني. عاصفة غناء خرجت من حنجرتي. انتهيت مثل آخر قطرة مطر أتمعن في شقوق شواهد شعاع الشمس فوق خدي لتبدأ العينين في الهذيان. «لماذا هذا الميل مؤخرا للبكاء؟». سألت نفسي. جاء كعادته من خلال صوته الكاسر في رأسي قال:

- دموع محمومة تغسل الفضاء.

- ما شأنك في حزني.

- بعض أجوبتك لا يصح عليها الرد.

- أي خيال تصورته؟

- أنظر إلى البحر. بعض الموج تنكره العيون.

الإبحار الذي أنهى عرش شبابي وحكم على جسدي بفقر النشاط وشعري بضياع السواد لن يخذلني هذه المرة. على مدى السنين التي مضت لم ينكرني البحر وقد شهد تفتت قلبي. كل ما يتعلق به كان جزءاً من حكاياتي. حكاية تعيد النشاط والشباب والحيوية والشوق والأمل عند لحظة كتابتها أو حتى التحدث عنها. ولأن الحديث عن الحب سيبدأ لن أذكر اسم حبيبتي السمراء. فقط أتذكرها وأنا أضحك في جو مفعم بالأسرار كانت تترجم نقوش لغات أخرى. هي امرأة عالية قبل خمسة عشر سنة أراها عالية. تضحك وتقول: «أنا عالية!». رغم انحرافات المزاج وكدر الفراق. أحبُّ النساء، لكن لو عبرتُ المستحيل، وأعرف أن شدو العصافير في زمن الحروب بطولة. يا له من شعور. مغمض العينين بوجه الريح أنشر ذراعيَّ أحلق نحو البعيد.. بعيداً إلى حيث ترغب. مدينة تساوي في ظني تسع أماني. فيها سمرائي التي تملك من المال والجمال ما يتيح لها في

Telegram: Somrlibrary

إشارة منها أن تجتمع الذكورة تحت قدميها. هي لي قطعة سُكر مفرط الحلاوة فوق شفاهي تذوب. لينه. ناعمة. مطيعة. شهية. متجددة الطعم والجمال. متحف في شارع مضيء.. ساحل فيه الغروب لا يرحل.. يرميني سمارها المُحمر في تيه أرغب أن أتوه في مشاويره الطويلة جداً. كانت تشبه الرواية. رواية بدايتها قُبلة إلى الآن لم تنته بعد. رغم كل المنازعات الإنسانية... لم نصل للنهاية بعد. خمسة عشر عامًا قرأتها في جولة كانت تشبه السياحة بين النار والجليد مستغرباً مرة، مندهشا مرات. متنعماً أكثر ومسترخيا لجمال قوامها أضحك.. أضحك من كل المشاعر التي مرت أمامي تجاه أنثى جميلة علقتْ في ذهني يوماً إلى الآن لا ترحل.

ـ مازلتَ مشتاقاً؟

ـ نعم.

ومازال عطرها ولين ملمسها وابتساماتها وصوتها يتشكلون بين يدي. لبستْ الثياب الجميلة؟ أقول عالية. خطتْ على وجهها لوناً غير مناسب. أقول عالية. تحدث ضجة. تلعب. تثب. تجري. تقف. تتكلم. أقول عالية، وإن ضحكتْ أقول عالية. إن نهضتْ أول الصباح لتنظف أسنانها أضربها بخفة المشتاق على هباتها الكثيرة وأقول عالية. إن تسببتْ في صراعات عنيفة على الفراش وانتهتْ منتصرة أقول عالية. وإن خسرتْ في لعبة الورق المحببة لها أقول عالية. حتى صارت تشاكسني بهذه الصفة حين تراني أراقب بقهر عيون المارة تنغرس فيها أثناء سيرنا في الشوارع أو جلوسنا في مطعم لتهمس في أذني بخبث: «حقهم.. فأنا عالية». خمسة عشر عاماً مضتْ ومازلتُ أردد في نفسي: «سأنسى». عبثاً أروض ذاكرتي على النسيان ويبدو لا ترحل تلك الرؤيا: الديار المتصفة تماماً بالإصلاح وغراميات الماضي القريب منطقية التواجد في الذاكرة لسببين: الأول حقيقة كوني إنسان، له الحق في العيش بسلام، والثاني الحدث الخاطف

Telegram: Somrlibrary

المشبع بالإعجاب، وعلى رأي بحّار مَرَّ من هنا يوماً.. قال: «تلك هي ثورة الحبّ التي فيها تـهبُ الحياة قيمتها لشخص يدرك أن الاقتراب من تجارب الحرية إنما هي الإنسانية لا أكثر». في الأمس البعيد كان السفر يمثل لي حقول بهجة. رحلة بعد أخرى فوق ظهر البحر. اليوم لا شيء معي سوى قلبي. رأيتني أحلم في الكون المملوء بالقمر والنسيم. لا أظن أن السفر يعلم النسيان، ولكني عرفت البحر.. علمني النسيان.. وأنا ذاكرة. كنت أسترسل في إغفاءاتي، أحتاج إلى من يستقبلني. أبحث عن طريق توصلني إلى الجهة الأخرى. جهة الرجوع. أحتاج إلى أي شيء يأخذ بيدي: علامة. صوت. عين. ضوء. شجرة. سفينة. نورس. موج. أي شيء يرجعني إلى البر. في كل هذا الضجيج فجأة عمَّ الهدوء. صعدتْ موجة أخرى كانت عالية أكثر بكثير من الأولى تتبعها طيور تغني وأخرى متأهّبة قالتْ: «اطلب منـا بما تريد؟». قلتُ: «عالية». رمت النوارس من جناحيها ورقة فتحتها فقرأت: «يا فاتن الخيال متهمة أنا بحبك. وحدي في بلدي وغريبة. يا فاتن الخيال هذه التهمة الكبيرة رضيتُ بها على أمل عودتك. «عالية» قُلها وكررها لن أسمعها من غيرك. في الأمس القريب وقفتُ في مكاننا وفعلتُ ما كنا نفعل. لامسني المطر فظهرتْ حكاياتك اللطيفة، أبعدتُ يديّ عن وجهي وسافرتُ بالبصر وراء ملابسكَ الشتوية ألمحُ عاصفة ألوان وسرور فوق خدود سمراء وعيون سوداء تحيطها ثمار تبدو من النظرة الأولى تفاح، ولكن إن لمستها لا أدرك إلّا الارتعاش. يا فاتن الخيال، متهمة أنا بالحبِّ والأمطار والغناء والموسيقى والنار، متهمة بك وفي مدح رجال الشرق وبأني أهوى الشعر العربي والرسم العربي والرقص العربي واللون العربي والغيرة العربية وفي الشوارع متهمة بالشرود والتدخين.. متهمة أنا بحبِّ البحّارة وبالوقوف المتكرر عند المرافئ والنظر إلى البحر وفي نشر الزهور التي تحب عند الشرفات. متهمة أنا بالوقوف كما وقفت أمام باب المتاحفِ والمقاهي وواجهات المحال الزجاجية. متهمة أنا بالتجوال صباحاً بين الجداول وفي

Telegram: Somrlibrary

الغابات عند المساء. يا أسمر اللون القهوة الساخنة تثير رائحتك ومرورك الذي كان كالعصافير يدق نافذة المطبخ تكلم. قُلْ: «عالية». تكاد الوحدة أن تحطم الزجاج وعقارب الساعة لعوبة غاوية. تذكرني بك الأعشاب اللينة ذات السيقان القصيرة عند النهر، وليس للتحديق انتهاء. تتحرك الأشياء فتتظاهر اللغة المتوترة بين المعصم واليد. لمسة دافئة وتحت اللسان حبة سُكر وقد ذابت، تحثني على الكلام وليس للنطق وظيفة. أيها الإنسان جسدي المنشغل في الناطقين يسمع مزاح المغادرين. أيها البحّار الكل غادرني إلّا ذكرياتك. متى تأتي؟». عدتُ إلى غرفتي ومعي رسالتها دسست الرسالة بين أوراقي. كالعادة حفظتها بمكان لا أنساه أبداً وخرجتُ إلى العمل. بعد خمسين ساعة من الإبحار المتواصل تقريبا بدأنا نعرف وجهتنا، وبدأنا نتهيأ لنقطة الوصول؟ كانت فعلاً الإمارات. الضابط الثاني «صفاء» كعادته كان متشككاً ولا أعرف سبب ذلك، دائما يعلق بعد كل أمر يصلنا من الشركة: «نظر وننتظر». أظنه في مشكلة ما مع أحد مدراء الشركة وعلى ما أعتقد هي مشكلة خاصة فمن غير الممكن أن تبعد شركتنا الباخرة إلى مكان آخر دون غاية أو هدف من ذلك وبالتأكيد هم يفهمون هناك خسائر تقدر بين ثلاثة إلى أربعة آلاف دولار عن اليوم الواحد في وقوفها عبثاً. ساعتين من القلق حتى دخلنا محيط سواحل دولة الإمارات وبدأنا نتهيأ بقوة إلى دخول الميناء. لم يمض من الوقت أكثر من خمسة دقائق أو أقل حتى وصل الخبر، علينا التريث ورمي المخطاف في منطقة الانتظار؛ الميناء غير جاهز لاستقبالنا!. «سيطول الانتظار». قالها صفاء بصوته الضاحك لحظة مروره أمامي. هذه الجملة أكدت لي كما للطاقم بعد عشرة أيام من الانتظار أن شكوكه كانت يقيناً وبأنه الوحيد الذي يعرف اللعبة ومفاتيح التحكم بها. عشرة أيام من الوقوف أمام أشباح ميناء جبل علي بلا جدوى، وكلما دارت الباخرة حسب اتجاه الريح نراها مرة وتختفي أخرى وصلت سرعة الرياح أحياناً إلى خمس وعشرين عقدة أي ما يقارب

Telegram: Somrlibrary

أربعة وستين كيلو مترا في الساعة، وهذا يعني أن الباخرة بطولها الذي يبلغ مئة وثمانية عشر مترا تشبه اختفاء القشة في عاصفة. الجو مرتبك. تميل الباخرة إلى اليمين وإلى الشمال وإلى الأمام وإلى الخلف، على هذا الحال ليلاً نهارا تستهلك من الوقود ما يقارب طناً واحداً لليوم الواحد غير الاندثار في المكائن واستهلاك مستمر للمواد الخدمية كالماء والطعام وتعكر مزاج الطاقم وقد كان ضحيته عاصم الذي عانى من الانهيار فسقط أرضا. خسرناه ليومين بعدها عاد بنصف عافيته متوعكاً يشكو دائماً من الآلامِ في معدته، وأغلب الظن أن مرضه كان نفسياً.

Telegram: Somrlibrary

3

مازلت على يقين أن شركتنا لن تترك الباخرة سائبة هكذا وسط البحر تلاعبها الريح كيفما تشاء، تستهلك المال والوقت والجهد عبثا. علما أن الغاية من الإبحار هي الربح والتجارة. وصلنا أمر التوجه إلى ميناء التحميل في الإمارات العربية. «حدث خلل وسيصلح من قبل الشركة أو الجهة المستأجرة وقريباً ندخل إلى الميناء». العمل الصادق منبع الذات الصادقة. هذا الانتظار الطويل بالتأكيد يساعد على زيادة خسائر الشركة ومن ثَمَّ يؤثر على اقتصاد البلد الذي نعيش حاضره هذا تحت ثقافة التقشف بسبب هبوط أسعار البترول. من السبب؟ ولماذا؟ أسئلة يبدو لن تنتهي. سقطَ الصنم! نعم. ولحظة سقوطه شاءت لنا الأقدار أن نحلم بالحرية والخير والأمان، وحان الوقت لمسح التراب عن وجه اليتيم، وكنس الهَمّ عن قلب الأرملة، ودس الراحة في قلوب الأمهات والشيب. سنين قليلة مضت وجدنا من انتخبناهم بالطرق الديمقراطية غرقوا في الامتيازات والهبات والعطايا ومنح مادية تفوق التصور. سمعنا ممن تَصدر عنه المناصب أنه صار متهماً بالإرهاب والقتل العمد، وسمعنا أيضاً أن هناك سرقات من أموال الشعب يساند بها بعضهم المارقين؟! نتيجة مؤلمة. أن يصل بنا الحال إلى هذا الحد مؤلم جداً. أن تتمكن وحوش إرهابية من إحكام قبضتها على جزء من أرض الوطن نتيجة فجوات كثيرة منها التهاون؟ التراخي؟ التجاهل ولا شيء هنا غير المقصود في الإصلاح مكافحة الفساد؟ تذمر متزايد في أغلب مؤسسات الدولة. ضعف في الاجراءات الزجرية

Telegram: Somrlibrary

لخرق القانون من بعض المتنفذين. استنزاف ميزانية الدولة. ارتباك في القرار. تخبط في العلاقات الخارجية. خلل في خطط الصناعة والإعمار. تلكؤ في تنفيذ المشاريع، والقائمة طويلة أفضت إلى مظاهر من التسيب والتخلف: أوساخ تغلق الشوارع وطرقات يستحيل تجاوزها، فراغ أمني شنيع وافتقار للأمن والأمان، ارتجال من بعض المتصدرين لتمثيل الأمة في مؤسسات الدولة، معضلات جسام في بناء روح المواطنة، تجاهل طموحات شعب بأكمله، عدائية مُبيتة من بعض أصدقاء الأمس للبلد. مفخخات مشبعة بالحقد لأرواح طائفة معينة كل ذنبهم اختلاف الانتماء. قتل الصناعات الداخلية عمداً وإصرار البعض على تشجيع الصناعات الخارجية. سخرية مفضوحة من بعض ساسة المحاصصة للثقافة. انخراط بعضهم في سياسة الذبح والقذف والسب والشتم والنفخ في نار الطائفية المقيتة. ظهور تحركات حزبية يشوبها القلق. تمرد بعض الأحزاب الحاكمة وتعالي صيحات الانفصال. غياب الحزم. ضعف الدبلوماسية في الداخل والخارج، ترهل ينخر جسد البلد..

الباخرة لا تقل رداءة عن واقع حالنا، لا أتصور ولا يمكن لي أن أتصورها باخرة حديثة. لم يمض على وضعها قيد الخدمة الفعلية سوى ثلاث سنوت.. رأيت زواياها متآكلة، لونها الباهت، مفاصلها المهمة مهترئة من الصدأ. حالة منظومات الخزن والتوزيع دون المتوسط، والمولدات الكهربائية الثلاث التي تنتج طاقة ثلاثمائة وعشرون كيلو واط تحتاج إلى صيانة إن لم يكن ثلاثتهن فالأصح اثنتين منهن، هناك حاجة ملحة إلى أدوات احتياطية لإدامة صلاحية قسم الماكينة وبعض العدد اليدوية وزيوت المكائن ووقودها. طاقم السطحة يشكو من شح ماء الشرب والتنظيف في الخزانات ورداءة أنابيب توصيل الماء إلى الغرف. فلاتر سحب المياه من الخزانات السفلية غير صالحة وإن تعرضت للصيانة

Telegram: Somrlibrary

يخاف عليها من الكسر أو التلف. الأنبوب الموصل نفسه يحمل تكلسات ومن شأنه إرجاع السوائل الوسخة ولا توجد وسيلة من وسائل الترفيه على ظهر الباخرة مما دفع أفراد الطاقم إلى النشوز من تواجدهم، وقد بدأت حالة من الغليان في التصاعد...

دخلت غرفتي محبطاً بعض الشيء وفي الوقت نفسه كنت أريد أن أتغافل عن العناد: طبيعتي الأصيلة. فكرتُ في الماء البارد. نزعت ثيابي وتوجهت إلى غرفة الاستحمام فجأة: «فيك حماسة للكتابة؟». كالعادة بصوته الكاسر في رأسي ظهر نصفي الآخر ولم ينهِ جملته حتى تشكلت صورته ضاحكاً في المرآة.. رجل طويل القامة متعجرف في فرض تواجده، لم يبد أي تحفظ من عري جسدي. لا أفهم سبب مزاجه الرائق. كان يشاغلني بمزاح سمعتهُ من قبل. يريد الإثارة أضاف: «راجع أفكارك». وسحب الباب وراءه وعلى نغمة صوته الساحرة زاد: «خلاصك في الكتابة؟».

وقفت محتاراً مثل الحائط الذي أمامي أشعر بي مخدوعاً من محاولاته العبث برأسي بأحاديث شتى. «الجنس. المال. العيد. الحياة. الموت. البداية والآخرة». أنا أفهم أنه يحاول إثارة انفعالي من خلال هذه العناوين التي أكون فيها بعيداً كل البعد عن المنطق. أشعر أنه وجد في الحديث عن الجنس رغبة متجددة. وما هو إلّا أداة للتكاثر لا أكثر. العبث أحياناً ملاذه السعيد بي، وأحياناً كثيرة يقودني إلى الفشل، يشعرني بالضعف سواء أظهرت له ذلك أو أنكرته، كما فاقد المال يستأثر بقوله: «في شحة المال يعيش المرء في راحة بال لا يعرفها الغني الموجوع من مرض».. تلك لغة الحرمان يرددها العبد الذي يحدث نفسه برضى ربه، يخلق في خياله من المعجزات ما لا يوصف بالعقل ليخفف عن ذاته التي تعيش في حرب مع رزقه الذي قدر عليه، ذاته الخائفة من الطبيعة وما وراءها. في صراحة تامة هي حياة بسيطة تسبح في عالم من المتغيرات

Telegram: Somrlibrary

تحتاج إلى تجلد أكثر مما نتصور لينتهي بنا الأمر إلى الموت. من يجزم على فهمها؟ وأنا لا أختلف معه لم أستطع فهم كيف وصلنا إلى هذا الحد من الضعف؟ لكن ما زلنا أقوياء ننهل من أمل نخلقه لأنفسنا رغماً عن الآخرة التي تنتظرنا قد تصورها فاتحة لنا أبوابها مشرعة في وجه كل من شهد بكلمتين يعتقد فيهما خلاصه من ذنوب الماضي وما فعل وما كان يفعل وما سيفعل لو عاش حياة أطول.

خرجتُ أفرك وجهي بالمنشفة وكلما أبعدتها عن عيني وجدته ينتظرني مستلقياً على ظهره فوق سريري يضع ساقاً على ساق يهزُّ يمناه ضاحكاً يقول: «سمعتك». لم أعط أي انطباع عن رغبة في الحديث معه. خفضتُ رأسي قليلاً وواصلت ما كنتُ أريد. يبدو قد شعر بالملل لحظة نهوضه، تنهد وبدا مضطرباً يروح ويجيء وسط الغرفة ويداه مشبوكتان خلف ظهره قال: «الحياة تطل من نافذة ضيقة». بطريقة مؤكدة كنت قد قررت تجاهله؛ لن أرد عليه. ولا أريد مجاراته، حتى لو فعل ما أخاف منه أحياناً، لن أكون ما يريده مني. «لماذا؟». لأن الحياة قصيرة لا أريد أن أكون مثل غيري. «ساعدتك جرأتك؟». نعم. وقد نهضتُ قوياً واثقاً أطفأت المصباح وخرجتُ من الغرفة بكامل أناقتي متعطراً. أدندن مع نفسي وعلى وجهي ابتسامة من شعور: سأكتب هذه الليلة نصاً لا أذكر فيه إسمي، سأذكر لذة الانتصار على الآخر». ولكن ها هي نظراته تستعرضني. بلا خجل كنت قد وصلتُ إلى صالة الطعام. تناولت وجبة العشاء ونشوة الانتصار تحرك ابتسامتي. حملتُ كوب الشاي واقتربت من مقدمة الباخرة. كان الليل يصعد والظلام قد أرخى سدوله. النجوم تناثرتْ مثل حبات لؤلؤ تباعاً صارت تتوسط السماء، بدأ القمر في الظهور محتشماً بين غيمة وأخرى، ما يكاد يظهر حتى يختفي.. في تلك اللحظة أضحكني المنظر.

ـ يذكركَ القمر بي؟

Telegram: Somrlibrary

طفق صوته الكاسر في رأسي يحدثني: «الحقيقة نعم، أنت تشبه القمر اختفاءً وظهورا».

ولكني المنتصر هذه الليلة..

قلتُ مشاكساً:

ـ لا

ـ ما عهدتكَ تكذب!

ـ بدأت الكذب منذ الليلة.

ـ لست نصفك الآخر بعد الآن.

ـ ماذا؟؟

ـ سأتركك..

ـ إلى أين؟

ـ ......

ـ أينك؟!

ـ ....

لم أجد له أثرا!!

التفتُ يميناً يسارا... لا أحد يرد، في وقت كنت أكرر فيه كلاماً أعرفه يرغب في الحديث عنه؟ اختفى!.. لم يظهر! تفلسفتُ كثيراً وقلت كلاماً خاطئاً. لعله يظهر ما توعدته من عدم الكتابة إن لم يظهر!.. ولم يظهر! عزوت الأمر إلى أنه ربما كان مشغولاً بشيء ما، وسيأتي فجأة كالعاصفة، ولكنه لم يأتِ. عدتُ إلى الغرفة وحاولت النوم مراراً.. وتكراراً لم أستطع؛ انشغالي في احتمال فقدانه إلى الأبد أثار في نفسي القلق. بدأت بقراءة كتاب، لا على وجه التعيين، من كتبي المبعثرة فوق طاولتي الوحيدة. أجري في الخيال مع رواية كانت تعالج همَّ الجنوب المفرط في حب الأرض والتضحيات من أجل المقدس، ولا أعرف كيف غفوت؟!

Telegram: Somrlibrary

في الصباح ولحظة توجهي إلى غرفة الماكينات سمعتُ:

سيطول انتظارنا.

صفاء يقول في وجهي بعد تحية الصباح فأجبته بعد رد التحية إليه:

سنرى.

الحقيقة أنا لا أهتم لهذا الانتظار الذي أزعج الطاقم. من محاسنه عرفت الكثير من التفاصيل عن الباخرة وقد دققتُ في أغلب المنظومات داخل قسم الماكينة «أُتيحت لي فرصة وعليّ التمسك بها». أفكر في نفسي وأعرف أيضاً أن الوقت الثمين لا يمكن له أن يمر من دون سبب. فعلتُ ما فرضته عليّ مهنتي وروح المنافسة لا تغادرني. جهزتُ عدة الطوارئ وعملت خطة العمل والاحتياط وأشرت إلى أماكن الضعف والقوة في الماكينة، غير أن وقوفنا طال! تراتشي تبعد عن سواحل الإمارات سبعة أميال بحرية. مازلنا ننتظر أمر الدخول. نتوقع أن يأتي قرار الشركة فجأة. كما عرفنا البضاعة ـ سُكر ـ تنتظرنا عند الرصيف لميناء جبل علي. مساءً جاء الأمر على غير ما كنا نتوقع؛ إذ صار لزاماً علينا التوجه إلى أبعد نقطة من المنطقة البحرية لرصيف الميناء! تكاثر الكلام وتعالتْ نبرات رافضة، وأخرى لاعنة، احتدمتْ لغة الرفض بين أفراد الطاقم: ما الذي يحصل؟ لماذا أخرجونا من ميناء الأم؟ حقيقة كان هناك علم مسبق لميناء الحمولة؟.... وأكثر. أسئلة كثيرة، ولا يوجد في الأفق القريب جوابا. لاذ الطاقم بأسئلته إلى الربان وكان الجواب: «اتصل ولا أحد يرد؟».

في المراحل الأولى من حياتي البحرية كنت أرى في انتظار الباخرة عند عرض البحر مقابل الموانئ التي زرتها سجناً لا يطاق. لا أعلم لَمَ كنت مرتاحاً جداً من هذا الانتظار؟! ولا أعرف كيف ولماذا صرتُ أفكر على أن الأمر فيه منتصر لنا ولا أحد يعرفه إلّا أنا؟ بفعل سحر الكتابة كانت الأيام تمرُّ في سرعة عجيبة. من خلال استعارات لفظية كنت ألتقطها من

ذهني لأفراد الطاقم خصوصاً أبو النون الذي مازال على عهده يرقص ويغني ويلاعب بخصره الهواء تحت عزف أصابع مراد على الطاولة. كنت محتالاً في طرح: عبرة. أمثولة. عظات. نصح. كان الربان يتكلم من خلال فكره الناطق وعقله المتخيل يمسك في مخارج كلامي. هذا ما كنت أعتقد.. فكلما رأيت صفاء باسماً أثناء محاضرة السلامة المهنية في عرض البحر أشعر أن الجميع سينفر من هذه الرحلة كلياً، وقريباً سنشاهد بعضهم يتصرف بسلوك سيء لذلك على الربان الاعتراف أمام إصغاء الطاقم إليه بسوء إدارة الشركة التي لا تعرف قيادة البواخر نحو الربح المنتظر ولأسباب لا أعرفها سمعته يقول عن السلامة في عرض البحر: إن سبب اختيار لون النجاة «الأورانج» الفاقع لزوارق النجاة وطوق النجاة وسترة النجاة هو بقاؤه تحت أصعب الظروف ـ الضباب، المطر، العواصف، الموج العالي، الشمس، القمر ـ لامعاً براقاً يتيح للبواخر التي تمرُّ عبر خطوط الملاحة البحرية مشاهدته ليتم الإنقاذ. قلتُ في نفسي: إن الأمر قد بدأ يأخذ صفة الجدية وسنقوم بفعالية عملية لإشغال الطاقم لا أكثر، ولكن بعد صفارة الإنذار التدريبية المبكرة في ثلاث طلقات قصار وواحدة طويلة، انتهت المحاضرة بمصافحة البحّارة للربان والتقاط الصور التذكارية، ولم يحدث شيء مما تصورت..

عدنا جميعا من محاضرة السلامة المهنية الساعة الثانية عشر ظهراً. دخلنا لتناول الغداء. وبعد وجبة سريعة لم تكن مشبعة لأغلبنا بسبب الحرص على المواد الغذائية التي بدأت تشح في المخازن وخوفاً من إطالة مدة انتظارنا كنا نقسم رغيف الخبز بيننا. توجهتُ إلى غرفتي وأخذت قيلولة بعدها رنَّ منبه الساعة عند الواحدة بعد الظهر فأخذت حماماً ساخناً ولبست ملابس العمل. نزلتُ إلى قسم الماكينة وبدأ مشوار الجهد الصحيح حتى الساعة الثالثة، خرجنا لنصف ساعة استراحة حسب القوانين والأعراف الدولية لشرب القهوة أو الشاي. لمحتُ إعلانا قرأت فيه ما نصه: «ممارسة السلامة ستنفذ عملياً غداً عند الساعة العاشرة صباحاً».

Telegram: Somrlibrary

ليلاً سئمنا الانتظار ـ وسط البحر قرب سواحل الإمارات ـ لقد مضى على وقوفنا أربعة عشر يوماً، ولا نعرف مصيرنا، وقد جمعَ الرقيب بعضاً من أفراد الطاقم في مؤخرة الباخرة ـ مكان جلوسهم المعتاد ليلاً ـ أخذ يحدثهم عن أيامه البحرية، وبطولاته الذكورية في الموانئ. كان البحّار الأول باسم ينظر إلى مراد يحثه بعينه على مشاغلة أبي النون وحميد البحّار الثاني يشاكس فاضل البحّار المتدرب. ومن خلف أكتافه العريضة كان فراس يغرز حنكه في صدره؟ ـ أظنه نائماً ـ يحدثهم رقيب السطحة عن السمراوات والشقراوات والحسناوات وألوان العاريات على السواحل الغافيات هناك في مرافئ أوربا بطريقة ممسرحة كان هو الشاهد والممارس، وما يقوله عن الأمس البعيد يثير حاضر المستمعين. كان يقف ويقعد ويشير بيده إلى كل مفصل يتضمن حكاية من حكاياته أغلب الظن أنه كان يبالغ فيها. طاقم الماكينة لا شأن له في مثل هكذا حكايات؛ دائماً يكون متعباً من عمل النهار، يغطّ في نوم عميق ليلاً. تأكدت منهم حين قمت بجولة في كل صالات الباخرة. لم أجد أحدا منهم راغباً للسهر. عدتُ إلى مؤخرة الباخرة أتمتع بالتصفيق والغناء والضرب على الأواني النحاسية تسارعتْ خطواتي ـ ما هذا؟! ـ رأيت ما دفعني إلى الضحك حد التوقف بمكاني وقفز الدموع من العينين!! لمحتُ أبا النون قد شدّ خرقة حمراء فوق ثوبه الأبيض على محزمه وأخذ يرقص بطريقة تدفع الحزين رغماً عن أنفه إلى الضحك.. مثل الضاحكين ضحكت. عرفتُ أن الحال لن تسوء أكثر وإن كان طاقم هذه الباخرة يحمل من الطيبة ما يجعل كل صعب هينا. لن تكون هناك أية مشاكل في المستقبل القريب بين الربان والطاقم.

استطعت تجنب قلقي على نصفي الآخر وكتبتُ تلك الليلة نصاً يشبه قصة رجل فقد رجولته فجأة في أول ليلة له. كان يحارب الخروج مع زوجته الحمراء أمام الناس، يرفض الضيوف وزيارة الأطباء. كتبتُ عن الشك

وما له من قدرات وكيف تحولت حياة صاحبنا إلى جحيم حتى إنه فكر في الانتحار. المراقبة الشديدة من زوجته الوفية حالت دون ذلك.. اعتادت على الصبر.. والصبر على مراقبته عن كثب، ليل نهار كانت تتعقب كل حركاته. في ليلة من لياليها الطويلة وفي ظروف معتادة غير هادئة ضاقتْ ذرعاً من سرعة ابتكاره للمشاكل. وقفتْ أمامه تذكره بعجزه الذي كان سبباً في حياة بطعم الجحيم.. لم تطالبه بالمزيد، ولم تشكِ هماً ولا حاجة، ولم تذكر له الفراق، لم تكن تريد شيئاً غير الحفاظ على حياة مستقرة هانئة خالية من أي منغصات من شأنها أن تفتح شهية أقاويل الأقارب. «وما شأن الأقارب بنا؟!!». مرتعداً كان الرجل في رده.

في تلك الليلة كان الوقت مناسباً للمحاسبة. في تلك الليلة أرتقت الزوجة فوق همومها مثل حمامة حرة تقدم نفسها من غير قيود على أنها الأفضل وأن باقي الأشياء مستنكرة. تلك الليلة كشفتْ له بعض أقاويل أهله في حثها على الهجرة وطلب الطلاق.

تلك الليلة كانتْ كمن يبحث عن الخلاص في قولها: «لقد مللتُ من شكوك والحاح أهلك. لم يبق لي إلّا عهد منك أن تنتهي من جرحك المتكرر في شك أراه منك واضحاً ومن الجميع وكأني امرأة رخيصة أو غبية تتبع شهواتها. لم يبق لي إلاّ الرجوع إلى الوراء معك وتذكيرك بمن كان لك الأوفى في السراء والضراء. عليك أن تتذكر أن ما تفعله يضر بي.. وقد ينهار تحفظي يوماً ما، وأكون ما لا تحب أن تكون فيه زوجتك».

تلك الليلة كنتُ مقوسَ الظهرِ أكتب وأنا أتصبب عرقاً متمنياً ترك اللحاق بي كي أكتب أكثر وأكثر. تلك الليلة جافاني النوم. كنت أثير الأشياء من حولي أريده أن يظهر. تلك الليلة شعرتُ بالوحدة، كالأعمى وسط الضوء أمد البصر ولا أرى. أقف أمام المرآة أحدث الفوضى في صورتي؛ علّه يجيء ولا يأتي. أعاهد وجهي على عدم الكذب أكرر: «كنت أمزح ليس إلّا». وما

Telegram: Somrlibrary

كان مني بعد وقت إلّا أن صرخت من القلب: «لا». صرخة أخذتني في طريق بدأت فيها طفولتي. «اهدأ» أمرتُ الاخرَ الصمت؛ كنت محتاجاً إلى من يحدثني عن سبب ما يحدث. تلك الليلة تركتْ أثراً عميقاً في نفسي لم أجرؤ في قادم الأيام على نسيانها. تلك الليلة ذكرتني بفقدان أبي!. رجفت. لم تكن لدي فكرة لماذا أذهب إلى هناك؟ صرت بقايا قلعة مهجورة تحت رمالها سلسلة جبال صخرية تحركها براكين صمت. هشاً بين أحجار سوادها شديد السخونة والقلق فيها سماء متكسرة. هواء حار. قمر يحترق. قلب أعزل. رجل يشبه الطفل. وربان يريد الوصول إلى بر الأمان.....

Telegram: Somrlibrary

4

استيقظتُ مبكراً. صحوتُ قلقاً. لذتُ بالهدوء أمام مرور وجوه الطاقم من أمامي. ثمة خطر قادم؟ في الساعات الأولى من النهار تناسيت هذا الشعور لانشغالي بصيانة منظومة التبريد. المهندس الثاني منشغل بجودة القطع المستخدمة في الصيانة: «تأكدت من صلاحيتها». قال ومازال يكرر هذا السؤال قبل فتح أي جزء تالف كنا نحاول استبداله: تصرف. له أعذاره، فالمسؤولية ثقيلة والشركة تتحجج من أجل قطع رواتب البحّارة بتصرفات تختلقها مثل رداءٍ عتيق تُلحف به مجداً مزركشا بالأوهام. ظلت البراءة على وجه كامل بادية بصورة مبالغ فيها كان يدعي الوداعة؛ كان يحاول إبراء ذمته من أية مسؤولية فنية، ومع هذا كنت أدفعه دفعاً للمشاركة من أجل أن يتعلم. «هذا العالم البحري كالحياة البقاء فيه صعب من غير تكليف ولا مسؤولية»، أكرر هذا وأعرف.. سيتحدث يوماً ما عنا وسيواجه أكثر من سؤال مع من سيكون معه تحت مسؤوليته. مرونته تصور طريقتنا المثالية في استقبال معلومات تأتي تباعاً، تحتاج منه الإصغاء قبل الممارسة، فقد كان ضعيفَ البدنِ ثقيلَ الحركة. أما عاصم ـ الزيات الثاني ـ أكاد أكون جازما لم يمسك مفكاً بين يديه قط، ولكن هي أفكار شركتنا تفاجئنا دائماً.. تزج بأفراد لا علاقة لهم بالبحر لينتهي الأمر نقصاً في الطاقم نتيجة تمارض قليلي الحزم، وقد يصل بهم الأمر إلى ادعاء الجنون. خبرتنا ـ أكثر من إثنين وعشرين سنة ـ نعرف كيف نتصرف معهم، رغم أن تلك مسؤولية قذفت بها الشركة إلى ساحة السفينة دون حد أدنى من خبرة نظرية أو فنية..

Telegram: Somrlibrary

الوضع يزداد سوءاً، مادام انتظارنا في عرض البحر سيطول. انتهى اليوم بالانشغال بين العمل والتفكير الممل وراء لا جدوى السؤال: «ما الغاية من وقوف الباخرة هذه المدة الطويلة؟». في المساء تلقينا الخبر الأكثر إزعاجا؟ علينا الانسحاب من سواحل الإمارات والتوجه إلى منطقة أبعد ـ خارج حدود المياه الإقليمية ـ إثنا عشر ميلاً بحريا على أقل تقدير؟ نجهل الأسباب التي دفعت السلطات البحرية الإماراتية إلى إبعادنا أكثر من مرة. وما علينا سوى الانتظار. يُخيل لي أن في الأمر تجاوز المعتاد. بقاء الباخرة طال في عرض البحر ولا مهمة تنتظرها على رصيف الميناء سواء أكانت حمولة أو صيانة؛ فنسياننا على هكذا وضع صار أمراً واقعا.. أخذنا مكاننا. «تهيؤا للإبحار». مرة أخرى أكتافنا تنوء بملل يتجدد، التعب صار واضحاً على ملامحنا، تكلمنا كثيراً في الممرات والغرف. أعتقد وصلنا إلى مرحلة الغليان، وبعد مضي خمس ساعات أو أكثر وقفنا في منطقة تبعد عن سواحل الإمارات مسافة بعيدة، وهذا ما كان مقررا لنا كي نكون في منطقة الإبحار المفتوحة، والذي يضمن لنا عدم إبعادنا مرة أخرى. ولكن المكان الجديد لا يخلو من الخطر؛ كان مخصصاً لخطوط الملاحة؛ لذا إن حدث إي تصادم مع باخرة ذاهبة أو آتية تكون تلك مسؤوليتنا، علينا الحذر، علينا تحمل كل أضرار وقوفنا في عرض البحر. لا أدري إن كانت الشركة تعلم حدة خطورة موقفنا أمْ لا؟ لا أستطيع أن أتصور أنها لا تعرف مكان تواجدنا. ولا الضرر الحتمي الذي يتهدد تراتشي المتهالكة من حيث معداتها. هذا الوقوف المتكرر يسبب التلف لبدن الباخرة ومعداتها ونفوس طاقمها. لا تنتهي المعضلة عند المحروقات والاندثار الذي يمكن له أن ينهي عمر خدمة باخرة الألفين واثني عشر وهو ادعاء عار عن الصحة. تجاوزنا منتصف الليل وهذا يعني أنه قد أُلغي أمر فعالية السلامة. الأمر المعلن على لوحة الإعلانات في الصالون غداً سنمارس فعالية الإنقاذ بالضبط بعد وجبة الغداء عند الواحدة بعد منتصف النهار. فعالية إنزال

زورق الإنقاذ إلى البحر مع مجموعة من أفراد الطاقم ليقوم بدورة كاملة حول الباخرة. ويبقى السؤال ملحا: ما الغاية من هذا الإلحاح في إنزال الزورق والطاقم والبحر غضبان؟ وما الغاية من موافقة الربان على كل أمر صادر عن الشركة وعلى الفور دون مناقشة تذكر؟ أسئلة تركتها خلفي أثناء خروجي من الصالة متوجهاً إلى مؤخرة الباخرة لأتأمل معلمي الغاضب. هل كان.. منا؟ علينا؟ عرفت أيضا أن عملية إنزال الزورق لا تخلو من صعوبات! كلمتُ رئيس الضباط عن مخاوفي على بعض أفراد الطاقم الجدد أثناء إنزال الزورق. أجاب متأكداً عن الغاية نفسها التي أفكر بها والنتيجة واحدة هي طرد الخوف من قلوبهم وتعودهم على استقبال الصعاب ـ في حالة الغرق أو الإنقاذ ـ بروح جماعية. ما يميز الإنسان العيش في جماعات، والبحر دائماً يصور لنا على أنه المسيطر على الجماعات في حالة ركوبه. ولكن لا يخلو الأمر من الاستثناءات كما هي الحياة. وهذا ما تأكد عند بدء التفكير في إنزال الزورق.. لكن السؤال هو: «كيف سيتم ذلك؟ ومتى؟». منطقة الانتظار هذه التي تبعد خمسة عشر ميلاً بحرياً عن أقرب ميناء أمواجها عالية، وتعد ملتقى مزدحما لبواخر ذاهبة وأخرى عائدة، أغلبها تمرُّ مسرعة خوفاً من أي طارئ. هذا ما كنت أتخيله أو أراه.. والأهم بين اللحظة والأخرى أسأل نفسي عن السر وراء هذه السرعة؟ من ميناء الباخرة الأصلي نخرج ولا حمولة تنتظرنا ولا توجيه ولا ميناء نقف عنده.. نخرج من الميناء الأم فقط كي نترك في عرض البحر على أمل أن نجد حمولة تنقلها الباخرة، ثمَّ نبعد بسبب شطط سياسة الموانئ ورداءة التنسيق، فننتظر أياماً أخرى، ونبتعد أكثر فننتظر أكثر وأكثر، وكان الأجدر بنا البقاء في الميناء دون ملل ولا خسارة تذكر؟

مضت الساعات، ونحن في منطقة الانتظار الثانية نقف في عرض البحر. أمر الربان من خلال مكبرات الصوت بالاقتصاد في استهلاك الماء

Telegram: Somrlibrary

والطعام والوقود. لم تتوقف الأوامر عند هذا الحد، بل زادت مشاغلنا أثناء العمل، وصرنا لا ننتهي إلاّ ليلاً. كثر حديث البحّارة عن هموم الانتظار. يحلم البعض بتناول وجبة دسمة والبعض الآخر يحدث نفسه بالشقراوات، سمعتُ من أفراد لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة أنهم بحاجة إلى الشراب حتى الثمالة لدخول غيبوبة ذهنية، ولو محدودة بعيداً عن ألم الانتظار. علاء البحّار الثالث صار يشاكس فاضل الجديد على أن البحر يعلمه ما لا يريد ليرد الثاني عليه بقوة: «عندي رقيب يعلمني لا أنت». أحياناً تصل مشاكساتهم إلى حد الصياح، ولولا تدخل رقيب السطحة لوصل الأمر لحد العراك بالأيادي. لا يختلف الأمر عند طاقم الماكينة.. كامل الجديد اختلف مع رعد صاحب الخبرة الذي استلم منه الخفارة حسب قول كامل ليلاً استلم غرف مولدات الطاقة قذرة وممر القيادة الإلكترونية ملوثاً بالكاربون، ولا يستطيع أحد البقاء فيه لدقائق بسبب رائحة السجائر.. يرد رعد: «أنتَ لا تنظف المكان وما يطلبه منك رقيب الماكينة، أنا أنفذ الأمر الصادر منه لا منك».

فراس الطباخ يأمر مساعديه بطريقة تعسفية، ومرة رأيته يعانده ويصرخ في وجهه المهندسين. مراد كاد أن يطعن أبا النون بالسكين لولا تدخل رئيس الضباط. بدأت تسوء الحالة النفسية عند الطاقم. غليان في الصدور. تفاقمت المشاكل، وعلى ربان الباخرة التصرف بأسرع وقت وإلّا أخذت تصرفات البحّارة منحى لا تحمد عقباه. قال لي رقيب السطحة علينا التصرف.. وفي الحال حادثنا رئيس الضباط ورئيس المهندسين وتقدم الاثنان إلى الربان عندما وصلنا إليه، جاء الرد: «لا خيار يبدو سوى الانتظار». كرر الطلب عليهما من أجل مكاشفة الربان عن الأمور التي تستجد وبأن الأوضاع بدأت تسوء؟ حدث شجار عنيف بين بحارين وزياتين، وكاد الأمر الذي وصل حد العراك بالأيادي أن يتطور إلى استعمال الآلات الجارحة، لولا تدخل بعضهم. لكن إلى متى سنبقى هكذا رهائن الانتظار؟ عليه أن

يتصرف أو يتصل بالمسؤولين في الشركة. جاءنا الرد.. أنه اتصل وانتظارنا ليومين آخرين لا أكثر.

في صباح اليوم الثاني كنا ـ أنا ورقيب السطحة ـ في غرفة الربان بطلب منه وقال لنا ما نصه: «جل الأمر وأنا مثلكم أتبع أمر الشركة. أفهم وأقدر هذا الانتظار الطويل يؤثر على مزاج الطاقم ويفت في معنوياتهم، وأعرف أيضا أثر النقص الحاد في المؤن ومياه الشرب، وأنا على دراية تامة بما يعانيه طاقم الماكينة من نقص في الوقود، وما يعانيه طاقم السطحة من نقص في مواد العمل الاستهلاكية اليومية، كل هذه الأمور أفهمه، وقد سجلت ذلك، وأنا أقدر الوضعية كل التقدير، ولكن لي طلب أتمنى تحقيقه واعلموا على أنه الحل الأمثل».

ـ ما هو؟

سأل رقيب السطحة، فأجاب الربان:

ـ أن تزرعوا الأمل في صدور البحّارة في ما وصلني من مدراء الشركة: «الباخرة ستكون في رصيف ميناء ما، ولكن بعد يومين».

ـ سيطول انتظارنا

همس صفاء ـ الضابط الثاني ـ في أذني بعد أن أخبرنا الطاقم بما سمعنا وعرضنا عليهم الورقة التي أرسلت إلى مكتب الربان عند طريق الموقع الإلكتروني ـ إيميل الشركة ـ ما نصه: «الميناء سيكون جاهزاً بعد يومين». كتمتُ أمرَ ما سمعت متناسياً صدقه، وانشغلت بعلامات البشاشة التي ارتسمت على وجوه البحّارة حتى لبس الليل ثوبه، فتجمعوا كعادتهم في مؤخرة الباخرة وبدأ أبو النون يمارس هوايته على أنغام صوت مراد وعزفه ومن حوله تحلق البحارة على شكل دائرة يصفقون وهم يرددون كلمات أغنية لم أسمع بها من قبل. يبدو قد أتى الخبر أكله في حل الخلافات بين الطاقم، وعمل على رفع معنوياتهم.

Telegram: Somrlibrary

حل الصباح وأردت أن أتأكد من رحيل الضجر. سمعتُ وقع أقدام قوية، ثمّ أصوات ضحكات أقوى، وعندما دخلت صالة الطعام ضحك الربان ومن بعده صلاح رئيس المهندسين ولا أدري لماذا فكرت أنه قد تمّ خداعنا؟ صفاء الذي مرَّ أمامي بسرعة عرفته كان يتوقع ذلك. لم أكن جائعاً في تلك اللحظة. خرجتُ دون أن أتناول الإفطار وجميع أقسام الباخرة كانت تدور في نشاط يشابه نشاط يومنا الأول.. رأيتُ علاء البحّار يحمل الأصباغ لفاضل وكامل يشاطر رعد الزيات في تنظيف أوساخ الوقود الأسود، ولمحتُ فراس الطباخ يكيل المديح إلى مراد، وأبا النون يصفق بعد كل كيس يضعه على شبكة الحديد المعلقة للعزل. وفي العاشرة صباحاً كان موعد شرب الشاي لثلاثين دقيقة، تم توزيع حصة المنظفات ـ مسحوق منظف مع صابون من نوع روز ـ بعدها توجه الجميع إلى عمله ولما صار موعد الغذاء المتعارف عليه عند الحادية عشر والنصف. زارنا رئيس الضباط المطبخ وبيده بدلات بيضاء جديدة، أعطى لكل واحد منهم بدلة والتفت إلى طاقم الماكينة وقال: «حصتكم موجودة». لم يمض من الوقت دقائق حتى استملت بدلات عمل قسم الماكينة. كان النهار حافلاً بالنشاط والانشراح والتفاؤل. ترى الأمل يرفرف فوق رؤوس البحّارة مثل النوارس فوق عمود باخرتنا، كانت تحطّ طويلاً ولا تطير إلاّ بعد وقتٍ لتعود إلى مكانها في أمان، تصدح بما يشبه غناء يبدو من حركاتها المتناوبة أنها قد ألفت وجودنا. شعور مضطرب كان يفزعني من الداخل. ربما لأنني كنت في حاجة ملحة إلى الكتابة. أشك في تحقيق ما من أجله عادت الأفراح إلى الباخرة. الضيق في صدري من القادم يزداد.. وأحياناً أرمم ما تبقي على أمل تصديق دخولنا الميناء، وإنهاء هذا الفصل من القهر. أشعر بالسعادة؟ فقط، لو تحقق الأمر خاصة في وجودي بين هذه الأمزجة المختلفة. كنت أنظر إلى أبعد نقطة واضحة من معلمي. أقدم شكري بطريقتي الخاصة؟ كنت أقرأ عليه: «خريف العمر لن يفسد أمانينا». كنتُ أكرر عليه ما أحفظ.

«لن أغادر مكاني إلّا ومعي علامة رضا». قلتُ وقد مشيتُ قليلاً. توقفت. جلستُ. نهضتُ. مشيتُ قليلاً. توقفتُ. جلستُ. نهضتُ. مشيتُ قليلاً. توقفتُ. جلستُ.. وأنا أكرر عليه ما أحفظ كانت النوارس التي ضجرت مني قد ابتعدتْ غير مودعة. مازلت أقف وأمشي. أجلس. أقف. أكرر: «خريف العمر لن يفسد أمانينا». أصغي... أجربُ كل المسكنات المعنوية. كانت السماء تكشف أثر ابتسامة صرح بها البحر. قالتْ لي موجة تجاوزتني صدفة: «التميز في ساحات الوحدة سيادة». سألت: «أين أنا؟». شيئاً خفياً دفعني من صدري إلى الخلف!، ثمّ سمعتُ: «هنا». فكرتُ ربّما هو سريعاً قلت: «أين كنت؟». لم أكن متأكداً أني قد سمعتُ جواباً. غير أني سبق لي أن عايشت هذا شعور، وتخيلت أنه لن يعاودني أبداً. كنت أمازحه في الكذب لا أكثر. حاولتُ الصياح معبراً عما فكرتُ فيه.. كان عنيداً، وهذا ما كان يبعدني عنه. ارتفعت موجة ودخلت أخرى إلى سطح الباخرة، في حركة سريعة ارتفعت بكتلتها الكبيرة إلى الأعلى لتسقط عليّ في صوت سريع قالتْ: «سيعود قريباً» رغم تكسرها على جسدي كان صوتها واضحاً لدرجة شعرت بعد عودتها إلى البحر بالوحدة. مشيتُ. توقفت. جلست أتصبب ماءً. وقفت. قطرة بعد أخرى تسقط مني على حديد تراتشي. كنت ضائعاً بين التشابه الذي رسمه ذهني وبيني. قطرات دمعي التي سقطت في مأتم فقدان أبي. تشتت في الفضاء الذي أمامي. رأيت السماء تقطع أشواطاً من أقصر الدروب إلى التمتع بالبحر. شعرتُ برعشة برد. لدرجة أنني لم أعد سوى ذاكرة. كان يحيط بي القلب المملوء بالحب والحنان. أحتاج الحضن، الراحة، النوم طويلاً، وهج أمل ولحظة مهمة من لحظات التاريخ الشخصي. في عيني يظهر أبي عند مكتبه يتحرك منحنياً يقوم بتجهيز نفسه والسعادة تبرق من وجهه خاصة عند قضاء وقت مريح مع أصحابه وتناول الأطعمة الشهية وشرب القهوة أو الشاي، بل كانت السعادة ناجمة عن وجوده بين كتبه التي تصورت فيها يوماً سر سعادتي، وقد حدث

بالفعل، ولكن بفرق واحد هو الحاجة للسفر التي تنبع من داخلي كحاجتي إلى الماء والطعام والهواء. ودعتُ البحر وعدتُ إلى غرفتي. كنتُ أضيء المكان في رأسي، أبحث عن القلم، حاولت الكتابة عن البحر والإبحار. الشوق والفراق والغزل وعن أشياء مرتْ من أمامي. تجاوز الوقت حدوده ولم أكتب شيئاً. كنت أبعثر في الكلمات وأمزق الورقة التي أكتب فيها أو أشطب بعضها. ما أكتبه يتعبني. أرتاح قليلاً أشعر أن الوقت صار قصيرا. كنت أتحرك بين الجدار والجدار. أجمع إصراري العقيم على الراحة لأعود مرة أخرى. «ماذا أكتب؟». لا أهدأ حتى أمسك كتاباً فأسافر مسافات بين سطور الصفحات، أمضي حالماً في آماسي الشتاء. الريحُ بارد. السماء غريب، وبين السحاب والسحاب موال شمس يمسك بالمطر الدقيق ويحبس النظر. ليتني أرى الرياح كيف تدخل بين أحضان البساتين. ليتني أسمع أجراس الفراشات لحظة لقاء التوّق الطائش في كؤوس الأزهار المائلة إلى النضوج أقرب منها إلى الطفولة. الطريق الطويل يمضي مترنماً بمحاذاة سواقي ترنّ فيها الشفاه، سواقي الانسجام النبيل يُسمّر القلب. بدأ الشوق الخاطف يخوض الحياة حد الكمال في محيّا الثلج الناصع ولون خدود يقطر منها الماء وهي: «هاهاها!!!». تضحك وعلى غفلة يجتاز الفضاء وهج بريق وصوت هائل؟ مَن؟ تجفل نديمتي! أجفل معها! أشهق وأستفيق: على دَويّ وقع أقدام! الحقيقة المرئية تكشف بعض المخبوء داخل نفوس تراها عكس ما كنت تتصور. أن يكون الإنسان متكلماً ترسم له صورة تتخيلها من كلماته تظل هامشية حتى يتحول الكلام إلى أفعال. رقيب السطحة الذي كان يهتف وهو يركض داخل ممرات الباخرة: «تهيأوا لإنزال الزورق». صاح بي بطريقة لم أعتد عليها من قبل. رافقها إشارة ضوء أحمر وصفارة الإنقاذ ـ صوتا واحداً مستمراً ـ رأيته قد لبس سترة النجاة الأورانج وغطاء الرأس الأبيض وملابس الممارسة كاملة، وكأنه يحاول ضبط صورته التي رسمها لنفسه يوماً ما حين كان يحدثنا ليلاً عن بطولاته البحرية. تجمع الطاقم

Telegram: Somrlibrary

على شكل نصف دائرة أمام وصايا الربان. تحت زورق الإنقاذ المعلق بحبال في حمالة مثبتة في جانب الباخرة الأيمن كنا جميعاً في حالة إصغاء تام. اخترنا لهذا الزورق ـ الجهة اليمنى من الباخرة ـ حسب رأي الربان، لأنه كان جديداً وفيه ميزات ستسهل الأمر علينا في حالة حدوث خطأ ما. التجلد الواضح من بعض وجوه البحّارة يطلق الصدق هنا من أحاديثهم السابقة. يمكن للظروف أن تبعد الشجاع عن ساحة المنافسة وقتاً، ولكن لابد وأن يكون للشجاع موقفاً في مكان ما يحقق النصر فيه لنفسه، وهذا الفرق بينه وبين الكذاب الجبان الذي يدعي دوماً البطولات يختلقها من خياله فيصدقها ليحدث الناس عنها، وكأنها من عندياته. أغلب الظن أن كل ما يشغل الربان ورئيس المهندسين كان هو سلامة الذين وقع عليهم الاختيار في مهمة ركوب الزورق وإنزاله إلى البحر والدوران حول الباخرة دورة كاملة. نحتاج الطاقة والصبر والقوة والتحمل لإعادته إلى مكان نزوله، ومن ثمّ ربطه ليعود إلى وضعه الأول على ظهر الباخرة بعد شدّه بقوة بحبال مخصصة لهذا الغرض وبخطوات سليمة من أي خطأ، إذ لا يحتمل الأمر أي تقصير أو تهاون أو زلل. «سننزل الزورق بطاقمه إلى البحر». بدأ مسؤول السلامة على الباخرة ـ رئيس الضباط ـ صباح ـ يحدثنا عن طريقة تحرك الزورق نزولاً إلى البحر وأهميته العظيمة في إنقاذ الأرواح في حالة الغرق أو الحريق أو التلويث المميت. وأكدّ في قوله على وجوب مرونة الصعود والنزول وسهولة قيادته من خلال تكرار التدريب ليسهل على كل أفراد الطاقم قيادته وصيانته. في غضون دقائق سمعت بضع ضحكات! التفتَ الجميع لمصدر الصوت عرفنا أنه أبو النون يريد من رئيسه الطباخ فراس أن يتركه لعدم رغبته في النزول مع من سيختارهم الربان على متن الزورق متحججاً بعدم مهارته في السباحة...تقدم باسم البحّار الأول وقال:

ـ أنا.

Telegram: Somrlibrary

تبعهُ البحّار حميد ثمَّ المهندس الثاني والرابع والضابط الرابع والثالث وسعد منظف الماكنة وفاضل الذي فاجأني برغبته في النزول، والأغرب من ذلك هو كامل حين همس في أذني يريد النزول إلى الزورق وتجريب الخطر القريب من البحر، رغم حداثة عهده بالبحر وبدنه الهزيل أمام أهوال البحر رأيته مصراً على رغبته. ابتسم الربان وقال: «ليتقدم الشجعان إلى الزورق». لم تمض ثانية أو لم يخط أحد الشجعان خطوة حتى قال رئيس المهندسين: «أريدك معهم». نظرتُ إليه نظرة استفهام؟ فزاد: «ستعرف السبب بعد عودتكم سالمين». تقدمتُ لركوب الزورق. «انتبه لمن معك». قال الربان، وبعدها غادرنا إلى برج القيادة، ثمّ سمعتُ: «ستلعن الساعة التي وافقت فيها». صوت أتصوره صوت الضابط الثاني؛ من نبرته التي ألفتها. بعدها تعالتْ الأصوات من حناجر البحّارة مودعة. يجب دخول الزوق من فتحته الخلفية. لمحتُ من أعلى يميني عتلة تشغيل النزول الكهربائي المثبتة على بدن الباخرة من بلاد المنشأ الصين الشعبية، كانت خطوطها التي لا أعرف ترجمتها واضحة، وكان على رقيب السطحة ـ والذي لم يكن معنا في الزورق ـ صاحب اليد الغليظة أن يضغط على الزر ليحركها صعوداً ونزولا. تمَّ الأمر وفُكتْ الحبال وكانت على شكل شبكة عنكبوتية بطريقة معقدة، كانت تأخذ مساحة مبالغا فيها من سطح الباخرة. بدأنا بالنزول.. شيئاً فشيئا لنصل إلى سطح البحر. بواسطة سلكين من حديد، واحد في المقدمة وآخر في المؤخرة. في غضون دقائق وصل الزورق إلى البحر شعرتُ في لحظة غرابة من ميلانه. كان فيه من الهشاشة ما يثير المخاوف من أي تصادم محتمل مع بدن الباخرة. كانت مهمتنا الأولى هي خلاص الزورق من الحبلين الموجودين في المقدمة والمؤخرة. وليس بالأمر الهين، فقد أثبتا بواسطة عتلة تحكم وضعت على قفل داخلي دائري الشكل وصلت أطرافه بعمود من حديد عتيق أتلفت أجزاؤه مما تطلب منا وقتاً إضافياً وجهداً أكبر لتنظيف الصدأ والخلاص

Telegram: Somrlibrary

تماماً من العتلة. مضتْ أكثر من خمسة عشر دقيقة ونحن ننظف القفلين وسط البحر الغاضب، كنا نرتفع ونهبط بقوة، كانت أجسادنا ترتج. نميل كما يريدنا البحر يساراً ويمينا وإلى الأمام وإلى الخلف. ابتعدنا عن الباخرة مسافة قصيرة، صار الزورق حراً في البحر والذي أكد ذلك رقيب السطحة من الباخرة حين صاح:

ـ شغلوا المحرك.

Telegram: Somrlibrary

5

الأوقات المهدورة في التحكم والقرار لتجاوز المخاوف. كذبة قد تبين منحة الأيام، ولا أبالغ إذا قلت أحسست بمن معي داخل الزورق لا يريد قيادة الزورق. ولم أشعر أن هناك من يرغب في تشغيل المحرك. كان الهواء يشح علينا شيئاً فشيئا شعرنا بالاختناق، ربّما لأن العدد أكثر من الحد المسموح به؟ حركتُ عتلة الباب المعلق في السقف إلى الأعلى فدخل الهواء. سترات النجاة الأورانج تضيق على صدورنا وواقيات الرأس البيضاء تحجب الرؤيا. الأفكار السريعة التي رسمتها عيوني لمن كانوا حولي جعلت من ذاكرة الطفولة تحثني على بث الحماس والركض خلف التميز والاحتفاظ بمزايا القيادة والاصرار والتفاخر والنصر المنشود. قفزتُ.. صائحاً:

- لا وقت للتفكير أكثر.

بعض الأوقات أخطأ في اتخاذ القرار.

تسرّعتُ؟

لا أدري ولكني وجهتُ خطاي في اتجاه اتخاذ القرار النهائي بحزم. هو الفرق بين الحلول التي ترافقها المشاكل والخلاص في التصرف. في تلك اللحظة كان الموج يدفع الزورق بعيداً عن الباخرة.. بدت المخاوف تشتد.. عليَّ الثبات.

هل أستطيع؟

شجاعتي تحثني على الجرأة. جرأة تساعد المرء أحياناً على

Telegram: Somrlibrary

تجاهل تاريخه الشخصي والالتزام بالقوانين. خلعتُ سترة النجاة ورميتُ واقي الرأس بعيداً. وجلست خلف مقود القيادة، وفي حركة أسرع شغلتُ المحرك ووهبتُ نفسي كامل الحرية...

الحركة والمناورة إلى اليمين إلى الشمال وبين السرعتين كنت شاداً على يدي ضاغطاً على أعصابي ولا أسمع إلاّ اختلاف أزيز المحرك، ولا أشعر إلاّ بميلان الزورق. وسط البحر أخذنا الموج إلى مؤخرة الباخرة حيث الخطر أكبر. تكسر الزورق بات أمراً أكيداً والموت يتربص بنا وشيكا. لا تهاون مع الأمر الواقع. على الفور غيرتُ من اتجاه عتلة القيادة إلى الأمام وبسرعة عالية زأر المحرك فابتعدنا عن مكان التصادم. لمحتُ مروحة دفع الباخرة ترتفع إلى الأعلى وتهبط بقوة تترك وراءها رذاذاً هائلا؛ نتيجة صفق الموج مع كتلة عمود الحديد الرابط بينها وبين محرك الباخرة الرئيس.

البحر يغضب. والموج يعاندنا.. اعتدت على العناد.

«انتبهوا»

أسمع التحذيرات.. تجاهلتُ أغلبها. التصرف المباشر يحدد من أنا. عادة النظرات المتفحصة المزمنة تؤتي أكلها والتحرك على الدوام في اكتشافات أدق الأماكن تفصيلاً. بدأت بإطلاق الأوامر وشرعت في تبليغ القرارات:

«اسكتوا، انتبهوا، تمسكوا، راقبوا حبال الشد، لا تتحركوا، حافظوا على هدوئكم وعلى اتزان الزورق».

الانصياع لا يكفي. العمل المتزامن مع الفكرة والجهد هو الحل. أصيح عالياً: « الآن»... ثمّ أركز على التنفيذ، وغير مهتم بمن كان يدعي عدم السماع ولا أرحم المتكاسل، الخائف، المتردد، المعاند. فليس الأمر غريباً عليّ أبداً لقد اعتدت القيادة. قيادة مجموعة تنظم على شكل فصيل

Telegram: Somrlibrary

يشعر بقوة استمدها من النشاطات الرياضية المتوفرة في حصص المدرسة يومياً، كان يتجمع الفصيل على شكل خط مستقيم منضبطا يواجه فصيلاً آخر في مسابقات ماراثونية على شوارع الزمن الماضي. زمن كانت فيه حصة الطفولة تنهل من اهتمام لا تنتهي. كنت أقرر أي جهة نختار وأي حركة يمكن لنا فيها الخلاص لإتمام هذه المهمة على خير دون أية خسائر. كنت أعلم أن النهاية بعيدة وطريق الوصول يزداد بُعدا. أخذت قراري: الإبحار على ظهر أعلى موجة.. من الأمتار التي تخطاها الزورق يبدو - أنا - قد تمكنا من السيطرة عليه، ولكن الخصم الآن معلمي يمتد متدفقاً مثل الجبال. ملأ كياني بالتحدي.. هناك وأنت تلامس الموج تحس بالروح مبعثرة وبالكاد تقف على فكرة واحدة. تطير ولا تطير. أمام طغيان المدّ الأزرق العملاق تسلم نفسك إلى أنشودة الرياح. الرائحة. الصوت. الموج الهادر من الأعماق، أمامنا تتجاوز سرعته مائة وعشرين متراً في الساعة، أمواج مثل كف عملاق تضرب بدن الزورق الهش....

لم أركز على أوهام البصر - لماذا؟ - كنت سائراً ومعي صوتي وملامحي مشدودة أرمي بها الخوف بعيداً عن رؤوس من كان معي داخل الزورق - كنت خائفا؟ - نعم، وكتمان الخوف رجاحة التفكير - لماذا؟ - كي لا يستفيق الرعب من بريد العيون وتتيه علينا الحلول - أ نتَ القائد؟ - تتخيلني القائد، والقائد لا يبوح بسره أبداً. أشدد: «لن يفزعك البحر». أطوق ذاكرتي بالمديح كلما تعالى الموج من أقصى اليسار إلى أقصى اليمن نحونا. الريح بما أوتيت من قوة لا تقطع صياحي. كنت أطير. الضوء في البحر رأيته سابحاً. في باطن موجة واقفة. رأيت طفلاً يشير بيده نحوي مبتسماً. الظفر يحذوني. تحت قدمي ماء يرفعني إلى مواجهة دوامات فضية لامعة. حياتي هي كنزي. أكرر ماداً يدي في بريق الضوء الراجف. لا صوت غير هدير الموج. عليّ الإسراع في الدخول إلى قلب الضوء. فأنا

Telegram: Somrlibrary

البحّار الأشيب. أريد الراحة. غضبي يهابه الموج. أريد نسياني. أريد الحرية. أغمضت عيني وتركتني للريح هكذا....

ـ انتبه

صوت أعادني إلى مكاني محذراً موجة ملتوية يمكن لها أن تقلب الزورق. تحولتْ المسارات وبدأ البحر في التصادم مع بعضه. كان يجمع أكبر قدر من القوة ليضرب بها أجسادنا. الماء يدخل علينا من فتحة السقف. لا يمكن لنا غلقها؛ يشح الهواء علينا وتضيق النفس. ويمكن أن يصاب الجميع بالإغماء. انقطع فاضل تماماً عن التواصل معنا. الزجاجة الأمامية صارت عائقاً يحجب عني الرؤية. جلستُ بطريقة القرفصاء ومَدّدتُ رقبتي من الفتحة العلوية إلى خارج...

ـ ارجع.. لا تحاول.. البحر سيقتلعك.

لا أدري من كان مصدر هذا الصوت المحذر. جنون؟ نعم ولكن ما الحل؟ أحتاج كسر قوانين تقيد الأمان. عبرتُ مؤخرة الباخرة وصرت في محاذاة نصفها من الجهة الأخرى. خطر وشيك. عليّ زيادة السرعة. لابد من الوصول إلى المقدمة والدوران على مهل؛ للعودة إلى منطقة الإنزال لنكون في مركز انطلاقنا الأول. صعوبة تداهمنا في تجاوز الموج. بدأ البحر يعصف بنا. في اتجاه الزورق كان يُغير من مساراته. بدأت الدفة تهزني هزاً.

ـ أين صرنا؟

سألني أحدهم. فأجبته:

ـ في المنتصف.

لست واثقاً من قولي ولكن سمعت: «تحتاج المساعدة؟». «فقط حافظوا على اتزان الزورق ولا تتحركوا كثيرا». وهناك من بدأ يمسك بقدميّ

Telegram: Somrlibrary

بقوة فشعرت بذراعيه مثل حبال متينة تشدُّ عظامي. تضايقت فصحتُ بسعد منظف الماكينة:

ـ ماذا تفعل!؟

ردَّ ومازال يمسك قدمي بقوة:

ـ لن أترك الموج يأخذك.

كان محرك الزورق يزأر. سرعة إضافية أخرى خطر على الماكينة. حافظت على المسير باتجاه واحد قدر المستطاع. كنت أنظر في كل الاتجاهات. وصلتُ مقدمة الباخرة. عليّ الدوران. الدوران؟!. ربّما أساعد الموج على انقلابنا. أخذت الزورق بعيداً عن مقدمة الباخرة أمتاراً بعدها عدتُ مع كل موجة إلى جانبها. شيئاً فشيئا استدرنا تقريبا دورة كاملة ولم يبق إلّا درجة واحدة ونكون في اتجاه مكان الإنزال، ولكن البحر له قراره. مُتنا. داهمتنا موجة كادتْ فعلاً أن تغرقنا، عندها صاح الجميع:

ـ آآآآآآآآآآ!!!!!

تعمدتُ عدم السماع، فثبتُ قبضة يديّ بقوة على المقود وصحت:

ـ تمسكوا.

ضغطتُ على عتلة السرعة وانطلقنا في عمق الموجة عميقاً. لم أسمع زئير المحرك ولا أي صوت آخر، ولكني شعرت بدوران الزورق حول نفسه؟؟ بدأ يميل حتى عاد الى وضعه الصحيح. دقائق أطول من العمر وصلنا فيها إلى نقطة انطلاقتنا الأولى. أبطأتُ قليلاً. سمعتُ وشوشة في أذنيّ. ماذا يحدث؟. انقطعتُ عن العالم!.. أرى البحر وأسمع: «أحسنت». ثمَّ تبعها تصفيقاً مدوياً يهطل على مسامعي من الأعلى.....

ولكن على ماذا؟

ـ هيّا ارموا الحبال.

Telegram: Somrlibrary

قلتُ بعد أن وقفت. أخذنا التيار؟. كان الزورق يبتعد عن نقطة الصعود. دفعتُ العتلة إلى الأمام. كنت عائماً على بعد مترين أو أكثر عن نقطة التوقف قررت التقدم. قللتُ السرعة وصحت:

ـ ارموا الحبال.

صعوبة مسك الحبل في عدم استقرار الزورق..

ـ أنا أفعلها.

قال أحدهم من خلفي ولهذا السبب كلفتُ باسم البحّار الأول بأمر الحبل وربط الزورق من المقدمة ومثله كلفت حميد البحّار الثاني، ورغم معرفتي بخبرة الإثنين ونشاطهما تفحصتُ ما حولهما بشدة وشددتُ عليهما العمل بيد واحدة على أن تكون الثانية تمسك في الزورق. في الحال طلبتُ من الضابط الرابع ربطهما من الخلف بحبل نجاة أحمر كان موجوداً في صندوق أحمر تحت المقعد الأيمن...

كانت الدقائق تمضي بسرعة. خوفي كان شديداً من الغروب؛ حيث تشح الرؤيا ويكون التركيز ضعيفاً والنشاط يهبط. لم أكن أصغي للتعليمات النازلة علينا من الأعلى. عيناي وعقلي ومشاعري مفتوحة تجاه كيفية الحفاظ على الزورق ثابتاً، ومن ثمّ ربطه من أمام ومن خلف بسلك الرافعات المخصصة لهذا الغرض. قد لا ننجح.. بحثت مع المهندس الثاني عملية فتح أقفال الربط المثبتة على بدن الزورق. تحركنا جميعاً. كان باسم يمسك بالحبل ويجاهد كي يضعه في القفل ليُغلق من عتلة كانت بيد المهندس الثاني. لم ينجح الأمر. كررنا العملية ثلاث مرات.. فشلنا... يا إلهي دفعنا البحر إلى مؤخرة الباخرة!

ـ انتبهوا!!!!

الخوف من التحطم نتيجة اصطدامنا بالدفة مبرر. بدأ الزورق يترنح تحت رحمة الأمواج. لم يترك لنا الخيار. ضغطتُ على عتلة السرعة بقوة!

سمعتُ المحرك يئن. تقدمنا ولكن بطيئاً، أناور في السرعات وأنا ألمح القلق في وجوه الطاقم وأمورا أخرى.

ـ انتبهواا!

قررنا ترك المقدمة والعودة إلى الخلف. كان كامل يصيح ملء فيه خائفاً. وباسم على أتم الاستعداد لتلقي التعليمات. رأيته شامخاً بيده الحبل وفي الأخرى يمسك الزورق. تفاعل معي في النظرات والإشارات ولكن كما المقدمة لم ينجح الأمر. طلبتُ من الضابط الثاني قيادة الزورق. في الحال توجهتُ إلى عتلة المخطاف. وجدتها صدئة ومن الصعب تحريكها. طلبتُ مطرقة وزيتاً. عملت المستطاع حتى تحركتْ العتلة قليلاً. استطعنا مسك الزورق من المقدمة بعتلة تشبه علامة الاستفهام.

ـ آه!!!!

رفعنا الموج وهوى بنا إلى الأسفل. دار الزورق حول نفسه دورة كاملة.

ـ انتبهوا..

طُلب منا الحذر كي لا نُرمى عرض البحر. كنتُ مشدوداً على الزورق من الخلف. فعلنا كما المقدمة وبدقائق معدودات كانت الكتلة الحديدة التي تشبه علامة استفهام في القفل وتم ربط الزورق. وعلى غفلة تحررتْ حلقة الربط من المقدمة وبدأ الزورق يدور حول نفسه. مرة أخرى علينا العودة. لا أستطيع زيادة السرعة. المحرك في حالة غير جيدة والخوف من نفاد الوقود قائم. لم أستطع التفكير ولا الصبر. رميتُ بجسدي إلى مقدمة الزورق وأمسكتُ الكتلة الحديدية التي تشبه علامة الاستفهام وصحتُ بالمهندس الثاني:

ـ افتح القفل.

وقبل أن أضع الكتلة الحديدية بمكانها سمعته يكرر:

Telegram: Somrlibrary

ـ لماذا أنا.. هم غير مهتمين.. بدأت أدوخ.. أريد التقيؤ.

ـ ما بكم اصبروا وكونوا رجال بحر لا غير.

ـ ماذا يفعلون في الأعلى؟

ـ ينظرون للرجال كيف تعمل.

أصوات بدأت تتعالى وأخرى تخبو فتختفي خلف خوفها. أنا أعرف: قد صار الأمر صعباً وهم تصوروا ما كنت أتصور..

ـ اقتربوا أكثر وتماسكوا.

هتف الربان من خلال مكبر الصوت الذي بيده. وهذا دليل آخر على خطورة الموقف. الموج بدأ يعلو أكثر وأكثر والشمس لامست وجه المغيب. كنت أصارع معلمي وفي يدي أتحسس ثقل العتلة الحديدية.

في الخلف كان حميد وباسم يتفقدان ثبات القفل. لمحت تسرب زيت الهيدروليك على بدن الزورق. عرفتُ أن مصدره أنبوبا بلاستيكياً ناقلاً للزيت قد تمزق.

تعطل الوقت في عقلي ونسيت العلوم التي درستها عن السلامة المهنية...

ليس التصرف السليم زيادة هلع الطاقم.

على الفور تصرفت بصمت. قطعتُ قطعة قماش من بدلتي وبدأت أشدُّ على مكان الثقب بقوة. أدخلتُ بعد محاولات العتلة الحديدية في القفل وطلبت غلق القفل بسرعة، تم الأمر وصار الزورق مربوطاً بإحكام من الأمام ومن الخلف وعلى الطاقم الموجود في الباخرة رفعنا. اطمئن الجميع إلّا أنا...؟...كتمتُ خوفي من عدم تحمل قطعة القماش الضغط، قمت بإشارة من يدي.. رُفعنا إلى الأعلى وعلى وجهي بعض بشاشة. فجأة عدنا إلى الماء! فصحتُ:

Telegram: Somrlibrary

ـ أرفعوا الزورق. هيّا.. بسرعة. هيّا..

صار لزاماً على رقيب السطحة الطاعة. عليه تحريك العتلة الكهربائية ـ صينية المنشأ ـ لتعطي الحركة لمحرك سحب عالي القوة؛ ليقوم الأخر برفعنا... مرَّ وقت ونحن ننتظر.. انتظرنا... طال الانتظار ولم نرفع بعد؟! كنا لا نسمع شيئاً. بعد ثانية أو أكثر من صياح رئيس الضباط إن العتلة تعطلتْ والصندوق الكهربائي قلعته الرياح والاسلاك قُطّعتْ! «من ينقذنا من لعنة هذا الزورق؟». فكرتُ مع نفسي كاتماً في سري خوفي من الضغط الهيدروليكي الذي قد يربك الأمر تماماً ونكون في ثانية واحدة في عرض البحر.. والليل قد حل. بدأ كامل يتقيأ، تبعه حميد.. ثمَّ المهندس الثاني. ازداد الأمر سوءًا. صحتُ بأعلى صوتي بمن كانوا في الأعلى على ظهر الباخرة يراقبوننا:

ـ ارفعوا الزورق يدوياً.

جاء الردّ من خلال مكبرات الصوت:

ـ بسرعة ارفعوهم يدويا..

انتقل الجميع الى العتلة الموجودة في مكان تثبيت الزورق على الباخرة وبدأوا بتحريكها.. شيئاً فشيئا كنا نصعد ببطء إلى الأعلى حتى صرنا في منتصف المسافة.. توقفت الحركة! «ماذا حدث؟؟». ارتحنا قليلاً من تقلبات الموج، ولكن كيف السبيل إلى الوصول الآن؟ وقد تبين أن وزن الزورق الأكثر من المعتاد بسبب حمولته قد تغلب على قوة سواعد أفراد الطاقم المتواجد في الباخرة.

ارموا لهم سلم النجاة.

بالفعل صدر الأمر ـ من رئيس الضباط ـ وكان عين الصواب. لحظة وصول السلم للزورق بدأ أفراد طاقم الزورق في الصعود إلى الباخرة تباعاً.

Telegram: Somrlibrary

بقينا ـ أنا والضابط الرابع ـ لحظة خلف الزورق، وفي دقائق معدودات كنا على ظهر الباخرة. لم أخط خطوة واحدة حتى كشفَ رئيس المهندسين عن وجهه الضاحك وقال بصراحة واضحة: «لهذا السبب دفعتُ بك لقيادة الزورق. رغم عدم وجود اسمك ضمن فعالية هذه الممارسة، إلّا أنني كنت واثقاً أن نزولك معهم سيحدث الفرق». لا أدري عن أي فرق يتحدث. كنت أشعر بالإعياء، ولم أكترث كثيراً لمثل هذه الادعاءات التي لا جدوى منها. ماذا يقول لو كنت الآن وجبة طازجة لأسماك البحر. رتبتُ خطواتي ودخلتُ غرفتي وفي محاولة لاستعادة الاتزان دخلتُ الحمام وتعطرتُ ووقفت أمام المرآة أحدث نصفي الآخر عني.

عند المساء بدأت في تكملة النص الذي يشبه القص عن الرجل الخارق الذي فقد رجولته. استطعت جمع الأفكار واللحاق بالذاكرة وأنا أعيد قراءتها من البداية. تصورت يجب أن أكتب على الأقل سطرين منها. حدث ما كنت أتخيل. ما إن شرعت في الكتابة حتى تقاطرت الأفكار. بدا وكأنه يقول لزوجته التي كانت في تلك الليلة ترتقي كل همومها مثل حمامة حرة تقدم نفسها على أنها الحبيبة المخلصة تارة وهي المضطربة من هذا الوضع تارة أخرى وأن باقي الأشياء مستنكرة. تكشف له بعضاً من أقاويل أهله في حثها على هجره وطلب الطلاق. تلك الليلة كانت تبحثُ عن الخلاص في قولها: «لقد مللت من شكوك وإلحاح أهلك. لم يبق لي إلّا عهد منك أن تنتهي عن إحراجي. لقد وضعتني في مكان ليس مكاني، كدت أفقد الثقة بنفسي أو أصدق أني امرأة رخيصة أو غبية تائهة وراء شهواتها».

ـ لا أستطيع أن أخفي قلقي.. أنا أحبكِ.. ولا قدرة لي على أرضائكِ..

ـ وهل السعادة فقط فيما عَجزْتَ عنه.

ـ نعم

ـ أنتَ واهم.. واسمح لي أن أقول لك لقد خيبت ظني فيك. كنت

Telegram: Somrlibrary

أتصورك أذكى من ذلك. أعلم أن المرأة منا لا تحب الرجل الذكر أكثر من الرجل الإنسان. ولأكون أكثر صراحة نعم أرغب بالممارسة معك، ولكن أنتَ تعرف جيداً أن مداعباتك تصل بي إلى رغبتي التامة ولا أكذب في هذا قط ولا أتنازل عنه. أما ما يدور في رأسك فهو البعيد كل البعد عني.

ـ هذا ما أسأل عنه نفسي بعد كل ممارسة معكِ.

ـ وهل تظنني ممثلة في حبّي لكَ؟

ـ لا أدري.

قالها وقد أخفى وجهه بين يديه وانتهى باكياً. رأيتُ قطرات دمع قد بللت الورق. عاد الإرهاق الى جسدي وشعرتُ بالضعف والوهن. هل صدّقتُ ما كتبته؟ وهل فعلاً سمعتُ المرأة تستنجد بالأمل حتى ولو كان محالاً؟ هل كنتُ واثقاً؟ أسئلة كثيرة دفعتني إلى الاستلقاء على فراشي اللين الناعم وقتاً بعدها شعرت وكأني أحلق في فضاء أزرق ومن حولي كلمات تشبه قناديل البحر تُوَمِض تقترب مني وتبتعد. يبدو غفوت، ولكني ما زلت ألمس وجهي وعيني مفتوحتان. رميتُ منشفتي على وجهي. شعرت بلذة الظلام وبرودة منعشة. حاولت إغماض عيني ولكن سمعي كان مفتوحاً. وأطرافي مازالت تحتك ببعضها. أحرك يديّ بطريقة الإشارة فتخيلتني في قاعة أوبرا خالية من الجمهور، أقف مثل قائد لفرقة عزف فيها نساء مسنات يجلسن في المقاعد الأولى يلبسن الثوب الأبيض وعلى رؤوسهن أكاليل من الورد الأحمر والكثير من الفتيات يجلسن في مقاعد الخط الثاني تباعاً على أربعة خطوط يلبسن الأحمر عاريات الرقاب على وجوههن شال أزرق شفاف.

الحياة وغيرها

شواطئ دافئة.. نساء باردة

قرأتُ ما كتبتُ تحت عنوان «مكر الرجال» قال الواعظ: «النساء وأقصد بعضهن وأنتِ منهن مناضد كره وتمني زوال النِّعَم وحسد. وفي عز النهار يكون الهروب إلى الحبّ سذاجة، تفكير مشابه إلى الموت. عالم مزدحم ولسان حاله يقول ما لا يعرف. ليس في اليد حيلة. وكأن الحبّ عند بعض النساء حاجة كما الحاجة إلى الطعام والماء والنوم والإكسسوار والملابس. تحتال كثيراً وهي فاقدة إلى الكياسة واللياقة. تتمرد حين تمسك التصرف الباهر. تكمن علّتها في نقص لابد من إكماله. وإن تعارضت الأمور ورفض زيفها الرجل يكون هو الهدف المستباح لكل أمر فاضح وفظيع. هو المقصود وهو المبُعد. مُبعد لفظاً وعند ذهنها هو المتزن الوحيد الرافض لمثلها على أساس حقيقة مفادها «خلوق». ولكن إلى متى؟ إلى متى تفكر المرأة أنها الهدف والرجل الرمح؟ إلى متى تنظر المرأة وكأنها الوحيدة التي لها القدرة على احتواء الرجال؟ واستنفار الذكور؟ وهي الحياة؟ خرجتُ من البيت ليلاً رأيتهن. عند أماكن الاحتفال رأيتهن مشبعات بالحمرة والألوان الباهتة. وفي طقوس العبادة رأيتهن. وفي البيت، وعند صالات التجميل والمكتبات رأيتهن، منتشرات مثل الدخان. مثل ضباب ولا يمكن تجاوز بعضهن ولا النسيان. وفي البحر وعند المرافئ لم أجد ما يكشف سر هذه الوجوه الملونة بالأصباغ أكثر من المعتاد. لم أجد أي معنى من بهرجة ثيابهن ولا من صوت يأتي بنبرة عالية يشعرك بالوحشية ويدفعك إلى

Telegram: Somrlibrary

الابتعاد والكتمان. المرأة السوية تلك التي نراها سيدة في الصباح وامرأة في النهار وفي الليل أنثى أكثر من رائعة؛ تلك التي تعرف كيف تبني ولا تهدم. تمسح على كتف زوجها وتطيب مزاج الأولاد وتنقش على ذهن البنات أجمل الحكايات. المرأة الناضجة نراها وكأننا لا نعرف سواها سمحة لينة قوية. والحديث طويل عن المرأة التي تعرف كيف تمسك الحياة وترسم خطوط مستقبلها وتعطي لمن معها ومن حولها دافع الاستمرار في الطريق الأبيض بين ضفتيه الأشجار غنّاء في عز النهار.

ـ وأنتِ أينك من هذا؟.

ـ كفى..

صاحتْ. انتهى الواعظ..

لا أدري لمَ شعرتُ أنني أصدق ما أكتبه قديماً وحديثاً؟ وإن تصادف مع ما أشعر به الآن الغرور المشبع بالدهشة، أبتسم حرصاً على عدم إثارة الصدق فيمن حولي. ما أشدّ حماقة المرء إذ يرهق نفسه عبثاً في تصديق الكلام؟ كنت أفهم معنى السعادة. شبابي. صمتي. أسمي. كانت مهمّتي النسيان والشمس تعيدني لذاكرتي. مرتقباً والشوق يراودني. شيء منفرد يجدد المشوار. لا عذر بعد اليوم. الشيب يمارس الطغيان. والوهن تجاوز عرشي. ذلك التفكير. مازال في الصدر رغبة. الليل يستحوذ على تقدمي، يبعثر خطواتي...

منذ فترة شعرت أنا لست أنا، وأقصد هنا اندفاعي الأول لملذات الحياة ونعيمها، ولكن في تلك الليلة وأنا أغادر الصحو كان لابدّ لي أن أقرر أنه إذا ما أردت الاستمرار قويّاً عليّ نسيان المغامرات المفاجئة مكتفياً إلى حد ما بخبرتي في طرح الحلول تجاه كل طارئ جديد قد يحدث على ظهر الباخرة. غفوت بعد أن أخذتُ المسكنات. تنفس الصباح. تحرك البحر. تفوح منه رائحة تثير الحواس فتدفع الجفون الهواء جانباً. هناك مطر طائش في لون واحد يتقاطر على وقع رنين كلمة «مشتاق».

Telegram: Somrlibrary

يتأوه الفم. ترتعش الأنسجة. تنهار الخدود تتحرك الرموش. دموع الحبّ أحلام متوحدة. أساطير العشق المنتهية في اللقاءات الحميمية قول أجوف. شعاع الشمس يلامس النافذة. التفكير يعاند الأفق كما الظلام والشموع في مسيرة منضبطة تأخذ منا سُبل العيش. على فسحة التغير المستحيلة كنا مكرهين على البقاء، ولكن نتحرك في زمن الراحلين الدائري دون أمر منا تفر أرواحنا إلى المستحيل. تدور ذواتنا الساكنة فوق أيدينا. على نغمة متكررة مثل دقات الساعة كان القلب يشعر بالوحدة. يتجدد الألم عند أسفل ظهري. أزحت الستائر إلى جنب. رأيت الموج الأزرق منشغلاً بمخاطر الوادع التي لا تنتهي. غبش أزرق لين وفي البال ثمة نسيم بارد وسنابل سرية. نقش تذكاري فوق غمام رمادي أزاحته السماء برهة. دقات خفيفة تحاكي متاهات الزمن المخطوطة في العتمة.

من يمتلك القوة على الموت؟

هل النوم تجربة مستحيلة؟

بين مد وجزر يردد المدى: «مشتاق». والصدى: «إلى متى؟».

رأيت وجهي يحمل لون البحر وفي عينيّ حمرةٌ تتسع. يدي تلمس من خلال فتحة شباك الغرفة طفلاً يركض سريعاً. وأخرى تلاحق سرباً من الطيور وفي ذاكرتي بالونات ملونة. الزمن يراقب ظلي المتشكك بثبات الجنود واقفاً، على الرغم من تشابك الغيوم كنتُ أتمتم ليس بقصيدةً ولا بالشعر كنت أردد «سيأتي».

في العتمة رأيتهُ بوضوح. فراق كل ليلة. قمر غافل. زمن متطاول. عبودية قرنين. صباح منتظر. مازال هنا. الأمل المتواري خلف الجبال. الموت المحسوس. مازال هنا. أنا أبدي الترحال في ضياء الغربة منسيًا.

كالعادة بركان الاشتياق يثير عتمة الفراق...

انزلق الصمت راقداً في محيطي المرعب مكرهاً أتذكر تلك الأيام.

Telegram: Somrlibrary

اندفاعي خلف الموج انتهى. كم مرة يبقى صمت الرشقات أمام نصب الأسلحة؟ الضجيج؟ الخوف؟ الموت؟ وحقيقة الأمر السكون غير مرغوبٍ به الآن. الهدوء يثير الراحة. في زمن البقاء الغناء أرجوزة مستحيلة. أحتاج سماع صوتها. أرمي همومي. أتحرر من قيودي. أعيد الضياء بحدة الصراخ قلتُ كلاماً..!.. وأعرف صعوبة قوله. لم يكن من السهل عليّ التحمل. أن أجد من يجالسني ويعطي الأوامر والنصح بلا مقابل، أجد المزاح غاية ولا حاجة إلى ذكر الاستهزاء بي من فرط الذكاء السخيف الذي ابتليت به كنت مضطرباً. مرَّ نورس أبيض من فوق رأس أشيب؟ شاب حنون؟ وهذا العاشق؟ لا أدري؟

من يتحمل أقوى الضربات دون أن يمحو من ذاكرته أكثر الأشياء ألفة؟ البعض منا يُحييهم أمل جديد، والبعض الآخر يلهثُ خلف النسيان؛ لا لشيء فقط لينعم بسكينة مبكرة. أما أنا فكلما أتوغل في البعد بعيداً تراني فريسة رائحتها وتقاسيم وجهها. شيئاً فشيئاً تذبل الروح مثل زهرة قبل أوانها. أشعر بالملل والانكماش. بائس أنا ولا طاقة لي على التمدد. تمدد من شأنه أن يمنحك الابتهاج في تمزيق ملابسك فيتوتر الجسد المجنون في عشقه إلى الركض. أحتاج ظهوره. كانت مسألة وقت. قد يظهر؟ أنا أعلم في أماكن أخرى يتواجد حيث يوجد ما هو أكثر إمتاعاً. ربّما أيضاً صرت أحتاج إلى من يعتني بي. رغم الشعر الأبيض مازال الطفل الصغير يحركني نحو الاختباء تحت الطاولة. خلف الأريكة. قامة أبي. عباءة أمي. لستُ مجنوناً ليشغلني في نهاري ظهوره ـ نصفي الآخر ـ ولا ذاكرتها ـ سمرائي الفرنسية ـ فقط كنتُ أثير السؤال وأشكك في أغلب الأجوبة. الأشياء من حولي يحركها الشك، والمقربين مثل الزواحف يتصورونني شخصية قلقة. الصمتُ ولمسافات طويلة يزعجني وليس بمقدوره إرضائي. الهدوء الواسع لذة. أحتاج امرأة أنثى مبتسمة تميل إلى الطول قليلاً تمتاز بفم يُجيد

القُبلات قامتها رشيقة ضاحكة مثل الأغصان أمام نوبة عواصفي لينة لا تنكسر غيورة غير متشككة. أحتاج الراحة. الاستلقاء وبدون تفكير أحتاج الحديث مع سمرائي. كالعادة كانت تجرب الغزل الجديد. لاحظتُ أنها ترغب في تحقيق ما أطلبه. كانت تُقصّرُ في الكلام وتُطيل. باتَ يقف إلى جانبي أنا الرافض لها. لم أكن قد أحضرتُ شجاعتي بعد. وددتُ لو تركتها وابتعدت. رغم العهد الذي أخذتهُ على نفسي عدم مقاطعتها إلّا أنني كنتُ دهشاً من حسن صياغتها الكلام. كانت يدها اليمنى تصور ما تقول واليسرى تؤكد. في الوقت نفسه كنت أفهم أنها تشاجرت معي ليلة البارحة وبدأت تروي قصة أخرى: كيف لي معرفة سيدة أخرى لتكون عشيقتي. وكيف لها قضاء أيامها القادمة تفكر في شريك داخل صدري معها. لم تنته من كلامها حتى أضافت بأن ما يقال عني «لا يحسن التصرف مع النساء». صار مؤكداً لها. كانت صادقة. شعرتُ بالندم؛ كانت تعمل على نصيحتي. في ضمير مرتاح تكلمني عن هذه الأشياء اللطيفة. لم يكن بوسعي إلّا الصمت. كنتُ قد قررتُ دفع ما كان عليّ من دين لها. لقد تجاوزتُ الحد المطلوب. لقد شربتُ من يدها الشاي والقهوة وما يعادل الضعف من عمرها. يبدو قد جاءت من زمن لا أعرف أين؟ ومتى؟ ألتقيتُ بها؟ في مدن مطلة على البحر كنتُ منهمكاً حد الهوس في تدوين همومي وأفراحي وملاحظاتي ومشاهداتي حتى أدق تفاصيل ساعاتي اليومية، ولكني فجأة أحول مشاهد الشوارع إلى النقيض والعكس. الورد المتسلق جدران مدن المرافئ أتخيله أفاعي تسعى في شوارعنا الخالية، والعكس يحدث عند رؤية النساء الممشوقات الحُمر والسمراوات. سمرائي مالكة مقهى النجوم. تخيلتها عاملة خدمة في إحدى دوائرنا الحكومية. الخيال أمر طبيعي والأرق مصدره. غير طبيعي هذا الحزن الأزلي وحقيقة مستقبلنا الغامض أبدي. مخاوف الحياة: مرض عضال، ألم تحس به ولا تراه. فقط أركنُ إلى نفسي وأحمي بعضها من مرور أحداث بحياتي كانت فيها البراءة منطلق الصراع..

Telegram: Somrlibrary

أفكر في الذنوب التي لم نقترفها. محاصرون نحن بالانتماء والتعقيدات التي أنزلت المعاناة على رؤوسنا. حطّتْ الهموم الجاهزة من المتسلطين على أحلامنا. في كل أشكالها المتلونة وأصنافها المتجددة سُرقتْ طفولتنا. لم تمر على أحد سوانا قناعة الموت المفتوحة. «الكواتم» الجديدة تدفعنا إلى الحياة في جنون اصطبغت ملامح حامليها بالدم. دم لم نألفه في سابق أيامنا. وأقصد هنا طفولتنا التي عبرت إلى الشيخوخة بسرعة برق دون المرور بالشباب.

إن ما يسمى نصفي الآخر فارقني؛ ـ فقط قلتُ سأتعود الكذب ـ وأفهم هو العقاب المفتعل، ولكن المثير للشك هو عن وعي أو لا وعي تجاهل فكرة كوني ببساطة مفرطة إنسان، وليس من حق أيٍّ كان أن يجردني من إنسانيتي ويلبسني ثياب الملائكة أو الشيطان. رغباته في إصلاحي لا جدوى منها. يذكرني بحقيقة وجودي ولا يدري أو لا يريد أن يدري صرت أعلم حقيقتي جيداً ولا أبالغ لو قلت لم يصل بعد هو أو غيره كما وصلت أنا إلى معرفة أن ما بين محاجر العيون موت مأمور أعمى. لا يجرؤ على عزل الفضيلة عن الرذيلة. في هذه المفاهيم التي تفاقم فيها الفراق واستفحل الادعاء، كانت نظرتي الحمقاء تبعدني عن الواقع. صرت ميالاً إلى السير على أطول طرقات الوحدة. كياني المزدوج تعقد. جازماً أنّ هذا العالم لا قدرة له على احتواء عذاباتي. جديدة في حضورها أزلية التواجد. هناك في ركن من أركان ذاكرتي المتقدة بالشواطئ الدافئة والنساء الباردة. تظهر من جديد مشاهد الذاكرة. مشهد أول: ذات يوم من شباب فات في أحدى المساءات الماطرة مررتُ في شارع بلاطه الحجري المرصوص رصاً فيه لمعان وبريق ملون يعكس ضوء مصابيح عُلقت على أبواب صالاته لوحة ضوئية حمراء. وقفت برهة. سمعتُ عزفَ طبول، وغناءً يشبه الضوضاء على أطراف الذاكرة وقت كانت فيه الرغبة مرعبة، رغم

Telegram: Somrlibrary

شدة كرهي لهذه الأنواع من الفنون مثل كرهي لنساء لا تعرف الحبّ ولا الحياء وجدتُ في هذا الضجيج المدوّي قدرة على بلوغ الشخص الغريب معارج النجوم ولو في الخيال رحتُ أشم عطر منيتي.

كنتُ أتنشق الجو بغضب.

دخلتُ الصالة.

وجدتُ فيها نصف موسيقى تقطر عرقاً ونصف حناجر مضخمة العاطفة مفرطة. كانت الصالة تضجُ بالهمجية مثل من يدّعين الحياة.

يتوغل إليهن البرد،

لا شك كنتُ أفتقر إلى البراعة في الوصفِ حين وقفتْ أمامي امرأة ـ شبه مكتملة ـ حتماً كانت بائسة حين سألتني:

ـ لديك حبيبة؟

أجبتها:

ـ نعم.

ـ أينها؟

ـ هنا....

في ذاك المساء المقمر وقبل السفر جواً من مدن الشواطئ الدافئة إلى الديار الباردة، كانت تلك الأضواء تبدو أكثر رومانسية. من تحت الشرفة المعلقة في الطابق الثالث كنت أرى النساء تُدفع دفعاً إلى أزقة فيها الظلام النسبي يخفي قصصاً من الصعب مناقشتها. الاحتكاك العنيف بين الأجساد المختلفة أمر غير مريح في الشوارع المزدحمة. الكل متحمس في خطواته المتسارعة إلى الوصول. ذلك العازف تحت عمود الإنارة يبدو مسترخياً ولا يفكر بالوقت. وتلك الطفلة في جلوسها مع كلبها الصغير المرقط تبدو

أكثر سعادة من جلوس والديها المتباعد فوق مصطبة واحدة. بدأ الخادم يطرق باب الغرفة. فتحت فشجعه نصفي الآخر على الدخول. كان سماره اللامع يضفي على ابتساماته المبالغ فيها بريقاً مبهجا. كانت أذنيه دوماً مفتوحتين، ولكن صوته الخافت يثير رغبتي في الضحك. وعلى مسافات مناسبة أنتقل إلى طاولة الصالة وضع ما كان بين يديه وخرج ممازحاً لنا بإشارات فهمتُ منها أنه سعيد بوجودنا. عدتُ إلى الشرفة فرأيت الطفلة ترفض المغادرة بدون الكلب الأبيض المرقط بالأسود. صاحت الأم بزوجها تطلب منه إقناعها بالمغادرة فتوجه الزوج إلى ابنته وجلس إلى جانبها وبدأ يكلمها ويده تمسح على ظهرها. لم تمض ثوان حتى نهضت الطفلة وانطلقت راكضة أمام والديها تهز رأسها يميناً وشمالا وإلى صدرها تحمل كلبها، إلى أقصى اليمين خلف ساتر الضباب الشفاف فتاة تلبس ثوباً أحمر بذراعين عاريتين ترقص تحت عمود المصباح أمام عازف «جيتار»، امرأة شبه عارية تخرج من زقاق شبه مظلم منشغلة بتعديل شعرها. تتبعها فتاة بصدر مفتوح تحكم إغلاق قميصها. خلفها امرأة مسنة تعدل بحمالة حقيبتها. إلى الضفة المقابلة للشرفة رجل مُسن يمارس الرياضة أمام امرأة شعرها أبيض، ترميه بنظرة فيها شزر تعاكس يديها على صدرها. خلفها تجلس أربع عجائز على مصطبة واحدة متراصات مع بعض يضعن أيدهن على فمهن ضاحكات. على بعد خطوات شاب ينحني إلى شابة يضع يده على ظهرها ويقرب بفمه من فمها....

ـ غداً نحلق إلى الوطن؟؟

سألني فأجبته:

ـ يجب التأكد من حجوزات الشركة.

Telegram: Somrlibrary

لمحتُ في أقصى الجهة اليسرى من الشرفة رجلاً يلبس «تي شيرتا» أحمر ونصف بنطلون أبيض برشاقة عالية كان يطفر الشارع فرحاً يحمل على صدره قبضة من الورد الأبيض، وبينما هو يتقدم بخطواته الراقصة وحركاته غير مفهومة كان يدندن. لم يسعني فهم ما كان يقول، إلّا أنني ثبت النظر إليه حتى عبر الشارع..

ـ هل نتصل بالشركة الآن؟

سألني فأجبته:

ـ حسب الاتفاق. الساعة السابعة صباحاً.

تمنيتُ لو حجزت الغرفة لوحدي، لو يتعطل طيران الغد إلى إشعار آخر. كثيرة هي الأمنيات ولكن الأقدار تمحوها. فتاة تلبس ثوبًا زهرياً مطرزاً في أشكال مختلفة كان لونها أبيض مميزاً. كانت تنتظر الشاب الراقص ولحظة وصوله غرز وردة في شعرها ونثر الباقي تحت قدميها وشدّها إلى صدره بعدها تقدم خطوتين إلى حيث سياج يفصل الحياة عن البحر وأمسك مقود دراجته الهوائية وبحركة سريعة ركب الدراجة وانطلق والفتاة خلفه تشبك يديها على بطنه. «عليك الاسترخاء». «...». يبدو من السكون المتعب صرت مثل توقف البحر ـ هديره؟ ـ نعم والليل يتسع أكثر وأكثر والظلام النسبي صار شاملاً كل أروقة الباخرة.، لا أعرف كيف غادرني النهار دون أن أسمع طرقاً على الباب. هدوء عميق في الممرات ولا أتذكر إن سمعت وقع خطوات خفيفة. فكرتُ ربّما النوم سلاح الجميع. فجأة سمعتُ تصفيقاً دوى في المكان! فتحتُ الباب: «هيّا هيّا». رقيب السطحة مبتهجاً قال في وجهي وهو يحث الخطى سريعا إلى مؤخرة الباخرة. تبعتهم. فرأيت. كالعادة تجمعات الراحة في المكان نفسه يدار الحديث المرغوب سماعه من الجميع. الجنس، المال، الموانئ، الحبّ،

Telegram: Somrlibrary

الوصول ورائحة الأرض، بطولات مفتعلة مرافقة للهلوسات، ولكن بعد جهد طويل من الضحك والذكريات مع أفراد الطاقم شعرتُ بحاجتي إلى الراحة فتوجهت إلى غرفتي وكان النعاس يثقل خطواتي المترنحة.

الفصل الخامس

مسارح الخوف والإثارة

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

1

لطالما خضعت الحكايات المشبعة بالمبالغة إلى الدهشة والضحك. في إثر الإشارات المضخمة للأحداث بدأ الجميع يتحدثون عن الحماس ويعبرون عن ابتهاجهم من عودة الزورق بطاقمه بسلام. لا شك أن علاء كان محقاً حين قال للبحّارة: «رأيتكم تغرقون». لقد نجح باسم في وصف الحالة المتهالكة للزورق. كان يصور لنا نفسه أثناء نزول الزورق على أنه البطل المغامر الذي اجتاز المحنة باقتدار. يبدو من تركيز الجميع أنه سيحكي عن الحادثة دهرا. لقد رسم هو ورفاقه في أذهان السامعين صوراً غريبة زادتْ من مفاجأتهم. اجتهد في تخييل الحكاية الدرامية بطريقة مليئة بالألغاز، وبدون دراية منه لم تكن كلماته مشفرة ولا كانت في أي زاوية من زوايا الحديث مزعجة. إنما تنبئ عن أحداث قصة مرعبة. خوف من المجهول داخل مساحة ضيقة لزورق شبه متآكل تتناسل فيه الاحتمالات المميتة مثل الدخان بين أفراد طاقم ناء بحملهم الزورق المترنح فوق أمواج متحركة. لحظة بلحظة ومشهداً بعد مشهد مع حركات موسعة من الذراعين ومعبرة من الوجهين. يصوّرون الحادثة بطريقة ممسرحة. رأيت ملامح خوف باقية على وجوه بعض أفراد الطاقم، وعن طريق مقاطع الفيديو التي صُورت لنا، كان التأثير بالغ الأهمية في الحث على تحقيق بطولة خارقة تقوم على التجلد والمغامرة وهذا ما حصل بالضبط. في قادم الأيام علينا إصلاح أنظمة الأمان في الزورقين المعلقين على جانبي الباخرة وبشكل دوري ومنتظم يجب صيانتهما. في الإصرار على التخيل رأيت في عيون المستمعين دهشة

Telegram: Somrlibrary

مثيرة تقاوم طرف العين حد الاتساع أحياناً. أغلب الصور التي نقلت لهم لا تنتهي بالواقع الحرفي بقدر ما تتسم بالتجدد والتوسع والزيادة في الغموض وتأخير الحلول تعطي قبولاً وانبهارا، وفي مواضيع أخرى صمتاً عميقاً، وما تَشكل واضحاً في تكرار التساؤل العنيف من المسامع المتشوقة لنهاية كل حدث.

كان يروي بطريقة أكاد أكون المصدق الأول له!

كنتُ مهتماً في مراقبة الرعب عند البعض، والرغبة في الإصغاء عند البعض الآخر، والقسوة عند المتحدثين، ولأن الليل الطويل قد شارف على الرحيل أشرفت القصة وبأدق تفاصيلها على النهاية، لم ينس باسم رش الملح على بعض مفاصل توقفها، ثمَّ زاد من التكرار في المشاهد التي تثير مواصلة الاستماع. كان الجميع في حالة هدوء مزعج، كأنهم لم يروا حادثة إنزال الزورق شاخصة أمام أعينهم، أو يسمعون حكاية مثيرة ولكن ليس بالحجم الذي أسمع. وقت الحديث عن المغامرات المخيفة بعد منتصف الليل بقليل قد انتهى، ولم يبق حينها إلّا المتعة التي توعدناها من قصص وبطولات ذكورية يلقي تفاصيلها بحّارة قدامى ـ علاء ورقيب السطحة ومراد ورعد ـ بطولات قد تكون من نسج الخيال، إلّا بعضها يمكن تصديقها تحكي من مرافئ مروا بها قديماً أحداثها مبررة.. ولأن خيال المتحدثين أخذهم إلى النساء والمطر كان الجميع راغباً في المشاركة. لا يمتنع بعضهم من التوسع في الخيال.

خيال له الحصة الكبيرة والموسعة حد المبالغة في الوقوف المخلوط مع بعض التنهدات والتكهنات بالكذب أحياناً. كذب فيه القبول متاح على أساس أن الذي يدخل إلى العقل بنعومة يحرك الأطراف. أحياناً يشكل الانفعال الجنسي مسرحية فكاهية تشبه إلى حد بعيد بعض مسرحيات مبهرجة جافة تعيسة لا معنى لها ولا ذوق في أيامنا هذه. رغم قلتها يأخذ

Telegram: Somrlibrary

منها وبشكل لافت السيقان الممتلئة العارية لممثلات مترهلات ملونات بكل ألوان صالونات التجميل يهطل عليهن من الكلام ما يستحيل فهمه من بطل المسرحية اللابس ثوب السخرية؛ لا لشيء فقط إضحاك الجمهور بقوة الصياح إن اضطر إلى ذلك. مسرحنا البائس تحول اليوم إلى ظاهرة مهترئة وبالمقابل يطلب من الممثل النزول إلى أدنى مستوى من التهريج، مادته الأساس تحريك الجسد أمام عيون الأطفال والنساء الحاضرات من أجل الترويح عن النفس، لا يشكل الإحراج من إنزال بعض الألفاظ الجارحة والسب والشتم أثناء تمثيل مشاهد مسرحية عنوانها بائس وأحداثها باهتة. الأبطال تبحث بأي ثمن عن الانطلاق والشهرة في عالم ـ فن ـ يلعب على البهرج مثله مثل الانفعال الجنسي في حكايات البحّارة.. كان أغلبها من صنع الخيال لدفع ثقل الانتظار. فحين يصل البحّار علاء الى أعجوبة الجنس في قوله أنه قد مارس الحبَّ مع فتاة من شرق أوربا عشر مرات ومازال فيه القوة المزيد. قال مراد:

ـ ماذا!؟

يرد عليه ساهي أبو النون:

ـ كيف يتعب وقد أحبته أوربية!

يزيد غيره:

ـ خمسة عشر مرة قليلة!

غيره ضاحكاً:

ـ إلى الصباح ولا أتعب.

حتى وصل الحد من قال:

ـ أقتلها من كثرة ما أريده منها.

لم يكن فيهم من عاد لمنطق العقل. المبالغة تنسيهم همومهم.

يُخيل إليّ أن أي شخص ركب البحر ـ عاملاً ليس فقط مسافراً ـ كان يشعر بالرغبة في أن يبدو أصدق حالاً ومقالاً على الأرض.. قرأتُ مرة: « كان الإنسان يعيش بين الحجر، تحركه أغلب أوقاته حاجته إلى الطعام والجنس، ونتيجة تطور الحياة صار المال من أولوياته». قلتُ وقد سمعتُ الضحكات الطويلة ورأيت الراحة تخالط تنهداتهم وأغلب الظن كانوا يمزحون مع بعض في همس شعرتُ فيه أنه حان وقت إسدال الستائر. فجأة صدحَ مراد بحنجرته الشجية مغنياً وهو يهز رأسه: «الليل يا ليلى يعاتبني». ليرد عليه ساهي أبو النون وهو يهزُّ كتفيه مصفقاً: «ويقول لي سلم على ليلى». بعدها تعالى الصدى وتردد الغناء على إيقاع التصفيق المنظم....

عدتُ إلى غرفتي وفي نفسي قناعة سمعتها يوماً: «حياتنا اليومية تغذيها الأساطير مثلها مثل النساء والحبّ. التعري والخجل. الطيران والغوص. وإذا فصلنا هذه الأساطيرِ عن الحياة تعصف بنا موجة التوحد والقلق المرافق للوهم الذي يظهر في أي لحظة نخفي فيها حقيقة موجودة في داخلنا». الطاقم يبالغ في السعادة؛ لا لشيء فقط لأن الجميع صار يعلم أن غداً ستلمس أرجلهم الأرض، وغير ذلك لا قيمة له، وما يظهرونه من اندفاع مبالغ فيه يحررهم من الصمت الذي أمسك رغباتهم وقيَّدَ شعور الاستمرار فيهم. سراً ذهبتُ مع نفسي بعيداً رافضاً طريقة تفكيرهم؛ الوصول إلى الميناء ليس نهاية العالم. الحياة لا تقدر بقدر نفاذ الخيال. تصورتُ أن نصفي الآخر سيعود الليلة ومعه أنا، والحقيقة أقصد الحل الذي أريده منه لسببين مُؤكّدَين، كنتُ على يقين تام سيظهر شاخصاً أمامي مبتسماً كما كان معي كلما حققت لنا ـ أنا وهو ـ تميزاً يشار له من الجميع على أنه تميز. بدا من الصعوبة تصديق هذا بسرعة.. لا حل الآن إلّا التصديق، ولا مجال للشك أبداً. أنت في عرض البحر؟ طاعة الأوامر هي القوة الوحيدة القادرة على نقلك ومن معك إلى بر الأمان. وددتُ

Telegram: Somrlibrary

لو التقيت بالضابط الثاني صفاء وسمعتُ رأيه المتشكك بقرارات الشركة، ولكن يبدو الابتعاد عنه في هذه الأيام ينظم عثراتي العقلية. لم أعرف كيف علقت الأفكار الجنسية في ذهني؟ بعد أن استلقيتُ فوق فراشي على ظهري أغمضت عينيّ وسرحت في خيالي الذي يتدفق برغباتي. تلك الليلة بدأ النعاس يزورني ويبدو قد نسيت ـ نصفي الآخر ـ من آلية التخيل الجنسي التي كانت تعمل بكل طاقاتها وأنواعها وإمكاناتها المدهشة الممتعة وحين يساور بعضها القناعة تتحول رغبة الهروب من الواقع إلى قبول مخيف مثل الممتلئ الأصم......

في الصباح كانت الشمس مشرقة والسماء صافية والبحر أهدأ من المعتاد والهواء ألذ من النسيم والوجوه تشع فرحاً والطيور تلمع في مرورها. جاءنا الأمر نحن ـ طاقم الماكينة ـ من رئيس المهندسين صلاح في تهيئة الماكينة للإبحار المحتمل والذي سنكون بموجبه في الميناء قريبًا، ولكن مرت الساعات والانتظار طال حتى الساعة العاشرة صباحاً موعد شرب الشاي لنصف ساعة. تبادلنا الحديث مع بعض واجتهدنا في تحليل الموقف. قد يأتي الأمر بعد ساعة أو أكثر من الربان نتحرك فيه صوب ميناء جبل علي في الإمارات وهو المحتمل والمنتظر لأكثر من عشرين يوما. وصل موعد الغداء ولم يأتِ بعد؟! انتظارنا الذي طال حتى العصر أفسد الهدوء وبعثر الأفكار وأعاد الهم والنكد، وضاعف الربان اتصالاته مع الشركة، ولكن لا رَد. أذهلني الصمت الذي قَلَبَ ملامح الطاقم عصراً. في سكون غريب وغير منتظم كانت أجساد البحّارة تروح وتجيء فوق ممرات الباخرة صامتة. داخل عقلي عادت الطيور المهاجرة تأخذ الصبر من صدري وترحل. الزوايا مظلمة تتكاثر مثل الشعور بالذنب. أمشي مطولاً وأعود إلى غرفتي. أفتح الباب وأغلقه؟ ـ ماذا أفعل؟ ـ أنتظر قليلاً. أعود إلى السطح؛ أحاول استخراج الشيء الذي أريد.

Telegram: Somrlibrary

صامتاً في وقوفي المنتصب عند أنف الباخرة؟ مضت ساعة أو أكثر؟ اكتشفت أنني أستمتع بهذا الانتظار، وتجاهل الشركة لهمومنا يمكن له أن يكون ممتعاً ومثيراً. وأقصد في ذلك إيجاد المهارة في التعامل مع أمزجة الطاقم. مثل موهوب منفرد كنتُ ألقي بالخرائط التي رسمتها لنفسي. أترك الطفل ورائي وأمنح الوجوه بريقاً، أساعد على النسيان ومع أنه لم يكن هناك تفسير آخر. سألت معلمي عن الحل بعدها تبادلنا النظرات. لم أحتمل البقاء تلميذاً أمامه. عليّ الثبات على رأي، ومن كثرة الإصرار في الإثبات صرت معلماً. باتجاه الأفق القرمزي على شكل نصف دائرة لمحت طائر النورس يُغيرُ لونه قادماً من بعيد إلى صدري! سألت نفسي لماذا كبرتُ؟ لا أحد يحتفظ بطفولتي كي يذكرني بأنني كنتُ سعيدا؟ ولمعرفتي أن أبي كان يفتخر بطلباتي وشكوكي كنت الوحيد المحتفظ بطفولته والمتنسك بأفكاره، كما كنت قادراً على فك طلاسم جلوسه خلف طاولته العريضة وحيداً. ولأني أعيش في كيان يشبه إلى حد ما العشق للكتب كنتُ هكذا أحفظ أجمل الأشياء التي لا يعرفها أحد سواي ومن غير هذا الشعور تكون سراب على قيد الرمال. «تهيأوا للإبحار». جملة قالها ربان الباخرة من خلال مكبرات صوته الذي هزَّ الباخرة هزاً. التغاضي عن تحرك البحّارة المبعثر والسريع أمر صعب: صفق الأبواب! هرولة متعثرة! التخبط في الذاكرة والحديث! ارتداء ملابس العمل. أصوات عالية! التساؤل الواضح على الوجوه! ملامح متعبة لكن حادة! كلها علامات رجاء وصل أمرها ملحاحاً إلى الربان على أمل التوجه هذه الليلة المقمرة إلى الميناء. يبدو من ضجيجهم لم تكن لديهم شكوك الانتصار على تخبطات قرارات الشركة، وببسالة معهودة منهم وبخاصة الضابط الثاني رأيته قد التمس العون من أحد البحّارة على رفع المخطاف المغروز في أعماق تصل إلى تسعين متراً وأكثر. صار علينا نحن ـ قسم الماكينة ـ تجهيز المحركات والتي نحتاج إلى ساعة لتسخينها. ما إن انتهت الساعة حتى جاء الأمر: «الإبحار بعيداً عن الأرض؟!».

Telegram: Somrlibrary

2

قررت الشركة ـ النقل البحري ـ تحريك الباخرة إلى منطقة أبعد عن الممر المؤدي إلى رصيف ميناء جبل علي في الإمارات!

بالفعل هو عكس ما كان متوقعاً.

المرحلة الثالثة في التحرك أخطر؛ بعد أربع ساعات من الإبحار المتواصل وقفت الباخرة بتثاقل ملحوظ عكس اتجاه الريح وبسواعد طاقم السطحة تم إنزال المخطاف إلى قاع الخليج ليستقر بين الحجر والرمال. كانت المياه ضحلة ساخنة، وتياراته قوية جداً. حدوث المشاكل؟ أمر وارد. وارد جداً أثناء المدّ، وقد يغطي مستوى ارتفاع البحر مساحات كبيرة من محيط الباخرة. غطس المخطاف في الأعماق، وشيئاً فشيئا غرز فثُبتَ بمكان ما. حسب صور الجهاز اللاقط للأعماق كان موقع وقوفنا جيداً بالنسبة للمواقع الأخرى.

هذه النقطة تحديداً لا تخلو من المخاطر، ولكن هو أمر رئيس الضباط وعلى الجميع تنفيذه. من الناحية الجغرافية هي منطقة متنازع عليها بين دولتين ـ إيران جزيرة سيرين والإمارات جزر أبي موسى ـ بدا وضعنا الحالي أخطر من السابق.. قد تتعرض الباخرة إلى التحرك المفاجئ بسبب الريح، وربّما تسوء الأحوال الجوية ونتجه إلى التصادم مع بواخر أخرى. يلاحظ وبشكل لافت للنظر القطع البحرية العسكرية تتحرك من حولنا تقترب مرة وتبتعد أخرى. لا يوجد في هذه المنطقة ولا في الأفق

Telegram: Somrlibrary

البعيد ولا في القريب باخرة تجارة غير باخرتنا. يبدو الأمر غريباً لا يخلو من المخاطر. نحن في حيرة لا نحسد عليها؛ أمر الشركة لربان الباخرة بالوقوف في هذه المنطقة تحديداً لا نفهم منه أي معنى.

هناك خطر محقق؟

المكان غير جاهز للملاحة ويقع في منطقة خطرة. هو أمر فيه شيء من عدم المسؤولية وعدم الاهتمام بأرواح الطاقم. في الحال رفعنا راية كتب عليها حرف «A»: علامة تشير إلى البواخر القادمة ولدينا غطاس في الأسفل وحافظ للسرعة البطيئة. أطفئت المحركات الدافعة وعدنا إلى الانتظار الطويل. لا إشارة اتصال تخصنا. فقط المراسلة على إيميل الباخرة مع الربان والشركة. الطاقم يعيش حالة تدمر. تصاعدتْ وتيرة المجادلات مع من يظنونه ضعيفاً عن اتخاذ القرار الصحيح تجاه الشركة. رئيس الضباط «صباح» كعادته يركن إلى الطاعة العمياء ولا يناقش الأوامر أبداً، فهو خريج أكاديمية الخليج العربي للدراسات البحرية أكمل دراسته في أوربا الشرقية، عاد وطاعة الأوامر واحدة من أولوياته. هو المسؤول الأول عن التفريغ والتحميل في المرافئ وهو المسؤول الأول عن سلامة أفراد الطاقم والباخرة بالتنسيق مع الربان والشركة، ولكن كان يمكن له أن يكون صاحب رأي يضغط على أصحاب القرار لتحريك الباخرة إلى الأرض لا العكس. يأسنا دفعنا لطلب المشورة منه. ليلاً التقينا به وكان مرتاحاً جداً، أخذ يشرح تفاصيل اختلاف الأمر:

ـ لم نتوقع إبعادنا عن الميناء أكثر. كنا نتوقع كما أنتم الوصول إلى أرض الميناء. تهيأنا إلى الرصيف ومن أجل الحمولة جهزنا العنابر، ولكن جاء الأمر كما تعرفون يطلب منا أن نبتعد أكثر. سألنا عن السبب؟ قيل لنا إن السلطات البحرية الإماراتية تقدمت بشكوى ضدنا لوقوفنا الطويل في الممر البحري المؤدي إلى موانئها وزادتْ في شكواها طلب غرامة مالية

Telegram: Somrlibrary

أو إدخال الباخرة ضمن القائمة السوداء. وكما تعرفون إن أدخلت الباخرة القائمة السوداء هذا يعني انتهاء صلاحيتها وأفضل شيء بيعها كقطع غيار لا أكثر. في الحال دفعت الشركة الغرامة وأمرتنا بأن نمتثل لأوامر السلطات البحرية الإماراتية بالابتعاد عن ممراتها البحرية. طبعاً كانت هناك مجادلات كثيرة من ربان الباخرة يشرح لمسؤولي الشركة حاجتنا القصوى والملحة للوصول إلى الرصيف كي نتزود بالماء والوقود والمؤن، وأن هناك من أفراد الطاقم من يحتاج إلى مراجعة المشفى، فجاء الرد بهذه الورقة: «ربان الباخرة عليك التوجه إلى منطقة انتظار أبعد ليومين أو أكثر وبعدها ستكون أنت والباخرة بطاقمها في الميناء؛ الرصيف ليس جاهزا الآن. عليك الرحيل فإن لم تفعل ستعرض الباخرة للهلاك وأنتَ ومن معك للمساءلة القانونية».

بعد هذه الرسالة تحركنا على الفور وها نحن كما أنتم ننتظر رغم عدم قبولنا هذا الاختلاف والتخبط في القرارات الإدارية والفنية من الشركة.

ـ ولكن ما ذنبنا لكي نتحمل أخطاء الإدارة؟

هذا ما قاله المهندس الثاني فأجاب الربان سريعاً:

ـ ذنبنا الوحيد أننا موظفون نعمل في باخرة حكومية.

ـ نحتاج إلى الوقود والمؤن.

قال رئيس المهندسين فتبعه الطباخ بصوته المجهور:

ـ والماء.

فأجاب رئيس الضباط:

ـ كل ما تقولونه صحيحاً وقد أعطينا الشركة إشارة في حاجتنا الماسة إلى المؤن وأحطناها علماً بكل ما طلبتموه، ولكن لم نتوصل إلّا بهذا الأمر، وعلينا تنفيذه.

Telegram: Somrlibrary

لم تنته الليلة على هذه المنازعات إلّا بوصول الضابط الثاني إلى صالة الاجتماع فسألته همساً:

ـ هل سيطول الأمر؟

كان واثقاً حين قال وعلى وجهه ابتسامته المعهودة:

ـ لا.

ثمّ بصوت أعلى قال وهو يحاول الجلوس:

ـ الحل عندي

اتسعتْ عيون الجميع!!!

فقال بصوت متزن وواضح:

ـ هم يعرفون كل معاناتنا ولا يستطيعون رد أمر سلطة الميناء المضيف. ينتظرون اختيار وكيل غير الذي تعرفونه؛ لأن الأول تم طرده... والآن صار لا وكيل يمثل الشركة في موانئ الإمارات وهذا يعني سيطول الأمر إلى حين إيجاد وكيل على مقاساتهم والحسم كما يعرف أغلبكم صعب جداً، ولكن إن أرسلنا طلباً نذكرهم بحاجياتنا إلى سِلك حديدي لحاملة البضائع الموجودة على ظهر الباخرة التي قطع سِلكها، سيكون البحث عن الوكيل أمرا لا مناص منه ومن ثَمَّ دخول الباخرة قريباً؛ لأن الحصول على هذا السلك قضية لا تحتمل التأخير.

أنهى الضابط الثاني كلامه بعد آخر رشفة من كوب الشاي الذي كان بيده وبعدها نظر إلى الربان كعادته واثقاً زاد:

ـ ما رأيك؟

توجه الربان برأسه إلى الضابط الثالث ولسان حالنا يقول: ليته يأمره بإرسال رسالة إلى الشركة يَذكر فيها كل ما تقدم به الباسم دوماً «صفاء».

جاء رد الشركة صباح اليوم الثاني يدعو ربان الباخرة إلى التريث

Telegram: Somrlibrary

ليوم أو يومين إلى حين وصول السِلك الحديدي فتدخل الباخرة إلى الرصيف. ليلاً وبعد العاشرة والنصف بقليل تحرك طاقم السطحة بنشاط معهود في تجهيز ما كلفهم به رقيب السطحة الذي يأتمر بأوامر رئيس الضباط بالتنسيق مع الربان. أول الخطوات هي نزع السلك التالف ورميه فوق أغطية الخزانات وتنظيف كل بكرات الحمالة بالزيت وطلائه بالشحم الذي يديم القطع متحركة ويطيل عمرها. نحن ـ طاقم الماكينة ـ كان لنا مخططنا الخاص. عملنا جاهدين على تهيئة كل خزان وضاغط وأنبوب ومحرك ومولد تماماً لتكون الباخرة جاهزة للعمل. انتهى كما طاقم السطحة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل طمعاً في استراحة يوم الجمعة التي مرَّ عليها أربعة أسابيع ولم نعرف طعم الراحة بعد.

صباح الجمعة سمعنا: «الإخوة أفراد الطاقم عند الساعة الحادية عشرة قبل منتصف النهار شدّوا كل متحرك.. فالريح ستكون قوية والموج عال جداً». صوت الضابط الثالث «ليث» من خلال مكبرات الصوت. يبدو أخذ المبادرة في التواصل ـ لماذا هو؟ ـ هناك أمر ما قد حدث؟ بالفعل بعد نصف ساعة عرفنا أن رباننا مصاب بوعكة صحية. زرناه لساعة أو أقل بقليل وأكد أن اليوم سيكون متعباً للجميع من البحر وثوراته. وهذا ليس بالأمر الصعب أمام قوله اللاحق. يبدو متأكداً مما يقول!

دخولنا سيكون اليوم أو غداً عصراً على أبعد تقدير!

مضت الجمعة وانتهى السبت وما زلنا في مكاننا نقف ننظر وننتظر الحل! التفكير الذكوري هيمن على أفراد الطاقم؛ إذ صار واضحاً من هواء البحر الذي يثير فحولة الرجال ويشد أعصابهم.. هبت على روحي رياح غريبة مما أرى وأسمع؛ فأغلب البحّارة يُهدد ويلعن ويسب ويشتم، وأبو النون يحمل وجهه بباطن يده اليمنى في وضع كئيب لا يحتمل: «تعبنا». قالها بمرارة عندما سألته عن حاله. «أحد نجاحات شركتنا هو بث الهمّ في

Telegram: Somrlibrary

صدور طواقمها البحرية». قلتُ وفي نفسي حسرة إلى الحال التي وصلنا إليها. قبل عامين وظفتْ شركتنا محاسباً قانونياً يتحكم في أرزاق العاملين على ظهر البحر بطريقة لم نعهدها، حيث صُرفتْ رواتبنا ناقصة بالنسبة لكل موظف حسب درجته الوظيفية ومدة خدمته، ولما تسأل عن الكيفية التي بسببها نقصت الرواتب يقولون هي خاضعة للأنظمة والقوانين الجاري بها إسوة بسلم رواتب الدولة. إلى الآن يتقاضى الموظفون في وزارات أخرى مثل النفط والكهرباء والصحة ضعف معاشاتنا. والحال في استياء يتزايد. سيخرج الجميع عن السيطرة...

خرجتُ أتأمل حلاً يخفف من كدر الطاقم. سمعتُ صوت بكاء أحدهم يأتي من الغرفة التي مررتُ قربها؟ عرفتُ هي غرفة علاء. طرقتُ الباب مرة. مرتين فتح الباب فرأيته غارقاً في البكاء. حاولتُ التخفيف من حزنه وهمه، فسألته عن سبب بكائه؟ لكنه عاد إلى البكاء واشتدَّ نحيبه وشهق ثم رفع رأسه وقال: «أيام سجن التسعينات». تركتهُ بعد عدة محاولات لتهدئته وتوجهت إلى غرفة رئيس الضباط، لا يوجد في رأسي حل يذكر! كلام طويل دار معه عن حالة علاء، برقتْ في بالي فكرة وافق عليها فوراً. عدتُ مسرعاً إلى رقيب السطحة عرضتُ عليه الفكرة؟ وافق عليها، توجهنا إلى الطباخ وطلبنا منه صنع كعكة محلاة بالكريمة ووضعها على الطاولة الكبيرة في صالة الطعام ومعها عصير فواكه. سألنا الطباخ عن سبب الطلب؟ قُلنا: «الليلة عيد ميلاد رئيس الضباط». في وقت قصير تواجد أفراد الطاقم حول الطاولة التي تتوسطها الكعكة والعصائر وفي وجوههم المكدرة بعض تساؤلات؟ هكذا شعرتُ.. فقلتُ بصوت واضح أتصنع الضحك:

ـ إن رئيس الضباط خجولاً من يوم عيد ميلاده، وقد تعود في مثل هكذا مناسبة الاحتفال وسط أهله، ولأننا الآن أخوته يجب علينا القيام بالواجب.

Telegram: Somrlibrary

هتفَ أغلبهم:

- نعم، نعم..

تبين من بحثي بين الحاضرين أن أبا النون كان غائباً! ذهبتُ إلى مكان تواجده المعتاد فوجدته يلبس ثوباً أبيضَ، وقد شدَّ خصره بقطعة قماش حمراء يرقص على إيقاعات مذياعه. سحبتهُ من كتفه مازحاً معه، عدتُ به راكضاً إلى مكان تجمُعنا. ولحظة وصولنا بدأ الطباخ بالتصفيق وتوالتْ من بعده أصوات الغناء. كرر البحّارة غناءه حتى وصل مراد الذي ما أن عرف سبب الحفل الحقيقي حتى شاركنا بصوته العذب وتصفيقه القوي.

حضر الربان فوقف الجميع احتراماً له وبعدها جلسوا حين جلس وبدأت الحفلة أولاً خجول وشيئاً فشيئاً تناسى الجميع همومهم ورقصوا مع رقصات أبي النون وهم يرددون غناء مراد ويصفقون، كانت ملامح وجوههم ضاحكة بقوة. «شربنا العصير وأكلنا الكعكة». قالها رئيس الضباط واقفاً وأشارَ بيده إلى الجميع، ثمَّ شكرهم فرداً فرداً، وحين وصل إلى الربان قدمه للحديث فتكلم الربان عن الأخلاق والصبر وزاد بالثناء على الطاقم وشكر الجميع بعدها قال بصوت حاد: «غداً سأطالبهم بالدخول إلى الميناء أو الاقتراب إلى منطقة التغطية الهاتفية، ولن أتردد من تنفيذ أحد هذين الطلبين أبداً». صفق الجميع لجرأة الربان وانتهتْ الليلة كما كان مخططا لها على خير.

كنت آخر من خرج من الصالة. فكرتُ في التجول على سطح الباخرة، ولكني عدتُ إلى غرفتي أردد مع نفسي: «ماذا لو حدث عكس ما قاله الربان؟» في منتصف الليل رأيتُ زوايا مظلمة! حطتْ على رأسي أفكار وحشية! وأخرى أليفة! شعور يتوهج في داخلي لممارسة الجنس - مع مَن؟ - أنثى قمحية عالقة في البال لا ترحل من ذاكرتي. تلك الليلة لن أهرب منها، ولكني أعرف عقلي سيشب فيه شجار مشاكساته. نصفي الاخر

سيرفض رغباتي وربّما سأخرج خاسرا؟ كالعادة فوق فراشي سيطول الليل، لن أنام. تلك الليلة كانت أصعب من الجري فوق منحدر صعوداً قلتُ: «لن أستسلم.. سأكون أنا». كانت صرخة من الداخل مدوية. جاء الوقت لتظهر الحقيقة. بعصبية من أصابعي وحركة منحنية غير متزنة. كنتُ أكتب تكملة قصة الرجل الخارق الذي فقد رجولته فجأة بدأتُ من حيث انتهيت لحظة رده المرتبك على زوجته: «لا أدري. قالها وقد أخفى وجهه بين يديه باكياً. إذا كنت مختلفاً عن الناس ستبقى أنت نفسك ومهما تغيرت المفاهيم من حولك ستبقى شغوفاً في تفكيرك تجاه ما ترى، أليس الأفضل لنا أن نرى بستاناً مملوء بالثمار من أن نرى الطرق المزدحمة بالناس؟ لنرى كيف يحلق الطائر!. كيف يمرّ من أما النهر الرقراق البط وهو يلعب تحت المطر وفي جناحيه قطرات ماء تختفي بسرعة. كانت زوجته تذكره بجمال الموجودات من حوله؛ تخفف من حزنه، ولكن الزوج مازال يحاول إعلان موافقته على أمر طال رفضه؟ هو يفكر في زيارة الطبيب. قال وقد بح صوته:

ـ سنقصد الطب هذه المرة..

ـ متى؟!!

ـ غداً. أول الفجر..

مضى شهران على زياراته المتكررة للأطباء والمشعوذين ولم يجد نتيجة ملموسة تكنس عنه الهمَّ والكدر. أصابه اليأس وتكور تحت قناعة أن لا بد من الانفصال.

كتبتُ عن محاولات الزوجة التمسك به ودفعه إلى تغيير رأيه...

تعرضتْ الزوجة للسبِ والشتم وأحيانا إلى الضرب بسبب نوباته التي عبرتْ حدود التوتر العصبي. صارتْ حياتها شبه مستحيلة. وذات ليلة سمعتْ حركة غريبة في الصالة. تحسستْ مكان زوجها؟ كان الفراش باردا! قفزتْ من نومها وتوجهتْ مسرعة غير خائفة وقفتْ والذهول

Telegram: Somrlibrary

سلبَ قواها وهي لا تصدق ما تراه! كيف له أن يفكر في الانتحار! كتبتُ بطريقة مسرعة..!.

لا أعرف بدأت الحروف تتشابك مع بعضها. «اهدأ» قلت في نفسي. «تحرر» همستُ لقلمي وعدتُ إلى الورقة وبعد أخذ النفس الطويل كتبتُ: «اتصلت الزوجة بشقيقها وبقيتْ محافظة على تهدئته وحال ما وصلت المساعدة الطبية نُقل الزوج إلى المشفى وهو في حالة إغماء...

في الصباح زاره دكتور قسم الأعصاب وتحدثَ معه بطريقة رائعة حتى خيل للزوجة التي كانت تسترق السمع أن زوجها عاد إلى طبيعته الأولى، وهو أمامه يبدو أفضل وأهدأ مما كان، ولكن لحظة ما انتبه الدكتور لوجودها! طلب منها الخروج وبدأ يمسك بخيوط مشكلة الزوج من أسئلته البعيدة جداً عن حالته؟».

كتبتُ من الأسئلة:

- ما اللون الذي تحب؟ وما الطعام الذي لا ترغب في رؤيته؟
- هل تحب أن يكون عندك الأولاد أم البنات؟
- من كان أقرب صديق إليك في الجيش.

أسئلة كثيرة.. كثيرة جداً كان الزوج يرد عليها براحة مطلقة، ولكن كنتُ أريد القول إن دكتور الجملة العصبية هذا لا يعالج المجانين كما نتصور، بل يعالج مرضى العصر الحديث. لقد عرف علة الزوج بعد سؤالين وإليك ما كتبتُ: حطّ الدكتور يده على ذراع الزوج وسأله وعلى وجهه بشاشة صداقة:

- هل تحب زوجتك؟

أجاب الزوج:

- جداً.
- كم مَرَّ على زواجك؟

Telegram: Somrlibrary

ـ أكثر من خمسة أشهر.

ـ ما بكَ؟

ـ لا أدري. فقط لا أعرف كيف أكون معها أنا...

ـ عن ماذا تتكلم؟

ـ ممارسة الجنس مثل أي ذكر!

ضحك الدكتور وقال:

ـ وأنا لا أشك بذكورتيك، ثمَّ أضاف:

ـ أين كنت قبل يوم من زواجك؟

ـ في السوق مع أختي.

ـ ماذا فعلت؟

ـ اشتريت لها ولزوجتي ثوباً وعطرا

ـ اللون نفسه والعطر نفسه اشتريته لهما؟!

ـ نعم. نعم. فأختي أغلى ما عندي وهي بمقام أمي..

ضحكَ الدكتور ضحكة أزعجت الزوج فصاح به:

ـ تضحك مني؟

ـ لا.. ولكني أضحك من مشكلتك البسيطة.

ـ كيف؟!! وقد عجز الأطباء عن علاجي.

ـ أنت ترى وتشمُّ في زوجتك أختك.

ـ ماذا؟!!!

ـ اسمعني..

ـ نعم

ـ عليك أولاً أن تستعيد الثوب الذي أهديته إلى أختك والعطر.

ـ لماذا؟!!

ـ انتظر حتى أُكمل

ـ نعم..

Telegram: Somrlibrary

ـ تأخذ الثوب والعطر من أختك. وتأخذ الثوب والعطر من زوجتك. تحرق الثوبين معاً وتتخلص من العطرين وتذهب إلى السوق تشتري لزوجتك عطراً جديدا وثوباً جديداً على أن يكون مغايرا للأول تماماً وتنسى الشراء لأختك. وإن أحببت أعط أختك بعض المال وهي التي تشتري لنفسها ما ترغب فيه، وسترى كيف تعود لزوجتك ذكراً أقوى من الحصان وأرشق من الديك....

ـ وهل هذا علاجي.

ـ هيء.. هيء. هيء. نعم.. أفعل ما آمركَ به وسترى.

Telegram: Somrlibrary

3

«أي سجن يُحطم جدار نفسه؟». الإصرار المرافق لعدم الاعتراف. الفشل ديدنه. ع»مر قضاه يمكن له أن يكون فيه القادم أفضل؟». نأمل ذلك. أتراني قد أرهقني النعاس؟ «ولكني رأيت الحياة أجمل في وهج المتأني». مندهشاً؟ لا. فقط حريصاً على عدم إظهار جنوني. أحب التواجد وحيداً لا أكثر. ربّما ابتسم في وجهي أو بادلني الابتسامة. وبينما ـ أنا ونصفي الآخر ـ نستمتع بالنظر إلينا في وجه المرآة. قسراً صار عليّ الانتظار، أطفأتُ النور وسحبتُ جسدي خطوة بعد أخرى إلى الفراش. أخذتُ وأنا أدندن أبعد ملابسي. فجأة شعرت بوجود حركة غريبة من حولي! قلت: «أينك؟». رميتُ رأسي بين يديّ. سمعتُ: «لستَ مجنوناً». «أرى ذلك». قلتُ وقد حررتُ رأسي من يديّ. «اهدأ» قلتُ وقد تلحفتُ بالغطاء حتى رأسي وكتمتُ صهيل جسدي. فوق الفراش حاولتُ النوم. سمعتُ: «أنتَ غاضب». تجاهلتُ جميع الأصوات اللاحقة ورفعتُ لحافي ـ لماذا؟ ـ نظرت من حولي؟ لا شيء غير أنا والأشياء نفسها. غطيت وجهي. وأغمضتُ عيني وبدأت أرى طفولتي. لمستُ شعري في ابتسامة رسمتها الأيام لي يوماً، أفكر في مساعدة «أناي» على اتخاذ قرار المهنة. ركضنا في الشارع الدائري. كنتُ عاشقاً حبه للجري وتقليد صوت صهيل الخيول. أقف منتصباً مثل وقفته ويديّ حول صدري. أسرح شعري الطويل مثل شعره. قبّلتُ رأسه. وأعطيته هديته ـ طائرة ورقية ـ كنتُ أعرف حبه للرسم. يتفهم الموسيقى. مازال مصدر سعادته الجلوس في غرفته العلوية وحيداً يفعل

Telegram: Somrlibrary

ما يريد. كنتُ أفهمه. كان مترع الأفكار يبتعد عن نار الثرثار ولا يحب الاختلاط مع الكاذب. كنت أعرف قد ضيعته ولا يمكن إرجاعه. «صرتَ حزيناً؟». اضطررتُ للنهوض. فعلاً لم يتركني؟ لعله خيال مفرط الانفعال؟ ليتني أعرف هل مازال غاضباً مني؟ دفعني الألم المستقر أسفل ظهري إلى تجرع رشفات من شرابي الأحمر وعلى نحو متكرر. رغم ذهاب أحزاني القريبة والبعيدة ومجيئها، ظل كأسه يساقي قلبي.. قلبي المملوء أشجاناً وطيورَ الليل أراها مشرقة. رغم عتمة الغرفة لم أشعر بالسعادة. غيري له في الهوى معنى. يستسيغ كل ما يدب في الأحلام ويسعى. يطبع على جبين الأفق أجمل ابتسامة، وأنا ليس في وسعي الابتسامة. المصير البائس المضطرب كتبَ لذة الرجوع فوق شحوب الليل، كنت أرتقي الألم. على البحر جبيني الشاحب الأسمر نقش صورة أبي. أشعر في عيني حرقة ويداي آلمتاني. لم أعد أتحمل كما كنتُ في الماضي البعيد. كنت حتى الصباح أكتب ولا أتعب. لم أحظ من وجودي بغير معنى الوجود نفسه، سورة الوجدان أنهت من حياتي نشوة الحب والفرار كما السكون وحدة. والبكاء في السؤال: «أنت لا تدري كيف تخفف العذاب؟». لعنة. زرتُ حماقات ضعفي؟ نعم، وفساد أنانيتي في غروري؟ ربّما لا؟ وسبب ذلك كله الاهتمام بالشك والسؤال الذي يتفرد به كل بحّار مسّهُ الفراق حتى الألم. كنتُ أجمع الحبّ في صوت الغناء الذي أسمع. دون جدوى أبحث عن تلك الفسيلة التي كانت في انتظاري. دون جدوى بأي ذريعة كانت الساعات تمر فوق أجزائي قاسية، وحدها الأيام تشدو بالغناء. مكهرب الشعور. كنت أدنو من حديقة. أحرث الأرض وأزرع البذور وأسقي. كنتُ أرجو من روحي تلك المشاعر. ها أنا أنتظر ولكن إلى متى؟ وسأبقى. لا أريد ذاك الحزن في ذاك البكاء. وحيداً مثل الفجر أرحل وأعود وحيدا. حظي النكد صار يبكيني. صرتُ أبكي في حياء. أسمع صوتي ولا أسمع الرثاء، لا سواد ولا حتى علامات الحداد!. رغم عصف الريح المدجج بالمخاطر في البِحار.

Telegram: Somrlibrary

كنت وحدي فوق أشلائي أبحث عني. نصفي الآخر راضياً؟ يسمعني أحلى الكلام عن تلك الجميلة؟ هو من أطلق عليها: «سمراء» من أرض فرنسية، فوقها السماء مرتجفة والأهواء واسعة والأفياء على الأعشاب تميل يلاعبها النسيم، ضاحكة والأقواس مفتوحة أمام حاجتي التي نسيتها....

كتبتُ: عند منحدرات الفرات وانعطافات دجلة ترى قصوراً كانت من قبل يسكنها الملوك واليوم أصبحت خاوية لا تزهر من حولها الحياة إلاّ النباتات الوحشية على الجدران الإسمنتية، لم يتحدث عن تاريخها أحد، نُسيت كنسيان قاطنيها. الملك والأمراء والبلاط والحاشية والقائد والوزير والمتصرف والعسس والرعية والأميرات والخدم. لا نستطيع أن نقول للأقدار كفى؛ قانون الحياة خط دستوره: «لن تنعموا بالسلام السعيد الوديع أبداً. إلاّ إذا أبعدتم همومكم عن مغريات الشهوة والخيانة والكبر والغدر». كيف؟ وأنا وهي وما بيننا اشتياق أزلي. الأثير محال. النسيان يأخذني بقوة الرغبة إلى جو يمنحني الرضا وكأن جميع الإناث هنا. هي وهذه الخطوط التي تركَتْ أثارها على جسدي مثل معالم الحضارات وكل هذه الكتيبات. هي ما يقال وما لا يقال والشفة الحمراء في الصورة التي أمامي. وما يمازحني من وراء الخيال عشر لمسات اشتهاء وتسع أماني. هي والسفر وأيام الربيع والدفء في الشتاء وعبير العطر والأساطير واللقاء والوداع في كل اللغات هي بداية الحكاية والأشياء المتمايلة الواضحة في ممارسة الحب من وراء ستارة النهار. هي وأنا نمشي في الشوارع والشعور اللافت يدفعنا للالتصاق ببعض. عزل التفكير لحظة صمت. أنا لا أشعر أنني أنا. وهذا الأمر يبدو مختلفاً عن مشاعر باقي أفراد الطاقم الحالمين بمختلف الرغبات لحظة وصولهم إلى الميناء. منهم من يفكر في الاتصال للاطمئنان على زوجته، ومنهم من يريد شراء الثياب لأطفاله. وهناك من يريد فقط السير على الأرض أو يسافر طلباً للعلاج، ومن لا يستطيع تحديد رغباته يبقى صامتاً.

Telegram: Somrlibrary

وحين أقرأ بدقة شديدة ملامح بعض المتحفظين عن البوح برغباتهم. يعجبني جداً إشاحة وجوههم عني مع ابتسامة خفيفة ما أن تظهر حتى تختفي ليكون المشهد واضحاً أنهم من الصنوف التي لا تريد الكلام عن الرغبة الجنسية.

أشكال الحزن المرسومة على الوجوه تقلقني. رغم هذا عندما أنهي حديثي معهم أترك شعوراً ماطراً في جو قليل الريح يرش الندى على سخونة تواجدهم. هناك مَمرٌ في عقلي يحدثني أن مصادفة سعيدة ستقابل هذا القلق. لقد بدأ البحّارة التواصل معي ليلاً في أحاديثهم الخاصة مطولاً. وعرفتُ أن حياة بعضهم العاطفية تأخذ وضعاً موازياً لشكل البحر في مدّه وجزره، وأحياناً يترك أثراً رائعاً في بعض امتداداته الطويلة فوق زرقته الواسعة عند ملامسة حُمرة الأفق. يسعدني تخيل هذه المشاهد التي ترتسم فوق الخط الأبيض الذي تتركه الدفة خلف الباخرة أغلب رغبات طاقم الباخرة. عرفتها أو أتخيل أني أعرفها ولكن ما رغباتي؟ لم يسألني أحد. والأغرب كنت لا أسألهم إلا تشفيراً أو همزاً.. فيأتي الجواب: «تحمل». والذي أشعر أنه قادم من القلب وأعمق. الإنسان يتحمل ويتحمل والزفرات الساخنة التي يطلقها على ما يكتمه من التحمل، وأنا من هذا النوع. وحدي أكلم نفسي خاليا تماماً من الرفقة. من خلال فتحة بين ستائر الغرفة ألمح الأفق الغائم جزئياً يتحرك. كم أحب توحد الغيوم وتشتتها عن بعض، في الوقت نفسه كنت أتخيلني في لوحات حبّ عالمية، ربّما شاهدتها يوماً. ولأن الحديث عن الحبّ سيأتي لا أستطيع قول اسمها فقط هي التي كانت تأخذ أشكال الغمام الماطر مرات، والأبيض المار سريعاً تحت زرقة السماء، كانت تبتسم لي في مشاهد عدة. مشهد أول: في المقهى كانت سمرائي تقول: «أتمنى

العيش فوق الأرض أكثر من البحر». وهذه أفضل إشارة لمن يعملون فوق البحر، وبإحساس يملأ قلبي بشعور النصر وضعتها بمستوى العينين ونظرتُ إليها وكأني شخصٌ آخر يلفه الشعور بالمتعة: «مازلتِ في عمر تقليد المراهقة»؛ قلتُ بلهجة لا تحمل أكثر من الممازحة، وبدأتُ أبدد شعور الممل الذي يساورها منذ أيام من خلال تحريك يدي أمام وجهها وفي الأخرى مفتاح الشقة. مشهد ثاني:.. حتى طلوع الشمس. مشهد ثالث: كانت تحضر الإفطار. مشهد رابع:.. حتى الظهيرة. مشهد خامس: خرجنا وعبير رائحتها دليل خطواتي، قبالة البحر جلسنا. مشهد سادس: «البحر جميل» قالتْ وهي تبتسم. «البحر لا يخلو من الخطر» قلتُ مؤكداً على إثارة مخاوفها». مشهد سابع: ذات مساء أحمر رأيتها فيه ضاحكة تحمل منديلاً أبيض وتغني بطريقة مطربة عربية شهيرة. كانت تغني بلغتها الفرنسية تحاول أن تخرج الحروف بلغتي، بطريقة منكسرة بدأت تنتقل من مقطع إلى آخر دون لحن ولا إيقاع، تريدني أن أفهم أنها تقلد من كنت أعشق سماعها. شيء ما كان يدفعني إليها أكثر؟ ربّما أفكر البقاء للنهاية؟ ربّما يد الأقدار هي التي كانت تعمل من أجلي.. توقفت عن الحركة؟ تلك اللحظة شعرتُ بوحدتي قدري، والقرار ليس بيدي ولا أعرف سبب شعوري بالشك في طاعتها مستقبلاً؟ ومما زاد القلب احتراقاً إحساسي بانخفاض مستوى الحبّ عندها مما تسبب في مشاعر تصدعت ولا يمكن لها أن تُصلح. بعد فوات الأوان عرفت فيها وفاءً أربك حسابات قلبي. لا أومن بأخلاقيات الغرب كما لا أرى صلاحاً في تربية الأطفال عندهم، الذنب ليس ذنبي هو ذنب من تربيت معهم جَذّروا في مفهومياتي إنما الأمم الأخلاق ما بقيت.... والأخلاق يقصدون بها أخلاق الشرق.. حكمهم المعادي هذا كان نتيجة لما تسرب إلى مشاهداتهم من

Telegram: Somrlibrary

سينما الغرب وقراءة بعض المجلات وأحاديث تشبه الخرافات عن الآخر.. وإن صدقت بعض أقاويلهم، فأغلبهم عادلَ بين تخلفنا وانحلال نساء الغرب. وتلك مقارنات سطحية بسيطة لا تصمد أمام العقل الذي حقق المعجزات في غرب مؤسس على كثير من الأخلاق والقيم الإنسانية...

أنا نفسي عندما كنت لا أملك القرار كنت غارقاً في مشاكل قبول الأوامر والطاعة من دون نقاش أو حتى إبداء رأي، وإذا بدا ذلك سهلاً أو صعباً فإن شقيقي الأكبر بعد وفاة أبي كان قد تعب من ترويضي وما استراح من متاعبي حتى بدأت أفهم أنه لا يقصد الإهانة بل ممارسة السلطة التي اكتسبها عن رب الأسرة.. كان يريدني تجاوز العناد بدون مناقشة لا أكثر. أن ينعم الشقيق الثاني بنسيم الحرية في أن يلبس ما يرغب فيه مثلاً، هو سلوك يثير غيرة الآخرين... كنتُ الوحيد الذي يعود متى شاء ويلبس من الثياب الملونة ما يشاء. أملك مصروفي اليومي من عملي، وأكبر أمنياتي كانت التحرر من السكن الجماعي.

بنيتُ في أروقة عقلي بيتاً ظل عالقاً في ذهني حتى كبرتُ فوضعتُ حجره الأساس وبطريقتي الخاصة صار مميزا بين بيوت المنطقة. هناك عند مدينة المنعزلين أطلقت أول صرخة لي في وجه الدنيا. أخذت فيها بعض نساء المنطقة المأخوذة بلون طلاء جدرانه الخارجية الزرقاء وسقفه الأحمر على شكل مثلث تحاول الدخول والنظر إلى بيتي عن قرب بأي ثمن وبأية طريقة. عائلتي ترفض التحرر، لكن كان لابد من احترام خط رسمته لنفسي أسير عليه بخطى واثقة ثابتة، ولما كبرتُ كانت أمي تعاكسني في كل قول لصالح شقيقي الأكبر حتى تعبتْ مني ومن عنادي وصارتْ لا تجادلني. فقط تردد: «تشبههم». وتقصد في هذه الكلمة أشقاءها الثلاثة. جُلّ أمنياتي إرضاء سمرائي.. أمسكتُ بيدها. في أرض وجدت فيها رائحة الأشجار نعيماً أمسكتُ يدها. أريدني أنا الذي ينعم بالنسيان، لأني ظلمتها

Telegram: Somrlibrary

حين كذّبتُ صدق رغباتها في تواجدي معها. كانت المطيعة اللينة الناعمة المحبة وكنت أتخيل ذلك أراها بحماقتي متصنعة. هي ضاحكة صادقة في تقديم نفسها جميلة حذقة كانت الأنثى العاشقة أكثر من رائعة في تعاملها معي لحظة نوباتي الشرقية. أشعر وكأن الشقوق تحملني إليها كما تحمل الريح العطر. قد أخترق الخيال العقل من غير عناء أكرر: «أنا أحب النساء. فقط إذا عبرتُ المستحيل. ولا يمكن أن أكتب عن غيرهن». يُذكر صرتُ عاشقاً طائعاً كفاية كي يدار القلب معها كيفما تدار الباخرة. أريد الاتصال بها وسماع صوتها. أشعر أن رسالة الموبايل التي وصلتني لم تكن الأولى وأعتقد إن عادتْ التغطية للشبكة ستصلني منها رسائل أخرى. ستهزني كلماتها من الداخل وستعصف بقلبي المتيم بها عصف الريح بالشجر. أشعر أنني الآن لست أنا. في خيالي مع من في نفسي التي كانت ومازالت حبيبتي والتي لن أتصور وأنا بهذا العمر سأرغب بسواها، ولكن يد الأقدار أو شرقيتي التي أحب تقاليدها وعاداتها أبعدتني رغماً عني عن طموحها الغربي. عما قريب يعود إليَّ سنا حلم البارحة، كانت الشمس المارة من خلال فتحة الستارة إلى الغرفة رائعة. لقد تركتُ سريري مهيض الجناح على عجل مصدقاً رؤياي إلى الخارج. وقفتُ على عتبة الباب أنتظر حبي المتاح بصبر عتيد. «اليوم ستتحقق الرؤيا». نعم هذا ما قالته لي الأحلام وزادتْ: «قف على عتبة الباب العتيق وستنال مرادك». ما جف فمي من الرجاء حتى ظهرتْ من ذاك المنعطف ريح هبت فأسفرت عن هيئة عود من الريحان وأجمل كانت تتمايل يلفح وجهها الأسمر اللماع ضياء، تلاعب العصافير أناملها ترافقها الظلال وتبتسم لها الأزهار، تنحني لجلالتها الأغصان. وقفتْ أمامي! حاولتُ إمساكها، لكنها تجاوزتني وكأني لم أكن!..... أفقتُ على صياح يضج في ممرات الباخرة يرافقه المزاح المباح......

4

الصباح الجميل كان بارداً. أزعم أنني الوحيد الذي يرى من الأماكن البعيدة الضباب. مثل بخار فوق مرآة ومد أزرق يحظى بالصفاء في الأماكن القريبة كنت ألمح البحر يأخذ اللون الرمادي تحت ظلال الموج كانت الأسماك الطائرة تقوم بجولاتها الصباحية. عينان لا ترمشان. تعكس الحياة الجامدة فيها استحالة التحرك إلى الميناء أو التقرب إليه أكثر. أعرف الاندماج مع الطبيعة نعمة. مرَّ بقربي طائر النورس تبعه سرب من الذكريات لا تطاق. على شجن التشظّي نلمس الأرض ولا نلمسها. كنتُ أجيد الهروب من الضياء إلى الظلمة. أنهيتُ وجبة الإفطار وألوان من الصمت تقودني. ذلك الصباح ألق الضحكات تبرأ مني؛ القلق حطَّ في ذهني وأغلب أفراد الطاقم توجهَ إلى عمله منشرح الصدر يعلوه الأمل. أما أنا بقيتُ أتحين الفرصة. انتظر لقاء صفاء وقد حدث عند العاشرة مع موعد شرب الشاي فسألته:

ـ ما أخبار حركة الباخرة؟

ـ ننتظر.

ـ إلى متى؟

ابتسم وهو يلوح بيده مودعاً قال:

ـ قريباً.

ـ لماذا في رأيك يحدث هذا التأخير؟

ـ ....

Telegram: Somrlibrary

لم أكن ملحاحاً فقط تركته يبتعد لقناعتي بمزاجه الذي صار حاداً. «تعال وأشرب القهوة». فهمتُ مما قاله أبو النون. في شيء من السرية يريدني لأجل ذلك في عزلة، أخذ بيدي إلى غرفته. فكرتُ ورائحة القهوة تلامس أنفي: «لعل أول رشفة منها ستجلب الراحة لي؟». «أنا أحترمك جداً». قال بصوت خفيض وجلس قبالتي وهو يضع أمامي كأس ماء. في وضوح تام عرفتُ أن مشكلته شخصية ـ شخصية جداً ـ إذ بدأت ملامحه تأخذ طابع الجد حين قال: «أشعر بالقلق من نفور زوجتي». وزاد: إنها تلح عليه بالسفر دوماً. «لماذا؟». «تتحجج بحاجتها للمال أكثر من حاجتها لوجودي معها. داخل البيت لا تريدني حاضراً كما أريد أكون معها». مازال يروي بطريقة الاشتياق والقهر. قلت في نفسي: أمر طبيعي أن يشتاق الرجل إلى زوجته وأولاده الثلاثة ـ ولدان وبنت ـ وقهراً يشكو من عدم قبولها استغلال فرصة خلو البيت من الأولاد كي يمارس حياته الجنسية. «كانت نورية طوع أمري تستسلم بلا أي ممانعة. كانت لينة أنثى متجددة. تعرف بطريقة عجيبة هياجي الهمجي ورغباتي التي لا تقف عند حد أو خط. كانت تستمتع بنهم لا يشبع لجسدها الممتلئ. تصنع لي جواً مثيرا قبل وبعد كل ممارسة. كانت تتزين في الليلة الواحدة ثلاثة مرات ولا نهدأ من المشي في دروب المتعة أبداً.. ضِحك نروّح فيه عن أنفسنا. واصطدام تعرق جسدينا فرجةٌ لنا». ويزيد أبو النون في مشكلته التي حضرته فجأة أنه الآن يرغب فيها أكثر من السابق ويفكر أيضا في العودة إليها عند أول ميناء يصل إليه. وهنا طلب رأيي؟ كنت طوال الوقت أفكر في «سالو» ولا أدري هل شعر أبو النون بشرود ذهني أم لا؟ مازلت معه، وبعد ثوان طلبتُ منه السماح لي في الانصراف إلى العمل على أن نعود لنقاشاتنا ليلاً، فقال مصفقاً وبدا سعيداً: «سيكون الليل بارداً ضبابياً والأجواء تختلف فيها درجات الحرارة؟». «وقفنا بين منطقتين مختلفتي الموقع والمناخ محركاً للمتغيرات». «نعم، إيران من جهة والإمارات من جهة أخرى». تركتُ أبا النون يجمع بقايا الأشياء في غرفته وانشغلت بالعمل، لكن

Telegram: Somrlibrary

لم ترحل عني صورة ورائحة الأجساد المتعرقة. عوّضتُ رغبة الجنس بالجهد الذي بذلته اثناء العمل. أخذتُ أدعي التجاهل وأميل إلى فكرة النسيان، كأني لم أكن أنا الذي أخذتْ منه مباهج التخيل وروعة التذكر ولذة التصوّر مأخذ المنقاد. سرت وكأني الأعمى إلى حيث كانت رغبتي، وفي دقائق رجعتُ أكثر برأسي إلى حياة لذيذة. حياة إلى الآن مازال رنين نعيمها عالقا في ذهني. فمهتُ جيداً ما قاله أبو النون. وما صمتي معه إلاّ حيرة في نفسي التي كانت ترغب في ما كان يرغب. أحياناً الصمت أرحم من القول على أقل تقدير إذا كان القول سيفتح الأبواب على مصراعيها للكثير من أفراد الطاقم إلى تذكر أيام الفاتنات في حياتهم لتبدأ مرحلة التنهد والحسرات وهذا ما لا أريده الآن. التفكير في جمال سمرائي الفرنسية مازال يحركني من الداخل إلى عكس ما أرغب. «سالو» أبنة «قوتشو» التركي كانت عاشقة تحبني كإنسان وقيمة في مكان وجودي لا أكثر. ويخيل إلي مارست ما يمليه علي الحرمان من رغبات. سمرائي هي الوحيدة الباقية في الذهن عالقة إلى الآن أستبق الذاكرة لتصور لي كيف كانت ستعزف بلمسها شعري، وكيف تقول القصائد حين تكلمني بلغتها الفرنسية. لحن لذيذ في صوتها. حبها فطري. رائحتها تمنح من البحر والنظر لوجه السماء. ملامح وجهها بهجتي. وجودها معي سعادة، وحين نمر في شوارع الخيال كيف كانت ترغب في لمسي. لا أعرف كيف أمارس التنطط مثل الصبيان أمام سمارها! براقة لماعة لماحة أنثى أبعد من الخيال وأقرب من الحقيقة. كل ثوب تلبسه يزيدها بريقا. شعرها الأسود الناعم المنسرح يفوح منه عطر البساتين. عيونها الصفراء تضفي على قوامها الرشيق غرابة عجيبة. لا تحب العطور ولا القُبلات. ربّما لو طلبتُ منها يوما لمس طراوة شفتيها هل تستجيب؟ أتمنى لو اطبقتْ على شفتي وضغطتْ بباطن يدها على ظهري وضمتني إلى صدرها بقوة لحظة يشح فيها الهواء.. من غير شعور تنشقت في الأمنية رائحتها..

مضى النهار كغيره والليل قد حل وأنا كالعادة خرجتُ من قسم الماكينات مجهداً أشعر بالوهن. يبدو أخذ التفكير مني مأخذا، خرجتُ من قفص الباخرة إلى السطح مثل طائر حر كنت أبحث عن غيمة أتفحصها. عن نسمة أنشقها. سرتُ وقتاً سير رجل عبر الأربعين ساخطا على شيء اسمه الانتظار. وقفتُ أمام البحر خالجني شعور مبهم. رأيت جيوشاً من المزاجيات المتقلبة بعضها متقدم وأغلبها متأخر يحاول التمدد في الصورة التي أمامي. فجأة ألغيت اللحاق بذاكرتي وعدتُ إلى غرفتي. بدأت أخلق البهجة رغماً عن العتمة، قرأتُ قليلاً وكتبتُ أقل وباعتدال تام نهضتُ والسعادة أتصورها معي. اغتسلت والغناء نصيبي. شيء مبهج أن تتنعم تحت مرش الماء الدافئ ورائحة الصابون الفاخر والمناشف الناعمة لتأتي لذة التمدد على الفراش اللين وحيداً وفيك قناعة نوم تبعد به القلق. كل ما أحتاجه الآن هو الهدوء. أغمضت عينيَّ فجاءت القوة التي لا تنتهي. جرتني جراً إلى الذكريات التي لا ترحل عن البال قط. فوق فراشي كان جسدي الممدود مفتوناً بخيالي. لم أكن بحاجة لجواب على السؤال: ما الغاية من وقوفنا في منطقة غير آمنة والباخرة جاهزة للإبحار والتحميل والتفريغ؟ تفكيري يدور في فضاء زوايا رأسي المضيئة. رمشتْ عيني في مصباح «النيون» الأبيض. أطفأته، فساد الظلام، حينها هربتُ من الأرق تحت لحافي.. حاولت النوم. «غرباء يحومون حول الباخرة في زوارق سريعة!». سمعتُ صوتاً مختلفاً عن كل أصوات الطاقم يضج في الممرات يدعو إلى الخروج من الغرف والتوجه إلى سطح الباخرة. عرفتُ أن مصدر الصوت رعد!! خرجتُ مسرعاً أتبعه في خطواته السريعة حتى وصلت إلى مكان تجمع فيه البحّارة. رأيت بعضهم عند مقدمة تراتشي يقفون بقلق واضح يبدو عليهم الارتباك.. وبعضهم في مؤخرة الباخرة وآخرين كانوا يمدون النظر نحو ظلام الأفق الضبابي يشيرون بسباباتهم إلى البحر يرددون: «هنا.. هناك». كانوا يتبعون الأضواء الخافتة المنبعثة من الزوارق الثلاثة

التي تحوم حولنا!! «من هؤلاء؟». سألتُ. فأجاب أحدهم دون النظر إلى وجهي: «نعتقد سراق أو قتلة». مازالت قناعتي غير مؤكدة. أشعر بالنعاس. «إن الذي يجري عمل يراد منه المزاح لا أكثر» هكذا فكرت وما يؤكد تفكيري الساذج أن الربان لم يحضر إلى الموقع بعد. تجمعوا حول رئيس الضباط المسؤول الأول عن السلامة؟ لهذا السبب كنت في شك حقيقي والذي يجري مجرد مزحة يراد منها تغيير أجواء الهم التي سادتْ مؤخراً غرف الباخرة وممراتها وأماكن العمل على السطح وقسم الماكينة. تصرفتُ على مهل كي لا أضع نفسي موضع السخرية وتحركتُ كما يتحركون، ولكن تكتمتُ ولم أتساءل أكثر...

كنتُ أحمل في يدي ـ كما يحملون ـ مصباحاً يدوياً أبحث معهم في دوران لم ينته عن مكان اختفاء زوارق القتلة أو السراق؟؟ كنتُ أدور غير مكترثٍ حول الباخرة. تحفظي من مزحة كبيرة قادمة صار واضحاً. كنتُ أبتسمُ في سري ولا أدري كانت ملامحي تكشف ذلك. وكلما تكلموا عن الخطر المحتمل كنت أبعد وجهي عنهم وكأن الأمر لا يعنيني. ولم تمض دقائق حتى حضر الربان ورئيس الضباط كان يأمرنا بإغلاق جميع أبواب الباخرة المؤدية إلى السكن على أن يترك باباً واحداً يعرفه الجميع، وأن يتناوب الطاقم على حراسته حتى الصباح بشرط أن يتسلحوا بمدية وقطع من الحديد. وقع الاختيار عليّ أولا ورقيب السطحة والبحّار باسم وترك الضابط الثالث والرابع في برج القيادة يوجه الكشافات الضوئية صوب البحر والآخر يراقب من خلال المنظار الليلي أي حركة جديدة للزوارق الثلاثة التي اختفتْ لحظة تجمعنا على السطح أو قد تكون أطفأت محركاتها وأضوائها وتخفتْ تحت جنح الظلام! ماذا؟!. وقلتُ: «الأمر حقيقي!». تسلحنا بعمود من الحديد وعملنا ضجة نشعر بها من يتربص بنا أننا موجودون وعلى قيد الحياة! هذا ما كان متاحا لنا وقد لمس الخوف قلوب أكثرنا وأنا معهم.

Telegram: Somrlibrary

كنا نفتش ذهاباً وإياباً في سطح الباخرة عن خطر محتمل، وبين الفينة والأخرى، ننظر الأفق علنا نجد أثراً لهم. «عليكم التوجه إلى مقدمة الباخرة؛ تحسسوا حلقات المخطاف الحديدية يمكن لها أن تكون سُلّم الصعود إلينا من السراق القتلة». «ليتوجه اثنين إلى مؤخرة الباخرة ويقفا عند الميمنة وعند الميسرة ويرقبا الدفة مكان صعودهم المحتمل الآخر». قرارات قُلتها بحزم وقوة تلقفها البحّارة في نشاط عال وفي ثوان أخذ الأربعة مواقعهم كل واحد منهم يراقب الظلام وبيده مصباح. الساعة تجاوزتْ منتصف الليل بقليل ومازلنا نبحث ونتحاور ونتكلم عن همومنا التي اشتركنا فيها جميعا: «متى تفهم شركتنا أن بقاءنا هكذا في عرض البحر قد وصل مرحلة الخطر على أرواحنا؟». لا توجد أية وسيلة اتصال لنتصل بهم أو بالجزر التي حولنا ولا بأي باخرة مبحرة أو راسية ولا بأهالينا، كنا في منطقة تبدو أقرب إلى المنفى منها إلى محمية عسكرية. «هناك.. هناك!». صاح رقيب السطحة بصوته المجهور وهو يشير بيده الغليظة إلى مكانٍ بعيد مظلم. شددنا النظر والإضاءة فرأينا زورقاً قد أطفأ فانوسه الأصفر واختفى! تحركنا... توقفنا... هدأنا. ننصت؟! حاولنا الثبات في أماكننا! ننظر بحذر.. نترقبهم بشدة. طلبتُ من أحد الواقفين خلفي الذهاب إلى الجهة الأخرى؛ في ظني قد فكروا في جعلنا ننشغل عنهم ليصعد أصحابهم من الجهة الأخرى. «ما الحل؟». لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال. «الأمر لا يخلو من الخطر. علينا البقاء حتى الصباح نحرس الباخرة من جهاتها الأربع». «تعالوا». صوت يأتي من مقدمة السفينة. هرعنا راكضين فوجدنا حميدا يشير إلى مكان يخرج منه ضوء أصفر يومض من بعيد متشتت الضياء. في الحال صعدتُ إلى برج القيادة وعدتُ أسرع أحمل بيدي المنظار الليلي. شددتُ نظري إلى المكان.. لمحت قطعة عائمة لكنها طويلة، لحظتها قلتُ: «باخرة». ضياء متقطع من شباك برج القيادة. نعرف معنى هذه الإشارة وهي ومضات من المصباح اليدوي متكررة قصيرة ـ تعني ما الخبر؟ ردَّ رقيب

Telegram: Somrlibrary

السطحة بومضة قصيرة وأخرى طويلة إشارة إلى «لا شيء». عدنا ـ أنا وحميد ـ إلى مكاننا الأول. حدثتهُ عن اقتراح رقيب السطحة والتأكيد على وجود خفر رابع معنا. لم يكن الطاقم في حالة نفسية هانئة، هذا ما كنت أعتقد بسبب ضججينا المتتالي فوق سطح تراتشي، ولكن من المؤكد كان الخوف يدخل قلوبهم من خلال غرفهم المقفلة. تجلى اعتقادي تأكيداً عند خروج الطاقم إلى السطح، ينظرون إلى البحر بحذر يقفون معنا أينما نقف ويسيرون أينما نسير. اقترحتُ توزيع الطاقم إلى مجاميع حراسة: مجموعة تتكون من خمسة أفراد تدور حول تراتشي مثنى وثلاثا حتى الساعة الثالثة وأخرى حتى الخامسة، ثمَّ تأتي المجموعة الثالثة حتى يتنفس الصبح. «أين الرقيب؟». سألتُ حميداً الذي لم أسمع منه جواباً. رأيته راكضاً إلى مقدمة السفينة منادياً بلغة أهل البحر: «بوص» ـ وتعني رقيب ـ ثمَّ اختفى صوته خلف أغطية العنابر الحديدية الكبيرة، ساد الصمت هناك وقتاً بعدها دخلت الشكوك المرعبة إلى رأسي فصحت: «ألحقوا بي». ركض كل من كان واقفاً خلفي إلى المكان الذي تركنا فيه رقيب السطحة. لم نجده ولا وجدنا حميدا؟! بدأنا بمناشدتهم، ولكننا لم نسمع ردا؟ خفنا كثيرا وقلقنا أكثر!. «تعالوا». صوت يخرج من مقدمة السفينة، كان صوت رقيب السطحة. وجدته نازلاً إلى مكان حلقات المخطاف الحديدية يمسك بحبل كبير طويل وحميد من وراء ظهره.

ـ ما الخبر؟؟

ـ انظروا هنا.. هنا.. رأيت حبلاً يلف حلقات المخطاف!

إن صح ما قاله الرقيب فهذا يعني أن هناك من كان يحاول الصعود إلى ظهر الباخرة بواسطة الحلقات الحديدية الماسكة للمخطاف! «ولكن لماذا لم نشعر بهم؟» تساءلت مع نفسي، بينما راح أفراد الطاقم إلى مقدمة الباخرة ينظرون إلى الأسفل للتأكد مما يسمعون، رغم معرفتهم

Telegram: Somrlibrary

الأكيدة أن رقيب السطحة لم يعرف عنه الكذب يوماً. «هذا يعني.. قد رحلوا». قالها الضابط الثاني بصيغة متأكدة ليرد عليه مساعد الطباخ جمال: «كيف نتأكد؟». «علينا وضع الشك والحذر نصب أعيننا». لم يكن ذلك أفضل ما قلته في لحظات شعرتُ أني أتحدث متشنجاً وصارت لغة الحوار صعبة... كل واحد يريد معرفة ما يحدث وسبب حدوثه؟ وكزني المهندس الثاني وأشار بيده يريد مني أن ألتحق به.. تبعته، وبعد بضع خطوات همس في أذني:

ـ الأمر أخطر مما نتوقع!!

ـ كيف؟!!

ـ لا أدري.. ولكن الربان بدأ يخاف أكثر على أرواح الطاقم، وصار متشنجاً جداً.

ـ عليه إرسال رسالة إلكترونية إلى الشركة.

ـ لقد فعل وقال لهم سأرحل من هذا المكان وعلى مسؤوليتي. فالطاقم تعرض لمتسللين ولا نعرف جنسياتهم. ووضع الباخرة في خطر مؤكد.

ـ خير فعل.. وسنظل حتى الصباح.

ـ جيد.. سأبلغ الربان.

تركني المهندس الثاني وتوجه مسرعاً إلى غرفة البريد الالكتروني. شرحت لرقيب السطحة ما دار بيني بينه فقال بحدة:

ـ رضوا أو لم يرضوا صباحاً نرحل، وليكن ما يكون.

طلبتُ منه الهدوء وألاّ يثير الرعب في نفوس أفراد الطاقم وعليه أيضاً ألّا يثير شيئاً يكشف ما سمعناه الآن. وعليه أن يتصرف مع الآخرين بحذر ويمرر لهم أن الأمر سيدوم إلى الصباح. وعند ذاك الوقت سنتصرف. خيراً فعل عندما قسمهم إلى مجموعات، أخذت كل مجموعة ـ مكونة

من خمسة أفراد ـ وقتا للحراسة.. دخلتُ غرفتي الثالثة فجراً. أكثر أو أقل لا أدري فقط كنتُ منهكاً أشعر بالوهن في جسدي وألم حاد عند أسفل ظهري لم تسعفني لمسات يدي في تحديد مكان الألم الذي أرهقني ولا المرهم الحار. كنتُ أتقلب على فراشي وقتاً لم أعرف بكم أقدره. سمعت: «تعالوا». راكضاً عرفته: صوت عاصم الزيات الواقف عند مؤخرة السفينة كنت قد وصلت إليه لاهثاً أحمل بيدي مصباحي الذي يعمل ببطارية شحن يضيء المكان بطريقة الإشارة المتقطعة حتى نظرت والطاقم تقريبا كله ينظر إلى ظلام الأفق..

ـ ما بكَ؟

سألته:

ـ هناك.. هناك رأيتهم هناك.. وحين رأوني اختفوا!

«إذن هم خائفون كخوفنا منهم» هكذا فكرتُ وفي الحال أطلقت العنان للقهقهات، التفتَ الجميع لي وقد ثبتت في عيونهم الدهشة! حينها تأكدتُ أنهم قد شكوا بي جُننت أو مسني النعاس وبدأت بالهذيان، قلتُ بصوت أكاد أكون فيه جازماً سمعني الجميع من قوته:

ـ لو قرروا الصعود على الباخرة لصعدوا.. لكنهم خائفون منا كما نخاف منهم.. علينا التواجد على السطح حتى الصباح نصيح على بعض بأعلى أصواتنا نشير إلى بعضنا البعض بمصابيحنا في إشارات متفق عليها. هذا ما حدث بالفعل، وعادت في الأجواء راحة نسبية، كنسْتُ بقايا خوف كان جاثماً على صدورنا. انبلج الصباح من ظلمة الليل كالمصباح. كان ضبابياً.. الرؤيا فيه تكاد تكون منعدمة. توجه أفراد الطاقم إلى وجبة الإفطار، وأخذ بعضهم قسطاً من الراحة، وبعد الشعور بالأمان وقتاً سمعنا من خلال مكبرات الصوت: «إخواني أفراد الطاقم الشجعان.. ليلة البارحة أنجزتم موقفاً مشرفا. بعد العاشرة من نهار اليوم إن لم يأت الردّ من الشركة

Telegram: Somrlibrary

سنرفع المخطاف ونغادر المنطقة». صفقَ جميع من كان في الصالة لقرار الربان الشجاع. أدرتُ رأسي مبتسماً إلى المهندس الثاني الذي بادلني بالابتسامة نفسها، ولكن الضابط الثاني قال:

ـ سنرمي المخطاف في منطقة الانتظار الرابعة وسننتظر دخول الميناء وعندها سيطول الانتظار.

لا أريد أن ابتئس فالذي فعله الربان الآن يدفعني إلى الابتهاج ولو قليلاً عليّ نسيان الهم والقلق.

5

لا تتوقع أن يتمّ أي شيء في هذا الفلك المشحون بالصعاب بسهولة. إذا أخطأك الموت مرة واحدة فلا تكن مطمئناً. إما ذلك الترقب في مكان متحرك داخل مكان مفتوح على الخوف، وإما ما نحلم به من أمان مفرط في مكان ثابت داخل مكان مغلق أمران غير جديرين بالتفاخر في لعبة مستمرة اسمها الحياة. البقاء فيها للأقوى...

جل رغباتي الآن هي الشعور بالأمان الذي فقدته ليلة البارحة. حتى الآن أنتظر كما أفراد الطاقم رفع المخطاف من هذه المنطقة الخطرة. ولكن انتظارنا طال؟ مضت الساعات ودخلنا منتصف النهار ومازلنا بمكاننا الذي يقلقنا ليلاً! كانت قوة تحركني من الداخل؟ ـ من؟ ـ أناي التي أحب بقاءها كما عهدتها شجاعة معاندة تفتخر بين الحين والآخر بما تقدمه من فضائل تشعر على أنها أساس عيش الإنسان كإنسان. صرت لا أحتاج نصفي الآخر في التعامل مع الخوف والحذر وأعلم العقل والطموح فضيلتان يجمع بينهما ويفرق الحزن، ولأنني لا أحب الحزن فكرت بتمثيل السعادة أمام الطاقم وقلت قولاً سعيداً؛ لا لشيء فقط من أجل بث الأمل في صدورهم. صار حقيقة حين سمعنا صوت الربان من خلال مكبرات الصوت يردد: «تهيأوا للإبحار». مغادرتنا أكيدة ولكن علينا تشغيل المحرك الرئيس. رفعنا راية مخطوطاً فيها حرف «y» تدل على أننا سنجر المخطاف بغضون دقائق تم رفعه وانطلقنا بأقصى سرعة ممكنة نحو مكان نشعر فيه بأمان

Telegram: Somrlibrary

أكبر؟ حدث ما تمنيناه بالفعل وقفنا في مكان تتواجد فيه بواخر ـ عملاقة قياساً لحجم باخرتنا ـ تنقل الوقود ذاهبة تارة وآيبة أخرى، واقفة تنتظر وقتها للدخول إلى ميناء الشارقة في دولة الإمارات. صار المكان هو منطقة الانتظار الرابعة وقد مرَّ على وقوفنا في عرض البحر أكثر من عشرين يوماً ننتظر أمر الدخول أو المغادرة ولا نعرف إلى الآن متى سندخل الميناء؟ على أقل تقدير نريد التزود بالوقود والماء والمؤن ونصلح ناقلة الحمولة بتبديل سلكها المعطوب بآخر جديد. سمعنا عنه قد وصل من الصين إلى مطار الإمارات منذ يومين، ولا أحد هناك يستطيع استلامه.

هبط الليل وصار الظلام تاريخنا الشخصي والبرد يلسع جلد ذواتنا والريح التي تعصف بالباخرة عقاب البحّار. كلنا نشعر بالوهن والتعب، ولم يحتفل أحد. تلك الليلة أغلبنا ذهب إلى النوم ولم يبقَ سوى بحّار وضابط بحري في برج القيادة وزيات خفر ومهندس في قسم الماكينات. الهدوء النسبي الذي لف ممرات الباخرة لم يدم طويلاً؛ والسبب الاتصال الذي جاءني من برج القيادة عند الساعة الحادية عشر تقريباً:

ـ ألو

ـ تعال إلى برج القيادة ينتظرك اتصال من أهلك..

تكلمتُ مع الأهل بطريقة مريحة. شرحتُ لهم أن سبب غياب الاتصال هو ابتعادنا عن منطقة التغطية، وانتهى الاتصال على خير. عدتُ إلى غرفتي فرأيت البحّارة يصعدون ضاحكين ينتظرون اتصالاً محتملاً بهم. تلك الليلة كانت الباخرة ومن فيها يغطون في سعادة كادت أن تكون أجمل الساعات لولا البحر ـ معلمي ـ الذي رفض الهدوء؛ في هياجه ضرب بكف الموج لجوانب باخرتنا يميناً وشمالاً يحركنا حتى كدنا أن ننقلب مرتين. الشعور بالخوف عاد. والقلق صعد إلى صدري. تلك الليلة أمسيت متعباً. أفقت منهكاً أشعر بتحجر المفاصل. نهضتُ عند الساعة السادسة صباحا

Telegram: Somrlibrary

وأعتقد أكثر بقليل توجهتُ إلى صالة الإفطار لشرب القهوة وأخذتُ حبة مهدئة للألم لعلي أسكن الصداع الذي لازمني.

كان مساعد الطباخ يدندن مع نفسه منتشياً؛ والسبب تأمين الاتصال مع أهله. لم أكن أصغي لأصوات أفراحه، لم أكن في مزاج يسمح لي بذلك. كنت أشعر بالقلق من البحر الذي مازال مهتاجاً ـ مهتاجاً جداً ـ حتى أنني نسيت الطعام وشربت القهوة وقلت:

ـ أشعر بالباخرة تزحف؟!

صاح رئيس المهندسين:

ـ سنصطدم!!.

وثبتُ من مكاني وخرجتُ إلى السطح راكضاً كانت الباخرة قشة في مهب الريح!

يا إلهي! تحررتْ تراتشي من قيد المخطاف وصارت في عرض البحر مسرعة يحملها الموج صوب باخرة نفط عملاقة.

ـ لا يوجد وقت للانتظار!!.. ارفعوا راية «D» ـ ليس للباخرة قدرة على المناورة ـ شغلوا المحركات.. وأرفعوا راية «S» اسحبوها إلى الخلف بأقصى... هيّا تحركوا..

ـ انهضوا.. اسرعوا.. سنصطدم.. سنغرق.. يا الله.. احفظنا....

أصوات اختلطت بالدعاء وبعضها مع البكاء وأخرى بالهرولة. الباخرة تقترب من الاصطدام بباخرة عملاقة!

موت محقق.

والحل الوحيد هو تشغيل المحرك الرئيس والمناورة لغاية إبعادها.

هذا إن كان هناك وقت لهذه المناورة؛ المحرك يحتاج إلى ساعتين للتسخين بعدها سرعة بطيئة ثمَّ سرعة أسرع بعدها السرعة

Telegram: Somrlibrary

القصوى. متنا.. علينا تشغيل منظومة التزييت وضخ الوقود للمحرك. ثمّ تحريك عتلة الدوران! نقلاً عن رئيس المهندسين حدث ما لا يعقله المنطق العلمي! دار المحرك بأقصى سرعة إلى الخلف فنظر لي رئيس المهندسين وصاح بأعلى صوته:

ـ اصعد إلى السطح وانظر أين نحن؟

كنت أهرول في الصعود مسرعاً وأنا أفكر مع نفسي: « لماذا أنا؟» وحين وصلتُ.....!!... انبهرت من المنظر ونسيت نفسي والتفكير بمن حولي؟!

رأيت ما لم أره في حياتي البحرية قط. وحش من الحديد يخيم فوق باخرتنا. مقدمة الباخرة الكبيرة المحملة بالغاز تكاد أن تدخل في باخرتنا من جنبها. المسافة بيننا وبينها لا أعرف كم كانت. أتصور لم تكن أكثر من مترين وعلى أكبر تقدير أربعة أمتار! يا إلهي!! سنموت.

ونحترق.

كل اهتمامي صار هو النظر إلى أثر البحر الأبيض الذي يحدثه دوران المحرك من خلال مروحة الدفع. كانت الباخرة تُسحب بقدراتها كلها إلى الخلف وفي أقصى سرعة اقتربنا أكثر وأكثر من نقطة التصادم والباخرة يعاندها البحر والريح ولم يبقَ لنا من الخلاص سوى..

ـ سنموت.

صوت مرَّ سريعاً من أمامي واختفى!؟

لم يبقَ لنا سوى الاصطدام، مر بنا أكثر من خوف وارتباك، لكن مدَّ لنا القادر يده الخفية وبدأت الباخرة تستجيب للمحرك في ابتعادها شيئاً فشيئا عن الباخرة العملاقة، وبدأنا نسير تقريباً في أمان بعيداً عن التصادم إلى مكان آخر. يمكن لنا أن نرمي فيه المخطاف الثاني.

Telegram: Somrlibrary

عدتُ نزولاً إلى قسم الماكينة أحمل معي خبر الخلاص، وحين وصلت إلى غرفة القيادة الإلكترونية رأيت رئيس المهندسين ومن معه يبتسمون ويحمدون؟

سألت المهندس الثالث عن سبب هذه السعادة المفاجئة؟

أجابني إن الربان قد اتصل بهم وشكرهم على الانضباط والسرعة في التنفيذ. يبدو فرحتهم انستهم تأخيري قلتُ ولستُ متأكدا ستطول؛ لا لشيء فقط لساعتين نمشي في البحر ومازلنا نبحث عن مكان آمن نرمي فيه مخطاف المرة الخامسة. ولأننا غير متأكدين من جدوى رمينا للمخطاف بسبب الريح التي مازالت تعصف بنا والموج يقلب أمعائنا من تحت باخرتنا التي يهزها البحر الخضم هزا، ازداد التأكيد على أن التجلد رجولة، وما علينا إلّا الصبر والتحمل ومواجهة الصعوبات المحتملة والتي أراها قادمة لامحالة، وعلينا أيضاً التعاون في بذل أقصى جهد ممكن.. ليس هذا كلاماً وحسب؛ فالتخاذل والخوف والاتكال على الآخر يعني التعقيدات والتقاطعات والانجراف إلى التلكؤ يمكن أن يرمينا في قمقم الغرق المحتمل..

لكن ما هو موقفنا الآن؟؟

وهل تعلم به الشركة؟

أسئلة لا تريد مغادرتي. تلح عليّ باستمرار ترغب في جواب شاف.

مثلها مثل الطاقم وقد رأيتهم مكتئبين غير راغبين في الكلام ولا قابلية لهم على سماع النصح ولا حتى تناول وجبة الغداء فقط كانت القهوة والشاي وبعض أقراص مسكنة لصداع الرأس وأخرى للعظام.

البحر لا يرضى أن يهدأ. مازالت الريح العاتية تعصف بنا والباخرة

تحت رحمة الموج الذي لا يرحم فارغة من الحمولة. مقدمتها مرتفعة قليلاً عن مؤخرتها، وهذا النصب يؤخر في تقدمنا، والربان مازال مصراً على عدم ملأ خزانات الموازنة بماء البحر من الداخل.

سمعتُ رئيس المهندسين يناشده مرات ومرات لإصدار أمر في هذا الشأن ـ تعديل الباخرة وتحقيق اتزانها ـ ولكنه كعادته رفض بطريقة مهذبة وقال:

ـ إننا نرغب في تحميلها بالبضائع

ثم تنهد بعدها أضاف:

ـ لا نريد موازنتها بالماء المالح.

عصراً رمينا المخطاف في عرض البحر بعد مشاهدة الأعماق بواسطة أجهزة الرصد الملاحية الموجودة في برج القيادة. قالوا عنه: «مكان مثالي للتوقف». صدقنا كلامهم ولم نمض في عملية التوقف والتي اعتدناها أكثر من نصف ساعة تقريباً، بعدها هدأت المحركات وانتهينا من النفير العام إلى المستوى الطبيعي. توجهنا إلى الغرف من أجل الراحة على أقل تقدير الاستلقاء بعض الوقت.

يبدو من معلمي أن الغضب طبع من طباعه.

لا أعرف ما غايته هذه المرة.

يضربنا من جهة ويخطفنا إلى الأعماق من جهة أخرى وبين الفينة والأخرى كنتُ أناشده الهدوء.

لا يسمع حتى هبط الظلام.

ظلام حالك.

القمر خلف الغيوم والنجوم اختفت تماماً عن صدر السماء.

النوارس!!

Telegram: Somrlibrary

وحدها النوارس لا تخاف البحر وجدتها محترفة في طيرانها تتجمع حول ضياء مصباح الباخرة الأصفر المشع وهي تطير تحوم حول مقدمة السفينة لتحط على أعلى موجة والبحر يدفعها نحو المؤخرة لتعود طائرة نحو المقدمة. في تكرارها للحركة كانت تلتقط أي شيء عائم ترميه في جوفها، يتبع كل حركة منها صياح يشبه الغناء فيما بينها. أكثر ما أتذكر في هذا المشهد السحري اللياقة البدنية التي اكتسبتها من الأكاديمية البحرية أيام الشباب عكس تفكير الزيات الثاني.. كان يقف إلى جانبي الأيسر يكرر مع كل حركة لطائر النورس:

ـ هذه المخلوقات تحيى أجمل وأهدأ من حياتنا.

أشياء غذت الروح، وأهواء ملأت النفوس، واشتياق اجتاح المشاعر.. بدأ يتحدث عن فهم الإثارة الجنسية عند الحيوانات بالشمٍّ والتحسس وأكثر ما أدهشني معلوماته العميقة عن خبايا رغبات الحيوانات اليومية، وقد لا تكون سوى رواية يريد بها شرحاً لمعالم تشبه الخيال نجد فيها ظلاماً ولمعاناً في الوقت نفسه، وغياباً كاملاً لوجودنا كذكور نقف أمام زرقة البحر الداكنة وسواد الأفق المشحون بالقيم الدلالية تجعل من هذا الغموض النازل علينا من بعيد على شكل نصف دائرة ذريعة بين ذريعتين. الأولى: لا معنى لنا أمام قوة هذا العملاق، ولا طاقة لنا أمام هذه القوة الواقعية، والثانية: مهما بلغ اليأس من الإقرار بالاستسلام هناك حساب العقل الطامح إلى التخلص والتفكير في احتمالات جمة قلتها له:

ـ هذه المخلوقات لو كلمتنا الآن لقالتْ لك ما قلته فيها بالضبط.

الطبيعية الإنسانية تميل إلى الثبات على القيمة الاجتماعية الأزلية رغم نفورنا منها أحياناً كثيرا ما نميل فيها إلى اللامعقول. إلّا أننا نبقى على تحفظ في دواخلنا لا يُكشف إلا بعد الشعور بالخيانة أو الخداع، وهو ما يسمى بالماهيات الشخصية..

Telegram: Somrlibrary

ـ عن ماذا تتكلم؟؟

سألني الزيات.. فأجبته:

ـ عنا..

ـ فلسفة؟

ـ السبب أنت.

لم يتواصل معي أكثر! ودعني ورحل، ولكن ما أبقاني مع نفسي أهذي في كم الملكية الشخصية هو غضبي من حماقتي التي أضاعت مني نصفي الآخر. هو في عالم أبعد ما يكون عن مكان وجودي. بمثابة شيء في العين أو في اليد وعند المسامع، وفي النهاية كل الأمر هو هل تستطيع لمسه؟ أعتقد نعم، ولكن عند لحظة الخضوع له يتلاشى. لم يكن البحر يوماً مخلصاً أو كارهاً لذاته عكس بعض المخلوقات التي تفكر بالخلاص من احتدام جدل متغيرات الحياة.. مازال البحر وحده ينشر الراحة بين يدي الإنسان. حاجتي إليه. يأخذني جسدي أحياناً إلى الموت. أبحث عن المكان ولا أفكر في مكان أفضل منه. أريده هادئاً. الآن عليه أن يهدأ، وقبل الذهاب إلى المنام فكرتُ في شكل المفاجأة المتحملة ـ ماذا ينتظرني؟ ـ القلق يتملكني من الباخرة خوفاً من أن تقطع حلقاتها الحديدية المثبتة للمخطاف، إن حدث نكون في مهب الريح.....

Telegram: Somrlibrary

الحياة وغيرها

الثوب والعطر.. مخاطر الرغبة

الحقيقة بدأت في مكان غريب يكتنفه الغموض. مثل الأساطير التي مُزجت بالمثيرات والتأويل شعرتُ في سباق مع الطبيعة. كنت أتأرجح رافضاً النوم مولعاً بمشاهداتي. صور رائعة لا تخلو من الرهبة، وبين شعور بالرغبة في غيبوبة أشبه ما تكون بعالم تشتعل فيه الأحاسيس. شعور بانحباس العواطف. كان البحر يقودني إليهما مداً وجزراً. أتساءل: «من أين لي القدرة على السفر؟». أشتاق إلى الكتابة. «ماذا كتبت؟». الحب، الاشتياق، البقاء والصراع بين الصدق والخداع؟ عن الإنسان عن الحيوان؟ أو الروح والجسد؟ البحر مملكة فيها أكثر من حياة يمنع فيها كل شيء إلّا الخيال. ـ ما نفعه وهذا القلق الخانق يتجدد؟ ـ كارثة كتمان تخلق فجاجاً في الذاكرة، إذا لم تكن تمتلك قدراً كافياً من الاستيعاب تغرق فيه ولا ترجع. ارتفعت حرارتي، لا قدرة لي على النسيان. رغم الهدوء كانت الأجواء خالية من الجمال. إنه نذير حرماني من الراحة، على ما أظن سيلازم بقائي حتى نهاية الزمن. الحقيقة كنت متضايقاً، وأعرف أن الرائحة ذاكرة. والصور التي تبهرنا تبقى عالقة في الأذهان. النوم ينذر بحلول لعنة تضغط بقوة على القلب؟ ربّما فراغ اليوم أقسى من الأمس؟ وربّما لم أجد بعد ما يدفعني إلى الكتابة؟

Telegram: Somrlibrary

يُخيل إليّ أن الأزمات النفسية تأتي من قلق يمزق نقاء مسافاتنا تمزيقَ الجاهل لأوراق الكتب الثمينة. ولكن ما الحل؟ إن بحثنا عن الحلول سنجد المشاكل التي تبعدنا عن الخلاص نطلبه. وحده ـ ذاك الخلاص ـ يحملنا إلى البر؟ كل شيء ممكن، وأنا أعيد على نفسي السؤال: «ماذا كتبت؟». أعرف لم أكتب عن أحداث آخر الليل. عن الممر المظلم الطويل. عن المصابيح الصغيرة التي كانت تومض بسرعة فوق رؤوس المنتظرين. قطع من المعادن المختلفة تجمعتْ قرب حائط طويل في غرفة نوم بلا شبابيك شبه مظلمة. سكاكين. مناديل، وأغلب الأبواب مُوصدة. خارج المكان أصوات البحّارة تكاد تكون منعدمة. عجزوا عن الحركة؟ أغلب الظن نعم. لا ينالون الوقت الكافي لاستعادة نشاطهم. صار عدم الاكتراث بالبعض سائداً. السلام يُلقى خافتاً فيما بينهم، وقد تفرقوا شيعا. تساوتْ مظاهر اليوم بعد أن كانت مختلفة. كما الرجل الذي عرف أن علّته: اشتباه في العطر والثوب كان كفيلاً بفقده رجولته. صار جميع أفراد طاقم الباخرة يعرف أسباب هذا الركود والإهمال الذي انتشر مثل الوباء فيما بينهم. هو الملل والروتين المتكرر. جل حاجات البحّارة رؤية الميناء. وفي التجدد يمكنهم مقاومة أعتى المحيطات على أمل واحد يمدهم بالقوة والشجاعة يرون فيه الموت المحقق والغرق ولا يخافون. إنه الميناء ولهم فيه ما يشاءون.

عن ماذا كتبت؟ مخاطر ذاكرة؟ عن الحاضر؟ بحر يكاد يسرق أرواحنا؟ البحّارة في خطر؟ خلف أبواب الغرف المغلقة مستلقين على ظهورهم يتأملون في عقولهم الزمن الجميل لائذين بذاكرة ملؤها رؤية الكثير مما يبسط النفس: الأهل، الأصحاب، الرفيقات الحبيبات، الماء، الشمس، الأطفال، الشوارع وضجيج الناس، ملابس جديدة، وما إلى ذلك

من الأماكن التي لا تخلو من المظاهر المترفة. السير حافياً. الغرف الشخصية. عطر امرأة. رائحة أنثى. المقاهي. الحانات. السهر. التحرر. وعادة ما أسمع من بعضهم إطلاق اللعنات على اليوم الذي صاروا فيه بحّارة. مهنة لا تترك وراءها إلّا النسيان قهراً والعودة إلى الماضي المهدور للتسلي وراء الألم الشخصي. لا تستحق الأعمال الاستثنائية الشهرة ولا البحّارة في رؤية الانتصار. فقط هو شعور عارم تحسه، وسط تدافعهم دون تردد، لذة النزول لحظة ملامسة الباخرة جانب الرصيف. يستمر التفكير في الحفلات والنظر إلى الناس بطريقة الارتقاء من خلف النافذة. تخيل حركة لا تنتهي. فوق الشوارع أصوات عالية ودوار وصخب، وعند الحقول أنهار وأشجار. مسيرة محسوسة على أنك إنسان يتفاعل مع كل شيء حوله.. هناك احتمال الفرج. وعلى طريقة حياة البحر تكون العبودية تحت سلطة الوقت ولا شيء غير الالتزام والاحتياط من الأمراض والزلل والبقية محض هراء. البحّار اليائس مثل كتاب بلا كلمات. زهرة متخشبة ترقد في سبات. بحر متحجر فقدَ الحياة. دخان سيجارتي يرسم أشكالاً أكاد أكون جازماً أنها من صنع الخيال. أرى صخرةً داكنة الخضرة تقف وسط البحر تحوم حولها مجموعة نوارس. تتقلب بين أصابعي موجات عالية تدفعها يدي إلى الاصطدام في الساحل. تبتعد النوارس مذعورة.. يتكرر المشهد. دخان أكبر يملأ وجهي. تقترب الصورة من عينيّ. مجموعة صيادين يجلسون عند زوارقهم الخشبية في هدوء وسكينة ينظرون البحر وفي أيديهم سنارات الصيد. يتصاعد ـ الدخان ـ الموج بين أصابعي، حاولت منع الهياج، ولكن بحركة لا إرادية من يدي رميتهم بالبحر فتحول كل شيء إلى خراب وحطام، وتعالتْ أصوات استغاثة من الغرق. لا شيء يبعدني عنهم. إمارات غريبة تحملها تلك الوجوه إلى سخونة جسدي. شعرت وكأن أحداً ما يدفعني إلى داخل

ما رأيته. يهزني من كتفي ويدعوني إلى سماع صوت النجاة الطالع من البحر! رفعت رأسي؟ لم أجد أحداً! نفخت الدخان. أبصرت بعيداً؟ من الغريب الذي أيقظني؟ كانت عتمة مواتية من الأفق. عتمة سوداء حالكة السواد تربط زوايا البحر الأربعة. ثمة برق ودوي رعد. «أيها البحّارة الكسالى انتبهوا الطقس فظيع». بحّار يصيح وهو يحك رأسه في غباء مفرط كان يتحرك ببطء يتّجه نحوي. نزل المطر. ألمح القطرات المتلاحقة على وجه البحر تختفي! «سيدي، المكان خطير». «اصبرْ أيها البحّار الفطن». الرحلة الغائبة في العتمة سأصل منها إلى البر، ولن ينتزع الخوف الأمل من صدري. ظلت الأمطار تتساقط في حضني، وكلما امتلأت يدي بالماء فرحت أكثر. سحبتُ دخان سيجارتي. لم أكن ساكناً. نفخت الدخان.. كنت كمن ولد للتو. مغامرة جديدة قد بدأت؟ عليّ التجلد وكتمان الخوف. أعرف جيداً لا توجد مشكلة يعني مشكلة. كنت أخوض في بحر غروري وأعترف قد اتسعت العين وسالتْ منها قطرات مالحة. في هذا الليل سمعتُ عواء الريح تمزق رؤوس الموج. بعيداً عن الميناء سافرت بين البحر والشتاء أرى صورتي الجميلة تتشكل أمامي بثيابي المبللة عند النهر أمسح وجه طفولتي أتمنى أن أكون بحّاراً يشار إليه. العشق بحر آخر أستمد منه القوة. «قررت أن أخاطر». الوقت متأخر جداً، وبدون أن يدرك ما أقصده ارتسمت الغرابة على وجههِ بدت عليه حمرة مفاجئة، ولم يستطع الردّ إلّا... «نعم». قالها سريعاً بصوت منخفض. جذبني إليه شعوري، كان طيباً عطوفا فقلت: «سأفعل ما أريد ولن تستطيع أية قوة إيقافي». صار الموج الذي لا يغرقني يجعلني أقوى، والمطر خال من فتنة التجلد.. صحت: «سأخرج منتصرا». قال وهو ينظر إلى السماء: «أظن ذلك». لا أحد غير شعاع الشمس في الغرفة. في عزِّ النهار أفقت. يدي في الفراغ تتحرك. الفراغ على نحو أقوى ساد

المكان. يضغط الألم بقوة إلى أسفل ظهري. يُخرس هلوساتي لأرى ظلي الممتد يعلو ويحطّ ليعبث بأوراقي المبعثرة على البلاط. أنفذُ من عيوني وأرد على سؤالي، أكثر ألفة من ليلتي الماضية بطيئاً أسحب جسمي إلى الحمام صامتاً بعدما يذكرني الصباح بعملي الجديد...

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

الفصل السادس

بين رصيفين.. رغبات جَمّة

Telegram: Somrlibrary

1

ـ «ت ه ي أ وا للإبحار». صوت الربان من خلال مكبرات الصوت تضج به ممرات الباخرة قبيل منتصف الليل. وقد حدث نهاراً، ولكن تم تأجيله، ولا نعرف السبب. يبدو سنبحر؛ لا لشيء فقط كان البحر لا يطاق والأمر جاءنا حالاً. هذه المرة قالها الربان بنبرة تختلف عن سابقاتها نبرة حادة. حادة جداً. ولا أعرف لماذا شعرتُ أن ثمة خطر قادم! لبست بدلة العمل وخرجتُ من غرفتي على مهل؛ كنت أشعر بالوهن. نزلت السلالم التي أنهكتني إلى غرفة الماكينات. كنت أتصبب عرقاً لحظة وقوفي أمام مهندس الخفر ارتسمت على وجهه علامات استفهام وخوف.. سألته:

ـ ما الذي يجري؟؟

فأجاب:

ـ رموا المخطاف فوق الكيبل الضوئي لمنطقة الخليج!

ـ ماذا؟!!

ـ هذا الذي حصل.

ـ كيف وهو في منطقة محظورة مؤشرة في خرائط الملاحة؟

ـ لا أدري. فقط سنرفع المخطاف ونغادر حالاً.

ـ البحر هائج والريح عاصفة!

ـ ما الحل إذن؟

لا يدرك الإنسان عجزه إلا عندما تواجهه مفاجآت الحياة. تجمعَ أفراد

Telegram: Somrlibrary

طاقم الماكينة كل في مكانه. كنا على استعداد لفعل أي شيء يساعدنا على التحرك بسرعة. سمعنا خبر رفع المخطاف وفي الحال تحركت الباخرة إلى الأمام بطيئاً، انطلقت مبحرة بأقصى سرعة، وكأننا سرقنا من المكان شيئاً ولا نريد من أحد معرفة مكان تواجدنا انطلقت الباخرة في خط مستقيم، ولكن كيف تخلصنا من الكيبل الضوئي؟ انشغلنا بما هو أصعب إذ ابتعدنا ولذنا بمكان أقل خطرا، وإن كشفوا أمرنا أعتقد جازماً ستلغى شهادات كل الطاقم بما فيهم الربان وتدخل الباخرة في القائمة السوداء وتصبح مجرد قطع غيار قابلة للبيع. ابتعدنا أكثر وأكثر.

نحتمل الخوف والقلق واليأس رغم لا جدوى من بقائنا هكذا في عرض البحر ننتظر الأمر من الشركة، ولكن قبل التصرف علينا مشاهدة شمس الصباح، وبالفعل بعد ساعتين ونحن نجر أجسادنا جراً لتنفيذ خطة الخلاص من المشكلة الجديدة. وقفنا في منطقة على مدار خمسة أميال داخل بحر لا توجد فيه أية قطعة عائمة؟! رمينا المخطاف، وانتظرنا فجأة شعرت بدأتْ الريح تعاكسنا. تزأر بنا والبحر يكبر ويكبر والظلام معه ماداً بجناحيه فوقنا. تقريباً صعد الموج إلى خمسة أمتار والريح تعصف بنا بقوة خمس وثلاثين عقدة، تهزنا من اتجاه إلى آخر. والغريب بعد أقل من ساعة تقريبا بدأت الباخرة بالزحف! فعلاً رجعنا ميلين إلى الوراء! علينا البقاء على أهبة الاستعداد والإبقاء على الماكينات ساخنة. الغاية من الانتظار هدوء الريح والبحر. ساء الأمر بعد ارتفاع الموج أكثر وأكثر بدأ بدن تراتشي يهتز. تحاول الريح في عصفها اختراق جسمها.. كنا نسمع ضربات قوية!! رفعنا المخطاف مرة أخرى وأبحرنا بسرعة عالية، ولكن كنا نسير ببطء كلما تقدمنا يعدينا الموج إلى الخلف. الاستمرار في الإبحار البطيء أتعبنا وأنهك طاقة المولدات، كلما نصارع الموج نفشل حتى الصباح كانت الريح العالية ضبابية. قيدت سرعتنا. لابد من عمل شيء ما.

مشاورات كثيرة وحلول ومقترحات أكثر، وبعد أن صار التجرد من القوانين أمراً واقعا، قرر رئيس المهندسين ملأ خزانات الموازنة بماء البحر، استقرت الباخرة بعض الشي وصرنا نبحر ببطء معقول وفي وضع شبه آمن ننتظر فيه قرار الشركة. البحّارة في دوامة أزلية من إمعان إدارة الشركة في قسمها الملاحي والتجاري تجاهل وضعيتنا. حقوق يطالها التفريط وامتيازات شبه مفقودة. التضحيات التي يقدمها البحارة كثيرة: خارج نطاق الأرض يكون الفراق قاتلا. ولكن التمسك بالحياة يبقى هو السبب الرئيسي في استمرار الإبحار، ولا يخلو الأمر من رغبة في تحصيل المال والمغامرة مع نساء الموانئ، وإن كان فقدان كل هذه الطموحات أمراً واردا. إدارة الشركة من المحتمل جداً في المستقبل القريب أن توقف أغلب الطواقم البحرية المميزة. لا أعتقد أنها ستعمل على تعيين أيا كان في مواقع السلطة على تدبير مواردها البشرية، ولكني أكاد أكون متأكدا من أمر تعيين الأقارب، شريطة أن يكون المسؤول الذي وقع عليه الاختيار متخصصاً ذا خبرة يعرف مستلزمات البحّارة على ظهر البحر، وكذا السفن الراسيات عند الموانئ. ويعرف أيضاً ما يميل إليه البحّار وما يكرهه وعليه أن يفكر أن بقاءه في مكانه الإداري يعتمد على إبقاء البحّار على خط الطاعة، والاستمرار رهين بوصول البحّارة إلى المرافئ بعد سفر بحري طويل وفي جيب كل بحّار حفنة دولارات وامتيازات أخرى؛ مثل الاستمتاع بعطلة الأسبوع، والتغاضي عمن تأخر عن العمل بعض الوقت...

وصلنا أمر الشركة عبر البريد الالكتروني يوجهنا إلى ميناء الشارقة. « أين الربان؟» تساءلت وفي نفسي رغبة بتذكير من أصادفهم على أنهم أبطال. «هاهاهاها». «سيكتبون عنا». «قد تصل أخبار نشاطاتنا إلى الشركة». «سيهطلون علينا بكتب الشكر والتقدير». «ولا تنسى المكافأة». حوار البحّارة فيما بينهم يحلمون بمكافأة مقابل الجهد الذي قدموه. في

Telegram: Somrlibrary

انتظار الاستجابة لرغباتنا جميعا كنت مندهشاً من الفرح المفاجئ الذي ساد أروقة الباخرة. أمل أنسانا الخوف والهم والقلق والتعب، استسلم الجميع لأجواء الغناء وعناق بعضهم بعضا بإفراط! صار إبحارنا صوب ميناء الشارقة الذي يبعد عنا الآن مسافة خمس ساعات أشبه ما يكون بالسير في الطرقات المضيئة ليلاً، مما يعني لمس الأرض. ربما تحقق الأمر.. سنصل بعد قليل؟ يبدو أن للأقدار كلمتها؟ لقد تغيرت نبرة الصوت إلى أكثر من نبرة سعيدة حين سمعنا صوت الربان: «غيرنا اتجاهنا حسب الاتصال التليفوني إلى ميناء الحمرية. سندخل مباشرة إلى الميناء». لا أحد يعلم ما الذي يجري. الحمرية أو الشارقة كلاهما يعني الأرض وهذا الأمر وحده له القدرة على بث البهجة في صدورنا..

مازلنا نبحر تصحبنا الفرحة من الرغبة في رؤية الأرض قريباً، ورغم الصعوبات التي علقتْ في ذهن الجميع وعلامات التعب التي صارت واضحة على وجوه شاحبة كثة.

كنت راضياً عما حدث فجأة، ولكن القلق يحملني على الشك لثلاثة أسباب: أولها كيف تغير الأمر من ميناء الشارقة إلى ميناء الحمرية بدقائق معدودات؟ والثاني لماذا كان الربان سعيداً؟ وثالثاً وهو ما يؤكد قلقي لم نرفع إلى الآن راية «G» كإشارة إلى الميناء نطلب من خلالها دليلاً بحرياً ييسر دخولنا إلى الميناء. غير أن معرفتي السابقة بأن خبر الشركة وصل ويأمرنا بالدخول إلى ميناء الحمرية قد يخفف من مخاوفي. كل شيء ممكن. كتمت شكوكي وخرجتُ إلى السطح أنشق الهواء المنعش وقتاً. بعد الظهر رأيت لون البحر تغير من الزرقة الداكنة إلى الزرقة المائلة إلى الخضرة حتى صار أخضر باهتاً يميل إلى الصفرة. رأيت معالم مدينة الحمرية. عندها تأكدتُ أنها ميناءنا المنشود، وصلنا خبر الدخول إليه مباشرة دون انتظار في منطقة المخطاف. بطريقتي المعتادة نزلتُ إلى

Telegram: Somrlibrary

قسم الماكينة أنتظر مع المنتظرين أمر تخفيف السرعة لوصول ساحبات الميناء التي ترافقنا حتى رصيف الميناء. وصلنا إشعار من برج القيادة يطلب تخفيف السرعة، وبعد دقيقة وصلنا آخر يطلب منا التوقف. تصورنا وصول الساحبات وبعدها عرفنا أن المطلوب عكس ذلك؛ كانت المناورات في السرعات لا من أجل الدخول إلى الميناء، بل لنرمي المخطاف مرة أخرى ونركن باخرتنا موكلين إلى انتظار سابع!

من يعلم بالأمر؟ الربان مثلنا لا يعلم؟ أسئلة كثيرة أتعبتني. كنت بحاجة إلى الراحة. استأذنت من رئيس المهندسين للخروج من قسم الماكينات. يبدو أنه قد تفهم حالتي الصحية التي تدهورت مؤخراً سمعتُ موافقته ورأيت على وجهه ابتسامة. وقبل دخول غرفتي طلباً للراحة صعدتُ إلى السطح من أجل الهواء والنظر إلى وجه معلمي. رأيت باخرتنا تقترب بشكل مخيف من باخرة أصغر منها!!!

في الحال صحت:

ـ حركوا الباخرة. حركوا الباخرة

جاء الرد:

ـ زحف المخطاف من مكان التثبيت فجأة!!

وبطريقة لا أعرف كيف أفسرها عاد النشاط يفور في بدني كما كل أفراد الطاقم، وفي الحال شغلنا المكائن ودارت المحركات بأقصى سرعتها. رفع المخطاف من مكانه وتقدمنا ميلاً واحدا بعدها رميناه بحرص ويقين فثبت في مكانه. كانت الريح عاتية. اختبرنا ثباته. نجح الأمر؟ انتظرنا ساعتين؟.. كان المكان مريحاً والبحر صار أهدأ. الريح بدأت تميل إلى السكون فيها خيط برودة لذيذ يميل إلى تجاعيد الشيخوخة كالنسيم العليل..

لا طاقة لي على البقاء في العمل. يبدو قد نجح الأمر. دخلت غرفتي أحمل ألماً أسفل ظهري وصداعاً يهز رأسي. نسيتُ تعليمات الحرص على التواجد تحت الماء أكبر وقت ممكن.. سخنت جسمي تحت مرش الماء. مستغرقاً في جلب النوم مع متعة مألوفة استلقيت على ظهري. وقتاً شعرت فيه بالنعاس اللذيذ يطبق على عيني. سمعتُ طرقاً على الباب بقوة مبالغ فيها تصحبها مناشدات بأصوات عالية تريد مني الخروج بسرعة!. «الليلة حلوة.. حلوة وجميلة». حناجر الطاقم تردد غناء «مرام» مساعد الطباخ الذي كان يضرب على قاعدة قدر الطعام الكبير، مثل سرب البط يسيرون خلفه يصفقون، وأبو النون يتقدمهم جميعاً يحرك خصره ورقبته وكتفيه راقصا.

- الليلة لا نوم فيها.

قالها رقيب السطحة في وجهي ضاحكاً.

ابتسمت له وقلت:

- حين تنتهي من الاحتفال أريدك في حديث خاص.

ابتسم وهو يدير بوجهه صوب حفل البحّارة الصاخب ولحق بهم، وما أن اختفى بينهم حتى عدتُ إلى لذتي؛ النوم ولا شيء له القدرة على جلب الراحة غيره.

Telegram: Somrlibrary

2

في أول الصباح شعرتُ بالإهمال والصداع مازال يعبث برأسي. كنت متألما أشعر بالوهن والحرارة تسكنني تدفع الآهات بخط منقطع نحو تدمر مكتوم في صدري. لاهثاً مثل عجوز مقوس الظهر لا يحسن الثبات في المشي أكتفي بالقول أمام المرآة: «أهي علامات النهاية؟».

رئيس المهندسين يطرق الباب يستفسر عن سبب تأخيري عن العمل. يقف الطباخ خلفه يحمل بين يديه وجبة الإفطار. أبو النون يدخل الغرفة رغم رفض الطباخ له، تجاوز الباب بغضون ثوان جلس وسط الغرفة، وانطلقتْ منه كلمات رسمتْ على وجهي الساخن ابتسامة باردة.

ـ اخرج..

الطباخ يطلب من أبي النون.

ـ اتركه.

ـ هيا كفى.. هو يريدني وسأبقى.

قالها أبو النون وهو يقفز من مكانه حيث كان جالساً..إلى البراد.

كان يتحرى غرفتي يفتش بعينيه المتسعتين كل زاوية فيها. يقلب بين يديه جدولاً يحتوي على أسماء مهمات طاقم الماكينة، أخذ منه حصة من الوقت.. أوراقي الملونة والمخطوطات المبعثرة وبعض حاجات الليل ومستلزمات الكتابة كانت فوق الطاولة مثل مدينة مر بها إعصار.

Telegram: Somrlibrary

لم يمض أكثر من دقائق حتى أعاد كل شيء الى مكانه! رأيت اللطف في عينيه والاحترام والتقدير في تحركاته وهو يقلب صفحات الكتب. داخل مساحة الغرفة صار كل شيء منظماً، مرتباً بمكانه، ومما زادها بهجة رائحة ورد الفل المنبعثة من منظف البلاط الذي بدأ في تنظيفه وهو يرقص ويغني... سألته:

ـ تحب الغناء أكثر أم العمل؟

ـ لا أحب مغادرة الإثنين إلّا عند النوم.

وقت مضى ولم أشعر بالضجر داخل الغرفة شعرتُ بسعادة أحببت وجودها أكبر قدر ممكن. كان يحدثني عن أدق تفاصيل حياته بطريقة ممسرحة كان يروح ويجيء أمامي منشغلاً بترتيب الغرفة وتنظيمها. بلا تردد يسألني ولا ينتظر مني جواباً، يزيد ويبتهج كلما شاهد مني ابتسامة وعلامات ترحيب واضحة. الحكايات الجنسية لم تبتعد عن تفاصيل كلامه. يطلق العنان لحنجرته مغرداً فخوراً في خبرته الذكورية بفن ملامسة النساء والمداعبة وكلام الغزل.. الكلام يسقط دفعة واحدة حين يذكر لي زوجته، يتقد الحماس في وجهه كلما وصل إلى حاجته الملحة إلى رؤية أولاده ويضحك حين يقول: «وليلاً أمهم». غريب ما يخطر في بالي الآن. مرة أستأنس بوجوده، وأخرى تمتعني منفعة شخصية أستفردها من محبته لي، ولكني لم أسأل نفسي حتى عن دافعه لخدمتي وإعطائي فكرة عن أدق أسراره؟ حيرني أبو النون هذا.. والصداع بدأ يزداد فشعرتُ بالدوران وبدأت وكأني سأسقط إلى! اعتراني الذهول!. أسمع صوتا: «اقتلوهم»! وعجلات ترنّ!. من بعيد رأيت امرأة تُلقي نفسها في النار، وثلة من الذكور تَجرّ خلفها أشجار البرتقال والليمون. وخلف الدخان كوكبة من نساء يلف أجسادهن السواد منكمشات الوجوه باكيات. في صمت عميق رأيت مجموعة من الأطفال على شكل خطوط ممتدة فوق التراب مقطعة الأشلاء. دون جدوى

Telegram: Somrlibrary

كنت أحاول الحراك فوق أرض متراخية، والفتور يثقل خطاي. إلى جواري كانت المياه ساخنة والأشجار خاوية والهواء الطلق محملاً بالغبار يحرك الإحساس بالتعب. بدأ جسدي يتحول إلى هيكل فارغ لونه رمادي مترامي الأطراف، كنت أتقدم دون توقف في صحراء شديدة الحرارة فوقي كانت السماء قاسية اللون لا ترحم بحرارتها الحارقة. داهمني شعور غامض مبهم.. إنني في الآخرة وفي طريقي إلى النار. مليئاً بالخوف والتردد شعرتُ بالذعر الشديد....!!!!

ـ كم الوقت؟

أفقت فوجدتني ممدداً على السرير وعلى جبهتي قطعة قماش مبللة.

يقف إلى جانبي صفاء الضابط الثاني.

ـ الحمد لله على سلامتك. الآن الحادية عشر.

ـ ما الذي حصل؟

ـ فقدت الوعي فنقلناك الى هنا. حرارتك كانت مرتفعة.

أعطيتك ما يلزم وانتظرت انخفاضها.

ـ أين أبو النون؟

ـ المسكين.

ـ ما به؟

ـ لو تعلم ما فعل بعد فقدانك للوعي؟

ـ ماذا فعل؟؟

ـ وقف عند باب غرفتك يضرب على رأسه ويلطم صدره ويصرخ كما تصرخ النساء يناشدنا جميعا لإنقاذك.

Telegram: Somrlibrary

ـ كان يظن أنك ـ لا قدر الله ـ قد فارقت الحياة.

ـ أين هو؟

ـ أعطيته مهدئاً، هو الآن في غرفته على ما أظن يغط في نوم عميق.

كانت غرفة المصحة تطل على عنابر الحمولة في سطح الباخرة. ثمة طرق مطارق مستمر وعمل لا يخلو من الضجيج الحاد، طلبت العودة إلى غرفتي.

خطوات وسعد ـ منظف الماكنة ـ برافقتي عرجتُ إلى غرفة أبي النون فرأيته نائما، وبعض أصحابه يملؤون فراغات غرفته. طلبتُ منهم بعد تحيتي عدم تركه وحده وأن يأتيني وقت استفاقته. دخلتُ غرفتي وكانت حاجتي إلى الاستلقاء ملحة. كان رأسي يدور وزاد شعوري برعشة برد مفاجئة. تمنيت النوم، ولكن وصول الطباخ» فراس» المفاجئ وبين يديه وجبة الغداء أتاح لأغلب أفراد الطاقم التواجد في غرفتي يسألون عن سبب إعيائي؟ بطريقة مبالغ فيها كانت أسئلتهم كالأرضة تنخر في رأسي من الداخل. كنت أميل دون أمري ذات اليمن وذات الشمال، ولكن كان عليّ التجلد وإخفاء ما ألم بي وادعاء أنني بصحة جيدة. «سأخرج للعمل بأسرع وقت». قلتُ وقد مضى من الوقت الكثير وأنا أكرر لكل سائل أنني بخير وسأعود أقوى مما كنت عليه في السابق....

تراخت ذراعاي فجأة فسقط ما كان في يدي. عجزت عن تحريك قدمي! تلك اللحظة المزعجة كان الربان قد خرج للتو من الغرفة بصحبة رئيس الضباط ورئيس المهندسين، ولم يكن أحد معي. كنت عاجزاً حتى عن إطلاق الصوت المنخفض. شعرت بضيق في التنفس. وألم في الصدر. استلقيت على ظهري وعيناي تتسعان وتدمعان؟ ـ لا أعرف السبب ـ لزمتُ الصمت ريثما تمرُّ هذه الانتكاسة المفاجئة. أردتُ أن أراه. بقيت صامتاً وقتاً طويلا. لم أقم بأي حركة باستثناء انتظار نصفي الآخر وعيناي يشوش

Telegram: Somrlibrary

عليهما الدمع أنظر إلى السقف. تبادر إلى ذهني أنه سيحضر، وفي أيه لحظة سأسمع منه كلمة.

كنتُ كمن يحول الخوف من المجهول إلى طمأنينة. كان قلبي الضعيف ينبئني أنه سيحضر. سرعان ما يغدو الانتظار مملاً. أحس بألم في عيني كلما حاولت إغماضهما. أطبقت عليهما بقوة. حاولت التمتع بالظلام. كنت أرى بريقاً ووميضَ مصباحٍ يدوي! عاد «لبيب» الحارس الليلي من خلف كوة الظلام الحالك. ـ لماذا؟ ـ يحمل بيده مصباحه وفي الأخرى كتاباً. ما أن وقف على مبعدة خطوتين مني أو أكثر حتى فتح دفة الكتاب وبدأ يقرأ. كان الظلام يستفز استغرابي ويثير تساؤلاتي: «كيف تتأتى لك القراءة وسط الظلام؟». لم يكن يصغ إلي. كان يقرأ بصوت يسمعه كل من كان خلف الأبواب المغلقة في بيوت آيلة للسقوط، وعلى طريقته المعتادة في التعامل معي. تحرك نحوي فجأة ومدَّ يده وهي تحمل الكتاب وأدخلها في صدري! اخترقت يده جسمي والكتاب فيها وخرجت بيضاء خالية من أي شيء. وقال: «لن تراني مرة أخرى؟». لحظتها بدأت شفتاي تتمم ببعض كلمات نسيتها عندما أفقت على وقع طرقات باب الغرفة المصحوبة بصوت استئذان.

ولكن ما قصة لبيب؟

لماذا لا أراه مرة أخرى؟

كان طاقم الماكينة يهمُ بالدخول. سمحتُ لهم، وانشغلت بهم، وفي غضون ثوان كانوا أمامي مشوشين الملامح وكأنهم خلف ضباب. كنت ادعي ـ كلما سألوا عن حالتي ـ أنني بخير وسأعود إلى العمل قريباً. كانت ساعات ذلك النهار مشحونة بالعاطفة والانسجام المشجع للراحة ومن مساحات إنسانية وجدت انفعالاً شخصياً ساعدني على التحسن في تجاوز المحنة. لا

Telegram: Somrlibrary

أبالغ إذا قلت شعرت بسريان الدم في شراييني سريعاً والحركة تشاطر رغباتي في الرجوع إلى العمل وإعطاء التوجيهات. لا متعة في الشراب فترة من الوقت حددها الطبيب الممارس ـ وهو الضابط الثاني ـ وزادني وهو يقدم نصيحته الطبية: «عليك الامتناع عن البارد والمثلجات وقتا أقصاه شهرا».

3

عندما يرتفع القمر كالبرتقالة الطازجة يشرب رواد النظر آخر رشفة وداع من شمس النهار فيستسيغ السمع رنين المدى: «يوم مضى». وفي الأذن الأخرى صدى لحظات تساعدك على النسيان وأخرى مثل انتظارنا الأزلي للميناء باقية فيه المخاطر. خلف رائحة القهوة بدأت خيول دخان سيجارتي تُبدي رأيها. استدرتُ مرحباً بالليل وتصورتُ مهرجان النجوم القادم إلينا بقوة سيأخذ بيدي إلى جزر لا ترغب النساء على أرضها في السيطرة على الرجال. لعلي فهمت معنى مذارعة أرضية الباخرة أول المغيب.

مزحة! ولعل السير محموماً صار يستخدمني لأغراض لا أعرف غاياتها؟

شعرت وكأن عيون البحر الزرقاء تريد شرائي من الباخرة؟ كان تخميناً فقط ويمكن فهم الأماكن الأخرى على أنها أمر خاطئ وأن الغاية من وجودنا هنا وفي هذه اللحظة بالذات ليس في الإمكان تفسيرها بهذه السهولة.

نورس أبيض مرَّ سريعاً. مثل النهار تجاوز النظر فوق سنابل البحر الزرقاء إلى الأرض واختفى خلف حجب الظلام المشبع بحمرة الأفق العنيد. تخيلت هذا وكان في نفسي كتابتها ولكن تركيزي المشدود لرقيب السطحة وهو يكلمني بحرفية عالية، وإن لم تكن مقنعة عن حادثة الكيبل الضوئي. دفعني إلى تناسي رغباتي المكبوتة والإصغاء إليه حتى النهاية، ولكن ما كان يُحيرني هو كيف تجاهل ضابط الملاحة جهاز تصوير الأعماق؟ «أخذنا

Telegram: Somrlibrary

الأمر بحذر. وعملنا ما أُمرنا به بدقة». يحدثني رقيب السطحة ويداه الغليظتان تمتدان نحوي وتعود عابثة بشعر صدره، وعندما مسح على أنفه الكبير وأمسك باليمنى شاربه قال: «رئيس الضباط حدد المكان، فرمينا المخطاف بإتقان، وفي دقائق معدودات عادت الباخرة الى الخلف فتأكدنا أن الأمر قد تمّ، حلقات حديد المخطاف أنا من شدّها بإحكام». «وكيف لكم معرفة أن المخطاف علق بالكيبل الضوئي؟ ومتى؟». أغلب أجوبته لم تكن مقنعة رغم شخصيته المعروفة لدى الجميع يبالغ كثيراً في تصوير الأحداث، إلّا أنني شعرت أنه لم يكن مبالغاً، لكن قناعتي عن الحادثة لم تكتمل بعد؛ إذ لا أستطيع تخيل سبب الحادثة التي كلفتنا الكثير كانت على حين غفلة من برج القيادة. ولو عرفنا أن أغلب ضباط الملاحة لهم الخبرة التي لا تقل عن سنين خدمتنا، لكن كيف حدث الذي حدث؟ ولماذا رميّ المخطاف في هذا المكان تحديدا وتبين بعد ساعة أو أقل أنه مكان الكيبل الضوئي الممدود في قاع الخليج؟ لم يكن حديثه عن غفلة الضابط الرابع صحيحاً. أراد نقل رأي رئيس الضباط على أنه المهمل في عدم النظر الى شاشة قياس الأعماق والصور التي كشفت ما هو موجود فيها. أكاد أكون جازماً هناك خطأ أكبر مما أسمع. الحادثة أكبر مما نتصورها. الكيبل الضوئي الذي علق برأس المخطاف يمكن له أن ينهي حياتنا البحرية أبدا، وهذا لا يستثني الغرامات بمبالغ طائلة تكلف الشركة وتكلفنا. هناك شيء مخفي!. حلقة فارغة من سلسلة حلقات الحادثة. أتصور لا يعرف بها رقيب السطحة، وقد أكدتْ ذلك البهجة التي سمعتها في صوته حين قال:

ـ أردتك أن تكون على علم بما سمعت.

ـ ممن سمعت؟

ـ من الضابط الثالث.

ومن غير جواب دلفتُ إلى العتمة الممتدة من مؤخرة الباخرة إلى البحر.

Telegram: Somrlibrary

بدأت ألقي أسئلتي إلى الأفق صامتاً...

يرد البحر. هدير خافت. بعض ثوان ظلت عيناي مغلقتان. أعود وافتحهما بتأن وهدوء أسحب نفساً طويلا. أطلقه ببطء الى الفضاء. مثبت الذهنِ والمزاج رائقاً أتأمل. همست للأشياء التي أمامي: «أحدنا فقد الآخر». أنا واثق منه إنه الآن ينظرني، يدقق في أدق حركاتي؛ يحاول كشف بعض الاحتمالات التي تعتمل في عقلي. كنت أعطي الأمور وصفاً وقلبي يشعر أن في الجهة الأخرى من الأرض القريبة من الشمس أجوبة. الاحتمال نفسه ينتابني في بدلة غريبة وربطة عنق أغرب سيظهر، أو في لباس مغاير للمعتاد سيظهر.

مددتُ نصف جسمي من سياج مؤخرة الباخرة إلى ظلمة الأفق وبين عينيّ لحظة ظهوره.

ـ إنه الليل..

صوت رقيب السطحة كان إلى جواري ولا أعلم متى لحق بي. أيضاً من غير جواب كنت بين أجنحة الظلام أرسم النوارس وأطالع زرقة البحر المحتملة.

شاهدتُ أقماراً شاحبة باهتة تصعد من الأعماق إلى السطح تاركةً فوق وجه الموج خيوطاً من الضوء الأصفر المحمر. اقتربتْ الملامح أكثر إلى وجهي فرأيت مجموعة من الوجوه الملونة تحاول الخروج من الوسط. ظلتْ الأشياء صامتة. رأيت ومضات لامعة تنبعث من القاع؛ كلما اصطدمت الأمواج بعضها مع بعض كانت القريبة منها إلى بدن الباخرة تهدي الأخرى إلى الطريق. كانت الحركة مدّ من غير جزر. تدفق كبير هائل....!!!!.

ـ ما بك؟؟؟

رقيب السطحة يسألني..

Telegram: Somrlibrary

قلتُ وأنا أشير إلى أطراف البحر بخوف وابتهاج:

ـ هل رأيت ما رأيته؟

ـ نعم هو القمر الجميل يتوسط الأفق.

ليس بوسع المرء تجاهل سماء ليل البحر. ليس بوسعك أن تكون واصفاً حقيقياً لبريق النجوم ولا للمعان القمر. لا ترضى أنت باختصار القول عن رشاقة أذرع الموجات العارية في تناوبها على لمس خدود الأفق الملونة برقة عاشقة.

ـ أنت تعرفني؟

ـ ....

الدهشة التي ارتسمت على وجه رقيب السطحة من سؤال انطلق مني على شكل صوت واضح دفعتني إلى رسم ابتسامة تهلل بها وجهي، وفي الحال أضفت:

ـ عفوا يا صديقي لا أقصدك.

ـ وددتُ القول أعرفك.

ـ وما تعرف عني؟

ـ منذ أمد بعيد أسمع عنك كل الخير. ومنذ كنا معا، لم أجد منك إلّا ما سمعته.

ـ وهل ترى هذه حقيقة موجودة في داخلنا؟

ـ لا أدري.

هي الحقيقة.

أنا تقصدتُ ذلك.

أغلبنا يظهر في أماكن عمله عكس ما تخفيه نفسه الطامحة للأشياء.

لا يستطيع البوح عنها مثلا: الرفض والتحرر والفرق في المستويات والمعاملة، حتى في مكان العمل والمدير، الروتين كما الرتابة المملة

Telegram: Somrlibrary

والشعور بالذنب في تركه قلباً كان الأجدر به أن يبقى قربه. احتمالاتي قد تكون مغلوطة.

قد يكون ما أفكر به الآن عبارة عن شعور حاد بالوحدة، أو هو اشتياق طبيعي لنصفي الآخر أو إلى أنثى. «ما ذنب رقيب السطحة وهذا كله؟». سألتُ نفسي وفي الحال قلت:

ـ أشعر أن هناك سراً لم نعرفه بعد عن حادثة الكيبل الضوئي؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ المكان مؤشر في خرائط الملاحة؟

ـ لا أفهم.

ـ لا عليك. فقط كن بخير.

ومثل ضوء انطفأ فجأة انهيتُ الحديث معه وعدتُ إلى ما كان يشغلني وتجولتُ وقتاً قصيراً في أروقة الباخرة، بعدها رغبتُ في المرور على أبي النون والاطمئنان عليه..

Telegram: Somrlibrary

4

الليل كعادته يسكنه الظلام ويسري فيه خرس الأشياء غفلة. فكرةٌ تدفعنا إلى الدخول في مجالنا الشخصي نقف فيها بلا شعور عند مكاننا المعتاد ننظر في ذهول كيف تصير لحظات الاستلقاء على الظهر أشبه ما تكون بالتحليق في فضاء الذات المشتاقة إلى لمس الجمال في الخيال. أحاول ولا أمتنع من المحاولة في الابتعاد أكبر قدر ممكن عن مكان تواجدي إلى حيث أرغب. ولا أحسب لخطورة الرجوع حساباً بقدر همومي التي تتجدد كلما ذكرت من رحل وتركني وحيداً بلا صديق ولا مشورة ولا رأي. في وقت مضى وعندما تعمق الجميع في النوم، جاءني دون أن يثير ضجة.. قبّلني ولم ينس تعليماته الصعبة. كنت حينها في سن المراهقة ولم أصغ تماماً لما قاله، فقط كنت أجيب بعلامة تعني سمعاً وطاعة. حينئذ قضيت معه أجمل العمر، ثم عاد من حيث أتى. تعلقتُ بذلك الأمل طويلاً. في أعماق وحدتي، حيث كان القلب يخفق في حضوره. تصورتُ إن غفيت الليلة سيزورني في الأحلام. وسأشكو إليه الحال الذي أمسيتُ فيه. وقد أضطر إلى الاختباء ليبحث عني فأتمتع كلما نادى اسمي.. يبدو أثقلت عليه ولم أتركه وشأنه. لم أستطع المضي من دونه. الوجهة التي قصدتها كانت مخطئة؟ لا أدري. ربّما كنتُ أبحث عن شخص آخر له مثل عقل أبي؟ ربما فكرتُ في نصفي الأخر الذي غادرني على هفوة ـ الكذب ـ لم أكن أقصدها؟ دق القلب مرة وصار العقل يألف الفكرة: «كل الذي تحبه يغادر فجأة». فكرت صامتاً فوق فراشي مستلقياً على ظهري أنظر السقف من

Telegram: Somrlibrary

وراء الجزع والخمول، فجأة صرتُ محتاجاً إلى الغوص في أعماق تاريخي الشخصي. وجدتُ أن الصدفة والقدر صوته، وما يأتي من أوراقه التي تركها لي حياة عظيمة، الكلم متزنة المعنى. الآن وقد مد الظلام جناحيه صار التفكير في كل شيء مباحاً. عادت الأيام الماضية تباعاً بيضاء فوق دائرة شعاع رأسي تدور. أحب الخيال والتمتع بشهواته الجامحة الملتهبة بإلحاح مستمر أحب ذلك الفتى الذي ينظر إلى نظارة أبيه السوداء وهي معلقة فوق أرنبة أنفه، شغوفاً بها يريد. لمسها ويتمنى يوما مثلها. خُيل إلي ذات مرة وكأني خارج نطاق الوقت، أرى مستقبلي واقفاً تحت ظل شجرة وهو ينتظرني بوجهه الباسم مع قطيع من الغزلان يقرأ لي شيئا من المقدس.

«يحدث هذا الآن؟». أكلم نفسي وحين يكون موعد كلام القاطنين معي في الغرفة، يلزمون الصمت ولا يتحركون أبداً.. يحتفظون بأسرارهم في صدورهم العميقة، وأنا لا سر لي، لم أستطع التحرر من عادة غير حميدة؛ ما أن يتناهى إلى مسامعي سؤالهم عني حتى أطلق العنان إلى فخامة لساني المضطرب ناشراً أدق تفاصيل حياتي أمامهم. أتكلم وأتكلم ولا أتوقف عند حدود الإجابة، بل أخلق الأحداث من بنات أفكاري، وألقيها على مسامعهم بحذر، وكأنها الواقع.. الليلة فيما أظن يبدو الهواء بارداً؟ أتخيل هذا؟ عدلتُ من نومي وشددتُ رأسي بذراعي إلى ركبتي بقوة، وكأنني لم أبك من قبل. بكيت لمدة طويلة حتى أحسستُ أن هناك من حولي نظرات تراقبني، أنهيت نوبة حادة من الحزن راكعاً ألعن الفراق وأهله. بوتيرة متصاعدة ألوذ بنفسي حتى وصل الحال بنا إلى عدم الانسجام المؤدي للصمت. لحظة هدأتُ فيها ـ لا ـ نعم يبدو نهضتُ من الفراش مهموماً تحملني ساقيَّ إلى الكنبة، وهناك دسستُ رأسي تحت الوسادة؛ عدتُ إلى البكاء ولكن هذه المرة بكاء الحاجة إلى الحب والملاطفة فعادتْ نظراتها إلى مكان تواجدي من خلال الصورة الباهتة. بادلتني الابتسامة التي ما أن

ظهرت منها حتى توهج الذهن بمصابيح طرقات ماطرة، منذ ذلك الوقت وأنا أحاول جاهداً أن أعيد ذلك الانشراح، إلّا أن ظروفاً خاصة دفعتني إلى التجاهل؛ كنت بأمس الحاجة إلى النسيان ولابد للمرء من حين إلى آخر أن يستسلم لمثل هذه الحاجة.

الليلة تثيرني فيها الحاجة إلى الكلام، الجميع يصغون إليّ بلون ثيابهم الباهتة تجمعهم لحظة تستر. كانوا يراقبونني بعيون متسعة، سنوات وأنا أنظر لهم ولا أنظر إلى حالي. لم يكن يخطر على بالي أبداً أن هناك خطأ ما في تكويني، وكأن يداً خفية أخرجت مني شيئاً أمرتهُ بالتشكل أمامي على وتيرة صوت مُدوٍّ: «أمك وأبوك وأختك وأخوك». بهيئتهم هذه داخل الصورة المعلقة أمامي كنت أسمع أصواتهم وأرى من خلف ضباب لون الصورة معاني كانت تتحرك معي في كل مرة على شكل كلمات مختلفة ترميني في عزلة عن العالم، نتكلم أحياناً.. نصمت حتى يصل بنا الأمر إلى حضن بعضنا.

السكون الذي جاء في الوقت المناسب تغلغل في النفوس. شمل الممرات.. البحّارة يغطون في نوم عميق، عرفتُ أنها ليلة أخرى يستحيل فيها الرقاد. قرأت كتاباً بتأثر، قضيتُ ساعات طوالا أتحايل على قلقي؟ دون جدوى مازال النوم يجافيني ويهرب تاركاً فكري هائماً فوق ضباب الأفكار المتشابكة. ربّما إذا ازدادت قناعات المرء انجلت شكوكه وخذلته الذات نزولاً به إلى الأصغر؟ ربّما حزني من الفراق المتكرر كور تفكيري ودفع تركيزي إلى أشد حالات الوحدة؟ أشعر بالمصير المحتوم صار بعيداً. خارج الغرفة جزء من حياتي مشحون بالغموض. وإلى أبعد من ممرات الباخرة. هناك الآخر يرقبني وهو العالم المكنون مليئاً بالأسرار؛ عالم غير مثالي ولا يمكن لنا معرفته أبداً مثله مثل الأرض تنتظر مرور العاصفة لتأخذ بعد الخراب أكبر قدر ممكن من أجسادنا التي صارت تنفر من العيش معنا ـ

Telegram: Somrlibrary

صمت آخر ـ يُعلمني البحر النسيان وأنا ذاكرة. التفكير السلبي هو الضجر، ولو فكرنا في ألطف الأشياء بدل التوقف عند الشعور بالسعادة لوصلنا إلى حالة من الاستقرار الداخلي والانفتاح الخارجي قدر المستطاع، ولكننا نحتاج إلى إدراك التعبير الصحيح عن حاجتنا الماسة إلى قوي لا إلى شرير، فكرة تأمين حقنا بدل الإسراف في الرقة والطيبة على قناعة وحدهم الأموات يعرفون الأجوبة. «وهذا الوداع ما حسبته خلاصاً؛ إنه عودتي المحتومة». قلتُ وقد أعياني الرفض من الجميع..

ذات يوم ممطر بغزارة رافقني الآخر بخطوة خاطفة أو خطوتين بعدها اختفى فجأة. تقدمتُ مسرعاً إلى الباب المنتصب وسط الحائط الإسمنتي.. وحدي دخلتُ المكان واتخذت مكاني الذي أرغب فيه. جلستُ على مقعد عال قرب الساقي وطلبت القهوة. وبينما كنت أشرب سمعت: «دعيني أقبّلك». ألتفتُّ فرأيت نصف رأس أصلع فوق نصف وجه أسود يمد شفتيه الغليظتين إلى رأسٍ شَعرهُ الأحمر نصف شلال ينزل على شفتين حمراوين في نصف وجه أشقر. وهي تنفر منه. قلتُ في نفسي ستصفعه على خده وتنظر إليّ.. تستعصم بي. هذا ما حِسبته.. في ثوان معدودات كشفت الشقراء عن رغبتها وأثبتت لي كم كنت غبياً. لقد ارتمت في حضن الأصلع وأخذت بيده ورمتني بنظرة ساخرة وهي تضحك. خرجتْ معه وكان رنين كعبها العالي يهزُّ بلاط المكان هزا. لاقت استحسان الحضورِ. صفقوا لها ولا أدري ما سر ابتهاج العجزة في تلك اللحظة؟

انتصارها على ظني الخاطئ؟ يمكن.. ولا أستبعد ذلك. في الواقع أخذتني القهوة وخذلان المشهد إلى سمرائي الفرنسية.. وأكثر.. تابعتُ طريقي في الخيال... رائحة القهوة تعبث في رأسي ولمسة من يديها الرقيقة يَهبُ لها التعرق والراحة. عناق طويل. فعلنا كل ما علينا فعله دون النظر أو القلق من النظرات الحادة التي كانت تحوم حولنا. كنت أضغط بشدة

على ظهرها ألصق صدري بصدرها أحاول الامساك بمليكتي. أمام عيون الذكور التي تنظر إلينا بغرابة كنت أرى في اتساع عيونهم خصائص أعرفها جيداً تفتح للشجار أبواباً لا تغلق. كنت مستعداً لأن أنتصر لذكوريتي. أفكر: «أن تحارب من أجلها وتنتصر ستنال منها طوال حياتك». ها أنا الآن أتذكر وقد ارتسمتْ على وجهي الابتسامة. نحن الذين نحارب من أجل اثبات الذكورية. هيء. هيء. هيء. إلى متى نخوض في بحر الغباء والعناد؟ هل نريد الموت من أجل الحياة؟ أغلب أصدقائي على الأرض ينتصرون في حرب وينتظرون أخرى.

كنت معهم أقود مجموعة.

سيوفنا من الخشب.

دروعنا من القماش.

تعودنا ضرب بعضنا.

فريق من أولاد شارع الشرق تنافس فريقاً من أولاد في شارع الغرب تحت أنظار فتيات الشرفات كان الدم يسيل فيعلو الهتاف المرافق للتصفيق الحار. أغلب أوقات اليوم هو الليل حيث تعلو بهجتنا في الاقتتال، وفي النهار كرهنا الذهاب إلى المدرسة. لا نريد ثقافات أخرى؛ فثقافة المؤامرة تكفينا، نرغب في التدرب على طرق الهجوم نكره الدفاع عن النفس. مملوئين ببطولات التاريخ من أبطال نشعر أن دماءهم التي تمتد فينا تدفعنا الى الموت. حتى النصر ذاته دمار. ذات مرة سألت أبي عن معنى التاريخ فأجاب وبين يديه الجريدة: «التاريخ لا تختلف أهميته عن أهمية الحاضر والمستقبل وأعلم هو من صناعة المخلوق والمخلوق عقله ناقص أمام صناعة الخالق». عليك أن تفهم أن القوة الفردية تضعف الأفراد، والمجتمع ينهار ليزدهر فيه الموت والخداع والكذب والقتل والسرقات عندما يكون القضاء هشاً وطقوس العبادات ثوباً في الصباح وفي النهار

Telegram: Somrlibrary

صوت بندقية والخوف بطاقة مرور لقلوب الضعفاء ليلاً. وبعدها: تنوح الجياع. تئن الأرمل. يُرمى الشيوخ في الشوارع. تقتل الأطفال. تنحر رقاب الشباب. تُهدم الصروح. يكمم الخوف صوت العقل. يعلو صوت المخادع. يموت المثقف. يكبر الجاهل... مثل أرض لم تلمسها الشمس دهراً تكون الأيام والأفواه نهراً يشح فيه نبع الماء والنفوس متلاطمة. والضحكات تختفي وإن ظهرت تكون مثل أزهار ذابلة. تتلحف النساء بالسواد. يفكر الشباب في طريق الموت أو الانتحار لتبقى الهجرة هي واحة الأمل الراجح والأخير. «أبوك يختلف في تفكيره عنا». هذا ما تردده أمي من داخل الصورة التي أمامي كلما سألتها عن القصد من كلامه. أعدتُ أبي وأمي وأخي وأختي إلى حيث مكانهم في الصورة وأغلقت موجة التفكير من خلال أصواتهم. وسط الجدار الذي أمامي مباشرة علقت الصورة في مكانها بالضبط وعدلتُ من وضعيتها التي أحبها مائلة قليلاً.

عدتُ إلى الفراش، ونادراً ما أنظر إلى الساعة ليلاً.

كان الوقت الثانية بعد منتصف الليل بقليل. لم يكن لدي حينها وقت إضافي، فقررت النوم. وإن لم يكن النوم حاضراً؟ ملاذي الحالي هو قضاء الوقت في التخيل. لا أعرف كم أقدر حالتي صرت غارقاً في طفولتي منهمكاً في عيش الأمراء. وهو خيال أعيشه من حين إلى آخر أستحضره رغم معرفتي أن الوقت بات متأخرا وجدتني دون أمر مني أتوجه إلى إغماض عيني طوعاً لا استسلام لخيط أحلامي...

Telegram: Somrlibrary

5

بين الانتظار المتكرر وسط البحر وتقلبات الاحتمالات المبعثرة التي أثقلت رؤوسنا بالأفكار الخشنة داخل تراتشي ـ باخرتنا ـ ظهر الأمل فجأة للتحرك بأسرع وقت إلى ميناء الحمرية. نحتاج بعضا من الوقت نسخن فيه المحركات لتستأنف المسير. لا وقت للتفكير أو التشكيك ولا حتى الهمس بسؤال: كيف جاء الأمر معاكساً لتوقعاتنا وما جدوى الانتظار؟ أسئلة يمكن أن تفسر على أنها تمرد على قرارات الشركة المتخبطة وغير المتزنة والتي تخلو من خطة تفضي إلى نتائج مرتقبة أولها وآخرها الربح من هذا الإبحار الذي تحول إلى انتظار أبدي...

سمعنا وأطعنا، ولكن لم نكن نتوقع أن ترسو سفينتنا في ميناء الحمرية! ونحن كنا متجهين صوب ميناء الشارقة. نشاط يظهر في الجو.. كل بحّار بدأ يظهر ما يملكه من قوة. إحساس صادق بدأ ينتشر بين البحّارة على أنهم إلى الأرض متجهون، ومع ذلك لازال بعضنا ـ أنا ورئيس المهندسين والطباخ ـ نشكك في صدق ما أُمرنا به. ما هي الغايات من كل هذه الأوامر المتتالية التي تدعونا عبثاً إلى تحريك الباخرة في عرض البحر؟ تذوقنا طعم المرارة التي لم تمرّ على صدورنا من قبل بهذا الثقل خلال سنين من الخدمة طويلة. أكثر من عشرين سنة مضت. اكتسبنا خبرة أضحت تحرك الشك فينا من غرابة ما يحدث. ما لهذه الإدارة لا تتدارك الخسائر المتتالية بسبب التخبط في القرارات المتكررة؟

Telegram: Somrlibrary

صار قسم الماكينة جاهزاً تماماً للإبحار. حقيقة واضحة أكثر من اللازم. رغبتنا في التحرك دفعتْ أجسادنا إلى العمل المضاعف. قمنا بصيانة أغلب قطع المحرك العاطلة والتي كانت خارجة عن نطاق الخدمة وتصفيفها ضمن القطع الصالحة للاستعمال. تم تصليح أغلب أجزاء المنظومات البحرية التي كان تصليحها مؤجلا. وهذا هو العمل في البحر يأخذ أشكالاً مختلفة كثيرة عن العمل على الأرض، حيث يتواجد البحّار قرب مكان عمله طوال مدة الخدمة. ولم يعد يبدو على وجوه البحّارة التعب. لم يبق إلّا الجد والحذر من التعرض لأي خطر محتمل. غير بعيد عن هذه الجلبة شعرت أنني أتواجد في مكاني الحقيقي الذي تعلمت منه الأخذ على الثبات فوق مساحتي التي أحب. ليس هناك أصدق من الوقوف أمام المحرك الرئيس لحظة ضغط الهواء بقوة عالية داخل قنوات المكبس ليدور بعد ضجة معلناً عن بدء مرحلة إبحار جديدة... هذه المرة إلى الأرض. اختبأنا في أفراحنا المكبوتة. رمى بعضنا الهم جانبا وبدأ يدندن مع نفسه. الرحلة مازالت بطيئة والميناء رغم قربه حسب القياس البحري كان بعيداً عن مدى رؤيتنا. صعدتُ إلى السطح كي ألمس الارتياح. أشعلتُ سيجارتي وبدأت أنظر من خلال دوائر الدخان إلى بشاشة وجوه الطاقم. أجسادهم أطول من المعتاد. أذرعهم مفتولة العضلات. يحسنون الإصغاء. ولا يبالون من تكرار الأمر عليهم. جهزوا تراتشي تماماً. نظف سطحها بماء البحر والصابون. فتحت العنابر. ورُفعتْ أذرع الرافعات. وتهيأت حبال الربط. ومثل وزة بيضاء شُدّ عليها شريط أحمر. كان أبو النون يظهر ويختفي فجأة يمرُّ على البحّارة بثوبه الأبيض وعلى كتفه قطعة قماش حمراء يحمل بين يديه الشاي والبسكويت. كان النهار برتقالي اللون والبحر أخضر. تبادلتُ النظرات مع الشمس. أعادني ظلي إلى البيت وقتاً. بعدها ألتفتُ إلى سرب من النوارس مرّ سريعاً من خلال المدّ البعيد. على صدر البحر ظهر

فجأة أثر أبيض عميق تتركه الباخرة في تقدمها البطيء. من حولي العالم أزرق فاتح، يبدو أن البحر صار صامتاً. مرّ من أمامي طير وعاد آخر. لم تسرقني متعة النظر ولا نشوة استنشاق هواء من الأرض المحتملة عن عملي. عدتُ أقوى من ذي قبل ونزلت عميقاً إلى أبعد نقطة في قسم الماكينة. كنتُ شديد الحرص على دخول أكبر قدر ممكن من ماء البحر لمنظومة التبريد. أعرف ضعف الأنابيب الناقلة للماء الحلو، وأقدر تدفقه البطيء مروراً بحرارة المحرك الرئيس. أقصى درجة هي ثمانون وإن ارتفعتْ أكثر ينبغي تنظيف الخزانات الناقلة وتحميلها بالماء، وهذا الأمر لا يُستحب حدوثه. فتحتُ منظومة سحب مياه البحر بأقصى قوتها وبلغتُ رئيس المهندسين عن خطتي؟ رأيت موافقته التي برمجها في الحال في تحريك عتلة السرعة إلى الأمام. ازدادتْ سرعتنا وبدأنا نلمح ضباب الأرض. تغير لون البحر إلى أخضر مصفرا. ومن حولنا كوكبة هائلة من طيور النوارس تحاول مسك مقدمة الباخرة. ببدلته البيضاء رأيت الربان نازلاً من أعلى مكان في تراتشي إلى السطح. يتبعه رئيس الضباط يلبس البرتقالي المخطط بالأصفر. ابتعدتُ عن المكان. ذهبتُ إلى المشهد الذي أحب. كان البحر يحرك الموج على شكل سنابل زرقاء هشّة تارة وأخرى على شكل طيور عملاقة تختفي لحظة هبوطها. وجدتني أضحك. مشهد مألوف: تلك الباخرة المحاذية تسابقنا. تبدو أسرع ولكن مازالت خلفنا. وهذا الزورق الخشبي فيه البحّارة تفوق شجاعتنا. ومن اليمين إلى اليسار تركتُ النظر. انسحبتُ إلى داخل الباخرة. سمعتُ وقع أقدام سريعة تسترق السمع والنظر وفي أروقة الباخرة هناك بعض البحّارة يغنون بحذر ويرقصون، لكن بصوت خفيض وحركات محسوبة. سألت عن سبب ذلك؟ أجابوني وعلى وجوههم راحة بادية:

ـ الربان في الصالة.

Telegram: Somrlibrary

تركتُ أفراحهم المؤجلة متوجهاً إلى الصالة بعد أن طلبتُ منهم إطلاق العنان لأصواتهم.

ـ سجل ما تحتاجه من مؤن.

أمر الربان «فراسا» الطباخ الذي مدَّ يده وهي تحمل ورقة وقال متأكداً:

ـ كل ما نحتاجه مسجل هنا.

«صمتي رسم بيني وبينهم جدارا» فكرت قبل أن ألقي التحية عليهم.

ـ فلتكن أنتَ من يجلب لنا هذه المواد بعد وصولنا.

طلب الربان ذلك مني بعد أن رد التحية بأجمل منها، وقد سلمني الورقة.

ـ خذ معك ما تحتاج من الطاقم.

قال رئيس الضباط قبل أن يغادر الصالة خلف الربان.

ـ هل كانوا يعدّون الأمر مسبقاً؟ أم إن دخولي المفاجئ عليهم وضعني أمام الأمر الواقع؟

سألتُ فراساً فأجاب:

ـ لقد اختارك الربان منذ ليلة البارحة.

ـ كيف؟ لا علم لي؟

ـ هو من قرر بعد اجتماع البارحة.

من غير جواب خرجتُ من الصالة وتبعتُ أثر الربان. وجدته يقف عند الممر الكبير وسط بحّارة السطحة على شكل نصف دائرة كان وهو يحدثهم يحرك يديه كأنه خطيب يعلم الطلاب فن الخطابة. من المحتمل ألا أتصرف بطريقة سريعة، كان التريث أفضل. لم أترك له فسحة تذكر حين سألته عن سبب تكليفي مرة أخرى في جلب المؤن من الميناء المرتقب؟ ساد الصمت! يبدو أن طريقتي في طرح السؤال كانت غير صحيحة؟ ربّما

Telegram: Somrlibrary

قاطعتُ شيئاً مهما؟ ربّما هو صوتي العالي؟ وربّما حسبَ جميع من نظرَ إلي نظرة حالمة أنني الآن على استعداد تام للمشاجرة؟ أكاد أنفجر من الصمت الذي طال في النظرات الثابتة.

ـ أعتذر. قاطعتكم من غير قصد. كنت أفكر في إعادة النظر في بعض المواد.

قلت بلهجة مرتبكة أناشده فيها بإعفائي من هذا الأمر، لأنه يعرف رفضي مسبقاً. تركني من غير جواب، ولم ينظر لي واثقاً من نفسه قال: «سنرى». بعدها ابتسم. رأيت النظرات تتبع صوته. شعرتُ بالحرج. فكرتُ في الانسحاب. كل صوت أسمعه من داخل رأسي تجاهلته. يراودني أنا الرافض للتجاهل. كنتُ أخشى الذهاب وراءه. صارتْ يدي تتعرق وقتاً أصبح قلبي يدق بقوة.

ـ لدي التزامات أخرى.

قلتُها بقوة.. فسكتَ الجميع. وانتبه الربان الذي قال بلهجة واثقة:

ـ أفهم وأقدر وضعك.

ثمَّ أضاف مبتسماً:

ـ نتكلم عنك..

ـ لماذا؟

ـ نخطط لعمل شيء يفرحك.

ـ عن ماذا تتحدث؟!

ـ لا تفسد المفاجأة.

ـ سترى.. سترى.. وسنفرح جميعا معك.

Telegram: Somrlibrary

ردد أفراد طاقم السطحة هذه الكلمات وشعرتُ بكفٍ قد حطتْ على كتفي وسمعت صوت لطيف:

ـ تعال معي.

التفتُ فرأيت الضابط الثاني يرافق خطواتي إلى الداخل ويحدثني عن مخططهم بطريقة مشفرة، ولكني فهمتُ الامر المرتقب حدوثه جاء بطلب من طاقم تراتشي. بدأ يحدثني عن كيفية عقدهم الاجتماع ليلة البارحة سراً للنظر في الطلب الذي صدر عنهم وبعد دقائق جاءت الموافقة عليه بالإجماع، ثمَّ زاد ضاحكاً:

ـ اتركْ التفكير الآن. ستعرف ما ينتظرك.

تثيرني المفاجئات. وددتُ لو عرفت ما كانوا يفكرون فيه، ولكن يبدو قد اتفق الجميع على الكتمان. وجهة نظر يمكن لها أن تكون صحيحة. بين الفينة والأخرى نرسم البهجة على وجوه البحّارة. في محلها عند أرض الميناء.. مفاجأة باهرة ستحصد الالتزام والمثابرة من ورائها. لماذا أنا؟سؤال بدأ يزداد تكراره في نفسي كلما صادفني أحدهم وعلى وجهه ابتسامة عريضة وغيره يردد وهو يشير بسبابته:

ـ سترى ما ينتظرك، ربما ستفرح كثيراً.

لا أدري السلوك نفسه كان يبرز للأخرين مني؟ كنت أتخبط في الخطوات خجلاً؟ أهي مظاهر الغبطة والإصرار على البقاء في السكوت كتعبير الامتنان؟ شعور غريب لكنه لذيذ!. مثل رعشة برد داهمتني لمسة تناقض قد تفسد كياستي وتلخبط أفكاري حتى توجيهات النصح في العمل لبعض أفراد طاقم قسم الماكينة صارت خافتة. خافتة جداً في النظر إلى ما كنت عليه. ما الذي حصل؟ أشعر بطباعي بدأت تتغير. تماماً صرت ودودا أكثر من اللازم! أفكر بشوق وارتياب عن سبب التواجد على الأرض. يبدو

Telegram: Somrlibrary

لم أكن في أفضل أحوالي، ولأول مرة فكرت في التواجد بين البحّارة ـ أمر فيه الكثير من الحرج ـ صار لزاماً عليّ التريث قليلاً، ولكن لم أستطع البقاء خارج الغرفة.

Telegram: Somrlibrary

الحياة وغيرها

مزيداً من التفكير.. مزيداً من الاحتمالات

لا أستطيع كتمان السعادة ولا الشعور بالغبطة ولا أحد له القدرة على إخراجي من ذاتي التي كانت تدفعني إلى الاحتفال؛ لقد وجدت في صوتي الذي أعرفه نشاطاً غريباً! هو يفضل الغناء! ويعلم أنا الوحيد ـ داخل جدران الغرفة ـ القادر على تفريغ الأفكار المحتشدة في رأسي. كان يعلو، دون أمر مني في غرفة الحمام متحرراً تماماً في اختيار اللحن غير مكترث إلى نقطة الانطلاق. أسمعني مستغرباً من نشوزه عن الحفاظ على السلم الموسيقي الذي أعرفه في أغنية «إلّا أنتِ». غنيتُ وأنا أعرف جيداً تلعثمي بسبب نسيان بعض كلماتها.

أدور تحت رشاش الماء.

أطلق العنان لجسدي أينما شاء..

لا يختلف الحال بعد الاستحمام. على نحو غير معتاد أفرطتُ في رش العطر متمتعاً مثل طفل يحب الملامسة. وقفت أمام خزانة الملابس: «قميص أبيض برتب بحرية. ثلاث بدلات يختلفن في اللون والشكل. بنطلونات كثيرة. قمصان ملونة». أخترتُ البنفسجي وبدأت أرقص وفي يدي صورتها، وبين حركة وأخرى كنتُ ألمح ابتسامتها البراقة المنبعثة من وجهها الأسمر. كنتُ أمسك بيديها وأدور فتدور معي. كانت واضحة السعادة. كانت صامتة. «يا امرأة». سألتها: «مابك؟». غنيتُ لها، وأغمضت

Telegram: Somrlibrary

نصف عين وقبّلتِها. استدرت دورة كاملة وعدتُ إلى القُبلات، ولكن هذه المرة من خدّها. «يا أنتِ». ضحكتْ وضحكتُ لها. رفعتُ الصورة عن وجهي إلى الأعلى قليلاً. كانت تثبت نظراتها في وجهي بأعلى صوتها انطلقت منها كلمة: «أحبك». وصل صوتها إلى أذني مثل البحر الهادر كانت تهمس: «شجرة». كتمتُ غنائي وعدتُ إلى الصمت وعلى وجهي تتسع الابتسامة وعيني في عينيها. «سأفتش قلبكَ». قالتْ ويدها تحاول الخروج من الإطار الذهبي!. «سأفتش قلبك». تقول هذه الجملة بعد كل نوبة عناق طويلة لا تخلو من الغوص المغطوط بالروج الأحمر. كنت وحيداً حين حضرتْ مثل الضوء العابر للظلام. لا تشبه القمر.

ولا الأشجار ولا حتى السهل الرحب. ولا المصابيح ولا النهر. كل شيء يشبهها ولا تشبه إلّا نفسها. عيني اليمنى تأخذني من يدي إلى عمق أعماق عينيها. والأخرى تغرقني في شفتيها أعمق. وجه أسمر. بحر أحمر. مكاني الذي أرغب التواجد فيه جنتي الخاصة.

رأيت الرحيل معها متعة. وهذه الرائحة توقظ الاحتمالات الجديدة في الهمس. لحظتها انحرفت أحلامي، ارتفعتُ عن المكان أتتبع مكان جلوسها. إنها حبة قمح. سمراء في عينيها الصفراوين بريق. جسدٌ يشبه الربيع. قيدي المحتمل. ضوء وظل. ريش أزرق. ليل الشتاء. أجراس ناسك. بستان ونهر. كل الأشياء تشبهها ولا تشبه إلّا نفسها. جلستْ والأخضر الشفاف يلف بعض عري ذراعيها. تشبه ألوان الكرنفال. لحظة ما انحنتْ في هدوء مفرط سحبتْ طرف ثوبها الأزرق واستقام ظهرها ورمتْ بحركة رشيقة شعرها الأسود الناعم إلى الوراء وضحكتْ، ضحكتْ. وآه من ضحكاتها، في حركة راقصة وضعتْ ساقها اليمنى على اليسرى وبدأت تحرك الهواء بشفتيها الممتلئتين. مثل تحية الورد للعشب المبلول بالندى كانت عالية باسمة. في مداها ضاعتْ ألوان زميلاتها.. توارت ألوانهن. كنتُ

Telegram: Somrlibrary

خلفها مزروعاً بين الهواء والماء على خطى أناملها عدتُ إلى الغناء لكن من غير صوت. وحدها الكلمات لم تكن كافية. أحتاج إلى قناعات أكثر وإلى الإصرار إلى عالم مليء بالنجوم وأكثر.

لا أدري أيهما أفضل؟

أجمال الوصف؟

أمْ القُبلات؟

أمْ ما بعد القُبلات؟

أشعر على الألسنة حكايتي؟

بحّار ساقه القدر للمضي بعيداً باغتهُ الحبّ فجأة. حبٌّ جاء من عالم آخر فيه الأنثى تشبه سنابل القمح من تحت ظلال الموج تأتي مثل نور وبلور يتلألأ شعرها الليل الناعم المبتل. يسترسل على المدّ والأفعال صفات. يفلتُ الجميع من أساور كفيها مثل نهار صامت كان الليل يشبه المرة الأولى.

مرة كنت فيها أدنو أو أتخيل؛ كنتُ أدنو من أطيب نسيم لا يعرفه إلّا العاشق. أنثر الضياء وسط الجميع مثل الأساطير القديمة يحركني الزمن الثلاثي. ألمح لمعان الساقين وبحرص شديد رشاقة قوامها كيف يجري من غير تردد يدخل مملكتي فتعترش قلبي. قلبي الذي لا يهدأ أبدا لحظة ذكرها.

أجد في تخييلها سحراً، وبين يديها ألمس أسطورة تحاكي سعادتي، وفي إخفاء اللقاء الآثم كنت أسمع النبض يرن. رقيقاً. مشاكساً. ممتعاً. منعشاً ولكن أسرع ما تكتنزه اليد من توسلات.

فقط لمس ما علق بها من آثار.

تتظاهر بالرحيل!

ضاحكة!

وأجمل ما في المشهد الجدير بالحب كانت تخفي فمها وهي تضحك، لم أجد سبيلاً لخداع الليل متسمراً في حيرتي أحاول ضم وجهي متوسطاً صمتي أتمتم في نفسي: «من سيفك وثاقي؟». «ما بكَ؟».

هل سألتني واللمعان الأصفر في عينيها؟

سمرائي الفرنسية لا تعرف بعد سر سعادتي!

انحنيتُ إلى وجهها وغرزتُ شفتيَّ فيها وهمستُ مغمض العينين عن المفاجأة المحتملة في الميناء القادم، ثمَّ قلتُ بصوت واضح: «أشعر بالتعب».

ستكون المهمة صعبة؟

تصورت ذلك.

نعم تصورت ذلك، وكررتُ رغبتي في معرفة السر من وراء هذا الكتمان من كل أفراد الطاقم. ـ كن صبورا ـ لا يمكنني الانتظار والتأقلم بعد وقت قصير مع نفسي.»أنتظر وأنتظر شيئاً ولا أعرف ما يكون؟». قلتُ وتبادرتْ إلى ذهني الضحكة. غمزتْ بعينها اليمنى، ضحكتْ بصوت أقوى. لمستْ شعري، يدي، صدري. «ما تظنين؟». سألتها. وكعادتها تُقلل من الكلام. وتبدو واثقة جداً من نفسها في تحريك رمشيها ومن دون الحاجة إلى المزيد من التعبير أشارتْ إلى جهتي التي فيها القلب، ومن لمسة يديها تلك صحتُ: «آه!!» من ألم القرصة.

صوتان أو ثلاثة أسمع. يرفع أحدهم نبرته وهو يمسح على وجهه الماء يُكرر:

ـ يا لها من مفاجأة!

وآخر يمسك بكف يدي وهو يهز بها مصافحاً يردد:

Telegram: Somrlibrary

ـ تستحقها بجدارة.

هناك آخر يشبهني لكن أطول مني يده الكبيرة جداً على رأسي. حاد الملامح بنبرة واضحة قال:

ـ يبدو راق لك نسياني...

... ثمَّ اختفى!

فتحتُ عينيّ؟.....

لم أجد أحداً!

كنت متأكداً رأيته. «لقد عاد، ولكن أينه؟» الصورة: «ماذا حدث؟». وددتُ أن أجد جواباً. بحثتُ في أشيائي المتاحة أمامي وحتى البعيدة منها ولم أجد شيئا. قلتُ كلاماً معتاداً وآخر غريباً ولم أسمع رداً. توسلتُ ظهوره وأنا صادقاً عن حاجتي له. أكثر مما يتصور. ولا جدوى من هذا الفراق الذي طال فيه الانتظار. يئستُ واحترت حتى تعبت. صارت أنفاسي تلهث وصرت أسمع ضربات قلبي أسرع.. شعرت بالحرقة. جف فمي. احتجتُ الماء.. ليس في هذه الحياة سعادة كاملة. ليست سوى أيّام تضيق وتتسع لتعود فتضيق مرة أخرى على أننا نحن الماضين ببساطة مفرطة نحب السماء المضيئة. أن نعبر إلى ما هو مقدر لنا من حصص الخيال والأحلام. ليس لنا إلّا أن نصير مثل قوم أفكارهم مملوءة بالجمال على سواحل معزولة. رمتهم أمواج النكبات في جزيرة منسية. عراة تحت سماء حارقة يحملون المناديل البيضاء يلوحون للغيم السلام. كما أجدادهم يبتسمون للخيال قريباً من الحبّ أو بعيداً عنه. أنا لا أختلف عن الحالمين بحصص أكبر من القناعة في «الحب الذي يعيش يحرق» وأن يظهر أمامي كما كان هذا ما لا أتوقعه الآن. ربّما ليس الآن ولكن شرط خروج الفجر من جوف الظلام...

صار مؤكداً أن الشعور بالمرح والغضب معاً صداقة الروح للجمال، والجمال نفسه يعني الإصرار العقيم على النسيان. الصباحات الجديدة

والمساءات القادمة والتفكير المقتدر احتمالات من ورق.. أزحت كتبي. كشفتْ لي بعضها ملامح الفرح في إنسان ليته لم يكن كما كان. بلا توقف يلهث النظر خلف العناوين محيطاً بالصور. صورٌ تحدثتْ عن مسيرة حياة طويلة فيها الدموع تهطل تحت سطوة الفجر، والنهار جبال من القلق. مدّ العين التباريح لا تنتهي. أن توقظ عاشقاً من الخيال فعل غير مألوف. يمكن له أن يختفي ويشعر في هذا الكون شمس قد اختطفت! الأحلام التي كانت بين يديه تعاقبت على الطيران، وفي وهم أبدي يكتشف أن شارع الأمل أطلس ذاكرة، لا جدوى من البقاء على قيد الجموع وحيداً، الأيادي التي تدفعه إلى اليقظة. بزهو مفتعل تختار من صدره المملوء بالأفكار المغادرة. الاحتمال الثاني أرى على أرضه المنبسطة خرائط من العاج والحرير قد اخترع عبارات الظل والرائحة. أربعة أقمار اختارت البقاء، وبين صوت البحر ولحن الوحدة همستْ الحياة إلى أن الأرق نقش الذاكرة. الأفكار ثقيلة، الاحتمالات كبيرة والوحدة القاهرة وهذا هو الاحتمال الثالث. أما الاحتمال الرابع فيه الحياة مقلوبة والمطر غزيز، رغم ذلك أشعر بالعطش.

Telegram: Somrlibrary

الفصل السابع

الأرض الممنوعة.. زمن المتغيرات

Telegram: Somrlibrary

1

ليس في مقدورنا ـ نحن طاقم الباخرة تراتشي ـ الاستحواذ على أكثر من حياة بالكاد تضيق علينا حتى تنعدم فيها بعض الأمكنة؛ لا أحد يرغب العيش داخل الحديد مثل البيت العائم وسط البحر. تحركنا في اتجاه الأرض، اهتاجت رغباتنا من كثرة التفكير فيما يحتوي عليه الميناء المنشود. هو الأقرب إلى قلب المدينة الذي ينطلي على صفاء النفس الحالمة بالملذات. كنا نخطط لاستثمار كل الوقت المتاح للتجوال داخل أزقة ومحال إمارة دبي. سيتسنى لنا التعرف على ملامح قاطنيها، ثقافاتهم، عاداتهم وطريقة اختلاطهم المدهش بالجنسيات الأخرى. سمعنا مؤخراً عن تلك العمارة وقرأنا عنها الكثير، ونعلم في هذه الأيام أن هناك التطور الهائل في الفنون الخدمية والعمارات العالية، فكرنا في المرور على أغلب المعالم الحضارية والدينية والاجتماعية والترفيهية والثقافية والتجارية، والوقوف أمام شواهد بارزة الحضور في أذهاننا لالتقاط الصور. هذا هو الأمر الوحيد الذي حفزنا أكثر على الطيران إلى أعالي الخيال وساعدنا على إغلاق أبواب الأقاويل التي تظهر من هنا وهناك بخصوص الانتماء والمعتقد.

كنا قد عقدنا العزم في ليلتنا الأولى سنقيم حفلاً صاخباً في أقرب مطعم خارج الميناء، ولكن من حسن حظي كانت تربطني بضابط الملاحة ـ ليث ـ صداقة بيضاء انكشفتْ لي أثناء سيرنا في اتجاه ميناء الشارقة ـ غيرنا اتجاهنا؟ ـ وهذا الأمر جاء بعد تحركنا بنصف ساعة. يحدث الآن صعود المشاعر المختلطة إلى حدود الحناجر. تأتي علامات رفض وقبول وتذهب

Telegram: Somrlibrary

فجأة. شعرتُ بعاطفة مفرطة وافتراضات تموج في الذهن المعترض على العيش في كنف حياة واحدة. متغيرات تثير صراعاً روحياً هائلاً يتعذب فيها الجسد المتناقض ـ بعد فوات الأوان ـ مع نفسه. ظن أغلب أفراد الطاقم أننا سنرسو عند ميناء الحمرية ـ في دبي ـ بعد ساعات. أشد ما أخشاه الآن عودة حالات الإحباط إليهم، لا أريد أن يَعُوق وصولنا أي تأخير محتمل. في موجة من الحبِّ والعطف والتفاعل مع إخواني من البحّارة تكلمتُ معهم بطريقة المازح على أن الحظ ابتسم لنا أخيراً، وسنكون بعد ساعات في ميناء الشارقة وهو أقرب من ميناء الحمرية، وزدتُ كي أثير فيهم الحماس قائلاً ـ وعلى وجهي دهشة التي اصطنعتها: ـ «هو الرائد بين موانئ المنطقة والأهم في التجارة الحرة. وكما سمعتُ عنه تتوفر فيه خدمات نقل بمختلف أنواعها وبأسعار تنافسية».

بعد الظهر بقليل دخلنا السواحل وصارت شواهد إمارة الشارقة واضحة. عاصم الزيات يدعي المرض في تحركاته المبالغ فيها من أمامنا، كان متعثراً في مشيته ملتوياً وبين خطوة وخطوة ينظر لنا مثل الذئب بطرف عينيه ممسكاً بجنبه، يلبس ملابس غير ملابسنا، يمثل الكآبة. أمره يحيرني؛ لا بديل له، يريد مغادرتنا. حسب تعليمات الشركة أي انفكاك لا يتم إلاّ بالميناء الأم. وعليه أيضاً الصبر كما نحن إلى حين عودتنا. لم يكن يفهم إلّا صوته. كان نافعاً ولكن بعد أيام تحول إلى عبْءٍ على رفاقه، ويمكن له نقل عدوى التمارض لهم. أغلب مخاوفي من الزيات كامل هو حديث العهد على البحر، وهذه سفرته الأولى. رغم حرصه اللافت على الالتزام بأوقات العمل. يدعي الضعف والوهن في اشتداد المحن...

رأيتُ البحّارة غير مكترثين بتغير الميناء. لا ألمح شيئاً يؤكد مخاوفي. لا فرق في تعاملهم. كانوا يثيرون السعادة في أجواء الباخرة؛ فالأرض هي المقصودة. الكل أحتل مكانه، بدأ التهيؤ لرؤية الميناء، كل واحد

Telegram: Somrlibrary

ينجز ما كلف به. الخط الذي كنا نتجاوزه كشف لنا المدينة وصارت رؤوس العمارات العالية واضحة. معالم تنم عن جودة عالية في البناء. لم أر أي تلوث في مياه البحر الخارجة من الميناء وقد بدأتْ خطوط الملاحة تتضح أكثر. الإشارات الضوئية صارت في مدى الرؤية. خضراء على اليمين حمراء على الشمال وهكذا حتى انقضت الإبحار خارج الحدود الإقليمية. دخلنا المجال المائي للميناء وفي وقت كانت فيه شمس الأصيل تقوم بواجبها في الوداع، وصلت الباخرة إلى نقطة الاتصال مع الساحبات التي بدأت من الجانب الأيمن والأيسر ترمي بحبالها علينا. ربطت تراتشي بالحبال، بدأت مرحلة خطرة؛ جر القطع العائمة الكبيرة إلى الرصيف أصعب ما يكون على تفكيري. في وقت يعادل لمح البصر اهتزتْ تراتشي فتصاعد القلق الذي دفعني إلى الصياح: ـ «انتبهوا» ـ محذراً كل من كان يعمل على السطح من البحّارة إلى الابتعاد عن مدى شد الحبل. يبدو أن مخاوفي مبالغ فيها. لا أستطيع الصمت ولا الثبات. كنتُ أدفع البحّارة من صدروهم ومن ظهورهم أحاول قدر المستطاع إبعادهم عن طول الحبال. تخيلتُ الحبال الرابطة للباخرة بالساحبات قد تضعف وتقطع وقوة رد فعل شدّها الجبار قد تؤدي إلى قطع أجساد الواقفين!. بين الخوف والحذر كان للذكريات حضوراً قويا. لم يكن بوسعي النسيان. من هناك حضرت إلى هنا، أو بالأحرى عادت الحادثة إلى رأسي. وآه من رأسي، فكلما رأيتُ حبال الساحبات تُشدُّ بقوة على الباخرة. أرتعد. إحساسي الكبير بالخوف يقض هدوئي. خوف يكاد يكون سبب مماتي. المحنة عظيمة. عظيمة جداً لمن حضر معنا مشهد أيام صيف أواخر الثمانينات تحديدا في منطقة «كوجن» عند سواحل المحيط الهندي هناك وقفنا وسط البحر؛ نتزود بالوقود بما نحتاج منه إلى إبحار أطول من الساحبات الناقلة. اقتربت إحداهن، وبدأت الساحبة ـ حوضية

Telegram: Somrlibrary

النوع ـ ترمي بحبالها إلى الباخرة وبدقائق معدودات شُدت الحبال وصارت ملاصقة لنا. بدأنا ننقل كمياتنا المحتملة وفجأة بدأ البحر يثور وفيها حدث ما لا يتوقعه أحد. إذ ارتفعت الساحبة الحوضية بقوة موجة قوية جداً إلى الأعلى!!. لولا انقطاع الحبل لانقلبت الساحبة وصارت كارثة إنسانية وبيئية، ولكن «فائز» ـ صديقي ـ وقف بمستوى رجوع الحبل المقطوع فأخذه بعيداً عن المكان واختفى!! وقتاً غير محبب لنا، إذ كنا تحت غرابة الحدث مصعوقين لا نعرف أينه؟!

ماذا نفعل؟!

تحركنا. ركضنا. صحنا بأعلى أصواتنا. نبحث في كل مكان. نرمي بأبصارنا صوب البحر وفي اتجاهات عدة. بكى بعضنا ولطم البعض الآخر على وجهه. لم أشعر بشيء. كنتُ واقفاً في مكاني متسمراً لا أصدق ما أرى. ليس عندي لحظتها ما أقدمه له. كنت أعرف! قلبي يتقطع. لمحتُ الدم منتشراً فوق غطاء بدن الباخرة. وقطع لحم مازالت تنبض بالحياة. ماذا أفعل؟ تأخرتُ عليه؟ لم أستطع إنقاذه. كان يجدر بي سحبه، أو أكون مكانه؟ ما ينفعني الندم؟ لا يفيد الغضب. كان يمكن أن أحذره، ولكني لم أفعل. «حين تأتيك الفرصة لإنقاذ شخص انزع ثوب التردد والاحتمالات وتقدم». «الحب بالبذل يكبر ويمكن له أن يزيد من أيام حياتك». كلماته أو كما كنا نسميها ضاحكين: «الجواهر الجميلة». يردد على مسامعي كلما طلبته للعمل « حاضر». ليل نهار لا يكل من تنفيذ الأوامر ولا يمل. لم يكن يحلم كثيراً. كتوماً جداً. محطة كبيرة لأغلب أسرار الطاقم. يحمل سماره بشاشة لا تحتمل. طويل القامة عريض الصدر يمارس رياضة الفن النبيل. صديقي منذ السنة الأولى في الأكاديمية البحرية ومازال صديقي في الإبحار وعلى الأرض. لمستُ أشلاءه. بعضها فوق الأمواج راحتْ بعيداً. أخذت جزءاً مما كان يحب. خاتمه الأزرق وبعض تحف صغيرة وملابس من

Telegram: Somrlibrary

الماركات الفرنسية وصورة من الأمس البعيد كانت معلقة في غرفة فيها نحن ـ هو وأنا ـ تجمعنا اللقاءات المعتادة تحت المطر. لم أبكِ قط كما بكى عليه البحّارة. لذتُ إلى عزلتي في صمت أكثر من شهر!.. لا أعرف ما حل بي. هزيلاً أكلم نفسي. زرتُ أهله. صرت بديلاً له. لم أتأخر يوماً عن أمه ولا عن إخوته. لا أدري لماذا أراه كلما دخلت البيت أتحدث معه؟. لم يرحل عني؟. ماثل أمامي في وجوه البحّارة!. يحدثني بالخطر الداهم. يخالجني أحساس أعرفه. إحساس بالذنب، أنا المذنب ولا غفران لي أنتظره. لقد رحل، ولم يكن ينقش على قلبي اللوم. في رؤياه كان يكلمني كما كنا بالمرموز. «الحياة معركة طاحنة لنا في الحروب وفي العمل، ويمكن على السرير الناعم أن يباغتنا الموت فجأة». ويقول أيضاً: «ليس وهماً ولا غريباً إن وجدتَ روحك في غير مكانها وربّما وأنتَ تنشق الهواء وتمارس ما ترغب تختفي دون أمرك أو ترحل». وكم كان يردد ـ بعد كل نوبة مزاح طويلة ـ : «أنا وحيد مثلك».

دخلنا مجال الميناء وصار الرصيف يُرى. بعض المارة على الأرض تنقسم أحوالهم إلى أقسام مختلفة. منهم من ينتظر، وآخرون يتعاقبون في اتجاهات المسير، وبعضهم يقف قرب الرصيف ينتظر وصولنا ملوحاً يرشد برج القيادة إلى مكان وقوفنا. شاهدتُ من كان داخل سيارته ينظر إلينا ومن كان يمرُّ مسرعاً. خلال وقت قليل توقفت تراتشي وثبتتْ بواسطة حبالها المتينة على أرض الميناء في أربع قطع من الحديد مغروزا ثلثها في الرصيف... وقفنا فشعرت بطعم الهواء قد تغير. بدأ قلقي يتلاشى شيئاً فشيئا ظهرت الابتسامة وكأنها كانت تنتظر الفرصة كي تطفو على السطح واضحة. كنت أدرك تماماً سيكون للمرح حصة كافية من وقوفنا في هذا الميناء الكبير. ظهرت الأرض وكأنها هدية الأقدار لنا. أدركتُ بسرعة بأن الجميع يشعرون بالمرح كما أشعر.. وإن بعضهم في غرفهم يلبسون أجمل

Telegram: Somrlibrary

الثياب ويرشون العطر في انتظار وصول شرطة الميناء ومعهم تصاريح خروجنا إلى المدينة.

نُزلَ السُلم. وفتحت أبواب الراحة. وأول من حطَّ على الأرض أنا. كنت ألمس بعري قدمي الإسفلت. أحرك جسمي بحركات تكاد تكون غريبة بعض الشيء على من كان يراقبني في دهشة مفرطة وعدم رِضا متبادل، ولكن كانت حركات فيها شيء من خلاصي الوحيد من شحنات سالبة ملأت جسمي خلال تواجدي على ظهر الباخرة. تبعني تقريباً ثلث الطاقم وخلال دقائق كنا قد افترشنا الأرض، ثم أخذنا نمطُّ بساقينا وذراعينا ونضحك. ومثل مكان مقدس دسنا عليه بالخطأ ظهر الشرطي المدهوش مني فجأة! وتبين كل ما كنت أخشاه حقيقة. أنهى كل الاحتمالات الممكنة للمرح وبدأ الشرطي ومعه المساعد بصفة خاصة يكلمني بحدة. أكد لي ما سمعته أنه يطلب مني ومن معي العودة إلى ظهر الباخرة، وأنه لا حق لنا في التواجد على أرضه. هددنا إن لم نحصل على التصاريح سيكون الحبس والإبعاد جزاء عدم امتثالنا للقوانين. لم يكن الشرطي متواطئاً مع أسياده كان يمثل القانون بأدق تفاصيله. هو من إحدى دول جنوب شرق آسيا وزميله حسب ظني من الهند. كانت آمالي كلها ألا تحدث مشكلة. طلبت من زملائي ترك الأرض والصعود إلى الباخرة وبغضون دقائق تم الأمر وابتعدت سيارة الشرطة. على الرغم من نشأتي في بلد كثير التعدد، تعلمتُ احترام الآخر وكيفية التعامل مع اختلاف الانتماء، ولكنني في وقت لاحق أصبح لدي دافع الصمت غاية. وأصبحت أدرك قدراتي على اتخاذ القرارات الخاصة وإن لم تظهر للعلن كنت أواسي فيها نفسي المتهورة في نوباتها المتكررة خلف أبواب العزلة. أفكر بالمستحيل وأحلم بالمعجزات. ولحظات من الصفاء أفعل

Telegram: Somrlibrary

الأشياء التي تأخذني بعيداً عن الناس. في وقت متأخر من عمري أدركت أن السياسة تُحطم الانتماء. أنا بحاجة للإصرار على النهوض من القاع. ثمّ إنني سعيد؟ لا أعتقد. أن تكون عراقياً، تمشي على مهل وقلبك مثقل بالهموم وعقلك تحرقه الاحتمالات من خطر محتمل الظهور من الجوار ومن وراء الجبال والبحار قد يأتيك الدمار. الأهل والأصحاب يعرفون أنهم سائرون لملاقاة العقاب، وألوان من العذابات يحصدونها جراء ذنب لم يقترفوه. أن تكون عراقياً يشرب الماء دمك والأرض تأكل لحمك وعليك أن تموت لترتاح الشعوب. كنت بحاجة إلى المواساة، ولكن من يواسي إخوتي البحّارة؟ فكرتُ في خلق الممازحة معهم والبشاشة تلك التي دمرتها تلك الحادثة. نزلتُ إلى الأرض وتبعوني. فعاد لنا الشرطي جهما يتوعد فأعادنا بطريقة تشبه مكافحة المشردين إلى ظهر الباخرة. علاقتي مع الشرطة غريبة وتأخذ أحياناً مأخذ العداء الأزلي نتيجة حقبة مرت ثقيلة دمرتْ ما كنت أحياه، وأنا أرى وجودنا حاليًا يتلون بألوان قوس قزح. بالطبع نادرًا ما أفكر بالمسامحة. ولكن إن ظهرت فرصة أغتنمها. علاقتي مع الآخرين أرسم حدودها الشخصية ولا أحب العبور عليها إلّا في بعض الاستثناءات وهي قليلة، وبسبب جرأتي في السنين الأخيرة تحولت أيامي إلى رفض واقع أراه معاكساً لأحلام كان من الممكن تحقيقها. ورغم رفضي الخوض في معترك السياسة، صرت دائم الغضب من كسل بعض الذكور وجبنهم. من طمع السراق وخبثهم. من القتلة. من الغباء والخسة. من فقدان السيطرة على المال العام. من بلاهة البعض في الاشتباه بالأمكنة والأشخاص. من وجود المفخخات والأحزمة الناسفة وهي تصنع الفكر في بعض دور العبادة، وتنبعث كصراع قديم يتجدد يراد منه تحقيق مطالب خارجية أكبر من حدود البلاد وتفكير

Telegram: Somrlibrary

أهلها. وقريباً من التأني والتروي أراني في بريق رفض غير محدود ميالاً إلى المساواة بطريقة التشهير والإصرار. أعلم أن أيامي القادمة لا تخلو من صعوبات مع المتعالين من أصحاب القرار.

2

قُدّر لنا الوصول سالمين، قضينا ساعات الغروب في اختبار عدم الكلام؛ نفكر في خلق مناسبة نفكُ فيها طلاسم الراحة والمرح المباح؛ علّها تفتح أبواب النسيان. ليس لنا المزيد من الوقت من أجل التفكير أو البحث. صالة الطعام مكان تجمع الطاقم تغوص في الصمت العميق. نمرُّ بمرحلة ملؤها الإحباط. الجميع يشعر بمثل ما أشعر. القلق يضغط على الحرمان والضحية نحن. أخفاق يتبع أخفاق! أمر يتجاوز قدراتنا. سمعتُ خبرا أن رقيب السطحة قد غادر غرفته غاضباً إلى الربان. هدأته وتعرفت على سبب فورانه المفاجئ؟ الحرمان من رؤية الأرض والناس السبب. «لماذا؟». يصيح رقيب السطحة: «هل حكم علينا بالسجن؟». عدت به إلى غرفته. كان محطماً لكن قوياً. جلست قبالته أحدق فيه وهو يزأر ويتوعد بكل من يحضر على لسانه. ران الصمت بيننا، بعد قليل لاحظ وجودي. تبادلت الحديث معه، تنهد ثم أنطفأ. وأخيرا عاد إلى عقله. عدتُ أدراجي إلى غرفتي. وهناك استيقظ الألم عند أسفل ظهري. لمستُ المكان بلطف وتحركت ببطء شديد إلى السرير. أغمضت عينيّ.. شعرت بالرعب! تراودني فكرة طائشة كانت تمسك بيد وتشهر لسانها سيفاً. فتحتُ عينيَّ وجلست على حافة السرير. أفكر في حل..

انقضتْ الساعات الأولى، وما بقي من الوقت المتبقي من الليل يمر ثقيلاً. بركة داكنة تحيط بسماء الميناء، وبين لهب المنع من الوصول

Telegram: Somrlibrary

إلى الأرض وقوة رائحة طعام المطاعم المزدهرة بأطيب الوجبات وأصوات القهقهات المتخيلة حجاب من دخان كثيف ويد قوية ترفع الرفض عنوانا لها فتحدث ضجة. الليل أعمى.. يتناثر التفكير في صمته وتتلاشى الاحتمالات. علامة الواثق لمعان. قاصداً معاودة النظر أخذت أجرب العودة إلى المقارنة. الزمن الحالي يشارك الزمن الماضي في طعمه، والمستقبل خارج دائرة المقارنات. فكرة طارئة: متعة صفاء الذهن تتحقق في تجاهل المحن. حدٌّ فاصل.. قررتُ الخروج من دوامة الصمت وذهبت لمحادثة الربان. انطلقت في الباخرة طولاً وعرضاً. ولمدة لا أعرف كم أقدر وقتها وقفتُ مندهشاً أنظر إلى أرض الميناء. هناك يتناغم الجميع في حركة سريعة. عمال: شحن ونظافة وصيانة وبائعة.... بحّارة من بواخر أخرى، وما أكثر رجال الشرطة الغرباء، لم ألمح إماراتياً واحداً في المنطقة. أغلب المارين من أسيا. يفصل بيننا وبين الأرض وقت نزول سُلم الباخرة. مرَّ الوقت والاحتمالات تزداد. من غير صوت كست وجوه البحّارة دهشة تامة وقلق يهز الأجساد هزاً عنيفا.. تغيرتْ لغة البشاشة وبدأت عاصفة الصمت تلف أجواء الباخرة. احتمال سقوط الجمر من صدري واردة، كلما تخيلتُ ما قيل عن معاملة بعض موانئ الخليج لنا أتوجع من الداخل. عدتُ باحثاً عن الربان ومن دون أن أسأل أحداً عن مكان تواجده اخترت غرفتي؛ كانت آمالي كبيرة في التفكير بهدوء.. كي أعيد التوازن إلى عقلي.. أريد حلاً. التفكير في أمر المنع قد يكون مبالغاً فيه؟ أقصد هنا منعنا من التجوال في الميناء. لم يأتِ الخبر بعد. والغريب إلى الآن لم تصل أية علامة تكشف سبب تأخر شرطة الميناء في منحنا التصريح بالنزول. هل كان الأمر مقصوداً؟ شكوك محتملة يؤكدها مرور الوقت الذي صار يمضي أبطأ من ذي قبل. كنتُ قد اتخذت قراري.. حتى لو قدر لي ما تخيلته حقيقة واقعة. هناك دوماً الصبر وعلينا التمسك به والتصرف بطريقة فيها غير قليل من التجاهل. سرحتُ في متاهات كثيرة وكبيرة، حينها كان الربان

قد طلب عبر مكبرات الصوت من الطاقم التواجد في الصالة الكبيرة. حضر عدد كبير منهم بثيابه الفاخرة، بعضهم مازال يرتدي بدلات العمل. احتشد المكان بالتمتمات والتأويل حتى حضر الربان رفقة رئيس الضباط ورئيس المهندسين، في هيئته المعتادة كان يرتدي البدلة البحرية برتبها الذهبية، في هدوء القائد جلس في الوسط وبطريقة تواصلية ألقى تحيته وبدأ يحدثنا عن خبر مفاده إن الميناء سمح لنا بتصليح الرافعة السلكية والمخطاف وتجهيز كافة احتياجاتنا الأساسية وغداً صباحاً تصل الزيوت وكل ما يخص ديمومة إبحار الباخرة. « وحاجتنا؟». قال الطباخ. وتمتم من وراء الأجساد المتراصة أبو النون: «والتصاريح!». لم أستطع الصبر أكثر عرفتُ الأمر سيخرج عن السيطرة. عليّ أن أتصرف بسرعة وأعطي الاحتمالات التي رسمتها في ذهني من أجل تهدئة النفوس على أقل تقدير لمن كان يتصاعد في صدره الغضب، ولكن رئيس الضباط سبقني إلى القول: «اتصلنا بوكيل الباخرة وغداً صباحاً سيكون هنا على ظهر الباخرة ومعه التصاريح». نظرات الربان البطيئة لا تكشف صدق ما سمعناه. اهتمامي كان هو البحّارة الذين أعرف الغضب يأكل صبرهم. لا نريد أي حادثة يمكن لها أن تعكر إبحارنا والذي يبدو سيكون صعباً. سألت الربان بلهجة هادئة:

ـ هل لنا المسير على الرصيف؟؟

ـ نعم. بشرط أن تلبسوا ملابس السلامة المهنية..

ـ عفواً.. لقد منعونا من قبل.

ـ وصلني الخبر وتبينتُ من الأمر، وعرفت أن الشرطي الذي منعكم أراد فقط أن يرى ملابس السلامة على أجسادكم.

حينها قلتُ بصوت واضح:

ـ يعني لو تجولتُ على أرض الرصيف بملابس السلامة وغطاء الرأس والقميص الشفاف البرتقالي لا أكون مخالفاً؟

Telegram: Somrlibrary

ـ لا تكون مخالفاً ولك الحرية كاملة في التجوال على كل شبر من أرض الميناء..

غادرنا الربان، وبدأ الخروج من الصالة صعبا جداً؛ فكلما تجاوزتُ بعضهم اصطدمتُ بآخرين. حتى وصلتُ الباب هناك لمحتُ فاضلا الذي كلف بمهمة الجلوس أمام سُلم الباخرة لغرض منع صعود الغرباء إلّا من يحمل تكليفاً من الربان أو الميناء. كان فاضل برفقة شاب أسمر البشرة لكنته أسيوية.

ـ لا أعرف ماذا يريد؟؟

قال فاضل.. فسألت الشاب عن غايته. فعرفت من لغته الانجليزية الصعبة أنه بائع متجول بضاعته شريحة اتصال نوع «دو» وأخرى «اتصالات» وكارت شحن. بدأتُ بقراءة الحال برمشة عين عدتُ به إلى الصالة الكبيرة وطلبتُ من الجميع الهدوء. اشترينا منه بضاعته التي كانت سبباً رئيساً في كنس الهمّ الجاثم على قلوبنا منذ لحظة وصولنا. ظهرتْ بشائر الفرح والسرور على وجوه الرجال. تجاوز شعور الراحة البحّارة ليصل إلى الربان ومعاونيه. انشغلنا بتأمين الاتصال مع من نحب. كلام خاص وعام دار بين الجميع. ضحك عال وآخر منخفض. حركات يدين مبالغ فيها وأخرى معتدلة. إشارات تظهر من هنا ومن هناك وأجساد تتمايل فرحاً. يصغون أو يتحدثون من خلال موبايلاتهم الخاصة. «كاجو» الأسمر من بنغلادش كشف لي عن سر سعادته في أنه أول مرة يبيع هذا القدر الكبير من بضاعته. عرض عليّ تخفيضا خاصاً. رفضتُ لكن اشترطت عليه أفضل شركة في الاتصال قادرة على تأمين شبكة الإنترنيت فأشار لي بشريحة اتصالات وأن أحملها برصيد قدره خمسين درهماً وانتظر ساعة بعد أن أرسل رسالة إلى الشركة. فعلت ما علمني إياه وبعد وقت قصير تم تفعيل النت في موبايلي. وبالفعل حصلت على ما وعدني به واتصلت بمن أرغب الاتصال به. رفضتُ ـ بيني وبين نفسي ـ الاتصال بسمرائي الغالية.

Telegram: Somrlibrary

ـ هيء هيء.. زوجتي كانت قلقة...

أبو النون يكلمني عن حال أهله، وكيف سعدوا باتصاله. كان من السهل دفعه للبوح عن المزيد من أسراره الخاصة. ولكن انتظرت حتى كاد يصل إلى حيث لا يمكن السكوت فقلت:

ـ وكيف حال أولادك؟

ـ كلهم بخير..

ثمَّ أضاف:

ـ زوجتي بكتْ وقالت: اشتقت لك وخفتُ من غيابك.

لحظة شعرتُ خلالها سوف يبكي الرجل أمامي. لم يكن ما أقوله مهماً ولكن أقفلتُ يدي بعصبية أمسكتُ كتفه، أو ربّما بحرص قلت:

ـ أنت رجل عظيم.

ـ صحيح؟

ـ لا شك في ذلك. ونحن نحبك أيضا.

ـ سأقول لك السر..

ـ ماذا.

ـ يريدون تزويد الباخرة بمكتبة واختاروك مسؤولاً عن إدارتها.

ـ ماذا!!!.. ا هذا ما ك............؟!!

ـ نعم.. هو هذا الخبر المفرح، ولا تقل لأحد أنني كشفت السر لك.

من نبرة التوسل التي اتضحت من صوته، ومن نظراته الودودة التي كان يوجهها إلى عينيّ استنتجت صدق ما أسمع وأنه لا يمزح. دون أن أعرف ما أفعل غادرتُ المكان ودخلتُ الغرفة. أن يحقق القدر حلماً أزليا على طبق من ماس وفضة حظ لم أحلم به قط.. كتب: «دين. رحلات.

Telegram: Somrlibrary

فلسفة. علوم. لغات. روايات. قصص. أساطير. خرافات. جغرافية. تاريخ». متعة لا تنتهي أن تقرأ هذه الكتب داخل مكتبة باخرة فوق البحر، والأكثر إمتاعاً حين تجد أحداً ما قد قرأ في كتاب ما معلومة تعارض تفكيره ليكون حديث الساعة مع زملائه، ليلاً هناك في عرض البحر سيحتد النقاش ويكبر الدافع للقراءة أكثر وأكثر حتى ينتهي الوقت الذي كان ينفق في الأقاويل والانتظار. أن يتصاعد المستوى في عمق المعلومات وجدوى صحتها من عدم وجودها هي غاية يمكن أن تكون في نفسي منتهى السعادة التي أحلم بها. ولكن أين مكان المكتبة؟ وكيف سأدفع الطاقم إلى متعة القراءة وجل أوقاتهم العمل أو النوم؟ في حين أعرف تماماً وحده وجود الكتب في الباخرة داخل مكان عام مفتوح للجميع أمر في غاية الراحة والترف. وأعرف أيضاً سأبتكر الطرق التي من شأنها أن تثير رغبة الجميع في القراءة، ولكن ما نوع الكتب التي يرغب الطاقم في قراءتها؟ آه لو ينكشف الأمر. وأصير واقفاً أمام الكتب المصفوفة بعضها مبعثرة. رشفة بعد أخرى أرتب العناوين بطريقتي الخاصة أقلب الكتب وأصنّفها على متعة خاصة أيضاً سأكون أنا نفسه الذي يفكر بالفرصة. فرصة تدفعني إلى الشعور بالراحة مثل المشي على وجه الريح الباردة أفكر وسع أخيلتي في شكل وطعم النهاية. سأضع الكتب العلمية في الرف الأيمن والسياسية في الأيسر والانسانية في الواجهة. سيكون مكان الكرسي خلف طاولة صغيرة قرب الباب وأمامه مباشرة طاولة طويلة أضع عليها الزهور والأوراق ومجموعة أقلام ملونة. سأبتكر المسابقات الفكرية. سأعطي من راتبي الخاص المكافأة لكل من ينهي كتاباً يقدم عنه ملخصاً. سأثير ذائقة جميع البحارة. سيتحدث عنا البحّارة هناك في البواخر الأخرى. سيصل الخبر إلى الشركة ويمكن لها فتح مكتبات أخرى في بواخر أخرى، وإن نجح الأمر يمكن أن تكون المكتبات في غرفة الشركة.

3

مضت الفرحة العارمة المكبوتة إلى نهاياتها بهدوء. كنت غضباً من كتمان أمر المكتبة؛ لا مبرر للتأجيل، على الربان إعلان الخبر ـ ربّما الكتمان أفضل؟ ـ سرعان ما استغرقتُ في السير مبتسماً من جديد. أكلم نفسي وأعيد حاجتي إلى التخيل: «ما أجمل لحظة استلام الكتب وإدخالها إلى الباخرة!». راحتْ أحلامي البيضاء تنشر جناحيها فوق رأسي، تحملني مرة وأحملها أخرى. تأخذ بتفكيري وحركاتي إلى حد كاد فيه البحّارة أن يستبدلوا المودة والضحك في وجهي بالقول: «رجل أحمق». الساعة قاربتْ التاسعة ليلاً. كانت السماء ترش المطر خفيفاً. نظافة رصيف الميناء تتيح لي النظر بمتعة، السير ببطء يفتح المجال إلى الراحة في الحركة وسط الفضاء المشبع برائحة الأشجار. كان الهواء عذبَ البرودة، لطيفاً. جرني رقيب السطحة من يدي وانعطف بي يمنياً!

ـ إلى أين؟

سألته. فأجاب رئيس المهندسين:

ـ إلى نادي البحّارة...

يبدو قد رتبوا كل شيء. عرفوا بالصدفة أن الميناء فيه الأسواق والمحال ومطاعم فاخرة ولا يخلو من نادي البحّارة الذي دخلنا أجواءه تواً. صالة كبيرة تملؤها الكراسي والطاولات الكثيرة يشغل بعضها خليط من البحّارة القادمين من كل بقاع العالم، وبعضها ينتظر وصولنا. جلسنا

Telegram: Somrlibrary

إلى الجانب البعيد من الباب كان يجاورنا الجدار الذي علقت فيه صورة باخرة تعاند غضب الموج، وطوق نجاة علق وسط جدار يستند عليه مثلث طاولة البليارد الفاخرة. يحيطها مجموعة من البحّارة السُمر يمارسون اللعبة بطريقتهم الخاصة. أكثر ما شَدّ انتباهي هو لمعان أسنانهم البراقة. وفي لحظة جلوسنا متقابلين وصل رجل الخدمة. طلبنا من الطعام مجموعة منوعة مما نشتهي: لحم. سمك. رز. حساء أحمر وآخر أصفر. روبيان. شطة. خبز. ورق خس وحبات من الليمون والطماطم والخيار والزيتون وبعض قناني من الماء والكولا، ولم ننسَ الجعة. كانت الساعة المعلقة على الجدار تشير إلى أن الليل ماتزال فيه بقية. في نشوة اللذة بالطعام والشراب والمناكدات الطيبة خرجنا مثقلين نتكأ على بعضنا. كنا نضحك ويضرب بعضنا بعضا في لغة أقرب ما تكون إلى لغة فاجرة يستحيل قولها، ونحن في قمة الصحو وصلنا. كالعادة في الباخرة هناك من ينتظرنا. سمع الجميع خبر المطعم والشراب وبغضون دقائق رأيت سرباً منهم يركض تاركاً الباخرة ملبياً نداء رغباته. دخلتُ الصالة. سرني نشاط ضابط الملاحة في إعادة البث إلى التلفاز. جلستُ أقلب في القنوات لا على وجه التعيين، ثبتُ الصورة على مشهد حربي. دبابة وسط الشارع العام في سرعة جنونية كانت تسحق كل من يعترض تقدمها. في أسفل الشاشة مكتوب ما يهم الشعوب العربية، طائرات ومدرعات جيوش التحالف العربي بقيادة السعودية تحرق اليمن من الجو والأرض. وفي تقرير آخر فرنسا تلبس شوارعها الورود تحتفل بيوم الحب. ليبيا تنهار تماماً في دائرة صراعات التمسك بالسلطة. إيطاليا تحقق أعلى إيرادات سياحية لهذا العام. لبنان تتظاهر ضد الفساد. مصر تطيح بمرسي وتثبت السيسي رئيساً. بريطانيا تعلن بدأ حملة إغاثة أطفال أفريقيا. سوريا تصارع على البقاء ضد جبهات متعددة. أميركا تعلن عن المراحل الأخيرة للسياحة في الفضاء. العراق يصارع على البقاء ضد (داعش) جاءوا من

Telegram: Somrlibrary

كل أرجاء الأرض يحملون الأحزمة الناسفة بفتوى مشايخ التطرف فخخوا المتخلفين عقلياً وفجروا المساجد والكنائس وأماكن العبادات وقتلوا الأطفال واغتصبوا النساء وقطعوا رقاب الشباب. إيران تصب مواردها على مفاعلها النووي. الصين تدخل الأسواق العالمية بقوة. اليابان أكثر دول العالم استهلاكاً للون الأبيض. سنغافورة تشتري الرمال لتبني الجزر السياحية. سمعت من مقدم الأخبار دولة عربية فيها ولاية كبيرة تكثر بها المساجد أطفالها تموت في العراء وشيوخ جياع ونساء تغتصب وشباب قُطعت أجسادهم إلى أشلاء رفضوا البيعة للوالي الجديد...

خرجتُ من الصالة مثقل الخطوات؛ ملأت الكآبة روحي، دخلتُ غرفتي. حاولت الاسترخاء إلّا أن اسمي تردد كثيراً من خلال مكبرات الصوت يريدني الربان لشيء ما؟ عرفته حكيماً في آرائه، يريد من ورائها فسحة يمكن لها إعطاء دفعة جديدة للحياة. فقط كان يريد من الغربة الأمل. روايته الطويلة سيحجم فيها عن الدخول إلى أي مكان فيه الغباء قد حضر. يعرف قيمة الإنسانية في القراءة، ويعرف أيضاً ليس هناك أحد سواه له القدرة على اتخاذ مثل هكذا قرار. أن تفتح مكتبة في الباخرة هذا شيء يمكن له أن يكون الحدث الأكثر أهمية وتفرداً، ولكن الحفاظ عليها هو الأصعب. رأيت في طاقاته جبالاً. صراحته واضحة، وهذا غيض من تجربة صقلت شخصيته، لم يستطع الانتظار ريثما يحل الصباح. رمى تحفظه وواجه صقيع انتظاري في جلوسه باسقاً خلف مكتبه بين يديه ورقة نابضة بالإصرار على التميز، وبالنظر إلى طموحه دفع بيده إلى صدري بقوة وهي تحمل بعض الأوراق النقدية، وقال:

- تفضل.

كان المال من أجل الكتب. وبدأ يرش مسامعي بأحلامه في تنظيم وتنضيد المكتبة التي حدد مكانها بالضبط في غرفة الاتصال اللاسلكي التي

صارت مؤخراً ـ لعدم حاجتنا إليها ـ مخزنا للمنظفات والأغطية. بصدق يشع من عينيه مهرجانَ بريق تتلألأ فيه النجوم.. مرتْ الثواني بين الفرحة والامتنان.. أشد من الصياح في الصدور، ولم أسمع كلمة تتعلق بعدم الثقة أو الخذلان. كان واثقاً من موافقتي وشديد التمسك بأمره.

صباح الغد سيشهد نشاطاً متنوعًا في توجه الطاقم إلى العمل بمختلف المهام منها: ذهاب البعض إلى السوق لشراء المؤن والحاجات الضرورية. أمرني بالتواجد معهم والعروج بعد أن انتهي إلى المكتبات لشراء ما أحتاجه منها. وعلى البعض القيام بمهمات أخرى منها تصليح المخطاف واستلام الزيوت والوقود وربط سلك الرافعة الجديد الذي وصلت برقيته تحمل تاريخ وصوله إلى الميناء غداً العاشرة صباحاً...

ركنتُ إلى الصمت. يبدو أن متعة أجدها في رجاحة عقله منعتني من التحرك. على العكس تماماً كان يروح ويجيء فوق بلاط غرفة مكتبه المفروش بالأحمر. لقد عرف كيف يتناسل الارتياح في صدري من كلامه الذي كان مثل شلال من ذهب فوق رأسي..

بين الفرحة والانتظار كنت أجري ـ في ذهني ـ كمن يلهث في ميدان طويل ولم يصل للنهاية بعد. أكاد أكون جازماً لقد سمع مني كلام الشكر والامتنان من دون أن تخرج مني كلمة واحدة.

غبطتي رغم التعقيد اللذيذ كانت بسبب طلبه المفاجئ في إطلاق تسمية خاصة بالمكتبة عنوانه البحر أو الإبحار وأن يتفرد هذا الاسم بعبارة: ـ مكتبة الباخرة تراتشي ـ على أن يكون هذا الأمر نقطة انطلاق لكل مكتبة بحرية قادمة. كان واثقاً مما يقول...

رأيتُ من قبضة يده وهي تشتد وتضرب الطاولة قد قفز القلم حين يقول:

ـ أريدها لمن لا يقرأ.. أن يقرأ.

Telegram: Somrlibrary

بدأت أبحث عن جواب لتحويل أصواته الحادة إلى قناعة، ولكنه سبقني:

ـ أبدأ من العنوان..

ـ لم أفهم؟

ـ عنوان المكتبة أريده مثيراً..

ـ سأحاول.

وأخيراً سمعَ صوتي وضحك..

«نحن نبني مملكة من الجمال» فكرتُ وأنا أصافحه مودعاً. خرجتُ أحدثُ نفسي عن الحراك الجديد وربّما هذا الجديد سيحدث. مررتُ بجوار البحر. كان مقبولاً في صمته. ينتمي إلى الكون كما أنا، ليس خامداً في ذهن الأرض كما أنا، لا يستطيع التوقف عن النمو كما أنا. إلّا أنه لا يشبهني في حقيقة الأمر؛ فكلما زاد النمو في التفكير أحتاج القناعة في التصديق تحذوني الرغبة أني خلقت لأكون أنا. متى فرحت؟ كيف بكيت؟ لماذا نتذكر الراحلين في لحظة نكون فيها أحوج ما نكون إلى النسيان؟ نحن نهب الجمال؟ العكس صحيح؟ يهز أعماقنا الحزن وفي الوقت نفسه المزاج! الحب والكره، الحياة والموت، متناقضات كثيرة ولا أعتقد أن البحر قادر على فهم معنى الفرق بين النوم الطويل والسهر، أو فهم المعنى من التبسيط الهائل في فكرة كانت مغلوطة صعبة تحولت إلى مقبولة سهلة. يتوقف البحر عن الحركة. ثمَّ يعود وكأن شيئا لم يكن، ولكن حين نتوقف نحن يشتعل الرأس شيبا. عاصفة بيضاء، رماد أبيض. ويدوس الوهن على الكلمات فيتسلق التذكار الوجه الحزين مثل الصيف في صدر الشتاء، لا يجرؤ طائر الشباب على العودة للتحليق مع صغار العصافير فوق الأغصان حتى المتدلية منها. لم يكن قرب الورق القلم. ولا عند آخر البحر الميناء. والأيّام المشمسة تبدأ سريعاً وتمضي

Telegram: Somrlibrary

أسرع. فقط من أجل رسم الأمل. نتذكر الزمن الجميل وننتظر. زمن فيه الثوب الأبيض حقيقة صافية تعكس ما في داخل المرء. زمن يمضي على مهل يتدفق فيه الأمل والأحلام إلى النفوس الحائرة. زمن بدأتُ فيه مثل كل العشاق متلهفاً للحياة ماضياً نحو مستقبل أراه. أو بالأحرى كنتُ أراه واضحاً فيه الحب علامة بارزة كالنار عثرت على سر اشتعالها. زمن يأخذني مني حتى عند ساعات الليل المحبوبة إلى نفسي. كان يصوّر لي ما يخفى عني. زمن كنت فيه لا أحتاج سوى إلى انبلاج الفجر، حتى في النهار صرتُ محتاجاً إلى قناعات أكثر وإلى إصرار أكبر وعالم أوسع من هذا مليء بالنجوم وأشياء أخرى وأكثر. لا أدري أيهما أصدق في القول من تحت ظلال الموج باغتني الحب أو من فوقه؟

في بلاد العطور أخذتني ـ لا أحب ذكر اسمها ـ إلى عالم آخر. كانت فتاتي السمراء تأتي!..مستغرباً ـ وسع صوتي ـ أسأل عن المعنى؟ دون جواب منها كانت تتظاهر بالرحيل ضاحكة. وما أشهى في المشهد الجدير بالرؤية عندما تخفي فمها، لم أجد سبيلاً إليها. كان الليل لها. وحدي أقف حائراً أحاول إخفاء وجهي متوسطاً صمتي أتمتم في نفسي:

ـ من يأخذ بيدي؟

ـ أنا.. أنا

كانت تركض على أطراف أصابع قدميها حتى صدري، تمسك بيديها كتفيّ، وتهمس في أذني: «شجرة». وما كان بمقدوري إلاّ الذي كان. ها أنا الآن أضرب الهواء وأنفخ حسرة. أحاول الوصول بذاكرتي. ولأنها الحبيبة لن أذكر اسمها، ولكن يحلو لنا تكرار: «سمرائي». أُهدأُ النفسَ في تكرار ما حفظته؟ نعم ستنجلي في شيخوختي أغلب شكوكي وتصير منحة الحياة ظل وحلم يمضيان ما مضينا حتى تهبط الذات نزولاً بها فتنكشف رويداً

رويدا جميع المتغيرات. متغيرات تؤجج صراعاً روحياً هائلاً يحايد فيها صوتي الرافض لسكوني العاجز عن التحرك. إلى الحب من جديد. هو المتجه الحقيقي صوب الذهن وأعرف أشدّ حلفائي إخلاصاً هو الاستمرار في العيش بالرتابة المطلوبة كمخلوق لا يريد أن يتعذب بعد فوات الأوان على فراش الليل بغتة.

Telegram: Somrlibrary

4

صورتي الشخصية. «ما بها؟». يثار فيها الحزن والأمل مثل تصرفاتي اليومية ولا حدود لإيقافهما ـ كيف ذلك؟ ـ هناك فسحة تظهر من خلال العيون كبيرة تحاول التعرف عليّ؟ وهاتين الكتفين المطرزتين بالذهب ـ خط ومعيّن ـ هما الرتب البحرية. تقف وراءهما سنين طويلة من الدراسة أخذت أحلام الشباب مني. استرجعت لحظات التخرج. بكاء وفرح. فضاء رحب يتسع لكل الحياة. شمس ترافقني. والقمر حارس الليل، وبمزيج من التشجيع حملتُ كتاباً لا على التعيين وبدأت اقتلعني من مكاني إلى حيث أرغب. العزلة والسفر مع كلمات يعزو لها كاتبها. وأكثر ما يرد فيها عن كيفية يكون الإنسان فيها أحمق، حين يُصدق الجميع ولحظة الإفراط بالطيبة يذل المرء نفسه في الحب ولا يعلم كيف؟ ومتى؟ الفرق الوحيد في بقاء الليل جميلاً هو البقاء تحت قبة السماء وحيداً تحلم بالعالم على أنه أدوات وأن الطرق المؤدية إلى الخلاص تختلف عن الطرق المباشرة في الحلول. كتاب أخذني إلى مشقة أخرى في التفكير. نصفي الآخر وأسباب رحيله؟

لم أنجح في السيطرة عليه، ولا هو قد نجح.

وبينما أعترف به راضياً كنصفي الأخر، معانداً في اعتراف متبادل. سوف أخبر الناس عنه ولكن بعد أن أصل إلى حدود الانفصال النهائي منه. رأيت عذابه وتقلبات مزاجه.

Telegram: Somrlibrary

عرفت لا عودة إليه. وأن الشخصية التي تظل تلهث خلف الراحل عنها طويلاً شخصية غير سوية وتحتاج إلى المعاينة الطبية.

سأتكلم عن القدرة وكيف لها أن تعود إلى المرء بالخير ولو شعر فقط أن الملايين في الشوارع ليس لهم الحق في احتواء رغباته فمن الممكن له أن يعيش راضياً بانعزاله. من جديد كان يرفض وقلبه راغباً. له مخالب نسر وهو عصفور. متناقضات كثيرة. وكلام أكثر. في القراءة شعور لا يعرف قيمته إلّا من تيقن أن فيها حيوات أخرى. أحب الهدوء. الليل بدأ ينقضي. سأرتشف آخر قطرة من شرابي الأحمر وأركن بجسدي إلى النوم. فرغتُ من القراءة؟

لا، ولم أغمض عينيّ بعد؛ كنت أحلم بعودته، وهيأته المتغيرة المتحولة باستمرار مثل الثور الهائج أحياناً وأخرى تشبه النسيم كان يكلمني بنبرات متنوعة، يختلق التغيير الذي صار معتاداً عليه. فرغتُ من الخيال وتذكرتُ أني قبل مدة كتبتُ شيئاً عنه. نهضتُ واثقاً أبحث عن ما كتبته يوماً. بدأت بين الكتب أفتش وفي الجرارات وبين الحاجات الصغيرة عن الورقة. عثرتُ عليها في جيب سترتي الخلفي وبدأتُ أرى كلماتي التي كتبتها: «تصورتني سأكذب وابتعدت عني لذنب لم أقترفه. كنتَ متلكئاً معي قاصداً فراقي. غير أن الجزأين وإن سايرا رغباتك سيعودان عليك بالندم.

أنت أنا كما تقول تراقبني وتسمع وترى ما أفعل وعليك أن تفهم أن هذا الفراق المفاجئ الذي صنعته أنت بنفسك جعلني دون حاجة إليك.

لقد تجاوزتُ الخمسين وفي نفسي الحاجة إلى اللطف والعجب والتغنج والتمتع بالهزل والتأميل إليه. وباختصار شديد وببساطة مفرطة لم تكن تشكل عندي شكلاً من أشكال الرفاهية، لقد كرهتني من أول خطوة

خطوتها دون استشارتك. هذا الكره كنتَ تضمره وقد تصدع به رأسي وتعبتُ منك، ومن تكرار مجيئك المفاجئ واختفائك الغريب كرهتك. لماذا تكرهني؟

وما سبب هذا النكران تجاه رغباتي في التواجد معك؟

متعالياً في تصرفاتك معي؟

مؤخراً صار سر غيابك غريباً.

غرابة تمنحني القوة لأقول أنك لم تكن إلّا وهماً صنعته أنا في قت كنت في حاجة إلى من يذكرني بضعفي الأزلي؛ جهلي، حماقتي، إفراطي في الطيبة مع الجميع، أو قوة أتخيلها تدفعني إلى أن أحلامي الواقعة بين الخيال والواقع محال، أو يمكن تخيلتك أنيساً لوحدتي لا أكثر. لقد أدركتُ في ابتعادك عني أن الإنسان الذي يقدم على الوحدة قادر على تجاهل نفسه ولا يمكن له أن يضعف فجأة تجاه رغباته التي تشبه رغبات الآخرين. أصبحتُ أرى بوضوح تام أن اضطراب أفكاري شيء طبيعي.

أدركت نفسي وطاقاتي الاعتيادية.

لا أفكر في تجاوز المنطق كي لا أتحول إلى معتوه أو فاقد عقل، لن أتناسى كياستي التي أحب الحفاظ عليها». صوت يخرج فجأة ويختفي فجأة في عصبية مفرطة رميتُ الورقة. ورأيت من المهم النوم. ونسيان كل ما من شأنه الإفراط في وقتي وأحلامي. لاحظتُ وأنا أمدُّ بجسدي على فراشي أن قلبي بدأ يهدأ. وشفتي ترتسم عليها الابتسامة ودبتْ في جلدي رعشة رضا لذيذة. تلحفتُ حتى غطيت وجهي. أغمضت عيني فسمعت:

- أي علامة يحتاجها النوتي كي يفهم.

تجاهلتُ الصوت. وملت إلى جنب. أعددتُ نفسي للنوم العميق ولكني سمعت:

Telegram: Somrlibrary

ـ أيحتاج النوتي إلى الكثير حتى يعرف معنى الخلاص.

اعتراني الفضول فرفعتُ اللحاف عن وجهي؟ رأيته!!..، ولكن تجاه نفسي التي عاهدتها على تجاهله لم أفعل كما في السابق تجاهلت التعجب وقلت هامساً:

ـ إني أتخيل.

ـ ليس من السهل على الإنسان أن يكون موثوقاً به حتى يُجرب مرات ومرات، وليتني رأيتك في السابق بهذه القسوة. رفعتُ رأسي لأتبين مصدر الصوت؟ رغم تأكدي من أن الباب كان مغلقاً وجدته مفتوحاً ورأيتني أقف وسط الغرفة ضاحكاً أرفع لافتة كتبت فيها كلمة لم أستطع قراءتها. مددتُ رقبتي متفحصاً الحروف وفي استطلاع مشدد قرأت ما قاله عني قبل قليل.. «النوتي». متضارب الحركات نهضتُ من السرير وجلستُ في استقامة أمامه وبدأت أسمح له بالحديث بعد ما سألته:

ـ ماذا تقصد بالنوتي؟

تحركَ قليلاً وتلاعب بحاجبيه وفي ابتسامة هي أقرب إلى التحدي لا تخلو من الغرور قال وهو يتقدم ببطء:

ـ ألا تعرف؟

في منتصف الطريق وقف ونظر إلي وأضاف:

ـ هو عنوانك المثير للدهشة.

ـ ولكن ما معناه؟

تابع المسير حتى وصل إلى رأسي فحطَّ يده على كتفي بكثير من اللطف قال:

ـ هو البحّار. هو الملاح. هو القائد.

ثمّ بصوتٍ أقوى أضاف:

ـ هو عنوان المكتبة..

نهضتُ رافضاً إصراره محاولاً ازاحته من أمامي بقوة، إلّا أنه بطرفة عين اختفى!!

قلت وأنا أبحث عنه في كل زاوية:

ـ لا

أجابني ولا أدري من أين جاء مصدر صوته:

ـ ابحثْ.

وكأنه صاحب القرار الأخير، ولا خيار لي أضاف بحدة:

ـ لا تعاند.

دفعني غضبي إلى الصياح:

ـ لا... لا.. لا

أفقت قلقاً فرأيت الشمس من خلال حمرة الستائر الشفافة ترسل نورها الرقراق منساباً إلى يديّ والباب مازال مغلقاً والغرفة يسودها السكون والأشياء التي تركتها على الطاولة مازلت في مكانها ثابتة كما كانت قبل أن أغط في النوم. ابتسمتُ وعاد الهدوء إلى رأسي وفي نفسي رغبة كبيرة في أن أراه مرة بعد أخرى..

Telegram: Somrlibrary

5

تحت شمس الصباح المعتدل في البرودة كانت تراتشي ثابتة. تلتصق بالرصيف ولا يُسمع من داخل أروقتها ولا من فضاء ميناء الشارقة المضيء خبراً عن التصاريح المرتقبة. عدا التجوال داخل حدود الميناء بلباس السلامة كانت الباخرة ممدودة تحت ظل الأشياء وصدرها يحضن سرب النوارس. أفلت الحقيقة. يفكر الصباح فيما نفعله؟ نسيتُ يديَّ! من له القدرة على فهم مسافات المقارنة بين الرؤية ولعبة التحكم في مخارج الحروف عند النطق؟ بطريقة شبه متفق عليها تحرك مطلع الشمس على بساط الصباح المطرز بضياء الصحو. رأيت الشعاع يضحك إلى المناقير الحمر ويغري بلونه المذهب دخان سيجارتي الحالم في دنيا التحليق. في غضون دقائق هبطتْ مجموعة من الذكور تتبعها الإناث تلحق فوق فتات الخبز المنثور من يدي للتو.. على صدر البحر قرأتُ ملحمة حب. لا بد للشتاء من لون جديد. هل يتحقق للناس الأمان تحت الشمس؟ لا بد من الرجوع إلى المنزل، وبين الحين والحين يكون الاشتياق مراً وطعم الصباح واحداً، والسيجارة ملاذاً. لا أشعر أني في حاجة إلى أكثر من القهوة. كنتُ مشغولاً أمام مائدة الإفطار بجدول أعمال ينتظرنا نحن ـ طاقم قسم الماكينة ـ ولا يختلف الحال عند رقيب السطحة. رأيته منهمكاً هو الآخر بالوصاية يعمل جاهداً على تنظيم طريقة العمل بين البحّارة منشغلاً بتوزيع المهام كُلٌّ حسب قدراته وخبراته. كما الماضي وصل جدول الأعمال من برج القيادة إلى لوحة الإعلانات وبدأ الجميع يقرأ ليعود إلينا.

Telegram: Somrlibrary

أنا ورقيب السطحة نسأل عن مهماتهم. ننظم تحديداً ما يرتبط بالدرجة الوظيفية، فلكل واحد من أفراد الطاقم مهمته الخاصة على ظهر الباخرة. وهناك طاقم المطبخ ومنظف الغرف وبحّار خفر عند سُلّم الباخرة وزيات يراقب غرفة مولدات الطاقة. تم تقسيم الطاقم الى أربعة مجاميع: تتكون كل مجموعة من أربعة أفراد تحت إمرة الضابط الثاني مهمتها تصليح الرافعة وتبديل سلكها الحديدي. مجموعة ثانية مكونة من أربعة أفراد تحت قيادة رئيس المهندسين تعمل على تصليح زاوية المخطاف وتبديل الحلقة المعطوبة بأخرى جديدة. ومجموعة أخرى مكونة من ثلاثة أفراد تعمل تحت إمرة رقيب السطحة تعمل على تزويد الباخرة من أسواق الميناء بالمؤن الضرورية مثل الماء والخبز والفواكه والخضار. آخر مجموعة تتكون من ثلاثة أفراد وأنا معهم نساعد الجميع ريثما تصل الزيوت والوقود فننشغل بنقلها إلى سطح الباخرة. كل المهمات تحت إمرة رئيس الضباط الذي يأتمر بأمر مباشر من الربان، وهناك من كان في وقت استراحته المؤقتة يتطوع للعمل عند الحاجة؛ هذا إن حدث طارئ.

تدافع رائع!...

أصدقائي في كامل نشاطهم أعدوا أذهانهم وأبدانهم لهذه اللحظة وأنا ألقي على مسامعهم الكلمات الأخيرة من جدول الأعمال. حملوا تعبيراً واضحاً يدل على الطاعة والاحترام ونشروا سعادتهم من دون تردد، كانوا قد وصلوا إلى أماكنهم. لم نشهد ما اعتدنا عليه منهم من آيات العناد أو الغضب أو التذمّر. تماماً عند الثامنة والنصف من أول الصباح بدأت أول طرقة مدوية من مطارقنا الكبيرة تعلن عن ضخامة حجم حديد المخطاف. بدأ العمل في غضون ثوان بطرقة تبعتها أخرى بنسق متصاعد الحماس وحركات سريعة متناسقة فوق السلالم صعوداً إلى الرافعة. بدأنا نسمع أصوات مكائن ضخ المياه. وفي ساعات متلاحقة لم يهدأ أبو النون أبداً

Telegram: Somrlibrary

كان وحده خلية نحل متحركة يأتي بالشاي والبسكويت مرة وبالماء وبعض السندويشات أخرى. يتبعه مراد الذي أعلن نفسه مُغنيا وقت الغداء. دار حديث حاد تعدى مستوى اللياقة. علا فيه العناد وكاد يصل إلى العراك بالأيادي بين الطباخ والمهندس الثالث. وسمعنا شجاراً وصل فيه الحد إلى السب والشتم بين فاضل البحّار والضابط الرابع. تناقلتْ الأقاويل بسرعة الريح وانكشفت أسباب نشوب المنازعات المفاجئة، وصار التأمل في الوجوه تحديا. في نهار مثل نهارنا هذا الذي مرَّ علينا متعباً ينفصل الرأس عن التفكير في الراحة ويخرج عن السيطرة ويكون عرضة إلى ظهور نوبات صراع ذكورية لا أكثر.

المهندس الثالث يشكو من قلة الطعام والضابط الثاني يريد من فاضل عدم ترك العمل إلّا بعد أخذ إذن رسمي، وهذا الأخير سمعته يعلن تذمّره بحرقة العتب علينا من التعب الذي أخذ منه أساليب الطاعة. ولكن في ظروف كهذه تظهر رعاية جالب السعادة في أحاديث الحبّ. تظهر وعلى كتفها سُلّم العاطفة المفرطة. عاطفة تكنس الرذيلة وتبقي على الفضائل شاخصة في صعودها أعلى المنازل. كان ساهي ـ أبو النون ـ الرجل الوحيد الذي تصرف بطريقة المفكّر البشوش. يسعى في استعادة الهدوء، يتدخل بين المتخاصمين وهو يمسك بيده قلبه الأبيض وفي الأخرى لسانه الماطر صدقاً، بحسن التعامل وبأسلوب سهل انتهت مظاهر التشنج وعاد الهدوء إلى النفوس، ولولا رغبته المعروفة من الجميع في التعايش السلمي لانتهى الأمر إلى العناد فيما بينهم وصار الشجار الذي مرّ بسلام شرخاً لا يمكن إصلاحه. عادت الأجواء إلى السكينة مؤقتاً. ليومين استمرت النفوس على التعايش بسلام والعمل في هدوء بهيج. تعاهد الطاقم كله ـ داخل جلسة مفتوحة يديرها الربان ـ على لجم جموع الغضب. أنجزنا بعد وقت طويل أغلب فقرات جدول الأعمال وعند الليل صارت الباخرة على أتم

الجهوزية لتأخذ غداً صباحاً مكانها المعتاد مهيأة للإبحار وسط البحر، رغم حسرة الصدور من عدم التجوال في المدينة، إلاّ أن ما يطويه القادم من زمن الرحلة كان أملاً له تأثيره السحري على نفوسنا الملتاعة إلى الحديث مع أهل الأرض والاستمتاع في السير ليلاً فوق الطرقات النظيفة تحت المصابيح المضيئة. غير أن القناعة بالمتاح تيسر الأحلام؛ فهنا غناء مراد وطيبة ساهي حتى آخر الليل في مكانهم المعهود عند مؤخرة الباخرة، ولا أدري ما سبب شعوري بالحزن الذي زارني فجأة؟

يبدو أن المطر الليل يذكرني بالوحدة وسماع البحر بأبي.

الصفاء بذاك الصوت يدفعني إلى إغماض العينين، ورغم سيل الدموع وضعتُ سيجارتي في طرف فمي وبدأت أحرقها جزءاً بعد جزء.

رحتُ أرتشف من صورته العالقة في ذهني ابتساماته رائعة تؤجج نار لوعتي وجليد وحدتي. اتكأت برأسي على الجدار الحديدي أنظر أفراح الطاقم ولا أسمع سوى الصوت في رأسي. أنواع من الكلمات المريحة استجمعت أمامي وكان الأريح لي ترك المكان والعودة إلى غرفتي؟. فكرتُ في الكتابة؟

ربّما شددتُ على رأسي وبدأت أفكر في الأفضل: «القراءة؟ الاستلقاء؟ الاستحمام؟ أو البقاء مع أفراح الطاقم؟»

أي فعل من شأنه أن يثير حماس النسيان الذي شح في الأيام الأخيرة.

أحتاج إلى من يذكرني بالاستمرار بعيداً عن ذاكرتي التي لا ترحل.

مستنزفاً كنتُ.

ومن فرط البكاء نفذتْ طاقتي.

لزمتُ مكاني وعلى إثر الحزن الذي أثقل حركتي جلستُ كما أمرني أحدهم وبدأتُ أصفق مع المصفقين لغناء مراد. كنا نمرح بإفراط غريب على وقع حركات أبي النون الراقصة.

Telegram: Somrlibrary

كان مرن العظام رشيق القوام يضحك كلما وجه ناظريه نحوي.

لم يدم حال المرح معي طويلاً حتى انسحبت بهدوء ودخلت غرفتي. أغلقت الباب بإحكام، وكأني اتجنب اي زيارة مفاجئة تأكدتُ من القفل مرتين. نظرتُ من حولي؟

«اهدأ» قلتُ في نفسي.

«دعيني اتحرر». قلت لذاتي.

في تلك اللحظة أخرجت من حقيبتي السوداء صورة أبي واكتشفت صدفة في أسفل جهتها اليسرى مخطوطاً: «أثري الأبيض؟!».

مثل العائد إلى نبعه عرفتُ الحقيقة فلا وجود للعودة سواء إلى الطفولة أو الشباب إلاّ بالخيال.

ولا يمكن للمرء على سبيل الإعارة المرور بحالة تشبه السفر إلّا من خلال الذاكرة.

لم أمتلك نفسي. الموت والحياة توجعاني بقدرٍ متساوٍ.

وا حسرتاه! كلتاهما غربة وأنا الحقيقة بينهما.

ركنتُ إلى نوبة صمت. قمتُ بحركة لم أفهم مغزاها. اهتز جسدي لاإراديا صحت: «أينك؟». ولم أعرف إلى أين ذهب صوتي؟ ولم أجرؤ على الصياح مرة أخرى. البحر عزلة تتمادى وحين تفرض عليه نظرة بعيدة يزداد عنادا. فعلت ما يدفعني إلى الاتزان حين جلستُ منتصب القامة أمام طاولتي وبدأت أقرأ... وجدتني قد كتبت: «الجميل من يحمل أقوى الضربات دون أن يمحو من ذاكرته أكثر الأشياء ألفة والبعض منا يُحييهم أمل جديد، والبعض الآخر يلهثُ خلف النسيان؛ لينعم بسكينة مبكرة. أما أنا فكلما أتوغل في البعد بعيداً أراني فريسة الذاكرة وتقاسيم الماضي السعيد وشيئاً فشيئاً تذبل الروح مثل زهرة قبل أوانها».

Telegram: Somrlibrary

مضتْ ساعة من عدم التركيز ولم يغادرني الحزن الزائر المتردد. ربما أحتاج النوم. ويبدو الشراب لا يساعدني على إدراك ما أرغب فيه. فكرتُ في الخروج من الغرفة والسير فوق إسفلت الرصيف.

في كل ليلة من الأرق الأجوف المتجذر في نفسي زمن يتطاول على حروفي الثلاثة. كنتُ خاضعاً له دونما تفكير كان الشحوب مما أمارسه يرغب في التجدد بعد منتصف الليل. عبء الزمن يأتي. تراكم الأيام الماضية تنساب إلى الذهن لينة. الانتساب لشخص أو شيء مفقود يوقظ البحر. الأرض. الصخور. النار. الهواء. بفزع معين يغير المرء من صداقاته مع القدر. نسيت الوقت. حنين يهدر وضجيج انتظار يلتهمان أحلام نفسي المضطربة. مضطربة بشدة كلما يصل رأسي إلى الفجر. دوائر مباحة نهاياتها مساءات تلتقي الشمس المقعرة من كثرة الإحاطة بالنظر. أبيات من قصيدة حفظتها يوماً ونسيتها. قصص. روايات. فلسفة. علاقتي مع جسدي شاحبة وصوب روحي عزلة طويلة. كما تمنى لاعب الشطرنج بحركة سريعة هزم خصمه تمنيت النصر على السهر. صفحة بعد أخرى أطوي الليل ولا أتعب، وعلى طريقة الحيوان الأليف أمسكتُ بالقلم ويبدأ الحرف النوم في الورق.......

الحياة وغيرها

الأثر الأبيض

دَوّنَ أبي: «هذه الحياة بجمالها ليس لك منها بشيء ثمين يعادل ما تسرقه منك من الأشياء الغالية، وأقصد هنا التملص من تكاليف البقاء والحذر من الافتتان في انتهاز الفرص للعبث، زد على ذلك أحببت الصدق معك، ما كنت والقراءة رفقة سهلة ممتعة.

هل يبدو لك هذا الكلام غريباً؟

لا تتعجب. لا تتعجل. انتظر حتى النهاية وسيأتيك بالأخبار من لم تزود وما في ذلك من شك سيأتيك الرد قريباً..

خرجتُ قليلاً عن الموضوع؟

نعم. أريد أن أقص عليك حياتي في صدق أكثر. ما شعرت بالهدوء في هذا الزمان كالذي أشعر به الآن..

من الطبيعي بعد ما تقرأ عني ستعرف كيف كنتُ مغرماً وفي الوقت نفسه أمقت نفسي وأعشقها أحياناً. ولكن وآه من كلمة لكن؛ كم أتمنى محوها من قاموس أيامك، كنتُ مفتوناً بما تقدمه القراءة والكتابة من بهجة ظاهرها موجز وباطنها أجوف، أحمل إليها حقداً لا يحمله عاقل. يقيناً لو توجهت إليك بكلام مباشر لما سمعتني، لقد عقدتُ العزم حاسماً أن أكتب لك. في هذه الغرفة وحدي لا أفعل شيئاً غير الطواف في النظر.

Telegram: Somrlibrary

قل كيف تسير حياتك؟

لقد رجوتك ألا تتبع أثري. لم تسمعني. إن كل ما كنتُ أخفيه عنك ظهر. أعصابك محطمة؟

أتشعر بالخيبة؟

شرود في الذهن وغريب؟

أفكارك قاتمة وتميل إلى الصمت؟

كل هذا تقريباً ليس سرا، كنتُ على علم به فيك منذ مدة طويلة أباحته لي أيامك نفسها التي كنت فيها متهاوناً في حياتك. سمعتك ذات مرة تقول: «صحيح أننا نعيش معاً، لكن ما يجمع بيننا يفرقنا».

كنت تبدأ بمثل هذا الكلام حين تخفي عني نواياك تلك التي سأرويها لك فيما بعد. لا لشيء فقط خطر على بالي ترك الأمر لك في مقارنة أفعالي بأفعالك ولشدة ما أريد في هذه اللحظة أن أكون صريحاً معك، كل شيء في الآن لا شأن له بالسلطة أبداً بقدر ما أشعر تراقبني منذ مدة طويلة، وكأني هدف لك. لا تتسرع في الرد وتعد الأمر مهزلة، وتقول: كيف ذلك؟ أسخر من الوقت. لا يهم. الأهم أن تعرف أن المرء يحس مثل هذه الأمور بقلبه قبل عقله ولأنك الاثنان اسمع مني صراحتي حتى النهاية: مخيراً في رغباتي تبعتها أينما تكون حتى صرت مُسيراً مُجْبَراً على حمل الشهوات إلى صدري مثل مخلوق وحشي، يسيل لعابه على هذه وتلك دون تمييز أيهما الأفضل. لا تتعجل في الاستغراب وأهدأ قليلاً؛ قد يكون القادم أسوأ... قمْ وأشرب الماء، ثمَّ تنفس عميقاً بعدها تعال واقرأ، ولكن بروح أخرى. استلق على ظهرك، عانق ساقيك، مط ذراعيك، بعدها خذ نفساً عميقاً وكُلْ وقتك في الراحة أكثر فأكثر. ولا تكترث إلى الليل إن تأخر. والآن نكمل حديثنا: كنتُ في مدينة كل صباح فيها تجتاح قطعان الأفق

من جهة الشرق أشعة شمس. أشعةٌ جمالها سماوي يملأ عاطفة الأرض إلهاما. حياة يتحرك فيها كل الخيال فوق الحقيقة. مثل الإيمان يهبط من علوه إلى نهر الرغبة الراقدة في القلوب وكالعين المستديرة في ميدان الساحة المكتظة بمواكب أهواء وأحاسيس تشاهد إلى جوارها النساء يتحركن بخطوات وئيدة. وقع رنين كعوبهن العالية تدفع رغبات النظر خلسة.. رسمت الحسرات جذعاً من الرخام على ذكورية في عيون مجمدة، حال هؤلاء لا يختلف كثيراً عن الذين فضلوا السير خلفهنَّ بمكر وخداع. هناك فريق ثالث يصعد رابية المدينة لم يدر على أي منهنَّ يلوح بمنديله، ومنهم من يهز رأسه متنهداً ويزمُّ بشفتيه مع نفسه يتأمل اللقاء، وآخر يقف منتصباً بقامته المدهشة كمصارع أسطوري وسط الميدان يلفظ بلغة لينة أناشيد العشق مكبراً بمذاهب الشعر والشعراء، يحرك حاجبيه، يغمز بعينه ويومئ بيديه. يفعل ما يشاء ويردد: «العشب المبلل أنتِ، أينما ملتِ قد مال». وفي المساء وعندما تهدأ الريح نرى العناق داخل البساتين من بين الأشجار نسمع أحدهم يغني. هل تسألني عن العلة في هذا؟».

ماتَ أبي منذ زمن بعيد، رحل ورحلتْ معه الأجوبة. لا أريد الجواب عن تلك الحياة ولا عن هذه؛ ليس لي نصيب في جواب يحمل في طياته معرفة العلة؛ لقد كشفتْ أيامي الماضية الكثير من ألوانها المتحولة من حيث النوع ومن حيث الشكل، غير ذلك لم أنتبه بعد، كل ما حدث هو أن ضياع الأحلام في تزايد. كنتُ الوحيد الذي لم يقل له أهله عن الأشياء التي فعلتها لِمَ فعلتها؟ والشيء نفسه مع التي لم أفعلها. الإحساس قضية صعبة جداً هناك في عمق الذات عميقاً جداً شعور يختلف من شخص إلى آخر ـ أنا أتكلم عن الأمان والحرية ـ هناك صوت شديد الحزن يتكلم من حولي: «هذا التفكير وهم». لقد سبق وأخبرني ابن عمي أنه قد تعرض

إلى الخداع. ولكن ما الجديد؟ ها أنا الآن أتعرض إلى الخداع والغدر والقتل والسلب والسبي والإبعاد والسرقة والإقصاء والتهميش وقادم الأيام سيكشف لنا أكثر.. ألا تلاحظ أن سبب الضياع امرأة؟ الوقوف من جديد كفيل في اعتقادي بإيجاد وسيلة من شأنها أن تمكنني من الظفر في الأيام القادمة. لا يمنعني قصر النظر إن رأيته مُكلّلا بالإعياء والملل. لقد أصبحتُ صحراء قفرة لم يلمسها المطر، منذ أمد بعيد أسلمتُ يدي لقيود الرشفات الطائشة، في لحظة سعد حملتني نفخة ذكورية جامحة بخفة الدخان إلى قمم الليالي اللامعة المعطلة للأزمان عن الدوران، على الدوام أنغمس فيها أكثر وأكثر حتى تسربت الحياة من بين أصابعي. ذاكرة الطفولة خادعة تأتي على مهل دون شعور مني، ولا قدرة لي على الاستدراك، تملكني منذ أمد بعيد وشفتاي تتذوقان الرشفات، أفكاري تحجمها الضحكات. أيامي تمحوها الأحلام. اليأس يتولاني يسودني الذعر والاضطراب مندفعاً بالرغم مني إلى الأوهام. قد أفاجئكم برحيلي. أجل.

هي التي كلمتني الآن، أعلنت عن ضعفي، ذكرتني بها.

من هي؟

أسمها اليوم سر لا يبلغ في نظري حكمة، هي نفسها بهمسها الماكر ونفخها الغرور كلمتني.

أنا أتجه في قراراتي إلى التفوق واعتلاء القمم دون نضال ولا إرادة ولا قوة. لقد هزأت الحياة بي؛ فما معنى التفوق! وأنا الآن داخل مدينة أوهام، مدينة من رمل وضباب بالكاد تقوى على الوقوف ثابتة عند سفح الحياة يهزها أضعف نسيم، متى ما حدث وسقطتُ فوق بقايا ركام ذاكرتي المبعثرة أكون سراباً. بعض أقداح ملونة وحنجرة غناء وأقدام عارية يمكن لها تدمير ما تبقى.

أتعلم ما يخيف من يستسلم للرحيل؟

Telegram: Somrlibrary

لقد تعرضتُ للخداع مرات ومرات ولكن كل شيء حدث بأسرع مما أتصور، كنت أمضي بعيداً في حفاوتي بالحياة بقدر ما تشير عليَّ نفسي في ضَمّ الرغبات المتتالية المتوالية إلى داخل جسدي وخارجه دون أن تسنح لي فرصة واحدة للاستدراك على ما تبقى من السواد؟

ولكن ما السبب؟

ربّما لم أكن واعياً في اللحظة الصحيحة، أو قد يكون هذا كله من أجلِ الحبّ المقبوض عليه بيد الأسرار المتعاقبة بلا حل، والذي يقسم باسمه الرهيب أبي، مثله مثل باقي المخلوقات المسجلين في الصباح على أنهم أحباب وعند المساء يصبحون عشاقا، وربما لا. لا تجزع مني ولا تشعر بالضجر، عليك بالصبر حتى النهاية، وتأكد لن أسرق وقتك الثمين بقدر ما يفيضه عليَّ عطاؤك. يا أثري الأبيض: كنتُ في شعور دائم يداهمُ ذهني في القراءة. تَـشبُّ رائحة الحدائق، وتصير القصائد والروايات والتاريخ والقصص والفلسفة والحكم. واحات يتوسطها القمر.

أرى جسمي بمعزل عن عقلي، تقودني الدنيا خاضعاً خارج حدود الجاذبية أطير مثل عصفور في العراء تنفلت منه الثياب.

أطير ثمَّ أحطُّ مثل الفراشة قرب ساقية الأنهار مغمض العينين تسوقني الأهواء أتنفس. وعلى صرخة مدوّية مباغتة اندفعتُ خلف المصير المتربص بروحي البيضاء مغشياً عليه أرتجف، أئن مخضب الرغبات يطوق صدري الاندهاش. لا يفترق الماء عن بعض يشبه العناق تحت المطر حتى يظهر.

هل تحب الهذيان مثلي؟

الخرف؟

الوحدة؟

الإعياء؟

أنا علمتك القراءة لياقة، وأعرف أنك تحب الكتابة. عليك التوقف يوما ما. يوماً تكون فيه الحاجة للابتعاد عن الأوساط المثالية والتواجد وسط الواقع لإثبات الذات الإنسانية فينا. ذلك فعلا هو الهدف. وأقصد هنا الهدف من وجودك وسبب تكوينك.

الفصل الثامن

مراسي اللحظة الأخيرة

Telegram: Somrlibrary

1

صباحاً ثُـبتَ كل شيء في مكانه.

رُبطتْ بحبال خاصة أغلب الأشياء المتحركة.

لحظة إبحار حقيقية متوقعة..

كالمعتاد كانت تحرك الجميع لمغامرة محتملة: كل واحد أنجز مهمته وفي غضون نصف ساعة أو أقل غادرنا ميناء خالد ورغم الإشارات التي تصل من برج القيادة على أن اضطراباً هائلاً يمكن أن يقع في البحر.

كنا نتحرك في سرعة عالية.

دقائق صارت إمارة الشارقة خلفنا. تراتشي باخرة يقال عنها حديثة العهد على الإبحار، ولكنها لا تختلف عن البواخر التجاريّة المُدارة بمحرّك ديزل. نحتاج التزود بالوقود. ولأسباب مجهولة لم نحصل على الكمية الكافية التي تتيح لنا الاطمئنان على عدم صرف المخزون الاحتياطي، وفي حالة تأخر وصولنا إلى الميناء اللاحق في الوقت المحدد من المتوقع سنضطر إلى استهلاك مخزوننا الاحتياطي هذا إن كان خالياً من الشوائب مثل الماء والرواسب الطينية.

لا يحق لي الحديث مع رئيس المهندسين بخصوص كمية الوقود الكاملة داخل خزانات الباخرة أكثر من إعطاء الرأي. وهذا ما فعلته بالضبط وانشغلت مع المنشغلين في الإبحار إلى إمارة دبي؛ تنتظرنا فيها

Telegram: Somrlibrary

بضاعة متنوعة تحديداً عند رصيف ميناء الحمرية. مازالت تراتشي تشق صدر الموج ولكن بثبات غير معتاد؟! رأيتها تعلو وتهبط بجرأة تعود إلى الإتقان رغم فراغها من الحمولة كانت متزنة في مسيرها أشعر بها ثابتة! ويبدو هذا الشعور كان إحساساً ينبع من الداخل المتعاطف وهو خال تماماً من الحقيقة. الواقع أمامي صار واضحاً. بعد ساعة واحدة من إبحارنا بسرعة خمس عقدات، وعند تجاوزنا المياه الساحلية... ربّما مُتْنا... الأفق يميل إلى اليسار فنميل إلى اليمين والعكس كانت نهاية المدى خطاً أسودَ يفصل خط السماء الملبدة بالغيوم السوداء عن البحر بضوء أبيض براق. يعصف بنا الموج ويضرب بدن الباخرة. كنا نميل عكس اتجاه الريح. نترنح في حركاتنا التي صارت بطيئة، كدنا نموت في ميلان حاد ـ حاد جداً ـ حدث فجأة وصلتْ فيه درجة ميلانه إلى الانقلاب! لا.. صادفتنا موجة عالية عصفت بكل شيء وقطعت حبال ربط الأشياء المتحركة وبدأت أصوات تصادم الموجودات بعضها ببعض مدوية، من الداخل سمعتُ صوت تكسر الزجاج وصفق الأبواب وتحطم القلوب، في الوقت نفسه ضربتنا موجة غاضبة. من الجهة الأخرى رمتنا موجة أخرى إلى الأعماق أعمق. مُتْنا. ارتعشت تراتشي وانخفضت بنا إلى واد أزرق داكن الزرقة عميق جداً... خفنا... مهم جداً ألا نميل أكثر من ثلاث وعشرين درجة. وصلنا إلى قرار أطلاق صفارة الطوارئ ولكن صعود الباخرة المفاجئ إلى السطح أعاد تفكيرنا إلى الحفاظ على سرعتنا والتركيز التام لتلافي أي تصادم مع بواخر كانت تسبقنا وأخرى نسبقها.

البحر يعاند. غاضب جداً ولا يبدو أنه سيهدأ، عادت الباخرة إلى التحرك البطيء ومما زاد من قلقنا هو ارتفاع درجات الحرارة داخل غرفة الماكينات. بدأت السماء ترعد وتبرق وأنزلت جيوشاً من المطر. أصبحت الرؤية من داخل غرفة القيادة شبه مستحيلة. تلحف ضابط الملاحة ليث

Telegram: Somrlibrary

بكيس بلاستيكي، أخذ المنظار وخرج إلى الجهة اليمنى. يراقب الاتجاه. يقودنا بصوت جهور، كنا نسمع ما يقوله. تركنا الباب له مفتوحاً. دخلَ المطر إلى برج القيادة. صار الخطر أكبر وأمكر من ذي قبل. العلامات الموجودة في البوصلة تشير إلى أن البحر الذي أمامنا لا يقل غضباً مما نحن فيه الآن. تصاعدتْ بشكل خطير حرارة المحرك الرئيس وبدا من المستحيل علينا الاستمرار في زيادة السرعة. صار لزاماً علينا التوقف أو على أقل تقدير تخفيف سرعتها إلى أدنى قدر ممكن من أجل تخليص مصافي منظومة التبريد من الأملاح والشوائب البحرية التي علقتْ بالأنابيب نتيجة وقوفنا في الميناء.

ـ لا

قالها الربان بقوة وحزم. مما دفعنا إلى التمسك بالصمت والتريث. وهو رأيه الذي كان في قمة الصواب، وقد شعرت بفقدان السيطرة على الباخرة.

ـ سنرى كيف نعبر هذا البحر.

قالها الربان بثقة أعاد فيها تركيزنا، ثمَّ حثنا على العمل بأقصى سرعة ممكنة والحفاظ على أرواحنا..

ـ فقط نقلل السرعة وأنا أتكفل بالباقي..

قلت وكلي ثقة بما أقول. عندها رأيته موافقاً كما أغلب البحّارة. توجهتُ ومعي منظف الماكنة والمهندس الثالث إلى منظومة التبريد ـ منظومة تدخل فيها مياه البحر لتبرد المياه الحلوة وتعمل الأخيرة على تبريد زيت المحرك الرئيس ـ في الحال وعلى سرعة معهودة من طاقم الماكينة قللنا السرعة وقمنا بفتح فلاتر التصفية وتم تنظيفها تماماً من الشوائب متناسين الخطر المحدق بنا. دخلتْ مياه البحر عبر الأنابيب

Telegram: Somrlibrary

النحاسية في انسيابية وعلى الفور بدأت درجة الحرارة في الانخفاض. مياه بحر الخليج مالحة ـ شديدة الملوحة ـ رغم انتحار دجلة والفرات فيه إلّا أن ملوحته قاتلة. وهذا ما يسبب لنا المشاكل في المنظومة. بعد ساعة أو أكثر من العمل الخطير داخل منظومة التبريد عادتْ درجات الحرارة إلى وضعها الطبيعي، وبدأت تراتشي تزيد من سرعتها، ولكن البحر مازال غاضباً والسماء الملبدة بالغيوم سوداء ماطرة.

ـ إذا استمرت السرعة على هذه القوة خلال عشر ساعات نكون عند سواحل الميناء.

هذا ما قاله رئيس الضباط. عشر ساعات ليست قليلة مقارنة بما نصارعه من موج وأمطار تحجب الرؤية. كان الموج مثل الجيش يعاضد بعضه بعضا، يضرب بصدره المندفع مقدمة الباخرة ليطير رذاذه الصلب مرتطماً بالواجهة الزجاجة لبرج القيادة. تحركنا بطريقة الصعود والنزول والميلان. أنهك البحر ثلث الطاقم، رجعوا إلى غرفهم، كل واحد يعاني من الدوار. كنا نعلو ونهبط كثيرا، وتكرر المشهد مرارا. تمكنتْ مؤخرة الباخرة من الصمود بصعوبة. والدفة مازالت طوع يدي الضابط الثاني. علينا تغيير خط الإبحار خمس درجات ننتظر موجة لنكون على ظهرها نتلافى فيها الميلان الحاد. وحدث ما كنا نتوقع وبغضون ساعة أمسكنا المسار المحدد لنا وبدأنا نشق الموج الغاضب بخط مستقيم، وهذا الوضع وحده أعاد إلى صدورنا الهدوء ولو مؤقتاً.

ـ تفحص أنابيب الوقود..

رئيس المهندسين يأمرني بالنزول إلى أقصى نقطة في تراتشي. تبادر إلى ذهني القلق والرهبة كنت أتأرجح في نزولي عبر السلالم. سقط المصباح اليدوي من جيبي إلى القاع. اهتزت الباخرة هزاً عنيفاً سمعتُ طرقعات في مفاصل تراتشي. بدأت أسمع أزيزاً حاداً. كان البحر يرتطم

بجانب الباخرة بلا هوادة أسمع دوياً هائلا. مالت الباخرة. غرقنا. لا. نسيت يديّ. ولأنني أملك شيئا كان مضراً لمن يعرفني ـ العناد ـ فعلتُ ما اعتدت فعله في أصعب الظروف. قلتُ لجسدي قاوم وعليك أن تطيع أمري. كما أن هناك شيئا يدفعني إلى النهوض من جديد والوقوف باستقامة والتحرك بانتباه حتى إنهاء ما أمرت به؟ هو أنا نفسي أحب التميز. ليس بالأمر الهين التفكير في الموت والتفرد معاً. هذا ما تعلمته من بحّارة أشد عناداً أواسط عشرينات عمري عندما كنت في باخرة تبحر فوق المحيطات والبحار وتعبر خليج البسكاي أو البنغال الهائلان في تصريف الرعب إلى قلوب أغلب البحّارة.. بحران مخيفان في مواسم محددة. دون التفكير بالغرق أو التكاسل كنا نعمل كفرد واحد نشد على حماس بعضنا البعض.

والسبب الأهم الآن: عليّ إنقاذ نفسي من أعمق نقطة في الباخرة والخروج منها سالماً، ومعي نتيجة ما أمرت به.

تنقلت سريعاً وفي حالة من حالتي التي أشعر بها تشبه الهوس كنتُ أتنقل بين أنبوب وآخر أتحسس في اللمس والنظر وأصغي كي أتأكد من سلامة الجميع.

لم يمض من الوقت الكثير حتى عدتُ إلى رئيس المهندسين، وقلتُ وأنا أستجمع أنفاسي وقلبي يسمعني لهاثي:

ـ كل شيء «تمام»..

ـ اذهب وغير ملابسك..

لو كنتُ مكانه لما قلت ما قاله. على العكس تماماً. لشكرت من أطاع أمري وشيعتُه أمام الجميع على بطولته، ولكن هو هكذا الإنسان يختلف في المزاج والرغبات. فعلتُ ما أمرني به وعدتُ إلى حيث يجب أكون في غرفة السيطرة الإلكترونية.

Telegram: Somrlibrary

داخل قسم الماكينات بدأت مرحلة الشعور بالموت تبتعد وتحل محلها حالة الارتياح؛ لأن الجو صار مفعماً بالاحترام وصار الشعور بالراحة يسري بين المهندسين وطاقم الفنيين الذين مثلوا الأدوار الثانوية في المزاح.

لم يكن يقلقني سوى عدد من الأفكار السوداوية، يبدو التكتم عنها الآن من مستلزمات الأمور. وقد أظهرتُ لهم عكس ما كان في نفسي من احتمالات عطب منظومة ما فجأة. وأنا أتخيل قلقي وارد الحدوث لسببين؛ أولهما ما رأيته من أنابيب متأكسدة داخل منظومة التبريد والثاني نقص الوقود ومولدات الطاقة الكهربائية وقد بدأت أسمع منها أزيزا يدفعني إلى الشك في وجود عطب ما. لزمتُ الصمت وتعاملتُ مع الموقف وقتاً بعدها أخبرت المهندس الثاني فكان رده مطمئناً على الأقل في سيطرته على الموقف ووجود البديل في حالة أي عطل يمكن حدوثه فجأة، وأن إبحارنا لن يطول أكثر من ثمان ساعات أخرى ونكون بعد ذلك عند رصيف الميناء.

بعد منتصف الليل قريباً من طلوع الفجر صارت ملامح المدينة الضوئية قريبة من أنظارنا. تم تقليل السرعة في انتظار أمر الدخول إلى الميناء. لم يكن يثيرني الموقف كثيراً؛ كنت مشككاً في السماح لنا من سلطة الميناء بالدخول مباشرة. وقد تأكدتْ شكوكي بعد إعلان الربان من خلال مكبرات الصوت عن التهيؤ لرمي المخطاف. أفردتُ جناحي بوجه الريح ورفعت صدري لأخلص جسدي من أسوار الحديد. أغمضت عيني ونشقت الهواء طويلاً وزفرته أطول. كان البحّارة يدورون حولي، وفي مركز ثقل الدائرة وقفت فوق كومة الحبال ورفعتُ رأسي إلى السماء وبدأت أقرضهم المديح؛ امتلأ صدري سلاماً فهطلتُ عليهم. الراكضين إلى المقدمة. والمسرعين إلى المؤخرة. والواقفين في الوسط. والنائمين في الغرف والموجودين في برج القيادة وعند قسم الماكينة. لم أنس أحداً منهم، ذكرتهم كلهم بالاسم واحداً واحدا. كل شيء جرى مجرى حسناً. رمينا المخطاف، وانتهينا في قناعة شبه

Telegram: Somrlibrary

مؤكدة أن دخولنا قد تقرر عند أول الصباح. في تصوري نحن في أهوائنا وعلى ما أظن كان انتظارنا أخف. لم يتسنَ لنا النوم، كنا نروح ونجيء في أروقة تراتشي وعند سطحها نمرُّ على بعضنا في الغرف وعند الصالات نمرح ونمزح ولا نفكر بشيء غير تنظيم أجسادنا لطلوع الشمس. تنفس الصباح وبدأ العمل من جديد. راودنا الشعور المشكك في دخول تراتشي الميناء. ولكي لا أثير غضب البحّارة في هذا الأمر سايرتهم في رغباتهم، كنتُ مع أحاديثهم عن الميناء المرتقب ابتسم لهم. لقد كان واضحاً من الربان أنه يعلم. لا مجال لدخولنا اليوم. ولكن بطريقة القائد المحبوب كان لا يمنع أي متحدث عن ما يريد فعله في الميناء...

بعد وجبة الغداء شعرتُ بحاجتي إلى النوم. انسحبت بهدوء ودخلتُ الغرفة موجهاً نظري إلى خزانة الملابس، ودون أن أركز فيها عدت بنظري إلى المصباح، ولكني كنت أفكر في الظلمة. أغلقت النافذة وأسدلت الستائر وخلعتُ ملابس العمل ودخلتُ الحمام وبغضون دقائق صرتُ مستلقياً على ظهري فوق فراشي أفكر في المتعة. فسمعتُ من خلال مكبرات الصوت الربان ينادينا جميعاً..؟.. يريدنا في الصالة الكبيرة. قفزتُ وخرجتُ متجهم الوجه، وليس من عادتي أن أكون هكذا؟ في بضع خطوات عدتُ إلى رسم الابتسامة على وجهي، دخلت الصالة حينها رأيت العيون مثبتة نحوي وأصوات كثيرة مرحبة بوصولي! «ما هذا؟». سألت نفسي. ساكناً في مكاني أسمع كلمة ترحاب جديدة أحس إحساساً أقوى بأنني..؟.. «اهدأ» قلت في نفسي ولا أدري ما كنت أشعر؟ اختلطت الأفكار بين كوني الأحمق؟ أو هناك شيء اتفقوا عليه وقد أخذوا فيه القرار قبل مجيئي؟ لا أستطيع أن أظهر لهم التذمر. تصنعتُ الابتسامة وسألت:

ـ ما الطارئ؟

ـ كالعادة...

Telegram: Somrlibrary

رد الربان بنبرة الواثق وبعدها تكلم عن استحالة دخولنا اليوم إلى الميناء وأن هذا الأمر سيساعدنا على إنجاز أعمالنا ريثما ندخله على أكبر تقدير غداً، وفي تلك الأثناء عليك ـ وهو يحدثني أنا تحديداً ـ تسجيل عناوين الكتب التي يرغب الطاقم في الاطلاع عليها لفتح مكتبة الباخرة التي اتفقنا عليها.. ولأني أخذتُ موافقة على نزول الطاقم، وهذا الأمر مؤكد حسب البرقية التي وصلت إلينا من سلطة الميناء سنتحرك بعد ساعات إلى أقرب نقطة من الأرض وفيها ننتظر خروج باخرة انتهت من التحميل لندخل توا، وهناك ستلاحظون عودة إشارة الاتصال لخطوط موبايلاتكم..... برهة صمت.... وفجأة زاد وفي عينيه بريق لافت:

ـ اعلموا بجد على تفريغ المخزن ليكون مقرا للمكتبة.

في إشارة من يده التي تحمل القلم إلى وجهي أضاف:

ـ هل عثرت على أسم مميز للمكتبة؟

ـ النوتي.

لم يتردد الربان لحظة واحدة في الضحك، وهو يقول:

ـ ماذا!!

كان يرافق ضحكاته ضرب كف بكف وحركات أشعر بها ساخرة؟! تخيلتُ هناك غرابة في العنوان دفعتهم إلى هذا التصرف غير اللائق. أبطأت في الكلام أحاول الإمساك بتعريف واضح لعنوان مثير كهذا مؤكداً على صحته رغم غرابته. يبدو أن أفكاري مسطحة اعتقدتُ للحظة أن أغلبهم لا يقرأ كثيراً، ولا يعرفون معنى البحث في العناوين، ولكن بعد نقاش مستفيض مع الربان عن كيفية اختيار هذا اللقب الغريب وما يخلقه من دهشة، بدأ البحّارة بمختلف درجاتهم الوظيفية يحكون عن دلالة «النوتي» فكشفوا لي أبعاداً كانت غائبة عن إدراكي؛ فهو الملاح الذي يقود السفينة؛ ليس كقيادة الربان وحسب، بل قيادة نفسية وفكرية أيضاً،

Telegram: Somrlibrary

وتبينت ما يكشف عنه التحديد من عمق التفكير. مضيتُ أتخيل حماقتي في معرض حديثهم عن القراءة وما لها من قدرة كونية على جعل الإنسان يعيش أكثر من حياة، جسرها السفر بين الكلمات ووسيلتها الذاكرة. عرفتُ منهم أن القراءة لياقة ذهنية تستطيع فيها أن تستمد المتعة والفائدة من الوقت بطريقة سلسة، كالمتدرب على الركض من أجل قهر المسافات. احتجتُ إلى وقت أكبر كي أفهم كم كنتُ ساذجاً متسرعاً في اتخاذ قراراتي وعليّ مراجعة نفسي مرة أخرى في التعامل مع الناس. تصورتني في حضرة نصفي الآخر، كنتُ الأبله متفرداً في غروره. تخيلتهُ أمامي يسخر مني في تكرار سخريته. حتى أبو النون سمعته يقول بنبرة رصينة:

ـ ما أحلاه!

يتبعه الجميع مؤيداً! فاخترت الصمت ملاذاً. ليس مهماً أن أعرض عليهم أدق تفاصيل ظهور العنوان. سارعتُ في الكتابة على الورقة وسجلتُ كل ما أتذكره من عناوين الكتب. كشف لنا الضابط الثاني بعضاً من كتبه الشخصية. وبسعادة واضحة قال: «لن يكف البحّارة عن قراءتها». تكلم الآخرون عن أثر القراءة في مراحل مفصلية من حياتهم. ما أدهشني أكثر قد طلبوا مني الروايات الرومانسية والقصص البوليسية والاجتماعية وهناك من قال أريد الكتب الدينية. بعضهم كان يرغب قراءة الفلسفة، وآخرون تركوا الخيارات لذائقتي. والبعض الآخر غادرَ الصالة دون أن يسجل رغباته في القراءة. كان يمكن لنا الانشغال في العمل عند المكتبة وأن نكون كما تعاهدنا نشدُّ على أيادي بعضنا ونساند خيالنا ونتفق على أننا إخوة في كل شيء مع البقاء على احترام الدرجات الوظيفية، وهذا ما حدث بالفعل، وقد تم كل شيء. أنجز العمل بأفضل ما يمكن أن نتخيله، وعند الليل عاد الجميع إلى مكانهم المعتاد في مؤخرة الباخرة يمارسون لذتهم في اجترار الذكريات والغناء والمرح المباح. كنتُ في أعلى مستويات السعادة.

Telegram: Somrlibrary

ما كان لهذا الحلم أن يتحقق لولا إصرار الربان عليه. إنجاز يؤكد أن الثقافة ليست للنخبة فقط، أو بالأحرى لا يوجد نخبة وإنما بعض التفاوت بين مثقف وآخر في مستوى الفهم لما يجري من حولنا وأن هذا الفهم والإدراك أو الإشراق سَمّهِ ما شئت يأتي من ثقافتنا الذاتية ويتشكل مع مرور الوقت من ثقافات مكتسبة. أغلب الظن سنصنع الفارق بهذا الإنجاز. سأباشر في ما خططتُ له من تشجيع الجميع على القراءة في مسابقات تحضر فيها جوائز معنوية ومادية. سندخل المكتبة صامتين، لكن مبتسمين. سنخرج منها والأفكار التي كانت أكثر عسراً على الفهم هي محور نقاشاتنا..

2

في صباح اليوم الثالث من زمن الانتظار، حيث كان من المتوقع أن ندخل ميناء الحمرية على الساعة العاشرة، احتفل أفراد الطاقم مستبشرين بمصداقية الخبر. لقد رُفع المخطاف وتحركت الباخرة باتجاه إمارة دبي. مكبرات الصوت تؤكد ذلك. كانت أول حفلة شاركتُ فيها الطاقم. صحيح أنني في السابق حضرت حفلاتهم إلاّ أنني كنت أجدها غير مسلية. ليلة البارحة اتصل كل فرد من الطاقم بمن يرغب في الاتصال بهم، واتصلت بسمرائي واتفقتُ معها على لقاء قريب يجمعنا في مكان وزمان نحدده بعد عودتي من البحر. ما بين البهجة والفرح فرض العمل عليّ التواجد في غرفة الماكينة. انشغلت بما كلفت به وقتاً أقدره بساعتين، صعدتُ بعدها إلى برج القيادة بطلب من الربان فرأيت ما كان يحدثني عنه؛ إذ كان يشير جهة اليمين إلى الجزر الصناعية الثلاث: نخلة الجميرة! نخلة جبل علي! نخلة ديرة! ولكنني رأيت النخلة ديرة على الطبيعة واستغربت من كم العمل وحجمه، وقد أدير على محاور كثيرة. لمحتُ تيارات مائية غريبة وتغير تام في شكل الممرات البحرية التي مررتُ بها من قبل أكثر من عشر سنوات. كان كلامه لا ينبئ أننا في الساعات الأخيرة كنا على ظهر البحر وسنصل إلى الرصيف قريباً. كان ينشر على الخريطة أصابع يده يحاول التثبيت على مكان ما، وبعد حركة قصيرة رفع رأسه وأفصح بأمر يبدو كان متضايقاً منه.. لم يكن بالأمر السيء إلى درجة تدفع رجلاً مثل الربان إلى الانزعاج أو التذمر. لقد رأيته يكتم جام غضبه ويحاول قدر

Telegram: Somrlibrary

المستطاع الحفاظ على الاتزان وعدم إثارة الفوضى حين قال: «سنرجع إلى منطقة الانتظار». كتب الضابط الرابع ما قاله الربان وفي الحال أعلنه إلى كل أفراد الطاقم عبر مكبرات الصوت وزاد أن الوجهة تغيرت بأمر من الشركة الى ميناء زايد في إمارة أبي ظبي. وقفتُ في منطقة مظلمة على الجانب الأيمن من الباخرة وكانت قريبة من سلالم رافعات الحمولة المركونة إلى جنب. «لماذا؟». شعرتُ بتنهدات البحر تزداد كلما تأملتُ السماء الملتصقة على امتداد النظر. وحيداً في همي داخل دائرة ماء أزرق يميل إلى السواد. أول الأمر خشيتُ الضياع بين العصبية والحنين، ثمّ خفتُ على ما خزنتهُ في الذاكرة من الاندثار. حاولتُ الهدوء.. ترعبني جذوري في شدها إياي للتفرد المتأصل والمتواصل لبيت فوق الأرض يقيم فيه كل منا طقوسه اليومية. كنت أملك سر عودتنا، وأعرف الغضب المكنون في صدور أفراد الطاقم إن عرفوا أنه لا يمكن لمس الأرض ليومين قادمين. يمكن لهم أن يتحولوا إلى...؟... لا أدري إلى ماذا لكن إلى شيء لا يحمد أوله ولا آخره. كان الرعب أقوى مني لدرجة عجزتُ فيها عن الاختفاء وراء غنائي الصاخب.. بللتني موجة عندها تحول الصعب إلى مزاح فاستفاق في داخلي «أنا» وبدأ يرتج حد الاتقاد، رغم الوحدة التي كانت تشعرني بالانتصارات والمخاوف والأفراح والملذات عرفت في الألفة إنسانية، فسألت نفسي عن سبب بقاء حلم الطفولة كامنا؟ كيف مر الزمان والوجه الذي كان يوصلني في صباح أول يوم إلى المدرسة؟؟ الحلم.. جمر. كيف ومازال في الأسفار القديمة صاحبي الذي خان؟ يوم لا يجيء، لكنه كان؟ يختفي وجهي بين يدي والأسئلة مازالت تهطل على نفسي المخضبة بصمت يحرك غبار العودة إلى الأمام. غرة الحياة هي الاستمتاع بذكريات الطفولة، وأنا لا أختلف عن الناس في هذا الشأن، ولكن متعتي معاكسة تماماً..؛ تبعث في نفسي الشجون. بين مجموعة من رجال ونساء وأثاث لطالما أحببت رائحته. لا قناعة لي إلاّ بي. جدي ـ من أبي ـ يصنع

قهوته بيده. كان أبيض. أزرق. أحمر. كل ألوان الدفء. الحبّ. ذات مرة وأنا طريٌّ العود كهذا الموج الذي لا يهدأ لسعني بنار الموقد وهو يضحك. كان سيدي وصار دليلي. هل يكفي البكاء؟ لا يكفي البكاء. أخذتني جدتي - من أبي - في حوار ليلي إلى أبعد من جسدي وتفكيري. كانت ترج بطلاسمها صدري حين وكزتني من خاصرتي وهي تقلب السمك على النار بعود ناعم من حديد كان ساخناً وقالت: وهبتكَ لنا فأعطيناها الرضا. ثمَّ قالوا: «لا تسبح في النهر نخشى عليك الغرق». قلتُ: «لماذا القلق؟». لم أعرف بعد ما يعني فقدان من نحب إلاّ بعد الرحيل، في دهشة لا تصدق اكتشفتُ كنز وحدتي، وعرفتُ بعد فوات الأون معنى البحث عن شيء لا تجده. يا أنتِ: جدتي، في وحدتي تأخذ عيني الليالي. ولا النهار ولا البحر ولا الإبحار يَعلم سر انعزالي. لا أفهم سبب بقائي بمكاني، لكن متمتعاً أعيد صدى كلماتها ضحكاتها، ولا أدري أيضاً لمَ أحسستُ بحاجتي إلى غرفتي والاستلقاء قليلا. في هذا المكان المنعزل ليس بوسعي النوم. مفعول التحدي يدفع بي إلى اتساع ابتسامتي. وقفت أمام المرآة لأقول: «كلانا من الرجال، ويفهم أحدنا الأخر».

في الصباح كنا جميعاً نشكو سوء الطبخ وتقلبات أمزجة الطباخ التي صارت خارج السيطرة تتجلى في تكرار نوبات غضبه الحادة. من أول وجبة طعام أثبتَ جدارته رغم شكوك البعض بقدراته، رافقنا لأكثر من ثلاثة أشهر وأربعة أيام، وكل يوم يبدع أبهى الطعام عطراً ومذاقا. غير أنه مؤخراً صار مملاً. رقيب السطحة المتمرس على البحر من أولوياته التذمر أثناء تناول الطعام، لا مزاج له اليوم في سماع السب والشتم. كثف جهوده وهو يحثنا على تكملة العمل معتمداً على التفكير الجماعي وترك القرار الأخير لرئيس الضباط. هذا ما علمته السنين الطويلة التي تجاوزتْ أكثر من ثلاثين عاماً وربّما أكثر بقليل، لكنه تحول مؤخرا إلى ثور هائج ثرثار

يصطنع العراك بشكل لا يحتمل. الساعات بطيئة.. الطعام لا طعم له، والروتين اليومي سجن لا يطاق. الليل ظلام دائم يرسم من حلكته تدرج الأسود في أضواء المراسي. صغرتْ تقاسيم الوجوه وطال شعر الرأس ونبتت اللحى. وصار التدخين في زاوية من زاويا رواق الباخرة ظاهرة معتادة. حياتنا الخاصة صارت مضحكة. ولا دليل تراه يحملك على التعقل أحياناً. في بعض المواقف تكون حبة التفاح سبب شجار يصل إلى العراك بالأيادي، ويمكن أيضا سماع البكاء من خلف الأبواب المقفلة بسبب رسالة وصلتْ عبر الموبايلات، رغم الإشارة الضعيفة تصل فيها نصوص قصيرة أغلبها عن وفاة أو مرض أحد الأبناء. دخلنا منطقة الانتظار. رمينا المخطاف وصارت أبو ظبي التي ننتظر تصريح دخولنا إلى مينائها تلمع مصابيحها الملونة في عيوننا الشاحبة. صعد باسم البحّار تبعه فاضل وكامل خلفه إلى السطح وشرع في طرح الأسئلة المعتادة. وعندما انفتح باب رواق الربان وخرج منه رئيس الضباط يرتدي ملابس نوم يضع منشفته على كتفه وبذقن مغطى بالصابون قال: «سندخل أبوظبي غدا، ولن نتأخر أكثر من ساعات». بعدها تطلع بابتسامة خفيفة إلى كامل البحّار الجديد وأضاف: «هي فرصتك للتعرف على أكبر عدد من سواح الموانئ». كان باسم وفاضل يتكلمان في غضب. لم أستطع التخفيف عنهما. لم يكن كامل يدرك أي شيء عن البحر؛ كل علمه هو هكذا البحر يدار فيه العمل بدون توقف، وقد تغير كل ما سمع عنه من ملذات في الموانئ وصار يلعن ويشتم اليوم الذي فكر فيه أن يكون بحاراً. نصحته بالصبر والتجلد. لم يسمع مني غير أنه استأذن منصرفاً وتبعه فاضل وباسم. بعد رحيلهم شعرتُ بألم حل بصدري. سيجارتي تحترق بسرعة. أخرجتُ من جيبي ورقة وبدأتُ أقرأ وأعيد على نفسي مرات ومرات: «سأعود لأوراقي وأذكرهن بيدي وعيني وشفتي وفحولتي التي بددها الغياب». يبدو قد عبر الكاتب عن بحّار تاه في المحيط الهندي ولم يجد الأرض وقتاً وهناك خارت قواه، ولما وصل

وجد أرضاً غريبة وشعباً أغرب، ولم يتمكن من النجاة إلاّ بعد أن هرب على ظهر حصان سرقه من القبيلة التي كان أسيراً عند أهلها ليقع في وادٍ ينتهي به مكسر العظام يئن من الألم، لكن كتب لعشيقاته بأنه سيعود لهن ومعه ما كان يفتخر به...

الليل مد ظلامه وبدأ يطول. يدي اليمنى تحمل موبايلي وفي الأخرى الصبر أقبض عليه بقوة السنين التي مرت. في حضرة الحب أعرفني سأهزم. ولو اتصلتُ بها سأتحول إلى آخر.. ولكن لا وقت لهذا الآن فالربان من خلال مكبرات الصوت يطلب من الجميع التوجه إلى صالة الاجتماعات؟ نعرف جميعا أننا باقون في البحر حتى نهاية الرحلة وأغلبنا تصور لا مجال للأفراح في الميناء القادم ـ ميناء التحميل ـ أبو ظبي، ولا أعرف بالضبط كيف تبادرت إلى ذهني هذه الفكرة التي تبدو غير معقولة حين قلت:

ـ لا أعتقد سنجد في الميناء القادم الراحة..

بعد وقت تكلم الربان عن الإبحار القريب المرتقب غداً صباحاً والذي لا يتعدى ساعات، ثم شكر الجهود المبذولة، وكان قبالتي في الاجتماع الضابط الثاني، وكنتُ أرقب حركاته من تحت نظارتي أرصده وأفسر لنفسي ما توحي به؟ سألته:

ـ هل يسعدك الميناء القادم؟

أجاب ويده تلاعب شعره الأبيض:

ـ دعنا نرفع المخطاف أولاً.. ليوم أو يومين أو يمكن ثلاثة أيام بعدها نفكر في الميناء القادم.

ـ المغادرة غداً!!

ـ سنرى..

لم أكن أظن أنه سيرد عليّ بهذه الطريقة وبهذا الرد. لم أر من رده

Telegram: Somrlibrary

فوزاً أو تغلبا؟ كان واثقاً جداً مما يقول، ولكن كيف والأخرون قد أجمعوا على مغادرة غدا؟

مضى الليل سريعاً ورغم الوهن والإحباط إلّا أننا تغلبنا على رغباتنا التي تدفع بنا إلى الكسل، صباحاً عملنا ما كان يتوجب علينا فعله وعند الظهيرة قبل الغداء بساعة جاء أمر رفع المخطاف والتوجه إلى ميناء زايد في إمارة أبي ظبي. في تلك الأوقات كان من في الباخرة يستعد للإبحار برغبة تفوق الخيال، وكل شيء جاهز ولم يبق إلّا التحرك فوق ظهر البحر. رفع رئيس الضباط علم المغادرة. فرحنا كثيراً عندما انطلقت الباخرة صوب الميناء. الأمر الذي لم يكن منه بدّ ولا يمكن تحاشيه هو عدم ترك الأمور للصدفة. البحر لا أمان له، هذا ما كنت أشدد عليه وأقسو في كلامي على الزياتين الذين كان عليهم ربط كل شيء متحرك تفادياً لحدوث حوادث اصطدام مع الطاقم أثناء مرورنا في بحر مضطرب أو ريح مجنونة. سبق وحدث هذا الأمر أمام ناظري في إحدى حكاياتي مع البحر.. كنت جديد العهد ولم أمض في الخدمة على ظهر البحر أكثر من سنتين وكان رقيب الماكينة رجل كبير السن، وقد نسي التأكيد علينا في شدّ المحركات بالحبال مثل برميل الزيوت ومطافئ الحريق وبعض قطع من الحديد كبيرة كانت أو صغيرة، يومها دخلنا وسط فسحة كان فيها البحر هائجاً مجنونا، كان يضرب الباخرة بقوة جبارة. قوة اقتلعت كل متحرك من مكانه منها براميل الزيوت ومطافئ الحريق وبعض قطع من الحديد، فسببت لنا إرباكاً طال أكثر من نصف يوم انتهى بهدوء البحر، ولكن كانت خسائرنا ثلاث إصابات للطاقم؛ كنت أنا واحداً منهم.. ضربتُ قطعة حديدية ساقي اليسرى، وإلى الآن كلما أرى مكان الإصابة أشعر بالألم وما تزال الندوب واضحة.. من تلك اللحظة أشدد على تثبيت كل متحرك بالحبال قبل الإبحار وأؤكد

Telegram: Somrlibrary

على هذا الأمر ولا مجاملة فيه، ولا أسمح لنفسي بالنسيان أو التهاون.. فقد كتبت بالخط الأحمر على ورقة ألصقتها على الحائط المقابل لوجهي عند استيقاظي من النوم عبارة «لا تنس ربط المتحرك». مرَّ من العمر الكثير وأنا أتذكر الشباب وفوران التفكير المختلف عما أفكر فيه اليوم. أكرس بعض الوقت للقراءة وأغلب الوقت للعمل والبقية الباقية للملذات؛ كنت مغرماً بتدليل جسدي.. جسدي الذي كان يمتد ليلاً مثل الأنهار، يعرف اللعب في المستحيل عند أرض الغرب غاية أولى لاتخاذ أخطر القرارات وأجملها. الغوص عميقاً من غير تفكير هو في حد ذاته لذة... لكن قصيرة. ألبس الألوان ولا أبالي وكل ما في اللغة من صفة جميلة كانت ترضى أن تطلق عليها آنذاك «حرية»؛ لا لشيء فقط لأنها قرارات شاب يحب عمله ينفذ الأوامر في طموح وثبات يخشاه الغبي.. يحترمه الحذق. يحب قضاء الليل في المرافئ، ولا يستطيع أحد إبعاده عما يحب وإن حدث بينه وبين أصحابه بعض مشاجرات كتلك التي تشبه مشاجرات الحانات بقصد وضع الحواجز بينه وبين الليل والسهر والنساء، كان يعرف جيداً كيف يدير الجدل بلغة جارحة تجعل كل متحدث يخجل من حروفه، ولكن المدن البراقة والحانات المملوءة بما تشاء والشوارع المرشوشة بماء الورد تسلب لبابه وتثير فيه ذكورة الشرق المفرطة. لا أحد يريد الاعتراف بذلك، وأعرف التحرر المفرط لا يخلو من المخاطر والأخطاء. كنت أروي حرماني وأتبع انبهاري منغمساً في دهشتي حد الإغماء، ولا أريد أن أفيق. في تلك السنوات كانت النجوم لي، والمرافئ لي، وبعض النساء لي.. لي أنا وحدي وما في الشوارع من مقاهي وحانات لي. لم أكن أعرف نجمة واحدة شغلتني عن النظر لباقي النجمات، لم أجد ميناءً واحداً يختلف عن باقي الموانئ، لم ألمس أو أشم أو أُقبل امرأة تشبعني حد الاكتفاء. كنت راغباً في النظر والتحدث مع الجميع. أجدني في البحر وعلى اليابسة أنا.. لا.. وأكثر ما يقلقني هذا

Telegram: Somrlibrary

الاختلاف؛ الضحكة لا تكون ضحكة حتى تكتنز بالرضا. والحياة لا تكون حياة حتى يكون نهارها مثل ليلها مفرحا، وأنا لم أكن ضحكة ولا عندي شعور في الحياة أكثر من أنها زائلة.. أدمنت الوحدة.. أتعبتني الأهواء. منذ غرق البحر في كأسي الأول تلقفتني أنثى. في كأسي الثاني رائحتها. ظننت الأمطار ستملأ الارض عنباً. في الثالث حسبتُ النساء تنهي عطشي والسيجارة تكاد تفرُّ من فمي.

Telegram: Somrlibrary

3

قال لي ضابط الملاحة الرابع ـ نجم ـ المتدرب: «أنتَ ترى كيف كنت على حق حين نصحتهم بعدم الاتجاه إلى الساحل الأيسر قبل الوصول إلى نهاية القناة؟». قال ذلك ونحن نبحر شمالاً بالقرب من خط الملاحة المؤدي إلى وسط الخليج. كنت أحاول القول صادقاً لا أستطيع أن أعبر عن كم سعادتي بكَ وأنت تتميز بأول فترة اختبار لكَ. لكنه بحركة مفاجئة رفع رأسه وبنظرة بشوشة من عينيه قال: «سأذكر هذه اللحظة». ثمَّ سألني: «ما رأيك بي؟». في الحقيقة فاجأني بسؤاله؛ لست المخول في تقييم ضباط الملاحة، ولكن ظني به خيراً فقلت ويدي على كتفه: «بحّار نشيط.. يحب مهنته. يتعلم بسرعة، يتحرك بخطوات واثقة نحو هدف واضح».

ـ هدفي؟!

ـ التميز. وارتقاء درجات أعلى.

ـ لا أخفيك سراً. نعم. ما قلته صحيحاً، ولكني أتمنى أن أجد ما سمعتُ عنه من مرح ونساء في المرافئ الحمراء والبيضاء..

ـ هي موجودة، لكن ليس في المرافئ العربية...

ـ هل مررتُ بها؟؟

ـ لا عليك ستمر بها يوماً وتنسى هذه الرحلة المتعبة. لقد أتاح منعنا من التجوال في مدن المرافئ التي مررنا بها أكبر قدر ممكن لك من الوقت للتعلم وكسب الخبرات، وقد أجدت مهنتك من الشهرين الأولين

Telegram: Somrlibrary

وأنت المميز هنا وها أنت يعتمد عليك الربان في أكثر الأمور حساسية أثناء الانخراط في الملاحة.

ـ نعم لا وقت للمرح. ننشغل بالعمل.

ـ لا تحزن.. أمامك العمر والبحر، لن يتوقف هدير أمواجه.

ـ هل أطلب منك طلباً؟

ـ بكل سرور.

ـ تنصحني بأي كتاب أبدأ من مكتبتك القادمة.

ـ كتب كثيرة، ولن نتوقف عند كتاب واحد.

ـ اتفقنا..

بعد مغادرته أعتقد أن في شخصيته ما يشبهني. لن أبالغ لو قلت تخيلته في المستقبل القريب رباناً يشار له بالمميز. مضت الساعات وكان إبحارنا فيها يميل إلى الهدوء نسبياً. كُنا نبحر في اتجاه إمارة أبي ظبي ميناء زايد الذي صار مزاح أغلب أفراد الطاقم عنه مبالغاً فيه. كانوا متهيجين من فرح النزول إلى المدينة، وإن توجسوا من انتظار آخر.. كنت قد رأيتهم يحاولون ترجيح الأول. بل كان عليهم التأكيد عليه وأول من جرَّ ذراعي هاتفاً في أذني كان هو أبو النون: «سنختار من الثياب ذات الألوان البراقة لزوجتي». ولكي أتركه مسالماً أعلنت موافقتي مع ابتسامة عريضة وقلبي تعصره قناعتي بعدم السماح لنا بتجاوز بوابة الميناء المرتقب. بعد كلام طويل مع رئيس المهندسين عن ضرورة التزود بالوقود وبعض ضروريات مواد الصيانة طلب مني كتاباً عن قانون التلوث الحديث والمصطلحات الفنية، ثمَّ وجدت في صالة الطعام رقيب السطحة، ذهبتُ معه إلى غرفته. استضافني إلى فنجان قهوة وحدثني عن بطولاته الذكورية في الموانئ، وطلب مني في ختام حديثه كتاباً يحكي عن قصص الحب الوحشي

Telegram: Somrlibrary

والرومانسية، وكتاب شعر يأخذ منه ما يغري به النساء. «هل صعدت سلالم تراتشي كلها؟». «هل نزلت منها راكضاً؟». «هل تجولت في جميع أروقتها؟». كامل العاشق للثوب الأسود كان يبدو مندهشاً من أسئلتي بعد قوله لي واثقاً: «لقد تعلمت كثيرا ممن في هذه الباخرة». لم يكن ينظر إلى وجهي. كان ينفخ الهواء إلى الجهة الأخرى ولم يكن يبدو هادئاً، وخلال ثانية أو أكثر خرج منه صوت خفيف، ومدَّ يده إلى جيبه وأخرج صورة فيها ولد وبنت ضاحكين وقال: «أولادي». لاحظتُ يده ترتجف. وعلى وجهه علامات بكاء قادم حين سألني:

ـ هل تشتاق إلى أولادك؟

حتما هو لا يعرف أني المتحرر الوحيد في هذه الباخرة من لعنة الاشتياق. لا لشيء فقط لأني لم أتزوج بعد. ولكن الفراق يهتاج كلما مرَّ من أمامي ذكر الزوجة والأطفال فقلت:

ـ من زمن بعيد تعودتُ على تصغير كتلة الاشتياق شيئاً فشيئا حتى الغرق في بحر النسيان. عقدت العزم على ركوب البحر وإنه مهمة خاصة بالنسبة لي وعليّ التمسك بها بأقصى ما يمكن لي من قوة، ولكن لا يمنعني هذا من المرور بمثل ما أنت فيه الآن على سبيل التجربة لا أكثر.

كان قد بدأ يظهر من وجهه الداكن سمرة وهج أحمر. كان يلهث ببطء. وكانت عيناه تتركز في عيني لحظة ما تعارضتْ يداه أمام وجهي وارتمى في حضني وأطلق العنان لبكاء خفيف. أحسستُ بلفحة حرارة لاسعة اخترقتني! أمسكته بقوة.. وعلى هذه الحالة كانت دموعه تبلل قميصي. توترتُ أكثر ومع ذلك بقينا جامدين كأن لا شيء حولنا. من بعيد كنت أرى جسداً هائلاً داكنَ الحمرة محاطاً بهالة خضراء يتقدم نحونا! حاولت إبعاده عني، وما هي إلاّ ثانية أو أكثر بقليل حتى وصل رئيس

Telegram: Somrlibrary

الضباط ببدلته الأورانج ومعه أربعة بحّارة ببدلاتهم الخضراء يحملون صندوقاً فيه عدة نجارة. اقتربوا أكثر، ألقوا التحية علينا، وقال آخرهم: «سنغير المخزن إلى مكتبة». كنت أفكر: «هل بوسع المرء أن يحول الحزن بثانية واحدة إلى فرح؟». كانت تحذوني رغبة اللحاق بهم وجر كامل البكّاء معي. سنجد ما يشغلنا؟ كنت متأكداً سننسى لعنة الفراق والاشتياق، ولكن عندما اقتربت أكثر إلى مسامع كامل وهمستُ له على أن يهدأ قليلاً وأن يرافقني إلى المكتبة قال: «أحتاج الراحة. رأسي يؤلمني». سمحتُ له بأخذ استراحة على أن يعود إلى العمل غداً صباحاً. التفتُ إلى جهة الرواق المؤدي إلى المخزن الذي أخرجتْ كل أشيائه إلى الممر لتحويله إلى مكتبة. شعرتُ بسعادة خلسة من قبضة الشخصية التي تدعو المرء للضجر أحياناً. دخلتُ بطريقة مصطنعة ناشراً البهجة بين الحضور. كان الغبار يملأ الجو. في صعوبة لمحتُ ملامح البحّارة ببدلاتهم الخُضر يعملون في جد ونشاط ضاحكين. دون أن أحدث أي خلل بنظامهم الصارم طلبتُ الانضمام إليهم. توجهتُ إلى رئيس الضباط منتظراً منه تكليفي بأي واجب؟

ـ قدر رائع.

قالها رئيس الضباط بشوشاً...

عالياً فوق الغيوم الوردية صعدتْ أنفاسي وهبطتْ على بستان من الورد الأبيض. إن مجرد تخيل وجود الكتب وسط البحر داخل هذا المكان الضيق. هو تجرؤ على الطبيعة المعتادة لكل طواقمنا البحرية.

ـ أريد كتباً عن الفلسفة.

قال أحد البحّارة.

ـ الشعر.

قال الآخر.

Telegram: Somrlibrary

ثمَّ ساد الضحك المكان. وقبل مغادرتي وجدتُ أبا النون بيننا كعادته المعهودة يضحك ويغني يحمل بين يديه الشاي والكعك، قال كلاماً تصورته في البدء مزاحاً ولكن بعد ما استمعت إليه بتركيز عال وجدته جاداً في ما يطلبه مني من كتب! فقلت له في حزم:

ـ سأراقبك.. وإن لم تقرأ سأعاقبك.

ـ سترى. ولعلمك في بيتي مكتبة أغلبها كتب طبية وأخرى عن علم النفس والاجتماع. أما عن الروايات فأغلبها للرواد الروس مثل دوستويفسكي. نقولا غوغل. ثمَّ كتب الرومانسية لألكسندر بوشكين، وعندي مسرحيات لأشهر كاتب مسرحي وأغزرهم ألكسندر أستروفسكي.

ـ ماذا!!!!

ضاحكاً قال وهو يحرك وسطه بحركات ناعمة:

ـ عندي رواية «الفقر ليس جريمة» وكتباً من الخمسينات، وهناك الكثير والكثير وسأهدي لمكتبتك من كتبي تعبيراً عن المحبة واحتراماً لك.

الرجل الحقيقي يُعرف في أشدِّ اللحظات غرابة. لحظات لا يمكن لها أن توصف بدقة مثل حدوثها. ربّما وصفناه بالساذج، البسيط، الخائف، اللين والمرن. لكن أن يكون ذاك المثقف الحاد ذكاءً وإدراكاً هذا ما لم يخطر على بال أحد منا. أبو النون ذلك المخلوق المترامي فوق سذاجته تراه يخرج من غرفته صباحاً إلى عمله داخل المطبخ ولا يعود إليها إلّا ليلاً ماراً على كل أفراد الطاقم يمازحهم وينشر الضحكات لهم لا متوتراً ولا شاحباً ولا يحب الشكوى ولا الملل. همهُ الوحيد زوجته ولا أحد غيري يعرف أسراره. كان يدفع ثمن عدم إكماله للتعليم في حرق كل وقته وطاقاته في خدمة الناس متجاوزاً في ذلك الفرق بينه وبين زوجته الدكتورة بشعور أنه المميز بيننا ليمنح خدماته بسخاء شأنه شأن السحاب تفتخر

Telegram: Somrlibrary

بانتمائها إلى السماء، ولكنه قارئ من الطراز الفاخر! هذا ما لا أتصوره ومن معي يؤيد ما أقول. ولكن تبين لنا أنه الأول في اختيار العناوين وهو الأول في المداومة داخل المكتبة عند انشغالي في أي طارئ يحدث في قسم الماكينة. وصل الليل. سريعاً خيم الظلام. كتبتُ في دفتر الملاحظات كل عناوين الكتب التي طلبوها مني. ثمَّ جمعت في ورقة أخرى عناوين كتب أرغب في تواجدها في مكتبة الباخرة.

تلك الليلة كنت قلقاً ومضطرباً. من وقت لآخر أراقب البحر من النافذة. نال مني التعب وسرعان ما شعرتُ بالنعاس وعندما ألقيت بجسدي على الفراش نهضتُ فجأة! أخرجتُ من جرار المكتب كتاباً واستأنفت القراءة من حيث انتهيت. تخيلت أنه على سبيل الافتراض يقرأ هو الآخر، وأما ما كان بي من شعور بالقلق والاضطراب فسببه كان هو غياب نصفي الآخر. تحولتُ إلى كتلة ساكنة مثل صوت بعيد تركتُ نفسي تركض في رأسي فوق أرض مسطحة لا عمق فيها ولا ارتفاع. راحتْ بعيداً عني؟ وقفتُ هنا. انتظرتُ عودتها؟ كانت سيجارتي تحترق دون أن يمرّ دخانها إلى صدري انهيتها فأحرقت الثانية وقبل أن أرى نار ولاعتي سمعت:

ـ لم تعد كما كنت.

انفجرت من الفرحة وفي لحظة كتمتها خوفاً من فقدان سيل من التساؤلات بدأ الوقت أبطأ والظلمة أحلك فوجدتني حافي القدمين في دائرة من ثلج فيها فتحتين الأولى ضيقة تطلُّ على البحر والثانية أضيق تأتي منها الريح الباردة. رجفتُ وحاولتُ الصياح من البرد؟ أفقت فزعاً! وقتاً بعدها هدأتُ مع استقبال شعاع الشمس الذهبي المار من فتحة شباك الغرفة.

Telegram: Somrlibrary

4

كانت شمس الصباح فتية تُثير حرارتها في المكان الحياة. تكشف عن زرقة لامعة لبحر يشبه مرآة صافية. على مسافةِ مسير ساعات قليلة من الميناء المنشود الذي أمامنا. صار ـ حسب رأي الربان ـ الميناء القادم ميناء زايد في إمارة أبي ظبي لن نتأخر فيه كثيراً. تنتظرنا فقط شحنة من الحديد نحملها ونعود إلى ميناء الحمرية بأقصى سرعة. حمولتنا مازالت تنتظرنا وكل هذه الاحتمالات يمكن لها أن تتغير بطارئ معين. طارئ يأتي من اجتهاد شخصي أو عام من أفراد الإدارة أو قسمها التجاري داخل الشركة على اليابسة. كل الأصوات التي أسمع صارت خافتة. فقط صوتها الذي أتى فجأة يخالط لونها عطرها. لمس يديها لشعري الأبيض وانحناءتها الهادئة تشمُّ رقبتي وتهمس في أذني: «شجرة»..؟؟. لا أفكر في المعنى ولا بطريقة ناكر للجميل غير التماس الأعذار لتأخرها عن الاتصال.. لا أعرف سبباً لرأسي الذي أرتمى في حضنها الأحمر الشفاف ويدي الراجفة فوق خدّيها ولا أنسى فمي عند أسفل رقبتها الحلوة يتمتم وهو يتذوق صعوداً حتى الشفاه: «عسل». أجد الآن من الضروري الآن تذكر صدري المغروز في نشوة.. كان ومازال يعرف طرق المرور إليها. مثل طفل يقلب لعبته لأول مرة لمستها وتأكدتُ أنها لي، ولا يمكن أن تكون لغيري. في كف الريح كنتُ طيراً أحلق بعيداً مغمض العينين راضياً بما يجود به خيالي.. خيالي الذي لطالما أخذ بي إلى أماكن عرفت فيها أن الأماني لا تتوقف والشمس لا تغيب.

Telegram: Somrlibrary

كتبت الرقم. نقرت زر الاتصال. رنّ الهاتف!!

عدتُ إلى مكاني بعد أن فتحت عيني وقلتُ:

ـ ألو....

كانت هي ولا أعرف سبب تلعثمي في الكلام وتكرار اعتذاري لها وكلما سألت عن حالي وصحتي ومكان تواجدي كنت أرد بعيداً كل البعد عما أريد قوله! بدأتُ أسمع ضحكاتها ويبدو لهفتي وصلت إليها من صوتي الذي صار يختفي خلف زم شفتي من السعادة الواسعة التي لا أعرف إلى الآن كيف وسعها صدري. هي تعرف من إحساسي أن تواجدها على قيد السعادة يدفعني إلى الابتسامة وإن كلمتني أضحك، وإذا اقتربت مني أو لمستني يتحول كل ساكن إلى متحرك..

ـ اشتقت إليكَ..

قالتها بصوت كما لو أول مرة تقولها!!

لوعتي.. تخونني الكلمات ولا تسعفني لحظة وقوف سمرائي ـ ذلك اللقب الذي تضحك كلما سمعته مني ـ لم أتصور أن الحروف تشح أيضاً. الغرام الذي عذب قلبي سقى ما تبقى من الاحتمالات. تحاملت على خيانة الكلمات وقلت صادقاً:

ـ أنا...

ضحكتُ ضحكة شعرتُ فيها قد لمستني!

نسيت ما كنت أريد قوله وزادت ضحكاتي حتى قالتْ:

ـ صدقاً أشتاق إليكَ..

ـ ....

انقطع الاتصال ويبدو الريح غيرت من اتجاه الباخرة فصاح أحد أفراد الطاقم:

Telegram: Somrlibrary

ـ فقدنا الإشارة!!.

وخرج من الجهة المقابلة صوت يردُّ عليه:

ـ تعال هنا..

تبعته صامتاً وأتممتُ اتصالي بسمرائي، وعدتُ إلى أروقة الباخرة أتمتم كما أغلب الطاقم عن الضابط الثالث إنه «طيب مهذب» حتى الربان سمعته يوماً يقول عنه: «هو المؤدب بالفطرة». أكدتُ ما قاله وصار يردد: نعم الآن تأكدت، ولكن الأيام القادمة تكشف نوايانا»..

ليلاً وبعد ودخولنا الميناء شرع العمال في أشغال التحميل. غبتُ عن مدى الأنظار وتجولتُ في مقدمة تراتشي، كان البحر صامتاً وقتاً، كنت أحاول سماعه، وفي خطه الأزرق الهش شاهدت طفولتي تتموج على صور جديدة.

هو يري أحلامي؟

لا أدري ولكن نسيمه كان يداعب رقبتي، مرعباً حين يغضب، مدهشاً في سكونه، وحينما أطلقَ للنوارس حرية الصياح كنتُ جالساً إلى طاولة الحقيقة. كان بودي الصراخ في وجهه وأنا فوق ظهره. كنت أعلم لا صوت لي غير الهمس وأن لساني سينعقد حين ألمس رمل المرافئ. سأعيد الباخرة إلى الأرض وأكف عن كوني البطل. فجأة سمعتُ خطوط الموبايلات تشتغل.. يمرُّ من أمامي بحّار يكلم زوجته وأخر يتصل بصديقته، وهناك قرب سُلم الباخرة المعلق. يقف الطباخ ولا أعرف من يكلم؟ ولكن يبدو عليه سعيداً من ملامح وجهه الباسمة. تصاعد الحنين إلى أعلى مستوياته في قلبي فأغمضت عيني وشممتُ البحر طويلا. تنهدتُ وأنا ألمس النوارس بخيالي وموج البحر يطفئ ناري المستعرة داخل أفكاري المتشابكة. نبتَ الريش على كتفي وحلقتُ بعيداً. من أعلى نقطة كنت أرى بستان ورد يتقاطر على أفراد الطاقم ولا وردة لي. صرت بعيداً ـ بعيداً جداً ـ عن

مكاني الذي صار نقطة سوداء وسط زرقة البحر الواسعة تلاشى شيئاً فشيئا. رأيتني أضحك وأنا أكرر: «سمراء». بعد دقائق وجدتني مقيداً لمخيلتي.. في غرفتي عرفتُ أن تلك الليلة ستطول ولن أتمكن من النوم؛ تشكلتْ أمامي وأنا تحت مرش الماء الساخن حبيبتي العارية لامعة مبتهجة، كان وجهها الأسمر بنكهة الغرب يمارس العشق على جسمي. كما وقفتُ عندها أول مرة تركتني أمارس طقوس الانتظار وأعيد حركاتي الذكورية بامتياز مطواعاً في مزاجية عالية أتلذذ بطعم القُبلة الأولى على صدري العاري مثل نخب لا يكرر نفسه كنت منحازا إلى لغة الهمس. أكتبُ والحسرة تأخذ اللحن مني. مثل فاكهة طازجة كانت تُقبلني وترتب الرغبات تباعاً. كنت أعلق ما تبقى مني على شعرها. في انحناءتها المتكررة كنت أشدها لي بقوة الأمواج ودون تعليق يذكر كانت مكتظة القبول.

أبداً لن أتحرر..

في الصباح استيقظت على ألم في أسفل ظهري. ولكن الشمس التي وجدتها داخل الغرفة غمرتني بالسعادة، وما هي إلاّ دقائق حتى فرحت من خبر تناقله أفراد الطاقم: «سنغادر الميناء قريباً». عاد النشاط. وأصوات الحراك للعمل تصاعدتْ، وفي ممرات تراتشي لم تكن السعادة واضحة على وجوه أفراد الطاقم والسبب حجب تصاريح التجوال في المدينة. لقد حدث ما كنت أتوقعه نفور الجميع من البقاء أكثر. وهذا ما دفعنا للإبحار سريعاً، ولكن خط الإبحار تغير. علينا التوجه فوراً إلى ميناء بندر إمام في إيران بدل ميناء الحمرية في إمارة دبي وبعد ساعات من إبحار هادئ وصلنا منطقة انتظار مقابل دولة الكويت ـ خور موسى ـ عندها جاء أمر دخولنا الميناء مفاجئاً. فأبحرنا في خط مستقيم وبعد ست ساعات توقفنا وقتاً في انتظار وصول الدليل البحري الذي سيقود تراتشي إلى الرصيف. ليلاً دخلنا القناة البحرية المؤدية إلى الميناء المنشود، ومنها عرفنا البحر قد تغير لونه إلى

Telegram: Somrlibrary

الأزرق المصفر. أغلب رواسبه الطينية حركها دوران المراوح الدافعة للباخرة. بدأت حرارة مولدات الطاقة الكهربائية في الصعود مجدداً صارت الكبيرة منها والصغيرة تدور بسرعات أقل. منظومات التزيت كانت تزأر. شعرتُ أن الباخرة تختنق. مرورها في هذه القناة التي كلما اقتربنا أكثر كلما امتلأت صدورنا بدخان نار وغبار حبوب القمح والشعير. وصلنا رصيف «بندر إمام خميني» فجراً. كانت منطقة صناعية كبيرة. غطى الغبار الباخرة وصارت قذرة جداً. احتاج الطاقم التنفس أسرع وبحرية عالية تهيؤوا للعمل. صار لزاماً على عمال الميناء تفريغ حمولة الحديد التي يبلغ وزنها خمسة آلاف وست مائة طن أو أكثر بقليل. المساحات المفتوحة تتيح لعمال التحميل وضع قوالب الحديد بطريقة تؤمن التوازن للباخرة وبطريقة تترك خطا عموديا فوق خط أفقي وهكذا حتى آخر عمود من الحديد على شاحنات حمل طويلة رأيناها تنتظر عند الرصيف الإسفلتي للميناء.

فقدنا الطاقة البدنية بسبب قلة الأوكسجين. الهواء الذي ننشقه كان محملاً بالغبار ورائحة دخان. أبلغوني أن شرطة الميناء تسمح لأفراد الطاقم بالتجول في مدينة الميناء «سربندر»، وهي مدينة يمكن لها أن تكون مترفة عامرة بالتجارة بالنظر إلى حجم مينائها الكبير والذي يعمل ليل نهار دون توقف. بعد الظهيرة انتظرنا حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً ولم تأتِ التصاريح. صار علينا انتظار ورقة مختوم عليها من سلطة الميناء الذي كان يحمل اسم «مهاشير».. واليوم «بندر أمام خميني» انتظرنا السماح لنا بتجاوز بوابة التفتيش الحاجزة بين الميناء والمدينة. يوم كامل مرّ ولم تأتِ ورقة التصريح. عند مساء اليوم الثاني وصلنا الخبر أن سلطة الميناء لا تعطي ورقة الخروج من الميناء يومي الجمعة والسبت، وهذا يعني لن نمرّ إلى المدينة وعلينا البقاء في الباخرة ريثما تنتهي الحمولة لنغادر دون رؤية الناس..

Telegram: Somrlibrary

ليلاً سمحوا فقط للربان ورئيس المهندسين بالخروج من الميناء ودخول المدينة لسبب ذكره لي أحد أفراد طاقم السطحة: «أن تاجر الحمولةِ خطط للأمر مع سلطة الميناء». لم أتأكد من الخبر بعد.. وإن تأكدت لا تعنيني صحته من عدمها، ما يهمني الآن شكل المدينة وشوارعها وأناسها ومعيشتهم وأسواقها.. انتظرت حتى عادوا فسألتهم؟ لم يكن في جواب الاثنين إلّا اختلافا بسيطاً في نوعية طعام العشاء الذي ملأ بطونهم، وقد كان دسمًا.. قالا عن المدينة: «هي مدينة هادئة وقد قسمتْ أهلها إلى شطرين عربستاني وأقلية إيراني كل شطر له أسواقه وشوارعه نادراً ما نراهم يلتقون في شيء. أحياناً يُعيق بعضهم بعضا في التجارة أما الخوف كان بادياً أكثر من وجوه العرب».

ونتيجة سؤالي المتكرر: كيف لكم معرفة كل هذا في وقت قصير؟

قالا: «من تاجر الحمولة نفسه وبعض أقاربه الذين كانوا بانتظارنا، وقد مررنا في الأسواق والشوارع لمحنا ذلك». تركتُ الأسئلة لغاية في نفسي وعدتُ إلى عملي، وفي تلك الأثناء كنت أراقب عمال التحميل والتفريغ وأسمع شيئاً من كلامهم. عرفت بينهم من يتكلم العربية.. اقتربتُ من أحدهم كان اسمه محمود العربستاني، قدمت له علبة كولا وقنينة ماء فشكرني مبتسماً وكأنه يعرف غايتي، شرب الماء كله ثمَّ ابتسم.. وأول أسئلتي كان عن أجرته اليومية، سمعتُه تنهد قبل أن يقول:

ـ تعادل عشرة دولارات فقط.

ـ المبلغ قليل؟ كيف ترضى بهذا العمل الشاق؟

كان جوابه مقنعاً حين قال إنه أب لخمسة أطفال ولا يوجد عمل في مدينته بهذه الأجور اليومية، وزاد هو الآن يُحسد من زملائه كونه يعمل في الميناء..

تظاهرتُ بالإصغاء إلى همومه بدافع الوصول إلى غايتي المدينة.

Telegram: Somrlibrary

كان حزيناً وهو يكلمني عن حياته الشخصية، شعرت قد تحطمتْ معنوياته أمامي، ولم يبقَ لي إلّا القول:

ـ أنت رجل شجاع.

كان يأسه من المستقبل شديداً جداً حين ردّ:

ـ ربّما..

دفعته كلمته الأخيرة إلى الابتسامة وهو يضيف بخجل واضح:

ـ ولكن شكراً.

بعدها ناداه أحد أصدقائه، فأبتعد وهو يهتف:

ـ سنكمل حديثنا بعد ساعة..

تجولتُ في الباخرة أفكر بطريقة عيش هذه المدينة التي لم أستطع التجوال فيها. أنا أنشغل في تفكيري كثيراً، ولكني فجأة لمحتُ مسجل الأوزان يكتب بخط يده أسماء العمال باللغة العربية! ألقيتُ تحيتي عليه.. ردَّ بمثلها. ابتسمتُ له.. ردَّ الابتسامة وقال:

ـ أهلاً

ثم زاد يسألني عن اسمي وعملي. صرنا صديقين وتكلمنا كثيراً عن أحوال المعيشة وأمور عامة، ولما وصلتُ إلى سؤالي الأهم عن مدينته قال:

ـ هذه المدينة تزدحم بالسكان حد الاختناق. نسكن فيها منذ جاءها جدي من أمي وهو في الأصل عربي من جذور عراقية، كان يسكن الجنوب في البصرة. نحن معروفون هنا، وفي جميع أنحاء المدينة يعرفون جدي الذي بنى محلاً لبيع المواد الغذائية. كان المحل من الطابوق والطين أول مرة بعدها تحول المكان إلى سوق شطرته الأقدار إلى شطرين عرب من جهة وأعاجم من الجهة الأخرى، لأنه لم يكن وقتها ـ أول البناء ـ يملك

ورقة مُلك ولا جهة معينة تملك المحال فتحول المكان إلى البلدية في مطلع الثمانينات وبعدها عرض في المزاد العلني، ولم نستطع شراءه كاملا فكان من نصيب أهل الشطر الآخر..

ـ لماذا لم تطالبوا به؟

ـ هو القانون الذي أخذه منا.

أجاب بعدها مدَّ يده إلى جيب قميصه وأخرج سيجارة. قدم لي واحدة شكرته فأشعلها سريعاً وسحب منها الدخان، ثمّ زفره بقوة. تطاير الدخان بين وجهينا فلمحته شارد النظرات وبدا مهموماً عندها خُيل إلي أن سبب حالته أسئلتي. سارعتُ إلى العمل على تهدئته مقترحاً عليه فنجان قهوة في صالون البحّارة.. رافقني مبتسماً وهو يحطّ يده على كتفي قال:

ـ شكرا.

كان الطباخ يميل كما أبو النون إلى كونه إنساناً أكثر من عامل على ظهر البواخر يختلف بتصرفاته اختلافا كبيراً عن عهده السابق المتشدد، ولكنه قدم لنا قهوة باردة. أشرتُ بعد ما اشمئز الرجل من قهوته إلى مراد وفي الحال أخذ أكوابنا واعتذر. لم تمض دقيقتين حتى شممنا رائحة القهوة الجديدة أمامنا كانت شكلاً ومضموناً تثير الرغبة لرشفها رشفة بعد أخرى..

ـ ما أحوال النساء عندكم؟؟

فاجأني بسؤاله! فقلتُ:

ـ ماذا؟!!

ـ هنا القانون يحترم المرأة أكثر من الرجل

ـ هذه صفة الدول المتقدمة

ضحك وهو ينظر في فنجان قهوته بعدها ارتشف منها رويداً رويدا قال وهو يضحك:

ـ متقدمة جداً.

Telegram: Somrlibrary

5

سألتقط نظارتي وأقرأ ما كتبتهُ ذاكرتي ليلاً: «إذا ذكرْنا الذي فات تـنهّدْنا وإن تَخيَّلنا الآتِ خِفْنا». وفي صفحات أخرى: «الأنثى الحقيقة تفتحُ فضاءَ الإنصات الجميل الذي يُجيب عن كثير من تساؤلاتنا». وفي أخرى: «قالوا إن للسفر فوائد كثير، ولكن إن سافرت ستكتشف أكثر». كنت أشعر بالراحة. المزاج يفتح للذهن أبواب الخيال. أغلب عمال الميناء من الطبقات الفقيرة. يشاركوننا الشعور بعدم الإنصاف من أصحاب القرار. تراتشي ترتفع كلما أُفرغت من حمولتها، وكأنها أميرة للتو نهضتُ من سباتها.

قسم الماكينة يعود إلى حالة استقرار أتاحت لنا الراحة. كان مكاني المعد مسبقاً من قبل فاضل البحّار هو الجلوس تحت أشعة الشمس مقابل سُلم الباخرة أشاهد الصاعد والنازل من عمال الميناء. أحس بارتفاع درجة الحرارة وقلة الأوكسجين بسبب غبار حبوب القمح والحنطة المبعثرة. يكاد النفس يكون معدوماً. ما وجدتُ من راحة في مكاني، ولكن شغف التعرف على الناس وعاداتهم يدفعني إلى الصبر. من المؤكد أني أعشق الذكاء والطبيعة وأحب المغامرات والنساء وأكره الغباء الذي تحول إلى داء هذا العصر أعلن بكل وسائله السريعة موت الإنسان في العلن والخفاء، وفي الوقت نفسه أحب العزلة وأحياناً قليلة أميل إلى الاختلاط بالناس من أجل قراءة وفهم شيء كان لا يمكن المرور عليه يوماً في كتاب أو مكان صدفة. رأيتُ الفضاء غريباً والهدوء عالم

Telegram: Somrlibrary

ضبابي! العاطفة ضاعتْ والفرصة في الحياة الهانئة فُقدتْ. باغتني صوت يمتهن السب والشتائم. رجل يدفع بالعمال إلى الانضمام مع مجموعة لحمايته من الضياع أو الانزواء في ركن من أركان العمل. عرفت أن حياة المرء بعيدة كل البعد عن المشاركة في التعبير عن المرء، في عمره الطويل وما يقاسيه من التحمل والصبر.

وجدتني أمام قائد فريق التفريغ بلسانه السليط يشير بوجهي يطلب مني فسح الطريق لمرور عمال الميناء. تحملتُ غروره وأمسكت على فضل الصبر وتركتُ المكان عائداً إلى غرفتي تسلقت السرير تحت هواء التبريد واستلقيت على ظهري أفكر بكنس الوجوه المستعارة وإبعاد النكد عن صدري. كنتُ كمن يلتقط أجمل الحروف من قاموس الذاكرة الشعرية لأصوغ سؤالاً: «كيف نعيد الأساطير؟». مازلت أفكر في سؤال آخر. شعرت بالاشتياق إلى حبٍّ مضى ويبدو قد اجتاز أسيجة النسيان وعاد. صرت متأكداً إنما الحبّ حلم وانقضى.

ولكن لم يأتِ الجواب بعد؟ تمنيتُ لو سمعت وقع قطرات المطر على حديد تراتشي. ولكني لم أعد جديراً بعد الآن بتقبيل النساء أمام الملأ. تمنيتُ لو تصل يدي إلى الشام وتلمس شعر «سالو». الفصول الأربعة.. حقول قمح وأزهار.. قُبلات لا تنتهي: شمس وظل، ويوم أجمل من يوم وكلما سمعتُ اسمي من لهجة غير لهجتي حضرتْ بقوة. أعيد ذكرها من قائد الفريق. شبَّ الصراع بين المطر والنار. فَرقٌ كبير بين ما قاله في وجهي بلكنته العجيبة وبينها. كل ليلة تزحف النجوم إلى غرفتي تجمع أطرافي في الظلمة لانفلت من مكاني صعوداً إلى النوافذ المضيئة أسبح متحرراً حراً في نسيمها والمرور بقوة إلى فمي حينها تنكر روحي الهزيمة. أكمل المشوار صعوداً إلى حدقات عينيها في جو يحيطني بالحياء مرة وبالرغبات مرات كثيرة. إلى العناق؟ كنت مغمض العينين

أُقبّل تضاريس جسمها ولا أشبع. اختفتْ «سالو» منذ سنين وتلاشى معها العطر والغرور وبقيتُ وحدي يدهشني المألوف في حضوري لحظة لبسني اللون الأبيض. كنت أسمع ضحكاتها ولحن تغزلها بقامتي. كانت تتسلل إلى قلبي خلسة على أمل لمح مكانها. وفي وهم ألقي به تحيتي وأختفي للنوم. أن يكون المرء مميزاً عليه أن يصحو ولا أحد معه. أختار العزلة مما اقترفت؟ نعم، ويبدو أن ذاكرتي تأخذ بيدي من الغرفة إلى المستحيل. أخرج إلى سطح الباخرة أتصنع الابتسامة لمن أصادف أُخبئ حاجاتي التي أراها أكبر من العالم. دروب الشوق تختلف عن دروب الباخرة. أعدُّ في صمتي رؤياي المتكررة. وصلت تلك الليلة إلى مجموعة أشجار كانت منحنية تشرب من نهر صاف رقراق..... ماذا؟ سمعت من يناديني! التفتُ فرأيتُ محمود العربستاني يحمل بيده كيساً وعلى وجهه ابتسامة عريضة يهتف بفرح:

ـ أينك؟

رحبتُ به مستغرباً في انتظار حاجته مني؟ أردف بنبرته التأملية:

ـ مضت الساعة وعدتُ إلى مكاننا الأول، ولم أجدك فذهبت إلى السوق مسرعاً ورجعت مسرعاً ومعي الفستق ورصيد الموبايل.

عشتُ لثواني مندهشاً من حُسن ضيافة هؤلاء! ولكنه الواقع وعليّ لمسه. أخذتُ الكيس منه وشكرته على الرصيد وبدأت أصغي إليه بفضول كبير تحركهُ ابتسامته العريضة، وهو يسألني في تأمل:

ـ أنت الوحيد ـ من أفراد الطاقم ـ الذي لم يطلب منا طلباً!

ـ مثل ماذا؟؟

ـ حاجة من السوق، أو الاتصال من جوالنا.. أو أي شيء ترغب؟

Telegram: Somrlibrary

خطر لي وأنا أشدد على سعادتي في ما سأقوله شيئا من الكذب، لكن قلتُ له صادقاً:

ـ شكرا لقد أنساني العمل حاجتي.

ضحك ضحكة مدوية، وقال وهو يمد يده لي وفيها هاتفه الجوال:

ـ خُذْ...

ازدادت ابتسامة محمود وهو يراني أكلم من أحب وقد أدخل يديه في جيوب بنطاله الأسود نافخاً صدره يحركه يميناً وشمالاً يلمحني وعلى وجهه الابتسامة واضحة.. كنتُ أرمقه من تحت عيني دون إشعاره أني أراقبه وهو يراقبني بطريقة شعرتُ فيها بسعادة مبالغ فيها. لقد سمع مني الغزل والضحكات وفي أثناء تكاثف الرغبات ولغة الاشتياق مع سمرائي اضطررت إلى إنهاء المكالمة. فتحرك فجأة مصفقاً يردد وهو يضحك:

ـ سأترك هاتفي الجوال معك.

ـ لا.. شكراً

ـ ربما تعاود الاتصال ليلاً أو...؟.....

بعدها ضحك وزاد

ـ لا تهتم «السيم كارت» جديد لا يعرفه أحد. هو لك وحدك وإن غادرتْ أحتفظ به عسى أن تعود فلا تضطر لشراء غيره..

ـ من فضلك

ـ لقد حُسم الأمر

ـ ولكن لي هاتفي الخاص

Telegram: Somrlibrary

- إذن خذ «السيم كارت» وأعد لي هاتفي..

- حسناً اتفقنا، ولكن يجب تعويضك.

في هذه الأثناء بدتْ على ملامح وجه محمود السمراء خطوط حمراء تتدرج إلى الأسفل، فجأة قال:

- من فضلك لا تتعامل معي كما لو أنك التاجر وأنا الفقير..

- أسحب كلامي وأعتذر، وتعال معي نجلس ونشرب الشاي إن أحببت مجالستي طبعاً؟

- هذا كلام الإخوة..

من أجل الناس النقية نشعل الروح. مازال في الأجساد أجنحة. أنتعش محمود على الفور وأخذ يتابع بفضول الكلام، وصار يجيب عن كل أسئلتي وهو يسحب الأنفاس متعثراً في ضحكاته قال:

- أتمنى أن أكون بحّاراً مثلكم.

- مهنة غير مربحة.

- بالعكس فيها كل شيء مربح

- من يركب البحر إما مغامراً أو مولعاً بالنساء أو يحب جمع المال أو....

قاطعني بابتهاج وفخر عاليين قائلاً:

- أنا كُلهن..

انتهت جلستي مع محمود بعد مرور وقت كان كفيلاً أن ينسيني همومي وقد أضفى الرجل على مهجتي الراحة من تعامله الدمث وطيبته الكبيرة، ولكنه أتعبني من طول ممانعته في قبول هديتي التي قدمتها له في نهاية جلستنا كان يكرر:

Telegram: Somrlibrary

ـ لا أستطيع ردّها إن عدت إلينا.

لكنه وافق بعد أن أظهرت له عدم راحتي أن لم يقبلها مني، وزدتُ عليه:

ـ إن عدتُ ستعطيني رصيداً وفستقا..

الحياة وغيرها

آخر الليل.. أول الفراق

كما أفعل حينما أكون بمفردي. ملأت كأسي وبدأت السفر إلى شوارع فرنسا الباردة حيث العطور المغرية والحانات الملونة والموسيقى الهادئة والضحكات الصاخبة. كان ثمة شيء يحركني؟ نزعت قميصي واقتربتُ أكثر من أحدى الضواحي المرغوب فيها. تغير المزاج من حال إلى حال. لمستُ سمرائي الفرنسية وبدأتُ أدندن. بشكل مثير كانت أطرافي مصعوقة من اللمسِ «اهدأ» قلتُ وجسمي يتصبب عرقاً. يا أنتِ ها أنا أمشي ويمشي البحر معي. أرى مرسى. آمر جسدي: «ارسو». وأسألُ نفسي: «إلى أين أذهب؟». البحّارة كلهم يمرحون على الساحلِ. وأنا لا؛ كنت ألمح الحياة بكاملها أنتِ. أنكمش. وحيداً أنكمشُ. أرقبُ وجهكِ من خلال الرملِ المبللِ تحت ظلّ الموجِ تقفين. أفكرُ: «هل تحضرين؟». كم من النساء هنا ولا أسمعُ إلّا صوتكِ، كُلهن سمراوات وسماركِ الوحيد في يدي وشالكِ البنفسج الحرير رائحتي. أقتلعُ حفنةً من الحشيش الناعمِ وأضعهُ في جيبي. أتبعُ طيراً كان قد مرَّ من فوق رأسي ثمَّ حطَّ على شجرة وبدأ يُغني. وقفتُ قبالته. وقفتُ كما أنتِ، ولما رسمتُ عينيكِ على جذع الشجرة نامتْ الفراشات الملونة فوق يدي وأكتمل الرسم في صدري.

لم يكن عمري قد خَبرَ شعوراً خاصاً كتلك اللحظة في الوصول إلى الميناء ليلاً، ذلك اللمس المُر والحلو معاً ينشر في البال أعذب ما

Telegram: Somrlibrary

يفعله المطر في الأزهار. تلك الأنثى التي ظهرت قبل فوات الأوان «سالو» كانت تبدو لا ينقصها الجموح ولا الشباب ولا الخصال الحميدة، ولكن فجأة أشعرتني سمرائي الفرنسية بوجودها حين قالتْ:

ـ تعال نمشي قليلاً...

كنت متضايقاً؛ أتمنى البقاء معها في الغرفة ولا أريد التجوال ليلاً. جئت إليها لاغتنم فرصة الانتصار المرتقبة. لا أحد يعرف ما كان. لم أكن أرغب في مدينتها... الشوارع البعيدة منها والقريبة لا تُغني عن القهوة من يدها. كنتُ طفلاً في أجواء غرفة الحلم المشحونة بالحاجة إلى الإشباع. أطعتُ رغباتها بلا تردد وخرجتُ معها مثل متفحص ماهر أكتم رغبات؟ أجلتها، ورحتُ أبحث في جسمي عن أشياء أخرى تثيرها كما أنا أتمعن في قوامها اللين من خلف ثوبها الشفاف المثير. كانت طرية. جذابة.. في الشارع تسابقتْ عيناي إلى مكان جديد؟ مصابيح جديدة؟ ربّما علاقات جديدة؟ تجاهلنا ما مررنا به: أرض بللها مطر الظهيرة. أشجار يفوح منها العبير. مصابيح متلألئة. نوارس تخطف الأبصار. رائحة سمك. هدير بحر. مقاه. حانات. بائعات هوى. نساء شبه عاريات وأخريات يسندن ظهورهن إلى الجدار عند كل منعطف، وفي آخر الزقاق هناك فتاة بتنورة قصيرة تهمس وتضحك إلى شاب يبدو من ملابسه البيضاء أنه بحّار، يده الغليظة تعبث في صدره. كنا نحدق... عندما سألتها في صوت منخفض:

ـ سعيدة؟

في وسط الشارع وقفتْ.. ثمَّ قالت وهي تضع يديها على خديّ:

ـ لا تقلق سأكون بخير.

كنت أظن أن جمال الليل يُعلم الراحة واللذات تشبع الحاجات. ولكن حالما رأيت غرق عينيها بالدموع عرفت خطأي وأدركتُ أنني بحاجة

Telegram: Somrlibrary

إلى التعلم أكثر. كيف يكون المُحب متطرفاً وفي رأيه لا يترك فسحة واحدة للحبيبة في التعبير؟ صار اللامعقول والمعقول يتساومان في رأسي..

ما بها؟

سؤال يلح في انتظار الأجوبة... قلتُ:

ـ ما بكِ؟

ـ لا تقلق سأكون مثل ما تحب وأكثر.

لا يمنعني القلق من الانتظار. أفكر: «لا تكن كسولاً لحوحا، ولا تبخل عليها بالطاعة ولا تغضب منها، لأنها هي التي منحتك الأماني الجديدة بالمعاشرة والمتعة، تستحق منك الصبر، وفي النهاية ستعرف حاجتها للمسير وسر بكائها»..

ـ بماذا تفكر؟

سألتني من دون النظر إلى وجهي! وكيف لها معرفة ما يدور في ذهني؟!...

التي مضت ولن تعود كانت أنثى باهرة الملامح، لا يبدو عليها التراخي ولا الإنكار، تختفي وراء قوامها الممشوق من غير إسراف، كانت ومضة واضحة القسمات طويلة العنق مكتنزة الشفتين ملساء وردية الوجه ليست بحاجة إلى كذبة الألوان ولا مساحيق التجميل. لم يسعفني التحديق بها. كمن لا يعرف النطق، حاولتُ الكلام وفي النهاية اخترتُ الصمت..

ـ ما أفعله لك لا تفعله أخرى...

قالتْ مثل سيدة واثقة تعشق بقوة، وتحب بقوة، ولا تريد أن تُنسى في لحظات حبّ عابرة. ضغطتْ على اليسرى بيدها اليمنى وأضافت:

ـ لا تسخر مني...

Telegram: Somrlibrary

لزمتُ الانتباه والصمت. لم أفهم القصد. كان واضحاً عليها... لا جدوى من الرد..

حين أقارن ذاك الارتباك في ذاك الزمان مع هذا الاشتياق في وقتي الحاضر أراني عاجزاً تماماً عن تكرار المشهد. كنت كمن يغوص إلى الأعماق، ويعرف أن في غروره يملك الحل. ألقيتُ في جوفي كأسي الخامس وبدأتُ أعتقد أنها مزحة من مزح النساء، ولأنني أعرفها جيداً لا تحب أن يكون نهارها مثل ليلها رتيباً يخلو من المفاجأة قلتُ:

ـ أشعر وكأن الأرض غير مستوية. المارون ينظرون لنا. وهذا يعني أننا النجوم؟

ـ عن ماذا تتكلم؟

كما لو أنا في حلم. سمعتُ ضحكاتها. عدتُ إلى الغناء مع نفسي بعد أن شربتُ كأسي السادس وتأكدتُ أن الذي كشف لي هذه المشاهد ذاكرتي المتقدة. وآه من ذاكرتي ليلاً مع سمرائي الفرنسية. ربّما صار مؤكداً أن لا جدوى من البحث عن أنثى ترضي غروري كما كانت هي بعد هذا البياض الذي كسى سوادي، والذي كانت تؤكد ظهوره السنين من بعدها، وربّما أيضا ما حدث تلك الليلة لم يكن صدفة؟ ولا أبالغ في الكلام لو قلتُ تلك الليلة أمضيتها والصمت نديمي أفكر في هذا اليوم وما يأتي بعده. إذ بعد صمتها الطويل وهي تسير بخطواتها العريضة أفضى لي مزاجي الثابت أن هناك من سيدخلني معها في مفترق طرق..؟... أشعر وأنا أكتب هذه السطور أنني أراها وأن ذاكرتي صارتْ أسرع مني وكأني انتقلت إلى المكان نفسه بالهيئة نفسها قبل أكثر من عشر سنوات كانت تجرني من يدي في لحظة ازداد حماسنا في المسير على طرقات فرنسا الباردة انعطفت بي يميناً حينها رأيت أمامي مباشرة باباً من الخشب بني اللون مائل إلى السواد قليلاً، يتوسط سياجاً من الخشب،

Telegram: Somrlibrary

لونه الأصفر فاقع، فيه قطع من مربعات كبيرة وصغيرة حشر فيه زجاج ملون يشبه بالقياس والألوان جهته اليسرى. خطوات أخرى صعدنا أربع درجات من الحجر الأبيض أصبحنا قبالة الباب مباشرة، تركتْ سمرائي يدي ووضعتها على عروة الباب وسرعان ما فتح وكنا في الداخل! رأيتُ أضواءَ المكان خافتة والأجواء ساكنة ما عدى سماع موسيقى البيانو تعلو نوتة وتهبط أخرى. جواً من الرومانسية المشبعة بالهدوء وعطر الياسمين يملأ المكان. في لحظة استنفار الطاقات البدنية نفقد أحياناً الكياسة المحسوسة مع الأشياء ويصير استهلاك النظر مبالغاً فيه، حينها نحتاج إلى من يذكرنا بوجودنا المتأصل في الاندماج مع الذات النرجسية. كان المكان دافئاً مفعماً بالسكينة والراحة، ولكن أغلب الزبائن كانوا من كبار السن! ساعدتني على نزع معطفي امرأة مسنة شعرها الناعم أبيض تلبس قميصاً من القطن زهري اللون تكشف تجاعيد وجهها المتشابكة عن ابتسامة عريضة. قادتني - وسمرائي تتقدمني - إلى طاولة دائرية الشكل مصنوعة من الخشب وقد فرشت بقماش أبيض مطرز بورد أحمر شفاف وضعتْ في وسطها شمعة متقدة في قنينة من زجاج شفاف منقوشة بنقوش ذهبية تعادل حجم اليد إلى جانبها مجموعة أوراق مبعثرة من الورد الأحمر والأبيض على شكل دوائر حتى نهاية الطاولة كانت جميع الطاولات متقاربة، وحالما انصرفت العجوز التي قدمتْ خدماتها لنا. اتجهت نحونا عجوز أخرى تنشر ذراعيها النحيلتين الراجفتين مبتسمة - ابتسامة عريضة - ترتدي زيا بلونين أبيض وأحمر. وعندما وصلتْ إلينا انحنت لحبيبتي وفي الحال ارتمت في حضنها ودار بينهن همس مشوب بلكنة لا أعرفها. ثمَّ تبادلنا النظرات مبتسمتين بعدها عادتا إلى حضن بعض. بعد وقتٍ يبدو قد شعرت العجوز بوجودي فالتفتتْ لي وفي الحال ابتسمت وحضنتي بسرعة! كانت صادقة في ترحابها، وقد طبعتْ قُبلة على خدي. شعرتُ بالدفء والاهتمام. حاولتُ الرد إلاّ إنها استدارتْ

إلى حبيبتي وأخذت تحادثها ولم أشعر بالراحة حتى انسحبت وهي تضحك كانت تشير إلينا بتحية وداع...

جلسنا قبالة بعض. دهشتي تتسع من المكان ومنها!؟

- ما بكَ؟

سألتني..

لم أستطع الجواب. كنت في حيرة كبيرة. لم تكن نفسي تنعم بالهدوء، كانت صاخبة تنبعث منها الضوضاء. رغم أن كل شيء في المكان كان يوحي بالراحة. كنت لا أجد الاستقرار. الضحك الخافت تراه يتدفق بوضوح من زبائن حانة أو مقهى العجائز تلك. كانت الأسئلة تزدحم بشدة حين قلت:

- أين نحن؟؟

- في استراحة كبار السن.

- وماذا نفعل هنا؟؟

- انتظر وسترى..

عادت العجوز ذات الشعر الناعم الأبيض الخفيف بزيها الأحمر والأبيض تحمل بين يديها الشراب وكأسين، يظهر من خلف كتفيها رجل طويل القامة أصلع يضع على أرنبة أنفه نظارة حمراء تبدو للزينة. وصلت العجوز الملونة إلى الطاولة وظهر الرجل المسن الأصلع من خلفها بطوله الفارع مدَّ ذراعيه لحبيبتي. نهضتْ سمرائي ضاحكة وارتمت في حضنه وتهامسا وقتاً بعدها طبع قُبلة على خدها، ثمَّ التفتَ لي وأخذ يدي بقوة صافحني فيها وهو مازال يضحك قال:

- أهلا بك.

- هو خَالَي، وهذه زوجته..

Telegram: Somrlibrary

قالتْ مبتسمة. ولأول مرة في تلك الليلة رأيتها تبتسم. بادلتها الابتسامة وقلت لهما وأنا أومئ بالرضا:

ـ أهلاً...

أخيراً عرفتُ سر هذا المكان.

انسحاب العجوزان اللطيفان حرك رغبتي إلى الجلوس ساكناً والحاجة الماسة إلى الشراب.

راحتْ حبيبتي التي كانت تحمل وجهها بباطن يدها اليسرى تتفحص في وجهي بكل تفاصيله وأنا أبتلع الشراب رشفة بعد أخرى، ولا يمكن في تلك الأجواء التي تشبه الحلم أو زمناً من عالم آخر أن يرتوي المرء بكأس أو اثنين ولما فتحتُ القنينة لملأ الكأس بالشراب للمرة الثالثة تحركتْ بسرعة وكانت يدها على يدي تسألني:

ـ هل عرفتَ سبب توجدانا في هذا المكان المملوء بكبار السن.

ـ نعم..

ـ ما هو؟

ـ أقارب لك يملكون حانة جميلة ورائعة..

ـ لا..

ـ ما السبب اذن؟..

ـ اترك الشراب وانتبه لي..

شعرتُ بجدية الأمر.

على الفور أطعتُ أمرها وانتبهت لها وهي تشير صوب العجوزين طلبتْ مني رأيي بما أراه فيهما فقلت صادقاً:

ـ حبيبان منسجمان في خدمة زبائنهما وهذا الأمر واضح من تبادل

Telegram: Somrlibrary

النظارات بيننها ومن الابتسامات المتكررة والذي يؤكد نظرتي تلك القُبلات المتكررة واللمسات المتبادلة في ما بينهما..

ـ هل لنا أن نبقى مثلهما بعد دهر؟

ـ ما فهمت؟

تأففتْ وهي تسحب شعرها إلى الخلف وقالتْ:

ـ هل تترك البحر وتبقى معي إلى الأبد؟

ركزتُ جيداً في وجهها. رأيت الدمع يهطل من عينيها. يبدو كانت تنتظر مني كلمة نعم، ولكني لم أستطع الكذب فقلت:

ـ ما زلت في العشرين وأمامي البحر وهو مهنتي التي أحب التواجد فيها. أما أنت فمينائي الأخير..

بكتْ ولاذت بالصمت وأدارتْ وجهها عني وراحتْ تمسح دموعها.

مثل الجمر في قلبي الذي بدأتُ أسمع ضرباته قلتُ:

ـ ما بكِ؟

قالتْ:

أريدني الأولى.

لمحتُ العجوزين يرقباننا!! مددتُ يدي إلى يدها وهمستُ في لطف مفرط:

ـ ما بكِ؟

ـ أشعر هذه المرة ستغادر ولن ترجع..

ـ سأرجع..

ـ ولكن البحر لا ضمان له؟

ـ سأرجع..

ـ وعد؟

ـ ....

Telegram: Somrlibrary

الفصل التاسع

بين ميناءين.. أرض ومعالم

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

1

نهضتُ صباحاً متأخراً بقليل عن الوقت المعتاد والصداع في رأسي.

غادرنا الميناء؟

لا..

يبدو قد تحركنا إلى الأمام قليلاً؟

لكن كيف لم أسمع ضجيج المحركات الباخرة؟

لا قدرة لي على الخروج من أفكار البارحة.

ذكريات الليل. لم أشف منها بعد ـ لماذا؟ ـ رائحة يدي لعنتي!

صرتُ متهماً باللامبالاة فيما يتعلق بهموم الطاقم، لا أصغي لشكواهم متهماً بالتأخير عن العمل وبأني لا أرد على أحد تحيته. فمي يقطر ماءً من غرق لذات البارحة. غرق تفوح منه رائحة الكؤوس، والبحر مال بلونه إلى الأصفر قليلاً. تشغلني درجات حرارة المحركات. أجمع شتات ذهني ولا أصغي لمن يصادفني ولا أبدي لحكاياتهم المطولة أي اهتمام. عند الظهيرة جلس الزيات الثالث قبالتي والكمام الأبيض على أنفه. كان يتحدث مع منظف الماكينة في مزاج حاد عن فساد الهواء في هذا الميناء. كان المبرر الذي قدمه منظف الماكينة بالرد عليه ابتسامة لطيفة لم تأخذ اتجاهها الصحيح إليه.

ـ ربما نبالغ كثيراً لو قلنا الهواء في هذا الميناء خانق..

Telegram: Somrlibrary

قلتُ وقد أحسست به، كان يفكر في ردٍّ يحاكي نصفه الآخر، حين قال:

- الهواء مشبع بقشور الحنطة والشعير!

هناك عند طاولة الطعام القريبة إلى البراد كان يجلس رقيب السطحة يتفحص بحذر وجوه البحّارة المجتمعين حوله؛ ينظر إلى ردود أفعالهم.

- قبل حلول الليل: عليكم تنظيف العنابر التي أُفرغت منها الحمولة.

رد البحّار الأول بصوت مسموع على أنه متعب محاولاً منه إقناع رقيب السطحة بترك الأمر إلى الغد.

بينما كان الثاني يؤكد على المقترح الأول، أما البحّار الثالث فأعرب عن رأيه قائلا:

- مازال فيها بقايا حديد، ونحن داخل العنابر مشغولين بالعمل ويمكن أن يصاب أحدنا بالشظايا!

- لن يحدث شيء وأنا معكم..

قالها رقيب السطحة، ونهض يزيح بكلتا يديه أجسادهم عن طريقه.

عدتُ إلى من كان معي؛ الزيات الثالث كامل ومنظف الماكنة سعد والتحق بنا متأخراً عاصم الزيات الثاني. أفكر في نفسي بخصوص نوعية الطعام وكميتها بعد وصول الطباخ: صحن من الخزف بيضوي الشكل كبير فيه أوراق من الخس وحبات الزيتون وبعض من المخللات والطماطم والخيار وقطعة لحم وحبة برتقال لكل فرد. وصلت رائحة الطعام: مرق الباذنجان والرز والأبيض في صحون بيضاء مملوءة إلى حد الشبع قلت:

- أرأيتم من يحب عمله يُحبب الناس فيه...

- ؟؟؟؟

Telegram: Somrlibrary

يبدو لم يفهموا من كلامي شيئا.

صرتُ أشرح لهم بطريقة مفصلة الفرق بين سلوك الطباخ الأول الذي كان يعتبر الصراخ وسب معاونيه وشتمهم عادة طبيعية، ولم يكن يجيد حتى ترتيب طاولة الطعام عند وجباتنا الثلاث على عكس تصرفاته الجديدة والتي أضفت عليه صفة من صفات القبول التي تقربه أكثر إلى قلوبنا، وهو باق على صمته المقنن وطعامه اللذيذ. ولأن التأييد قد وصلني من تعابير وجوههم شعرتُ بأن الوقت قد حان لإطلاعهم على أعمالهم الجديدة. حسناً فعلت حين ابتسمت وبدأت الكلام، وقد خططت لما بعد وجبة الغداء؛ كل فرد سيعمل حسب طاقاته التي أعرفها بمرور الوقت جيداً.

لم يعهدوا مني أن يغالبني النوم إلى ما بعد الظهيرة، كان من الضروري جداً أن يتم الليلة تنظيف قسم الماكينة تماماً من أجل تجهيز العدة للميناء القادم.

سهرنا الليل حتى الفجر أنهينا ما عزمنا عليه. غادرنا قسم الماكينة والتعب قد نال منا. كان في غرفة القيادة الإلكترونية الزيات ومهندس واحد. علامات التعب من السهر واضحة على وجوه الطاقم. لم أكن أرغب في بقائهم أكثر مع المحركات ولابد من تركهم وقتا للراحة، وقد يكون السبب هو ميلي إلى الهدوء والانتظام هو دافعي الحقيقي إلى أمرهم بترك العمل والتوجه إلى الغرف. هبط المساء سريعاً وتلحفت الموجودات بالسواد ولم يصل تصريح مغادرة تراتشي بعد. كان يقف إلى قرب باب الدخول إلى الباخرة والخروج منها رئيس الضباط. يبدو عليه التعب والنفور من الانتظار واضح على محياه. وقد لمحتُ من تحركات الضابط الثاني القلقة وخطوات رقيب السطحة المضطربة النفور من طاعة الأوامر.

أكثر من ساعتين من الانتظار بعدها سيصل وكيل الباخرة ومعه

شخصين متبخترين بزيهم الرسمي يحمل أحدهما حقيبة سوداء والآخر يضع قبعته العسكرية في يده. انفرجت أسارير بعض البحّارة وكأنهم ربحوا التحدي حين شاهدوا اثنين من الثلاثة الذين صعدوا إلى غرفة الربان وقد نزلا من الباخرة وهما يلوحان لهم بالسلام. دخل البحّارة إلى غرفهم وعلى وجوههم البشاشة، سمعتُهم يتداولون:

ـ سنبحر الآن؛ فدليل الملاحة مع الربان في برج القيادة.

وبعد ساعة أو أقل بقليل جاء أمر الربان من خلال مكبرات الصوت يطلب منا الاستعداد للإبحار. انشغلنا جميعاً. كُلٌّ يعرف مهماته. إلّا أنا فقط سرقتُ من الوقت دقائق لأرى الضابط الثاني الذي وجدته في صالون الضباط يتلذذ بقهوته ساكناً فسألته:

ـ سنبحر الآن..

ـ يبدو هذا صحيحاً.

ـ نعم صحيح

ـ سنرى..

قالها ببرود تام وهو ينهض من مقعده هادئاً، ولم يكن هدوؤه نادر الحدوث، مازال غير واثق من إبحارنا إلى ميناء التحميل؟! سألته:

ـ تلتزم التكتم؟

ـ لا.. ولكن الجميع لم يقتنع بعد أن إدارة الشركة لا تعرف كيف تدير الباخرة.. لقد تأخرنا في مناطق الانتظار كثيراً. وتأخرنا في مرافئ التفريغ والتحميل أكثر، وسنتأخر في هذا الميناء أكثر وأكثر..

ـ كيف ذلك والآن بدأ الجميع يرفع الحبال عن سُلّم الباخرة..

Telegram: Somrlibrary

ـ لا تستعجل الأمور، فهناك القناة البحرية التي سنمر من خلالها إلى الخليج، ومن ثمَّ إلى ميناء التفريغ الذي لم نصله بعد..

ـ أيّام!! ومسافة الوصول ساعات!!

ـ سترى.

لا شك سأنتظر ما قاله صديقي الضابط الثاني، لأنه بالتأكيد لا سبيل أمامي إلّا الانتظار. تأكدَ ذلك؟ بعد ساعة أو أكثر بقليل جاء الأمر إلى قسم الماكينات في التحرك. كان الليل شديد السواد والأجواء خانقة وحزينة. لم تبرأ بعد من أمراضها العتيقة. البحر يميل لونه الأزرق إلى الأصفر. كنا نصعد في إبحارنا الهادئ جهة الخليج شيئاً فشيئا وصلنا وسط القناة. الميناء صار خلفنا والخليج بمائه المالح على اتساعه أمامنا. لم يبقَ أكثر من خمس ساعات حتى نصل إلى المكان الذي كنا فيه قبل دخولنا. بندر خميني، حيث تقف بعض البواخر هناك تنتظر مكانها عند الرصيف أو التوجه إلى ميناء من موانئ دول الخليج وبعضها يقف لحاجة ما أو عطل طارئ. تركت التفكير في القادم. دهشتي التي أتت سريعة نتيجة توقف الباخرة المفاجئ دفعتني للتحرك أسرع. كان الربان قد أمر قسم الماكينة بالتوقف. والسبب كان هو تسهيل عملية نزول دليل الملاحة التابع لسلطة الميناء الإيراني؟ علينا الانتظار حتى الصباح. لماذا الانتظار؟ الباخرة تنتظرها حمولة. من يعطينا الأجوبة؟ أغلب الموانئ التي مررتُ بها سابقاً لم أسمع قط أن دليل الملاحة يحتاج إلى الراحة والنوم وبعدها يواصل الإبحار. ولم أسمع قط أن دليل الملاحة يأمر باخرة حافزها الوقت بالتوقف في قناة بحرية!؟ من جواهر الحياة النسيان ورمي الهمّ بعيداً عن مكان تواجد الإنسان الحالم... مكاني الذي أنا فيه بدأ يكبر ويتسع أكثر من المعتاد صار أكبر مما كنت أتصور!. ما تفعله لك المرأة على اليابسة

Telegram: Somrlibrary

تطلبه بشغف وأنت على ظهر البحر. يبدو أمر الباخرة صار لا يعنيني وكل اهتماماتي انصبتْ على كيفية الخروج من قسم الماكينة بعد ما أمرنا رئيس المهندسين بالتوجه إلى الراحة والعودة صباحاً، ريثما يصحو دليل الملاحة لنباشر الحركة.

2

خلال الدقائق الأولى من خروجي ـ من قسم الماكينة ـ متعباً بدأت أدرك أن الألم قد عاد. شعرت في أسفل ظهري بالنار ومطارق حديد تضرب في المكان. عذاب الرغبة عن النوم سيطول مداه الليلة. على طول الوقت الذي جربتُ فيه مسح مكان الألم بمرهم مسكن تذكرت بأن ذلك لا جدوى منه، وأنه سيتفاقم إن ألقيتُ بجسدي على الفراش. دفعني الخوف من الوجع الذي أعرفه إلى الاتصال بالضابط الثاني من أجل حقن إبرة مسكن في العضلة. فعلتُ ذلك وانتظرت زوال الوجع، ولكن في غضون دقائق ضغط عليّ الربان وباسم البحّار والضابط الثاني وباقي أفراد الطاقم لأقضي معهم بعض الوقت في الصالة الكبيرة. فكرتُ في الاسترخاء تحت مرش الماء الساخن. هدوء مؤقت. متعتي زادتْ لسخونة الماء الساقط على ظهري من رشاش الماء الكبير. أعترفُ للمرآة أن سن فوق الأربعين أحلام تسأل الأزهار عن طين. اضطجعت على ظهري وبدأتُ أشعر بالراحة وقد بدأت أودع الألم، وكأنه غادرني كرحمة. مررتُ باطن يدي أسفل ظهري فأدركت بسرعة أن مفعول الحقنة المسكنة هو السبب... نهضتُ بطيء الحركة، لبستُ ثياباً نظيفة ورششت العطر والتحقتُ بمن ينتظرني في الصالة. وجدتُ العديد من أفراد الطاقم قد أخذوا أماكنهم أمام حديث الربان الممتع عن بعض حكايته البحرية مروراً بالمخاطر، وكان أكثر ما يشد انتباه الجميع هو الحديث عن النساء ولمعرفة نهاية مغامراته كانت له خاصية عجيبة في فن الألقاء بطريقة سلسلة كان يجمع الأحداث ويفكها قطعة بعد أخرى بروح

Telegram: Somrlibrary

المغامرة التي لم نعهدها من ربان سواه.. شعرتُ بالنعاس وقتاً. انسحبت بهدوء ودخلتُ غرفتي. لا أستطيع البقاء تحت الأضواء أكثر. أطفأتُ الإنارة بحثاً عن السلام، وما هي إلّا دقائق حتى وجدتُ ليلتي مناسبة جداً للنوم..

في الصباح كنتُ نشيطاً أشعر بالراحة تحتويني. على مائدة الإفطار تناولت وجبة دسمة، وفي لحظات أدركتُ أن الدليل البحري الإيراني لم يستفق من نومه بعد. وهذا يعني لا إبحار إلّا بعد أن ينهض من فراشه ويستحم ويتناول وجبة الإفطار، ثمّ يعطي الإشارة للربان.. ومنها نبدأ بتشغيل المحركات، وننطلق إلى حيث غايتنا ميناء الحمرية في إمارة دبي.

الوقت يمرُّ ومازال في رؤيتي للأمر غرابة وعدم قناعة بما يحدث. ما سر هذا التأخير الذي أراه مفتعلاً؟ لا سلطة عليه داخل الباخرة من شأنها أن تأمره مباشرة بعمله. وأعلم أيضاً أن له الصلاحية الكاملة في كل ما يخص الباخرة مادامت تسير ضمن حدود مياههم الإقليمية. ولكني أؤمن أن هناك أمراً نجهله؟

استغفال لنا؟ لا أدري. ولكن بعد وقت قصير تبين أن أفكاري وأحكامي نسيج من الخيال لا أكثر، وأن كل البواخر التي تمرّ في هذا الميناء يحدث لها ما نراه؛ لا لشيء فقط لتكون الاستفادة المادية من وقت وقوف الباخرة كبيرة من خلال استبدال الدليل قبل وجبة الغداء بدليل أخر يأخذنا إلى نهاية القناة البحرية بقليل. ويمكن أن أتخيل ذلك. أو قد أكون تخيلته فعلاً، ولكن بعد وقوفنا حتى الظهيرة جاء الدليل الثالث، وقد عبر بنا القناة وصرنا داخل تراتشي وسط الخليج حينها غادرنا الدليل الرابع بعد وجبة الغداء ومعه حفنة من المال والهدايا مثل أصحابه. عملتُ كثيراً هذا اليوم، وأقبل طاقم الماكينة يقول لي إنهم يشعرون بالتعب، وقد يحتاجون إلى الراحة. ذهبتُ إلى رئيس المهندسين وعرضتُ عليه مقترحاتي؟ وافق على أن نعطي استراحة لكل واحد منهم بطريقة التناوب. وكان عليّ تقديم

Telegram: Somrlibrary

الأكبر سناً والأقدم خدمة لينال حصته من الراحة. كان اليوم قد انقضى.. ارتدت السماء ثوباً قرمزياً والبحر أصبح خطوطاً حمراء وزرقا.. وأحياناً بيضاء. كان الناظر برغبة الحياة ولمس الأشياء يشعر أن وراء هذا المشهد نساء جميلات. لم يكن القمر واضحاً كانت بعض الغيوم الوردية تحجبه. على بعد أميال من مكان وقوفنا كان الأفق يأخذ اللون الأسود الداكن مع موجات صغيرة وأخرى كبيرة حمراء. البحر يتنفس بصعوبة، لكن بعد فترة قصيرة أحسست بيدي تلتصق بي عند جهة صدري.. واقفاً عند أنف تراتشي، أتدحرج بالأفكار كما الأمواج فترة من الزمن، بدأ الدم يتدفق أسرع في عروقي.. بقيت جامداً، لكنني انتبهت عند أسفل السُلم كان الطباخ فراس يغني غناءً حاداً..

وصلنا منطقة الانتظار!!..

الصباح يكشف عن الساعات المتأخرة من الليل. رمينا المخطاف بعد منتصف ليلة البارحة مقابل ميناء الحمرية الذي يبعد عن مركز مدينة الشارقة حوالي خمسة عشر كيلو مترا. الموقع المميز للميناء أتاح له أن يكون ضمن القاعدة الصناعية للمنطقة الحرة بالحمرية، صُمم الميناء على عمق يسهل الإبحار فيه. رغم ازدحام القطع البحرية فيه إلّا أن البواخر ـ سواء أكانت محملة أو فارغة ـ يمكنها الدخول والخروج بسهولة، ويمكنها الإبحار بمرونة عالية وثقة منضبطة فوق خطوط ملاحية واضحة المعالم. كانت مياهه كما مياه الخليج مالحة، وفيه تعاني البواخر الواقفة من ارتفاع درجات حرارة المولدات الكهربائية وعطب أنابيب التوصيل داخل غرفة المحركات. هذا الصباح بقيتُ في صالة الطعام بعد وجبة الإفطار، كنت أشعر بالوهن.. تناولتُ الشاي والقهوة.. وكانت تراتشي ترسو في هدوء. يبدو أن التعب أخذ منا جميعا مأخذاً.. فانصرفنا، لم يبق سوى الطباخ ومساعديه يعملون في صمت داخل غرفة الطبخ.

Telegram: Somrlibrary

ـ نعاني النقص في المؤن.

قالها الطباخ.

نزلت السلالم إلى مكان عملي ـ غرفة الماكينات ـ وقتاً حدثتْ فيه قصة لا أحب ذكرها، كان بطلها عاصم الزيات الثاني الذي يدعي المرض؛ إذ كان يتربص بي وهو ينتظرني أنا تحديداً، يقف مختبئاً تحت دائرة السُلم الأخير ولحظة وصولي إلى منطقة الاستدارة المؤدية الى الورشة ظهر فادعيتُ لحظة ظهوره عدم معرفتي بمكان تواجده عندها قال باكياً وهو يتبعني:

ـ سأرمي نفسي في البحر.

ـ لماذا؟

ـ زوجتي مصابة بالحمى وطفلي الرضيع يعاني الإسهال. ولا أحد يعوض غيابي.

ـ ما الحل؟

ـ اخبر الربان عن الأمر لأعود جواً إلى أهلي..

انتهى باكياً.. كانت دموعه غزيرة وصوته المبحوح يختفي خلف حزنه.. كاد يدفعني لتصديقه. وفي الحال توجهتُ الى رئيس المهندسين وبلغت عن ادعاءات عاصم، ولم يكن هو الآخر يصدق. صعدتُ إلى ربان الباخرة وطلبت منه مساعدة عاصم، إلا أنه ردّ عليّ بطريقة الواثق:

ـ لا تهتم له؛ فهو كاذب ويدعي، وقد فعلها قبل سنة عندما كان معي في ميناء «كاندله» بالهند.

في المساء عاد عاصم، وعلى طرف لسانه الادعاء نفسه. هدأتهُ وطلبتُ منه الصبر على الأقل حتى نصل إلى الميناء. سألني والدموع تملأ عينيه:

Telegram: Somrlibrary

ـ متى؟

ـ غداً صباحا ندخل الميناء.

ـ ستكون عوناً لي؟

بعدها خرج محدودب الظهر، يسير سير السلحفاة.

لم يمض من الوقت إلّا دقائق حتى أعلن الربان من خلال مكبرات الصوت عن دخولنا الميناء حالاً!!!

الحقُ كانت مفاجأة.. الجميع يركض فرحاً ولم يكتم أحد شعوره. عند الواحدة بعد منتصف الليل كنا قد تهيأنا لكل طارئ. وحدث ما كنت أتوقعه. لقد تأجل موعد دخولنا ليوم الغد. لم أستطع النوم. بحثت في جرار مكتبي وأخرجتُ ورقة وكتبت: «حين يمس القمر الضفة الأخرى تصير البحيرة قصيدة الأحياء، وتنبت للمرأة أجنحة بيضاء، ويخبئ الموج الظل والقارب المرسى والنوارس الطعام وأنتِ الماء». وأنا الراقد في الماضي والحالم أن الحياة حبلى بالحياة. الآن ارتمى القلب في أحضان عشيقته الغربة ولا شيء غيرها. أنا لست بخير؛ أشعر بالألم والوحدة تخنقني. أريد البوح عن كل شيء ولا أستطيع. اتركوني هنا أريد أن أنال من الحياة كما نالت مني. أريد أن يكون البحر قبري. مجنون من ركب البحر. نعم ذاك أنا. وإن قلتُ هذه سفرتي الأخيرة أكذب. سأترك للأيام أن تتنبأ بدلاً مني. ليس بيني وبين البحر الأسرار وكلما توغلت في الإبحار وابتعدتُ حد التلاشي عن الانظار وجدتني أشد قرباً؟! لمن؟ لماذا؟ لا أدري ولكن هنيئاً لأهل الارض. هنيئاً لأحلامهم. هنيئا لمن نال المُنى في رحلة كانت موفقة. هنيئاً لمن وصل الميناء. هنيئاً لمن دخل جنح الليل ولم يشعر بالضجر......

ـ مَن؟؟

طرقٌ على الباب شديد؟

Telegram: Somrlibrary

فتحت؟

كان باسم وبعض البحّارة على وجوههم البشاشة يرددون:

ـ مازلت صاحياً؟

ـ تفضلوا..

دار حديث طال لساعة أو أكثر بعدها طلبوا مني عناوين كتب أحبوا قراءتها، ثمّ خرجوا مودعين، وفي اليوم التالي. وعند شروق الشمس لم يستقر الجمع في مكان محدد. ذهب الطاقم كله إلى ارتداء ملابس نظيفة ـ وإن كانت ملابس عمل ـ بدأوا ينظفون تراتشي من كل زاوية ومكان. جلستُ في الظل حتى الساعة العاشرة. لم يكن غيري في المكان كنتُ أُحركُ ساقيَّ وسط الهواء في حرية مفرطة، كنتُ أفعل ما أشاء حتى ظهر رجل بهيئة رهيبة، طويل القامة، عريض الصدر، يخاطبني بحنكة ورزانة عن نفسي والمستقبل، ولما وصل نهاية رحلة الباخرة تراتشي قال: «لحظة عودتك لميناء الأم اسأل عن لبيب ـ الحارس الليلي ـ وابنته». «يا إلهي!!... مَن؟». قلت وأنا أقفز من مكاني، فأجاب: «نصفك الثاني».

ـ أهلاً. أهلاً.. أين كنت؟!!!

ـ ....

انتظرت وقتاً.. أريد رداً. مضى على انتظاري دهراً، ولم أسمع رداً؟ عدتُ بالسؤال مرات ومرات ولم أسمع صوته حتى سمعتُ من الجهة الأخرى: «أينك.. تعال سنبحر الآن». صوت المهندس الثاني يريد مني النزول معه إلى غرفة الماكينة وتجهيز المحركات كلها لتكون تراتشي جاهزة لدخول ميناء الحمرية.

Telegram: Somrlibrary

3

لا أدري قبل التوجه إلى غرفة الماكينة، لماذا وقفت أمام باب الغرفة؟

ما الذي يقصده من قوله أسأل عن الحارس الليلي وانتبه؟

هل حدث شيء ما؟

ولكني أحتاج إلى.؟..

ربّما تغيير ملابسي؟

الاستحمام؟

كنس الشعور بالتعب؟

النوم؟

الراحة؟

الخلاص من ألم في أسفل الظهر؟

أو ربّما حاجة خاصة؟ كل شيء كان متاحاً طوع يدي، ولكني غيرت اتجاه تفكيري وعدتُ إلى حيث وجهتي، لم أهدر الوقت ولا الجهد. أعرف كيف أخفف إثارة الثقة الزائدة عند أفراد الطاقم. في هدوء حذر ـ حذر شديد ـ وجهت للعمال ما أمرت به من أوامر، وببساطة مفرطة شرحتُ لهم أولوية ما كلفتهم به. علاقتي مع الصبر والتركيز علاقة الحقيقة والبرهان.. فمثلما الحقيقة نسبية تختلف حسب إدراك المرء، يأتي البرهان ليكون هو مرضي المستديم. يُحيي ولا يُعدي. يبدو أن لك

Telegram: Somrlibrary

في هذا الميدان رسالة مختصرة؛ هي حقيقة حب عامل لعمله. أنثى وذكر. أرض ومطر. ولك أن تُسمّيه اليقين الوحيد في هذه الحياة. رأيت كيف تكون الوجوه السعيدة مضيئة، من دون صياح سمعتُ من زوايا أروقة تراتشي الضحكات. كنا نواصل تشغيل المكائن تباعاً ونحن سعداء، وبارتباك واضح كنا نخاف تكذيب الخبر. كنت أحضن يدي وصمتي المطلق. أصغي إلى همس بعضهم. قلق من أي طارئ قد يحدث. كما الآخرين مشدوداً إلى العمل ولكن في عمق الذات وحيداً. أعرف دائما أن طريق البحر أطول. قبيل مغادرتنا بدقائق تحركت الريح واحتدم البحر وبدأت الأمواج تتصاعد بعضها على بعض تضرب في جدران تراشي بقوة الرافض إلى تواجدنا. عاصفة موسمية تشتد دون توقف والخطر في الإبحار محدق بنا وأي قرار بالتحرك صوب الميناء هو محض جنون. قررنا التريث قليلاً حتى تهدأ العاصفة. هل يزول هيجان البحر؟ حتى المساء لم نلمس إشارة تفيد أن الأجواء في طريقها إلى التحسن. كنت أطرق اللحظات في صمت طويل، عدت بذاكرتي إلى الكثير من الحوارات مع نفسي عن شغف ملامسة الأرض. عن حياة خالدة وعن الروح في تحركاتها إلى الأمام، عن زمن تجاسرت فيه ذئاب الصحراء. أن يطرأ تغير ما على حياتك حينها ستعرف ما كان يشغلك.. ذلك شأن قد فكرتَ فيه يوماً ولم يفارقك. ما بدأناه مازال معنا والعمر يمضي مقترناً بالرغبات.. الخوف.. الأفراح.... ولا نعلم أين ومتى يقف؟ أهمية الحياة تتجلى في احترام حدود الآخر على أن يكون إنساناً لا أكثر. لا للقتل لا للتفكير في قتل الأمل في ذاتك. وإذا ما صدمتك خدعة من أقرب الناس إليك لا تحتار؛ ربّما كنت تمثل له رمزاً للأمل أو عابر سبيل. فقط عليك أن تتقدم ولسوف تجد من يساند حلمك ويعيد لك معنى الإيثار في

حياتك.. يخنقنا التعب أحيانا، لكن لحظة واحدة يمكن فيها أن تنقذنا نسمة. نسمة قل عنها ما شئت.. أحب أن أعطيها لقب الحبّ. حبٌّ في زمن ثلاثي...... قلتُ همساً: «لا داعي للذهاب معها؛ فأنا ذاهب إلى البحر رغبة في العيش وحيداً بوعدٍ قطعتهُ على نفسي». أعلم جيداً أني قد تركتُ ورائي قطعة مني: عذبةً منعمة متجانسة متآلفة. لم يمسها الليل ولا لفحها النهار، تغط في بركة ورد مسترخية تفوح منها رائحة عطر تنعش الخاطر. ترطب الأفكار. تتفجر من هدوئها ينابيع صافية. في الصيف باردة وفي الشتاء دافئة؟

عادة لا يشتغل الظن، ولكنَّ القلب من طباعه أن يصوغ من الصمت ليلاً ويغرز البذور في الطين. لم أرث الحقول ولا الشعر ولا البرتقال ولا حتى المواويل. وحدي أقلب أيامي عرضاً وطولاً ولم أجد إلاّ بعض ما تمنيت. في عِزِّ الشتاء شمالاً أمتدُّ وجسمي كلمات رفضٍ للنساء والدفء. ولكن لماذا؟ الإنسان يحتاج أحياناً إلى القيود كحاجته إلى الحرية..

لم تتغير ملامح البحّارة أبداً. كانت الوجوه سعيدة. «هل أنت سعيد؟». سألتُ نفسي. يبدو قد تجاهلته: الجواب..

دخلنا منتصف الليل وقررنا الإبحار صوب الأرض. الشعور بالسعادة يأتي من الخارج. بغضون دقائق معدودات انطلقنا بقوة صوب الأفق المضيء يحملنا الموج الراقص بهدوء إلى الأرض. كانت السماء صافية والقمر الباسم يتوسط النجوم. وكشاهد على ذلك المنظر كان علي أن أُصرّح: «إن أحسنت العمل تنفس كالأبطال لتنتهي مخاوفك. احتياجاتك. أحرص على بقاء البطولة فيك وسيتكرر الفرح المفضي إلى السعادة، وتذكر غداً يوما كاملاً ينتظرك هذا إن بقيت على قيد الحياة تتنفس». لم أستطع تصوّر حالتي وأنا أتنفس في الفضاء. مشهد «نخلة ديرة» المطل

على البحر رهيب. رائعة هذه اللحظات في دبي. إبداعات للعقل البشري في إنتاج مدينة سياحية. مدينة تمتد في البحر بعد ردم أجزاء كبيرة منه وجعلها أرضا يُقام عليها البناء الشاهق. بناء أثبت للبشرية ما أن تتوفر الإرادة الصادقة والتوجه السليم حتى تتحول الأرضي البور إلى حدائق غنّاء، والمياه المالحة لن تبقى أبدا عديمة الفائدة. كانت فكرة. تحولت إلى مهمة فاجتمع لها الخبراء في مؤتمر غربي إماراتي، استدعي له كل خبير في مجالات المدِّ والجزر والأرض والتيارات المؤثرة والسواحل، وغطت دراساتهم كل ما يحيط بمنطقة الخليج، وما يؤثر عليها من مؤثرات خارجية وداخلية حتى منطقة الحمرية في إمارة دبي لإنشاء المشروع. مشروع «الجميرة» شاطئ يمتد على طول الساحل تم بناؤه على شكل خريطة العالم، ولكن ليس على الأرض بل فوق البحر! درسوا جيداً كيف يؤثر ردم الأعماق البحرية بالرمل على اختلاف المستويات كانت المخططات دقيقة جداً. حسبوا بإتقان عال كمية الحاجة للمناطق المنخفضة فظهرت هدية البناء نخلة الجميرة ونخلة جبل علي لتكون تحفة من تحف العالم فيما يتعلق بالبناء الحديث. نخلة الديرة التي مررنا بها يقول عنها ضابط الملاحة تخرج من الأرض وتمتد في اتجاه البحر على طول خطوط الملاحة في شكل نخلة، جذعها يمتد من الأرض إلى البحر وعلى كل الاتجاهات علامات بحرية؛ الأخضر يميناً والأحمر شمالاً مروراً بإمارة الشارقة وامتداداً من دبي إلى ما نراه الآن. لكل حدث طارئ يتصل البحّارة بسلطة الملاحة الموجودة في برج السيطرة المطل على البحر من الجزيرة نفسها. دون الشعور بالتعب ولا القلق كنت أتوسط الراحة، وأنا أفكر بحالنا... أنظر إلى النجوم متنهداً وهي تقاسمني التعجب. انشغلتُ في مشاهد الكون وحدي والأثر الأبيض خطاي. كنت

Telegram: Somrlibrary

أتنفس الجمال من حولي والخيال يردد معي: «لابد للحب من علاج». أشعر بين اليأس والعمل هناك فسحة أمل. أما البدايات والنهايات في هذه الأرض نتركها للزمن، ولأن الحياة تستحق النساء كجيش وديع نحقق في عوالمه الخرافية انتصاراتنا ـ أخطأناها او أجهضناها ـ ننسى حداثة تفكيرنا... لكل هذا علينا البقاء. رجفَ جلدي. لمست جسدي موجة؟ أطلقتُ الحرية للتفكير. من سجن الصمت. لا أدري كيف غنيتُ. فقط كنت سعيداً وأنا أشاهد كيف كنا ننطلق مثل انطلاق «السهم من القوس»، بحيث انتفت الحاجة من التفكير في القلق. لا تغيير للخط البحري هذه المرة بات مؤكداً سنكون في الميناء بعد ساعات. تمكنا أخيراً من تجاوز العلامات البحرية وصار الوصول إلى كاسر الأمواج وهو «المصد» البحر المكون من الصخور الكبيرة والصغيرة صفت مع بعض بطريقة محكمة على شكل سد متين يمنع وصول الموج العاتي، ويعيده إلى الساحل، ويحجب مروره إلى أسفل البواخر الواقفة على جانب الرصيف. انعطفنا يسارا وفي غضون دقائق صار الرصيف عن يميننا.. تقدمنا بسرعة بطيئة ريثما وصلت الساحبات إلى تراتشي التي صارت ساكنة تُجر بالحبال إلى رصيف الميناء.

جلستُ في مكان يبعد بعض الأمتار عن ممر البحّارة، وقت وصول سعد أخذ يحدثني عن أفكاره القادمة في الميناء؟ كنت أصغي إليه ولا أعرف متى؟ وكيف؟ وجدتني: أخرج من غرفتي مهرولاً إلى السطح. أقفُ عند مقدمة الباخرة، يرافقني الشعور بالارتياح. أنظر النسمة القادمة من خلف الأفق كيف تمر بسلاسة وهي تلاعب وجه البحر برغبة اللمس تخترقه صعوداً إلى وجهي.. أرختْ أوصالي فجلست مستجيباً إلى اللذة الملتهبة، استلقيتُ على ظهري وشبكتُ يدي خلف رأسي أحدق إلى

السماء وأبتسم، جاءت قوافل الأفكار الملهمة، ثمة تفسير للقلق الذي أنا فيه؟، يبدو لا. وما يثيرني الآن هذه ليلة جميلة كان فيها القمر مكتمل النمو ينشر ضياءه الذهبي البراق العجيب. ولكن حين ظهر من خلف الأفق البعيد على شاكلة أذرع تلتمع مثل راية بيضاء تلوح لي وترسم على تضاريس القلب فرح المرافئ الجديدة، رأيت تراتشي مثل الفراشة تطير فوق امتدادات البحر تعلو وتهبط باستمرار ساخرة، تهدر تحتها الأمواج يتطاير من جانبيها الزبد الأبيض. رأيت الطيور حانية تطفئ الآهات كأعواد الكبريت. سمعت أصواتاً غريبة تدعوني إلى الإنصات! رفعتُ قامتي! مشدودا صوب المشهد الغريب. رأيت حوتاً صغيرا يتقدم نحونا يطلق الأصوات مسروراً في هذا العالم الطليق الواسع الكبير، فيه من الأسى والوحدة ما يجعله يعوم فوق السطح بهدوء ولكن سعيداً يتقلب بمياه البحر الصافية المالحة، صيحات البهجة التي أسمعها تشبه إلى حد بعيد عبث الأطفال حين يبتعدون عن آبائهم مسرورين في مواسم العيد. نهضتُ من مكاني. نظرت إليه؟ ماذا أفعل؟ الحوت يقترب من مقدمة الباخرة! خفتُ من أن نقطعه، ثبّتُ غرائزي كلها باتجاهه فتفاقم شعور الخوف في صدري، الاحتمالات المرعبة توخز عاطفتي، الحوت يقترب والباخرة مسرعة في اتجاه مكان تواجده، الواجب اتخاذ الحذر، لابد من الصياح لإبعاده، لا بد من تغيير مسار الباخرة، الكارثة قادمة. حان وقت المجابهة! اقتربنا من الحوت أكثر! فقدت الإحساس بنفسي. الاصطدام صار وشيكاً. تضاءلت أطرافي، تعرق جبيني، شعرت بالغثيان، داهمني خطر الموت المحقق، خفت. رجفت، شهقت مختنقا أفقت وأنا أردد: «ابتعد، ابتعد».

كنتُ أحلم!!

Telegram: Somrlibrary

وهذا ما أكده من حولي في ذلك الجو الهادئ... صديقي سعد الذي رأيته يضحك ملء فمه وهو يقول:

- كنتَ تحلم؟

يظل نومي المفاجئ مثيراً للاهتمام. أن يسمع المرء من يتحدث عنه باستمرار حقاً مشكلة. تشعر وكأنك الوحيد الذي يمر وعلى رأسه مصباح أحمر. حتى لو كنت تثير أحاديث الناس ترغب لو تركوك لحالك، أحياناً تشعر وكأنك مراقب فتضيق عليك المسافات وتقصر الدروب. أكثر من تحدثوا عن الاختلاف أنا تحديداً. اختلاف رغباتي في النوم أحياناً حتى الفجر ولا أشعر بحاجتي إلى النوم، ويمكنك أن تراني أنام واقفاً! حالتي هذه طارئة منذ أقل من سنتين، وهي جديدة على طباعي، ولم أتكيف معها بعد. ذلك الفجر وبعد هذا الحلم الضاحك. لم أجد أحداً من أفراد الطاقم قد ذهب إلى النوم. وفي وقت قصير أشرقت الشمس ودخل الوقت العاشرة صباحاً، ولم أشعر أن هناك فرداً من أفراد الطاقم يشعر بالتعب أو النعاس. رأيتهم واقفين قرب سياج الباخرة المطل على إسفلت رصيف الميناء. في وجوه ضاحكة كانوا يتحدثون بأصوات عالية. «على كل أفراد الطاقم التوجه إلى مكتب أمن الميناء بغرض أخذ التصاريح». صوت الربان من خلال مكبرات الصوت. هزّ البحّارة سياج الباخرة هزاً! شعرتُ به سيقتلع من مكانه، ولكن الأفراح بدأت وليست له القدرة على كبح لجحها. سادت فوضى عارمة.. بعضهم يهرول والآخر يغني. سمعتُ تصفيقاً قوياً وغناءً. رأيت سُلم الباخرة قد لمس الرصيف وبدأ البحّارة ينزلون مهرولين يتسابقون إلى لمس الأرض. لم يكن في المكتب الأمني للميناء من ينتظرنا. فقط استلموا أوراقنا الثبوتية وقالوا لنا انتظرونا. بعد دقائق نودينا فراداً، ولما وصلتُ أمام أحدهم قال لي

Telegram: Somrlibrary

ثبت رأسك أمام العدسة ولا تغمض عينك بعدها طلب مني الانصراف.
عدنا إلى الباخرة على أمل وصول التصاريح. وعند الساعة الرابعة عصرا وصل وكيل الباخرة ومعه التصاريح وقد وزعها علينا وهو يردد ما بلغ به من أمن الميناء: «العودة قبل منتصف الليل». وزاد: «من يخالف مرة واحدة يمنع من النزول حتى إلى الرصيف أبداً».

Telegram: Somrlibrary

4

«منعوا باسم وصفاء من النزول!». هذا ما سمعته من رقيب السطحة. وتمنيت لو سألته عن السبب، لكنه أنطلق راكضاً قبل أن يضيف: «لا وقت عندي». ثمَّ غادرنا حتى اختفى....

ـ أنا أعرف السبب.

قال فراس الطباخ وزاد:

ـ كنت واقفاً أمام الربان أحمل بيدي الشاي للوكيل حين تحدثوا عن البحّار باسم والضابط الثاني، وقد سمعتُ الوكيل يقول: «لا شيء غير الاحتمالات في تشابه الأسماء». كلف الربان الوكيل بحل هذا الإشكال سريعاً، وقد رأيت الوكيل يومئ برأسه موافقاً. لم أكن مقتنعاً. توجهت إلى صفاء وسألته. فأجابني بالحديث نفسه. رأيت «باسماً» حزيناً جداً، يبدو من تصرفاته الغضب. حاولتُ التخفيف عنه، لكن حالته لا تسمح بالبقاء معه مدة أطول. قلتُ: «أعتقد أنك بحاجة إلى العزلة». وغادرته وفي نفسي شيء من النكد.

عصراً اتصل بي الربان واتفقنا على وقت الذهاب إلى المدينة. أخذنا جميعاً العصير الذي قدمه لنا أبو النون. ثمَّ لم أكن منتبهاً إلى ثوبه المطرز بالورد إلاّ بعد أن ضحك رعد وعاصم وكامل ضحكة كانت لها أن تفتح عيني بقوة اتجاهه! رأيته فكتمت ضحكتي وقلت:

ـ ماذا تريد أن تقوله لنا بثوبك هذا؟

ـ أنا سعيد. والألوان الزاهية تكشف سعادتي...

ثمَّ دار أمامي مثل راقص «الباليه» وقال وهو يمد يده إلى خصره: «لولا هذه الألوان ما سمعناك تضحك». كان صادقا فيما يقول، ولكني لا أظنه سيذهب إلى المدينة بقميصه الأصفر المطرز بالورد وبنطاله الأورانج. كان النهار جميلاً فيه الشمس طالعة حرارته غير حادة، ولكن تحمل الأجواء نسبة من الرطوبة. عدتُ إلى غرفتي وكتبت جدول الأعمال التي يجب تغييرها من برنامجنا البحري وإرجاؤها إلى برنامج اليابسة ـ الميناء ـ عرضتها على رئيس المهندسين وحصلتُ على الموافقة. في الحال نزلتُ إلى غرفة الماكينات وأبلغتُ الجميع عن نظام التواجد والنزول. حصلتُ ـ بعد مناقشات طويلة ـ على موافقتهم بعد سماع آرائهم وقد اتفقنا في النهاية على بقاء شخصين ـ مهندس وزيات ـ في كل خفارة. كنتُ أشعر بالحاجة إلى الراحة. ولكن الوقت مضى على التفكير في النوم. دخلتُ غرفتي ووقفتُ تحت مرش الماء الكبير، بعد قليل تصورته طال عليَّ انهيت فيه كل ما يلزم، خرجتُ من غرفتي وانتظرت الربان عند الساحة المقابلة لسُلم الباخرة، لم تمض دقيقة حتى رأيتُ البحّارة ينتظرون بعضهم؛ قصد الذهاب الى المدينة. رئيس السطحة سبقَ الجميع برفقة الطباخ. وبمدى السعادة التي كنت أراها واضحة على وجوه الجميع، كنتُ أشعر بحزن البحّار باسم والضابط الثاني صفاء. وصل الربان وكان يضحك يبدو مسروراً. لم أتصور أن أراه بهذا المنظر! كان يمازح الجميع بشوشاً يطلق النكات ويصافح من يصادفه ولحظة وصوله ليدي همس في أذني: «هيّا».. صامتين نزلنا السُلم. أخذنا الطريق المؤدي إلى بوابة الخروج من الميناء. عرفنا أن علينا العودة إلى مكتب أمن الميناء ليسمحوا لنا بتجاوز البوابة والختم على ورقة التصريح. عدنا والغرابة من هذا التصرف تأكلنا من الداخل. المسافة التي مشيناها أكثر من مئة متر وصلنا ولم نحصل على الختم إلّا

Telegram: Somrlibrary

بعد تسليم جوازاتنا البحرية إليهم. سألهم الربان عن السبب؟ فأجابه رجل يبدو أنه رئيسهم وأشدهم رفضا لتواجدنا من غير أوراقنا الثبوتية:

ـ فقط نفذوا إن كنتم راغبين في الذهاب إلى المدينة.

ثمّ شبك يديه حول بطنه الطويلة وزاد:

ـ ولا تنسوا العودة قبل منتصف الليل ومن يخالف يمنع من دخول الإمارات أبداً.

ابتسم الربان وقال:

ـ نعم.

ثمّ دارَ بسرعة خاطفة جرني من يدي إلى مقاعد الانتظار. لساعة أو أكثر أتممنا الاجراءات وبعدها كنا خارج الميناء. وقفنا عند موقف كان مخصصاً لركوب العامة. الموقف مكيف وفيه مقاعد نظيفة ومريحة وأمامنا كانت شاشة عرض إلكترونية فيها مواعيد وصول الباصات وخطوط الانطلاق ومحطات الوصول. الباص الذي ننتظره سيصل بعد عشر دقائق. لا يسمح بالتدخين داخل غرفة الانتظار. خرجتُ وأشعلت سيجارتي. عبر شارعين كانت لافتة كبيرة كتب عليها «المكتبة العامة». عدتُ وبي حسرة مما أرى لاحظها الربان، لكنه كتم عني تساؤله في ابتسامة عريضة بانتْ من ملامحه السمراء قال:

ـ ماهي خطتك.

ـ عن ماذا؟

ـ عن النوتي. المكتبة.

ـ ندخل الاسواق ونسأل حتى نصل مكان الكتب.

ـ ومعي مبلغ يكفي.

ـ اتفقنا.

لم نكن نتصور سنقع في مأزق آخر. صعدنا الباص كما جميع الجنسيات التي صعدت في هدوء وترو وفي يد الربان بعض الدراهم، ولكن تفاجأنا بالركاب جميعهم لم يقدموا المال للسائق؛ كانت في أيديهم بطاقات إلكترونية يمررونها على جهاز معلق عند الباب ويجلسون. جلسنا والخجل يأكلنا. إذ لم نكن نريد أن يقال عنا مخالفين للقانون. وقد انعكس من نظرات الركاب: هنوداً وأفارقة وأسيويين. أننا غرباء وغير متحضرين. وصلنا بمشقة الأنفس لمنطقة توقف الباص ـ محطة السبخة ـ وهناك اشترينا بطاقات الشحن وقد عرفنا من البائع أنه لو أمسكنا المفتش ونحن لا نملك البطاقة داخل الباص لوقعنا في مشكلة الحبس أو الغرامة المالية والتي لا تقل عن ثلاث مائة درهم إماراتي. تجولنا كثيراً في دبي تحديداً في منطقة الصبخة. أغلب الشوارع نظيفة فيها البنايات عالية وملونة. المحال كل المحال تفيض بما فيها من بضائع مختلفة الأنواع والأحجام والمنشأ. المطاعم في كل شارع و»الكافتريات« لا تبتعد إحداهن عن الأخرى ومحطات الاستراحة كثيرة، لكن كل شيء له ثمنه. لم أشاهد إماراتياً يمرُّ من أمامنا أو ألمح زياً عربياً بين الحشود من الجنسيات المختلفة. عرجنا على محال تبيع الأدوات الكهربائية، ونحن نعبر إلى الضفة الأخرى صادفتنا في أحد الأزقة الضيقة نساء سود البشرة شبه عاريات يقفن متغنجات أمام بوابة فندق يرددن على كل مار غريب: «مساج». من باب الطرفة همستُ للربان: «ليتهن يعرفن كم هي حاجتنا إليهن». ولكنه أخذ الأمر مني على محمل جد مفرط، وصاح بي: «لا أقبل هذا.. حتى لو مزحة». يقرب الخيال المشهد أمام عيني تأخرت خطوتين عنه، وبدأ عقلي يأخذني إلى لذة يمكن لها أن تحدث. كنت أرى جسدي ممدداً على أريكة مستقيمة وهذه الأيادي السوداء الغليظة تدلك ظهري وساقي ويديَّ بزيت الزيتون الساخن، وأنا أتأوه رغبة في جلب الراحة والشعور بمغادرة الألم من أسفل ظهري، لا أدري كيف أخذني التفكير إلى سمرائي الفرنسية، كنت أسير منتشياً خارج

حدود المساحات في الشارع سمعتُ: «ما بك؟». انتبهت فوجدتني أمام سيارة تطلق مزاميرها تحاول إبعادي عن طريقها!! والربان يمسك بيدي يحاول جري إلى حيث يمشي الناس بشكل صحيح على الرصيف المخصص لهم. كل شيء كان أمامنا موجوداً إلّا الكتب. لمَحتُ مكتبات كثيرة ولكن حصراً للقرطاسية والهدايا المكتبية، شعرنا بالتعب وكانت حاجتنا للراحة شديدة. دخلنا مطعم «كوجيان» تناولنا فيه وجبة خفيفة بدل وجبة العشاء التي فاتتنا على متن الباخرة. عدنا إلى التجوال مرة أخرى. في التاسعة والنصف ليلاً أو أكثر بقليل انتقلنا إلى شارع كانت نهايته قريبة عبرنا زقاقا ضيقا إلى ممر أضيق وسرنا فيه بعض خطوات انتهينا قرب مطعم واجهته من الزجاج مكتوب على لافتته الضوئية الكبيرة المطعم الأخضر. إلى جواره زقاق أوسع منه بقليل ليس له عنوان ولا باب، يقابله شارع عريض على ضفتي الشارع ترى حقائق واضحة عن مراوغة نساء زنجيات شبه عاريات؛ ذاهبات عائدات يحدقن في وجوه المارة. تجدهن برفقة رجل أسود وأخريات بصحبة آخر أصفر وأغلب الظن من جنسيات غير عربية. سمعتُ كلاماً عن حاجتهن الماسة إلى المال وتغيير المكان. والى منظر آخر رأيت فتيات ناعمات رشيقات شقراوات بعيون ملونة يتحركن ببطء برفقة أزواجهن وأصحابهن وأولادهن وصديقاتهن وأصدقائهن يدخلن المحال ويخرجن وفي أيدهن حاجيات خاصة. سمعتُ صوتاً يخرج من زقاق نهايته فندق «مونته رويال» صوت يشبه الضحك وحركة مريبة وفجأة خرج رجال طوال القامة سحنتهم سوداء برفقة نساء حمراوات. عرفتُ في الجهة المقابلة من الزقاق نفسه تقف نساء يملن إلى البدانة شعرهن كان لماعاً أصفر شعرت وكأنهن دميات في معرض تجاري. سادت لحظة صمت وتعجب عرفتُ بعدها أنهن روسيات لا يختلفن في السلوك عن الزنجيات الواقفات أمام الفنادق شبه المظلمة. لم نزل نفكر كيف لنا العودة إلى شارعنا الأول حتى نصل الى محطة الباص؟ كدنا نغرق وسط مجموعة

Telegram: Somrlibrary

عاهرات يتحايلن بطريقة متناغمة مع حركات يعلو فيها الجسد ويهبط على أطرافنا يرددن كلاماً فيه إيحاءات بقبول ممارسة الجنس بمبلغ زهيد. كاد الربان أن يسقط على وجهه من كثرة اختلاط خطواتهن بخطواته. كاد أن يكون ضحية تعجب مبالغ فيها، ومن فرط السخرية رأيتهن يساعدنه على الوقوف بطريقة مريبة مشحونة بالإباحية.. سمعتُ من أحداهن ما أروعه! كان رجلاً طويل القامة عريض الكتفين شعره المجعد أبيض. وقفت وكأنني عبرت الشارع من أجل نظرة أطول بحثت لنا عن مخرج. الطريق طويل والعمارات تحجب الرؤية عن بعد والأفكار تشتبك في تأن مشوب بالحذر. لا مجال لاستعادة ذاكرة تسترجع خارطة الطريق.. ضاعت الرؤية.. كتمت عليها جحافل النساء الزنجيات أخريات من مختلف الجنسيات في معرض دبي النسوي...ضاق الأفق علينا وشح الضياء واختفى الحل. «من هنا». كنت متأكدا أنه حاد الذكاء. وجد الربان طريق الخلاص. كنت أمشي خلفه راكضاً في حرص، أتبع خطواته ملتفتاً حتى دخلنا شارعاً تباع فيه التحف والعطور. لم نفكر كيف؟ ومتى؟ فقط نسينا ما مر بنا، استأجرنا سيارة أجرة وفي دقائق معدودات وصلنا واجهة الميناء وبعد تجاوزنا التفتيش من البوابة. يقف على بابها حارسين ـ من جنسيات مختلفة ويتغيران كل ساعتين ـ انطلقنا سيراً على الأقدام إلى مكتب أمن الميناء. «لا أعتقد أن ما رأيناه هو حقيقة مدينة الأحلام؟». سألني الربان. أجبته: «يبدو هناك من يفرض عليهم هذا الانحلال». ولاستعادة جوازاتنا البحرية علينا تسليم تصاريح خروجنا إلى مكتب أمن الميناء. وقفنا ننتظر ريثما ينتهوا من تجهيز أوراق بحّارة جدد وصلت باخرتهم للتو. انتظرنا كثيراً. الساعة تجاوزتْ الحادي عشر ليلاً، كان الوقت الذي وصلنا فيه تراتشي متأخرا. صعد الربان إلى غرفته. وبقيتُ مع باسم الذي كان ممنوعاً حتى من لمس الأرض بسبب تشابه الأسماء، منعته سلطة الميناء حسب ما يقوله وكيل الباخرة. رغم حزنه الواضح كلمني عن المدة التي سنبقى فيها، لكونه البحّار المتمرس

Telegram: Somrlibrary

رأى أن وقوفنا سيطول أكثر من عشرة أيام. وأكد ذلك رئيس الضباط. «ولكن الحمولة وصلتْ وها هي هنا على الرصيف، بدأ عمال الميناء في التحميل؟». سألتهم وأنا على يقين أننا لن نتأخر أكثر من خمسة أيام......؟ فأجاب باسم: «سترى كيف سيحاولون تأخير تراتشي؟».

5

صباح الميناء يختلف عن صباح البحر، الاختلاف يكمن في الشعور الذي يملأ نفس المرء بالأمان، يدفعك إلى هذا الإحساس مكان مستقر حولك توجد الأشجار والناس. بعد وجبة الإفطار الخفيفة. شربتُ القهوة، كنت واقفاً أنظر دوامة العمل الشديدة: مكائن للتحميل أكثر من رائعة. عمال ـ من جنسيات مختلفة ـ تلبس ملابس السلامة المهنية. كان الميناء خلية نحل تدور في نظام صارم. كل بعمله منشغلٌ، تحيط به معدات السلامة. بدأ تحميل تراتشي بمادة السكر وبعض معدات تخص تجار القطاع الخاص..

ـ سنعود إلى الديار..

قال علاء البحّار في ود، لم تكن لديه مطامع أكثر من العودة إلى أحضان زوجته وبناته الخمس، لم يفكر إلّا بعائلته، حتى الورقة التي كانت في يده كان أكثر ما سجل فيها هدايا نسائية. لم أستطع فهم اختلاف رغباته؛ هو نفسه معي في واحدة من سفراتنا الكثيرة. كانت طويلة وكان فيها شبه مراهق يتنقل ليلاً من حانة إلى أخرى ومن متعة الى أخرى. لا يهدأ. والآن اختلف كثيراً.. هو يتوسم الكياسة والتفكير الصحيح، أخذته جانبا وسألته:

ـ ما سر اختلاف رغباتك؟

ـ العمر وبناتي المتزوجات.

Telegram: Somrlibrary

ثمَّ مشى وهو يردد: «كبرنا» كان على وجهه بعض نفور يبعد الغبار عن بدلة عمله الزرقاء، وصل إلى مكانه خلف الطاولة قرب سُلّم تراتشي باعتباره المسؤول الأول عن حدوث أضرار على بدن الباخرة من عمال الميناء، أشعل سيجارته وانتهى سارحاً.

سمعتُ أبي النون يغني ومراداً يصفق له. هناك أصوات تردد غناءهم. الصالة تضج بالأصوات! أخذتُ كلمات علاء، ونزلتُ إلى قسم الماكينة حتى الظهيرة عرفتُ أن رعداً الزيات قد تغيب ليلية أمس عن الخفارة.. متشنجاً طلبته ولم يحضر. صعدتُ الى غرفته وطرقت الباب وأعصابي تحترق انتظرت الدخول، ولكنه لم يفتح.. سألتُ من كان معه فعرفتُ أنه كان برفقة الطباخ والمهندس الثالث؟.. بعد وقتٍ من القهر والشد فهمتُ سبب غيابه عن العمل ليلاً. كان برفقة امرأة زنجية وعاد ثملاً.. كنت بحاجة الى محادثته. لا تعني لي حياته الخاصة شيئاً بقدر ما يعنيني التزامه بأوقات العمل. قررت توجيه عقوبة له أقصاها اقتطاع مدة ثلاثة أيام من راتبه. وقد اطلع رئيس المهندسين على الأمر وترك القرار لي. عند الظهيرة دخلتُ غرفتي متعباً وقبل أن ألقي بجسدي على الفراش رنّ هاتف الغرفة:

ـ من الأفضل الذهاب لشراء الكتب.

كان الربان يُعيدني إلى ما خططنا له، فأجبتُه:

ـ حدد الوقت.

ـ بعد ساعتين.

سمعت طرقاً على الباب مرتين... فتحتُ فرأيت عاصما شاحب الوجه يئن من بطنه يحملهُ من تحت ذراعيه حميد وفاضل:

ـ أُغمي عليه فجأة.

Telegram: Somrlibrary

ـ ما به؟؟

ـ لا ندري

شككتُ في حدوث حالة تسمم. اتصلت بصفاء الضابط الثاني ـ طبيب متمرس ـ وبعد دقائق تبين أن لا شيء من ذلك سوى إسهال بسيط وبعض انقباضات معوية. أخذ العلاج وتمت إعادته إلى غرفته ليرتاح. ذلك اليوم لم يتسن لي التجول في المدينة. لقد اعتذرت للربان وعوضتُ غياب رعد وعاصم عن العمل، ورافقني في تلك الساعات ـ سعد ـ منظف الماكينة.

في الدقائق الأخيرة من بزوغ الفجر. سمعتُ صوتا يمر من الممر المجاور لشباك غرفتي. عرفت أنه الزيات رعد يتوجع من ألم أصاب بدنه ولما سمحتُ له بالدخول عرفت أنه يعاني من إسهال حاد وارتفاع في درجة الحرارة ويشعر بألم مصدرهُ مسالكه البولية. يقول أن وجعاً حاداً يشمل حتى كليتيه.. بدا عليه الوهن: وجهه الشاحب يميل إلى الاصفرار. تفكيره المشغول في أمور أخرى يرسم على وجهه الذهول.. أفكاره مؤلمة وخطرة جداً. لقد استغرق هذا بعض الوقت لمعرفة أن رعدا قد يكون مصاباً بأمراض جنسية، وقد تكون خطرة جداً على حياته وأفراد الطاقم. خمسة أيام أخرى ولم يكن قادراً على تناول الطعام بشكل تام والاسهال لم يفارقه ودرجات حرارته ترتفع وتهبط.. ظهرتْ على جلده بعض بثور حمراء، ولكن بعد أسبوع أو أقل بقليل اختفى كل شيء وعاد الى طبيعته ولكن ليس بنشاطه المعهود. سألتُ الضابط الثاني عن حالته قال ما زلت أشك فيه عدوى جنسية وقد يكون فيروساً مميتاً، يمكن أن يكون خطراً على جميع أفراد الطاقم. تفكيره السوداوي لا يفارقه أبداً.. رغم تأكيدي على هذه الفكرة، إلاّ أنني أُقابل رعدا بابتسامة عريضة، ولا سيما بعد عودته إلى عمله بنشاط لافت رغم شعوره بالوهن أحياناً، أجده مخلصاً في ما

يكلف به من عمل متعرقاً، وإن لم تفارقه الشكوى. «الحكمة سكينة تشفي من غيرها». فكرتُ فيما سمعته يوماً ولا أتذكر أين سمعتُه: «ما أن يفكر المرء في المرأة حتى يصاب بفقدان حاستي الحرص والحذر». ولكنها أتت في وقت كنت أحتاجها فعلا. ذهبنا ـ أنا ومهندس الكهرباء وليد ورقيب السطحة وحميد البحّار ـ إلى المدينة...

تصوّر نظرة أولى إلى العمارات العالية والشوارع النظيفة والأشجار المتشابكة عند الجزرات الوسطية. تصوّر واجهات المحال المضيئة والمطاعم النظيفة. والأكلات الشهية. تصور الأمن والامان وكيف تندس السعادة إلى النفوس من التحديق في الوجوه المبتسمة. تصوّر الساحات الكبيرة التي تضج بالطيور والأطفال. تصوّر الشوارع العريضة والمنظمة بشكل يتيح لك احترام قوانين السير والنظام. لم تكن إمارة دبي إلّا تحفة من تحف العصر الحديث صُفتْ على غرار الأحجار الثمينة. خُطط لها في عناية فائقة. تملكتني ضحكة هائلة فجأة. مسحتُ وجهي واعرضتُ عن العودة إلى تلك الشوارع الخلفية. اختلطت مشاعر غريبة تحرك نفسي في إلحاح حتى أخذتُ الشكوك تزدحم مع بعضها البعض. صرت أفهم ما يمليه عليّ عقلي. أظنني تنبهتُ إلى الأمر أخيراً... ومثل ما تكون الفضيلة هناك الرذيلة وهذا أمر واضح لا يبعدني عن الحقيقة على أنها مدينة متطورة.

مازلنا ـ أنا ومهندس الكهرباء ورقيب السطحة والبحّار حميد ـ في منطقة الناصر نبحث عن مطعم يرضي غرورنا وحاجتنا إلى أكلات بحرية.. رغم نظرات المارة إلينا من الحديث فيما بيننا بصوت عال في الشارع كنت لا أستطيع إخفاء تحرجي وانفعالي من مشيتهم السريعة وصياح بعضهم على بعض ورفضي المتكرر لكذا ممارسات، صرت محطة مزاحهم المتكرر. أحياناً أشعر أن العالم أصغر من رغباتي وأضيق من حاجاتي ومادام هذا الشعور لا يفارقني بالتأكيد عليّ دفع الثمن لتحقيقه فقلت:

Telegram: Somrlibrary

ـ أستأذن لي حاجة خاصة.

سألوني:

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري

ـ متى تعود؟

ـ لا أدري

أجبتُ وفي قرارة نفسي أريد الخلاص من الإحراجات، أريد المشي وحدي. تبعتُ علامات الشوارع من منطقة إلى أخرى أشعر وكأني كيان دخيل في بيتٍ غريب. وجوه ولغات غريبة على الحواس قريبة من جنوب أسيا. ملابس الرجال والنساء تميل إلى الألوان البراقة شعرت بحضور أذواق القارة الهندية. هذه البلاد لم تنتبه بعد إلى ما يجري من تناسل الثقافات بكل تداعياتها داخل أراضيها. ولكني حولت التفكير البعيد إلى التأكيد على أن شيئا سيحدث يوماً ما لن يتوقعه أحد. ربّما قريباً تنفر منها العقول ويتعاضد الغرباء عليها وتكون مدينة غريبة، رغم تواجدها الباهر وسط الخليج العربي. أخيراً وصلتُ منطقة السبخة وبأسلوب السائح الغريب دونت ذاكرتي في مخطط المدينة، جلستُ في مقهى على الرصيف يطلُّ على مركز وقوف الباصات. أسمع لغات غريبة من وجوه ملونة. طلبتُ الشاي.. لم أتذوق فيه النكهة التي أحب. طلبت القهوة.. كذلك لم تكن قهوتنا المُرة. وبعد ربع ساعة أو أقل غادرتُ المقهى وعبرتُ الشارع وصولاً إلى منطقة الأحمدية وبواسطة نفق المشاة وصلت إلى ساحل خور دبي مروراً بسوق السمك بعدها عدتُ إلى منطقة رأس الخور، وهو منعطف يجمع الناس لعبور نهر الخور بواسطة زوارق من خشب بسيطة. كانت رائعة. رائعة التنظيم والألوان والخدمات. سهلة الركوب والنزول وبسعر زهيد جداً ركبتُ التاكسي النهري ـ زورق خشبي بمحرك يعمل بالوقود ـ

Telegram: Somrlibrary

إلى منطقة الديرة وجدتُ فيها الراحة أكثر.. منطقة غير مزدحمة، شوارعها عريضة تكثر فيها الأشجار، هواؤها يملأ الصدر، لا تكثر فيها العمارات العالية. دخلتُ محالاً متنوعة. رأيت أماكن هادئة أكثر روعة من أماكن منطقة السبخة دخلتُ مطعما للأكلات البحرية، تناولت فيه وجبتي براحة وشهية عاليتين جداً. شعرت وفي يدي كوب القهوة أن مكان جلوسي أمام المارة كان مطلوباً، وقد كررت زياراتي له وحدي، إلّا مرة واحدة كان فيها الربان معي يشتري الهدايا لأصحابه وعائلته.. قال لي حينها:

ـ ليتنا نجد مكتبة للكتب...هل لنا أن نسأل أحد المارة؟

لا أدري كان سؤاله صحيحاً، ولكني لا أملك جواباً فقلت:

ـ ربّما في الشارقة.

بعد منتصف الليل دخلتُ غرفتي. حاولت الهدوء في جلوسي على المقعد خلفه طاولة. انتظر حسم القرار في عقوبة رعد. يبدو غفوتُ قليلاً.. رأيت امرأة تحزم حقائبها تودع أبناءها وقبل أن تخرج من الباب نظرتْ إلى زوجها الجالس في الصالة وبيده الجريدة وقالتْ: لم تكن تنفعك القراءة في فهم النساء يوماً». أفقتُ على صوت طرق الباب يتكرر. فتحتُ فرأيت أبا النون ومرادا يرددان كلاماً لم أستطع ترجمته؛ كانا يضحكان بقوة تتشابك مخارج كلماتهم معاً. لم أفهم غير: «تعال معنا». مسحتُ على وجهي وتبعتهم حتى وقفنا على غرفة الطعام الكبيرة؟ رأيت أغلب أفراد الطاقم مجتمعين.

قال الطباخ:

ـ وصلوا

في تلك اللحظة وقف نجم ـ الضابط المتدرب ـ وقال:

ـ أهلاً

فجأة صار وراء ظهري الضابط الثالث ليث وكان يصفق. وعندما تحركتُ خطوتين جلستُ على مقعدٍ كان مخصصاً لي فسمعتُ:

ـ ألا تريد مشاركتنا هذه الحلوى؟

عرفتُ هو رئيس المهندسين. يبدو سعيداً. إنني أفضل الفرح الجماعي، ولكني أشعر بالنعاس ولا حاجة لي بالطعام المشبع بالدهون والسُكر. بقيت صامتاً دقيقة أو أكثر وحاولتُ الإجابة، ولكن وجوه البحّارة ـ من السطحة ومن قسم الماكينة ـ والربان ورئيس الضباط ورئيس المهندسين كانت تمنعني من قول ما أريد فقلت:

ـ كيف لا أريد وأنتم الحلوى نفسها.

ضحك الجميع.. وبدأنا الأكل، بعدها قال لي الربان:

ـ غداً نسافر إلى الشارقة؟

ـ تشتري الكتب؟

ـ نعم، وحاجات أخرى.

ـ ومن معك؟

ـ أنتَ طبعاً.

ـ ولكني ملتزم بعمل.

ـ أعطني ما سجلته من الكتب وصفاء سيكون معي.

ـ صفاء!... كيف وهو ممنوع...؟

ـ رفعوا عنه المنع، وقد أعطوه تصريحا بالتجوال ولا نعرف السبب...

ـ وباسم؟

ـ لا.

ـ إذن إلى الشارقة؟

ـ نعم.

Telegram: Somrlibrary

لا أدري لماذا فكرت في القول: «أريدها طبعات فاخرة» ولكني خجلتُ لأن المال قد جُمع من الطاقم عدا عاصم فقلتُ بعد ما أعطيته ورقة سجلتُ فيها أغلب العناوين:

ـ أتمناها كتباً حديثة.

لمحتُ في عيون الموجودين سعادة عريضة. فراس الواقف عند عتبة الباب يلف على بطنه قطعة قماش زرقاء يهزُّ كتفيه ضاحكاً من مزاح مساعده مع أبي النون. رأيت وليداً ـ مهندس الكهرباء ـ ورقيب السطحة يتهامسان وعلى ملامحهم ابتسامة واضحة. رئيس المهندسين يضع يده على كتف المهندس الثالث منشغلان في حديث خفيض حولهما المهندس الثاني والرابع. كامل الزيات المتدرب جامداً بعيون متسعة يراقب تحركاتي وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. منظف الماكنة منحنياً على هيئة مُصلح الساعات إلى صحن الحلوى يأكل بنهم شديد تساءلت:

ـ أين عاصم ورعد؟

ـ رعد في خفارته وعاصم مازال في غرفته متوعكاً.

أجابني كامل بطريقة شعرت فيها أنه على استعداد تام لقبول كل ما كنتُ أفكر به. بالفعل بعد دقائق من النقاشات الخاصة وصلتُ ومن معي من طاقم الماكينة إلى خطة جديدة نصل فيها إلى ميناء الأم بطريقة سهلة داخل نظام العمل في قسم الماكينة. حصلتُ على الموافقة من رئيس المهندسين على عدم عودة عاصم إلى العمل مرة أخرى.

ـ سأكتب تقريراً يُليق بكَ.

قالها الربان بصوت واضح وهو يشير سبابة يده إلى وجهي.

ـ وأكتب تقييماً يليق به.

قالها رئيس المهندسين ضاحكاً، ولما حاولتُ تقديم تعبير عن امتناني لهما. سمعتُ تصفيقاً يصاحبه هتافاً مموسقاً:

Telegram: Somrlibrary

ـ النوتي.. النوتي..

«الحلو اللذيذ. قطف الثمار». فكرتُ وأنا أتوجه إلى غرفتي هادئاً.

خارج صالة الطعام الكبير كانت السعادة على وجهي والابتسامة تبعثر خطواتي. تكاد الضحكة تقفز مني قفزاً إلى البحر، كبيرة جداً لا يسعها المدى كله الذي أمامي. دخلتُ غرفتي كاتماً أفراحي. أفكر في لقاء مرتقب. أحيانا لا يسعفنا النطق عن التعبير». موسيقى في الذهن. وفي البال خيال يمطرني شوقاً بغزارة. إلى من؟ يبدو أنني العاشقٌ الوحيد الذي لا يخاف من دفع الثمن. مشاعر وأحاسيس جَمّة تشغلها كلمات كثيرة وافرة. لينة ممشوقة تمرُّ في ألوان مختلفة لكنها قريبة من القلب والنظر، أساليب اللغة الأرضية لا تكفي للتعبير عن لحظة واحدة. لحظة واحدة نقف فيها وقفة وقار بجانب من نحب!

وجدتُ أحلامي تأخذني إلى صبي يستحق أن يغامر. هو نفسه شاءت الصدفة أن يضعه القدر موضع مراعاة الأبوين واهتماماتهم. لم يعد يبدو ما يراه الآن غريباً، ولا الذي يتناهى إلى مسامعه بالجديد. رغم ذلك تعلم كيف يستعمل اللفظ الصحيح في التعبير عن الاحترام. أرجع إلى حياتي. لحظات أجني ثمارها. أن تشاهد الفرح في عيون الرجال، حباً عميقاً يصبغ الوجوه شموعاً تتقد من العيون. تسافر أحزانك بعيداً وتنسى الأمس وتمسك باللحظة كي تتنفس.

بعد يومين من جلستنا في الصالة الكبيرة غادرنا الميناء فجراً. عاصم مازال في غرفته يدعي المرض. لسنا بحاجة إليه. وإن تعافى ـ وهذا محال ـ لن نعيده إلى العمل. أخذت قراري وسأتحمل العواقب. لست أنا من يقبل متمارضاً بين بحّارة لا يختلفون في المشاركة تعلموا مني العمل الجماعي وطاعة الأوامر. هنا حقيقية الرجال فوق أكتاف البحر وعند الموانئ عليهم الصبر.

Telegram: Somrlibrary

عند أول بزوغ للشمس تحرك القلق وحُجبتْ عنا الراحة والاستقرار والتمكن من النوم عاد صعباً؛ ضربتنا عاصفة رملية غطت الأجواء وأبعدت النفس. أسمع عطاساً متكررا وسعالاً حادا. سُدتْ فتحتات التهوية. البحر هائج والموج المصطحب بقوة يضرب تراتشي من جوانبها الأربعة. لم أفكر في الراحة مطلقاً. أضغط على جسدي المتعب أحاول تعويض النقص في طاقم الماكينة. فارقني النوم. منذ ليلة أمس أشعر بالقلق من بعثرة الكتب والمجلات. عرضتُ على مراد وأبي النون مساعدتي في ترتيب الكتب. وقتاً كان فيه العمل على أشدّه. شعرتُ بالتعب. حاولتُ تسكين الألم. مسحتُ على أسفل ظهري. مشيت خطوات. وقفتُ أمام النافذة المطلة على البحر. اِتكأت على أحلامي. حائراً أرى الشمس بدأتْ تشق حجاب الغبار بقوة والبحر يهدأ قليلا. انطلقتْ: «آه». ساخنة طويلة تمتد مع المدّ من الفتحة التي أمامي إلى البحر، في رشاقة عالية طار جسدي إلى الفضاء. فرحاً يحدوني الأمل في رؤية الأرض، وقتاً عدتُ فيه إلى رأسي محمولاً بالأمل. تراتشي تبحر في سرعة معتدلة تثقلها حمولة كبيرة. المحركات بأحسن حال رغم بعض الصعوبات التي تقريبا سيطرنا عليها. يتناسل التفكير. «ماذا أفعل؟». مسرح الحياة كبير. «وما ينتظرك؟». نساء؟، مطر؟، مال؟، مشاهد جميلة ولقاءات أجمل؟. «أهذا ما أريد؟». لا؛ لم يكن منها ما يجذبني أكثر من لحظة تُومض في طريق المستقبل الجديد. «عن ماذا تتكلم؟». لحظة الحدث الأهم. «تقصد زوال الألم من أسفل ظهرك؟». لا. هي لحظة لا تخلو من التسلية والفخر؟ «ماهي؟». أفكر في رؤية البحّارة يقفون صفوفاً منظمة أمام باب النوتي ينتظرون كتابهم المفضل.

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

الفهرس

الآخر أنا 5

الحياة وغيرها: الليل.. النهار 13

الفصل الأول: ذاكرة بيضاء هشّة 19

الحياة وغيرها: الخيال لعبتنا الثائرة 47

الفصل الثاني: الراقص المذبوح.. عصافير الذاكرة 51

الحياة وغيرها: إغلاق النوافذ.. إخماد الضوء 85

الفصل الثالث: ابتسامة الغربة.. سالو 91

الحياة وغيرها: برج التميز.. جهة الإنصات 127

الفصل الرابع: الآخرون.. تَعدّد الأمزجة 133

الحياة وغيرها: شواطئ دافئة.. نساء باردة 187

الفصل الخامس: مسارح الخوف والإثارة 197

الحياة وغيرها: الثوب والعطر.. مخاطر الرغبة 241

الفصل السادس: بين رصيفين.. رغبات جَمّة 247

الحياة وغيرها: مزيداً من التفكير.. مزيداً من الاحتمالات 279

الفصل السابع: الأرض الممنوعة.. زمن المتغيرات 285

الحياة وغيرها: الأثر الأبيض 319

Telegram: Somrlibrary

الفصل الثامن: مراسي اللحظة الأخيرة...... 325

الحياة وغيرها: آخر الليل.. أول الفراق...... 365

الفصل التاسع: بين ميناءين.. أرض ومعالم...... 373

Telegram: Somrlibrary

حسن البحار

المهنة: بحّار

قاص وروائي

صدرت له:

- الدردبيس. مجموعة قصصية.
- مرام. رواية.
- بحر أزرق.. قمر أبيض. رحلة. حصدت جائزة أدب الرحلات 2013.
- الريح تُترك فوق الطاولة. مجموعة قصصية.

HASSAN AL- BAHHAR

النوتي

في خليج مالح يبدأ من أقصى جنوب بلاده ولا ينتهي بالمحيط الهندي ولا البحر العربي، ظهر منشغلاً في الآخر الذي فيه. ولسنين طويلة تعلم التعايش مع الألم في أسفل ظهره ومنذ جاء إلى الدنيا بكى كما يبكي حديث الولادة. وفي السادسة من عمره ولسبب لا يذكرهُ سمع صوتاً يُحدثه عن مكاسب العيش شريطة أن يكون الإنسان وحيداً.

تصوّر نفسه غريباً ومنعزلاً عن الآخرين. مضت سنون وسنون وهو لا يعرف للتقدم سبيلا. تارة يظن أنه الأفضل وتارة أخرى لا يرى أنه قد تجاوز البداية. كان واقفاً عند الجانب الأيمن من الباخرة ينظر إلى البحر متأملاً وهو يفكر في نفسه: «كيف يتحمل الإنسان هذا العقل وذاك الجهل؟».

ومثل التصرف في الحياة الخاصة كان يعيد قراءة الإرشادات والقوانين والأعراف البحرية الدولية ويسجل ملاحظاته عن العمل والخرائط التي يمُرُّ بها. حتى معاشرته العميقة لنفوس البحارة كتبها بأدق تفاصيلها.

«هل يجد المتعة في تدوين ورسم خطوط تفاصيل إبحاره؟».

أحياناً تجده بعيداً عن الناس وانشغالات الواقع وأحياناً تراه متعباً يترنح من جدار إلى جدار تعتصره الظنون ولا منفذ له من الحياة إلّا الحياة نفسها. دون هوادة مثقلاً بالأمل أفكاره جنون. ركب البحر ـ وهو يعلم في الكتابة حياته وفي القراءة حياة أخرى ـ عمل بجد ونشاط عاليين ولم ينتبه للوقت. له غاية يتخيلها ستحدث قريباً وهو يشدُّ على نفسه رباط الالتزام والانتباه لكل إشارة قد تظهر من هنا أو هناك. مميز نال استحسان الطاقم ورضا الكابتن ورئيس المهندسين، إلّا أنه واجه بعض الصعوبات عند المرافئ في الالتزام بالوقت والانضباط وطاعة الأوامر وهذه وحدها عقدة تضاف إلى نوباته المتكررة وهي بالنسبة له لا حل لها، ليس له القدرة على النسيان ولم يعد بحاجة إلى الجري وراء الهواء كما كان في مدينته المختلفة عن المدن المطلة على البحر.

ISBN 978-1-7732216-7-0

9 781773 221670